

أورهان كمال

الكنّة

ترجمة : عبدالقادر عبداللي

الكنّة

روايــة

Author: Orhan Kemal
Title: EL KIZI
Translator: Abd Al kader Abdelli
Al- Mada P.C.
First Edition : 2008

اسم المؤلف : أورهان كمال
عنوان الكتاب : الكنة
المترجم : عبد القادر عبد اللي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٨

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

أورهان كمال

الكنّة

رواية

ترجمة:
عبد القادر عبد اللي

١

احترقت كهرباء المدينة من أولها إلى آخرها.

كان ثمة عاصفة مرعبة تزلزل الأرض، ، برقٌ ورعد مع غيوم سود كثيفة، وتشابكَ بخطوط الهاتف. لاذ الأطفال بأمهاتهم بعيون محملقة رعباً، وعاشوا ما سمعوه من الكبار كله عن القيامة: القيامة!

– هكذا ستقوم القيامة على ما يبدو!

الرياح العاتية تضرب النوافذ، باردة وحادّة. هدير البحر ينبعث من العمق. المياه الداكنة التي تزن ملايين، أو مليارات الأطنان مسعورة. حتى السفن الراسية في الميناء باتت هلعة.

فُتح باب خمارة الميناء في وقت ما، واندفع إلى الخارج ضوءٌ أصفرٌ يمور بدخان السجائر، ثم خرج ريّسُ صياد سمك ذو شاربين ضخمين. ثمة قلق وحزن على وجه الرجل الجاف جداً... خطا عدة خطوات بعد الباب، وتوقف. أدرك أنه لن يستطيع الذهاب أبعد. الريح ليست تلك التي يعرفها، لا مزاح. طارت قبعته عن رأسه بهبة أثناء عودته. رجع خلف قبعته المقذوفة، فدفعتهما الريح معاً كورقتي دلب جافتين. كانت حركة الرجل سريعة لحظة طيران القبعة نحو البحر. داس بقدمه عليها. انحنى، وأخذها. وضعها على رأسه، وعاد إلى الخمارة.

تغلغل البرد حتى نقي عظامه. عاد إلى الطاولة التي كان جالساً إزاءها قبل قليل مرتجفاً في جو الخمارة الدافىء، وجلس.

كانوا ثلاثة أشخاص على الطاولة. والثلاثة ريّسو صيادين. وثمة قلق وحزن على وجوهم. لا رغبة لديهم بالشرب ولا حتى بالحديث. السكين لا تفتح أفواههم. يفكرون بالزوارق والقوارب مروراً بالسمك والأجراء: ماذا لو كانت زوارقهم ومراكبهم قد غرقت؟

الريح المصطدمة بالنوافذ تصفر على أسلاك الهاتف كأنها كتلة جليد ترتطم بصخور الشاطئ الحادّة. ارتعب الرجال الثلاثة: ماذا لو كانت زوارقهم ومراكبهم قد غرقت؟

قال الداخل بعد أن خرج:

- بلغت الستين وما شهدت هذه الملعونة تسعر إلى هذا الحد.

أجابه البالغ مئة كيلو الجالس قبالته:

- وأنا أيضاً.

مسح الشبيه بالعزقة الضخمة وجهه بيديه السمينتين.

بلغ الرجل الثالثة والستين وهو نحيل لكنه مازال قوياً. بدأ كلامه قائلاً: "في أحد العهود، عهد السلطان عبد الحميد الثاني..."

دوي جديد على الصخور!

صحّح كلامه:

- ولكن هذه أسوأ من تلك...

- لابد أنها ما يسمونها أسوأ السيئ...

كانوا ينظرون إلى نوافذ الخمارة خائفين. أنيرت النوافذ لحظة، وأظلمت. بعد ذلك دوى رعد رهيب. اقترح الريس السمين:

- أنذهب إلى المخفر، أم ماذا نفعل؟
نظر الآخرون بعيون غير آملة كثيراً:
- ماذا يوجد في المخفر؟
- لعله يوجد خبر.
- أي خبر سيكون؟ لماذا يكون لدى المخفر خبر في هذا اليوم المشؤوم؟ قبضت الريح على العالم كله. إنها تجرف رجلاً. أي خبر سيكون عند المخفر؟

....

حقيقة لا خبر عنده. رئيس المخفر المسن الذي يحب هذا الطقس إلى حد الجنون، جعل سماوره يصدر بخاراً، ووضع علبة سجائره أمامه، وركز عينيه على جمر الموقد المتأجج بلون الرمان، متخيلاً ليلة من طفولته في سراز: في تلك الليلة كان ثمة عاصفة كهذه بالضبط في الخارج. الريح تصفر في النوافذ، وتضرب مصراع باب ترك مفتوحاً. أمه ذات الغطاء الأبيض على الرأس، وأخوه الأكبر كان قد استشهد في حرب البلقان، وأبوه ذو الشنب الكث... كان أبوه يعجن عجيناً بقبضتيه الضخمتين. تعرّق جبينه كحبات البرغل، لكنه لم يكترث. كان معتاداً. يكسب خبز أطفاله من هذا العمل، من صنع رقائق العجين. كان رجلاً حيوياً، ملتزماً دينياً، لا تفوته صلاة من الصلوات الخمس، ويدوخ إعجاباً بالاستماع لمآثر كبار رجال الدين. وحين يجد الفرصة يروي لأولاده هذه المآثر بشكل ممتع كي يُنشئهم نشأة دينية مثله.

في تلك الليلة أيضاً كان يعجن العجين، ويروي "طوفان نوح"... "وقد أمر الله عز وجل نوحاً عليه السلام..."

بدأ جرس الهاتف بالرنين: تبددت أحلام رئيس المخفر المسن. تناول السماعة من دون إرادة:

- ألووو...

أصغى رجال الشرطة. ماذا يوجد؟ هل وقع حادث؟ إذا كان قد وقع حادث فهذا يعني أنهم احترقوا، وبلحظة واحدة.

رئيس المخفر المسن الحنون وضع السماعة مكانها، ثم قال:

- وجد الصيادون جثة امرأة على صخور الساحل!

أغلق الهاتف، ثم فتحه. ظهر على وجوه الشرطة تعبير ضيق في أثناء تدويره الأرقام. أهذا وقتها؟ أهذا وقتها في هذه الليلة الليلاء؟

وجد رئيس المخفر الحنون مدير الأمن، وراح هذا الأخير يتحدث إلى وكيل النيابة:

- ألووو، هذا أنتم يا سيدي؟

....

وكيل النيابة في بيته، وفي غرفة نومه، وقد تمدد على أريكة مطاولة، يحاول قراءة الكتاب الذي بيده في ضوء الكهرباء الساقط بقوة من خلف كتفه، فاتحاً جفنيه بصعوبة. تناول السماعة، وقال:

- الآن. سنأتي، الطبيب وأنا!

أغلق الهاتف، وفتحه. وزوّل الأرقام:

- خلدون بك... هذا انتم؟

استمع تلقائياً لصوت وكيل النيابة القائل بأن جثة امرأة قد وجدت على صخور الشاطئ. كان قد جلس مع خطيبته ووالد خطيبته وأمها،

يتحدثون بشكل جميل عن القران والعرس. أهذا وقتها؟ ألم تجد هذه المرأة يوماً آخر تنتحر فيه؟

وضع السماعة. انتحار؟ كيف؟ لعلها طعنت بالسكين، وألقيت في البحر...

سأل حموّه المحامي المعروف في البلد:

- ماذا حدث؟

أجاب باختصار: وجد الصيادون جثة امرأة على صخور الساحل....

لاح على وجوه الذين كانوا هناك وعلى رأسهم خطيبته تعبير ضيق.

قال المحامي المسن: حسنٌ، هل ستذهب؟

- نعم، انتظروا. سأعود فوراً. لن يطول الأمر.

عبر إلى غرفة النوم بخطى حازمة. وسرعان ماتناول معطفه المبطن، وقبعته، وقفازيه، وارتداها. في أثناء وقوفه، رأى خطيبته في مرآة طاولة الزينة.

كانت الفتاة الشابة قلقة. عيناها خضراوان واسعتان، وشعرها أشقر ينسدل خصلاً على كتفيها... وقفت بالباب بمياسة غصن كرز.

- كيف ستذهب في هذا الجو السيئ يا خلدون؟

قال خلدون مختصراً: الواجب.

سار نحو الباب. وضع يد خطيبته الصغيرة بين يديه.

- لا تقلقي، سأعود بسرعة.

- ألا يمكن أن يؤجل هذا الواجب إلى الغد؟

- لا يمكن.

لفّت الفتاة الشابة عنق الشاب:

- خذني معك أيضاً.

في الخارج عاصفة قلبت كل شيء رأساً على عقب، تلاطمت أمواج بحر، والبرق لا يتوقف.

كانت الفتاة الشابة تنتظر الجواب. أدخل الطبيب خلدون يديه في قفازيه. رفع عينيه إلى خطيبته، لكنه لم يجبها.

- أتأخذني؟

- لا.

- لماذا؟

- غير ممكن... هيا، عن إذنك. سأعود بسرعة قدر الإمكان.

- قبلني!

لف الشاب خطيبته بذراعيه القويتين. تبادلا القبلات قبل أن ينفصلا.

- صار؟

قالت الفتاة الشابة:

- لا.

تعانقا من جديد. صار هذه المرة، فالفتاة لم تعترض.

دخلا إلى البهو متجاورين كأن شيئاً لم يكن.

سأل المحامي المسن:

- لن تتأخر، أليس كذلك يا ابني؟

- لن أتأخر يا سيدي.

- حسنٌ، نحن أيضاً ننتظر.

- عن إذنكم.

خرج.

....

كانت جثة المرأة العجوز تتماوج بين الصخور. وترتفع الأمواج بعلو مئذنة مع صفع الريح البارد للصخور الملساء.

قال رئيس المخفر الحنون:

- أهي حالة انتحار؟

- لعله كذلك.

- من يعلم بأمرها، ومن تكون؟

- من يعلم؟

- أنا لا أعرف هذا أو ذاك. قف مستقيماً، فيجدك بلاؤك بشكل معوج!

- اللهم لا تذل إنساناً...

- آمين.

أحد صيادي السمك الشبان الواقفين بجانب الجثة وجّه مصباح يد بزجاج سميك إلى وجه الجثة: كانت امرأة ممتلئة في نحو الخامسة والأربعين من عمرها، تحت عينيها مزرقان، ووجهها مليء بخدوش أظافر. لم يكن هندامها بائساً جداً، ولكنه ممزق من أمكنة كثيرة. يبدو أنها قبل أن تنتحر، أو تلقى في البحر قد تعرضت لصراع عنيف. يمكن الاعتقاد أنها بعد أن أمضت عمرها في عالم البؤس وفقدت جمالها، حلت بها هذه المصيبة في النهاية، في بيت دعارة مثلاً.

قال رئيس المخفر الحنون:

- الله يعفو عن أخطائها.

في تلك اللحظة صرخ صياد السمك الشاب الممسك بمصباح اليد:

- انظروا إلى الخاتم الذي بإصبعها!

ذهب رئيس المخفر الحنون والشرطة وكبير الصيادين ومن كان معهم إلى جانب الشاب. نظروا إلى الخاتم. كأن حجر الخاتم الماسي يتوهج في ضوء المصباح. الإصبع انتفخت مزرقة. والخاتم غاص بقوة في الإصبع المنتفخة.

- خاتم ثمين إلى هذا الحد...

- في إصبع امرأة سيئة كهذه...

- من الغريب أنها لم تبعه، وتأكل من ثمنه رغم كونها سيئة!

- من يعلم ذكرى أي شيء؟

- من يعلم؟

- انظروا إلى الخاتم. إنه ثمين برغم كل شيء!

- لعل هذا الأمر يخفي سراً كبيراً؟

- ممكن.

- ....؟

- ....!

كان يريق الخاتم أسطع نوراً من ضوء المصباح!

٢

كـان لمعان هذا الخـاتم قـبل سنوات طويلة يـخطف الأبصـار، وملفتـاً أنظار المارة أيضاً في واجهـة دكـان صـائغ صـغـير في مكان احـتله الآن مصرف كبير في المدينة ذاتها.

بعـد ظهـر أحـد الأيام جـاء إلى الدكـان رجل أنيـق.. وقف أمـام واجهته. كـان حيـوياً، عـريض الكتـفين، على رأسه قبعـة ظريفـة من فـراء ثعلب. فـتّل رأس شـاربيـه الكثين إلى الأعلى.كـان ينظر بإعـجاب إلى الخاتم وهو يقف أمام الواجهـة واضـعاً يديه خلف ظهره، وقد لفت نظره منذ زمن طويل. كـادت تتقطع أحشاؤه مخافة أن يباع، أو يضيع. راوده فكرةُ أن يشتريه بعد أن تتوفر لديه النقود.

في ذلك اليـوم توفـرت لديه النقـود التي كـان ينتظرها. وبقـرار مفاجئ، دخل إلى الدكان.

- اعطني هذا الخاتم الماسي لو سمحت!

كان الصائغ يعرف الشاب الوسيم.

- كما تأمرون يا سيد مظهر!

دهش الشاب:

- من أين تعرفونني؟

- ألستم محامي؟

- نعم.

- كان لدى أحد أصدقائي دعوى عندكم...

مسح البائع الخاتم الذي أخرجه من الواجهة بالفرشاة، ومده إلى المحامي.

قلّب مظهر الخاتم الظريف، وتفحّصه... من يعلم كم سيليق بإصبع زوجته النحيل!

سأل عن سعره. قال الصائغ مبتسماً: لن نساوم، أليس كذلك يا سيدي؟

ضحك مظهر أيضاً: إن شاء الله.

- ثقوا أنه ثمين إلى أقصى حد. قبل سنوات لا أعلمها، وعند ذهاب السلاطين، بقي بين يدي مرابٍ يهودي. وآل لأولاد المرابي عندما مات. وأولاده أيضاً...

- غير مهم، دع الآن قصة الخاتم...

- كلمة واحدة؟

- نعم.

طلب سعراً مرتفعاً. وقد توقع مظهر سعراً كهذا، ولكنه لم يستطع منع نفسه من طلب تخفيض صغير.

قال الصائغ:

- غير ممكن. دعوه إذا لم يناسبكم. إن لم يكن اليوم، فغداً ستأتي مدام من القنصلية الفرنسية، وتشتريه!

قبل مظهر: حسنٌ اشتريته.

وضع الصائغ الخاتم في علبته المخملية بامتنان، وقدمه له. دفع مظهر النقود التي قبضها قبل عدة ساعات من الرجل الذي أنجز عملاً له، وخرج من الدكان.

ستكون مفاجأة رائعة لزوجته. لنر ما إذا كانت لا تطير من الفرح! لو انفعلت، وعانقته، وقبلته كالمجنونة... هكذا يريد أن تكون زوجته. ولكن أين؟ دائماً، وفي كل مكان، وخلف كل شيء تريد أن تتوارى. إنها تحت تأثير حزن غريب، تلوي رقبتها، وحالها مسكينة. جرب لسنوات طويلة أن يجعلها تقول: "يا زوجي العزيز"، وانتظرها، حتى إنه ضغط عليها، ولكنه لم يستطع.

مع أنه يريد أن تكون زوجته مشرقة، وأن تعانقه حين يكون مكدراً، وتسأله عما يفكر به، وتقول له مثلاً:"لا تهتم يا زوجي العزيز. وهل وقع عليك حمل هم هذه الدنيا؟ تجاهلها!" وتحضر سلطة، وتفتح له زجاجة عرق.

ركب حنتوراً.

- إلى البيت!

كان حوذيو المدينة يعرفونه. انطلقت العربة نحو البيت. هذا اليوم يذهب إلى البيت مبكراً خلاف عادته. لم يكن لديه عمل في المكتب. أراد أن يفرّح المسكينة. لنر إن كانت ستفرح. كانت شابة وجميلة، وتعرف أن زوجها يحبها. كيف لا تعرف، وقبل خمس سنوات فقط، وحين كان طالباً في كلية الحقوق، رآها من نافذة البيت الخشبي في أطراف السليمانية الذي يقيم في إحدى غرفه المطلة على حديقة بيت الجيران، وعشقها من النظرة الأولى.

لا ينسى مظهر ذلك اليوم. كلما فكر بزوجته، يتذكرها في ذلك اليوم بشعرها الأشقر الطويل الذي يلامس كعبي قدميها وهي تكنس حديقة البيت. أي صعوبات تحملها بعد ذلك لكي يلفت نظرها! كيف هربت حين عرفت أن الشاب الغريب رآها من النافذة، وأنها مراقبة!

أشعل سيجارة.

خاصة تلك الليلة... في أثناء الامتحانات غالباً. كان يدرس مع أقرب أصدقائه نهاد اليانلي في المقهى المجاور لدكان التبغ في رأس زقاق أسيربازارِ في منطقة ديوانيولو. كانا متعبين جداً، والساعة تجاوزت الثانية عشرة حسب التوقيت الإفرنجي. كانا عائدين إلى غرف العزاب في السليمانية. خطرت بباله فجأة الفتاة الشابة التي يلامس شعرها الأشقر كعبي قدميها. نظر إلى صديقه، وتنهد. كان صديقه يعرف القصة. كان أحدهما يذهب إلى الموت من أجل الآخر. تفاهما بعينيهما من دون أن ينبسا بكلمة واحدة.

لن يكون الموت نهاية هذا!

نزلا إلى السليمانية عبر الأزقة الضيقة التي تنيرها مصابيح قليلة. ضوء القمر يسقط من الأعلى. الجو خفيف الظلمة. دخل مظهر إلى بيت الجارة التي يلامس شعرها الأشقر كعبيها حين كان القمر مختبئاً خلف غيمة بيضاء ناصعة. كانت الفتاة ترتق ثوباً في ضوء مصباح الكاز، وستنام عندما تنهي عملها، رفعت رأسها ذات لحظة، وحين رأت وجه جارها الوسيم بشاربه الشبيه بميم خط الثلث من النافذة، حبست نفسها بصعوبة كيلا تصرخ.

كانت تسكن مع خالتها العجوز. يتيمة الأبوين. عندما تعارفا في

ما بعد، وصارا يتكلمان سراً، تمزق قلبه بقولها: "لا أحد لي غير الله. لن تقسو عليّ، أليس كذلك؟"

في الشهر الثالث لتعارفهما "تبعا الشيطان"، وفي الشهر السادس انتفخ بطن المسكينة. حين فهمت خالتها الأمر، رمتها أمام الباب فرخة طازجة في السادسة عشرة من عمرها.

جدد المحامي مظهر سيجارته المنتهية.

يا لغضب أمه عندما جاء إلى المدينة مع فتاة منتفخة البطن، ويا ما قالته.

حين خطرت أمه بباله امحت زوجته وذكرياته عنها. كان يعرف أن أمه هي سبب خمود زوجته وحزنها وسأمها من الحياة. خطرت بباله أمه بشفتيها الرقيقتين المزمومتين بقوة، وحاجبيها المزججين، وعينيها المكحلتين "بوقاحة" ووجهها المدهون بمسحوق غير مناسب لعمرها. شعر بالندم بداية لتفكيره بأن أمه "وقحة". مهما كانت فهي أمه. لم تتزوج هذه الأم بعد أبيه الذي أغمض عينيه راحلاً عن الحياة وهو في الخامسة والثلاثين تاركاً زوجته الشابة وابنه من دون نقود، ومنحت حبها كله لمظهر ابنها. عاشا حياة مع شبه جوع وبؤس، ولكن المرأة الشابة درّست ابنها بالنقود التي كسبتها من خشبة خبط الغسيل والخدمة في المنازل الغنية.

تذرع بالصبر، فإذا كانت قد عملت، وكدحت، فهو لم يعاملها بخسة، فثمة غرفة مفروشة بكل شيء خاصة بها. لها سرير مزين بالدانتيل كالصبايا مع طاولة زينة ومصباح ذي غطاء كالبطيخة، وصندوق جوزي يحتوي على بدلات ألبسة متنوعة، وألبسة داخلية،

وعلى الأرض سجادة إسبارطية وعلى الجدار أخرى عجمية... أي أن مظهراً أعطى أمه مقابل كل واحد أعطته إياه في ذلك الوقت مئة، ومازال يعطيها.

ولكن إلى هذا الحد. عليها ألا تطلب أكثر، وأن تترك الزوج والزوجة بلا تدخل منها. بعد ذلك قضية التزين. عليها أن تنهي هذا التزين "الوقح".

....

في تلك الأثناء كانت أمه في غرفتها تتزين "بوقاحة"أمام المرآة على النحو الذي أغضب ابنها. كانت تجهز نفسها للذهاب إلى الجيران ومعها حفيدها الذي يبلغ الرابعة من عمره. تتأمل مرات ومرات غطاء رأسها الأسود اللامع من حرير ليون الذي تسميه نساء الطبقة الوسطى الموظفات "ستانتليون"، عيناها مكحلتان، وحاجباها مزججان، ووجهها مدهون بالمساحيق، وكان قد بدأ يتجعد. بعد أن أعجبت بنفسها، التفتت إلى حفيدها:

- كيف صرت يا خلدون؟ هل أنا جميلة؟

ألقى خلدون الذي كان يلهو بلعبته نظرة إلى جدته:

- أنت جميلة.

- كثيراً؟

- كثيراً.

- أحسنت. دائماً تجيب إجابات ذكية...

- وبعد؟

- أحبك أكثر. و...

- هل ستعطينني شوكولا ؟

- لا تقل تعطيني، قل تعطوني. لا تتكلم مثل أمك التي تمتلك روح الخادمة!

خرجت تجر حفيدها من يده. عبرت البهو، ووقفت عند أول السلّم. ونادت:

- يا بنت!

كانت ناظان في المطبخ. رفعت الكباب بصلصة البندورة من على الموقد، وكانت على وشك وضع قدر الأرز. ردّت متأخرة قليلاً:

- نعم سيدتي؟

- ليحفر السادة قبرك. تعالي إلى هنا!

ناظان معتادة على عبارات كهذه، ولكنها تنهدت، وخرجت من المطبخ:

- تفضلي!

قالت الحماة التي لا تتنازل عن النظر إلى وجه كنتها بوجه مقطب بشكل كامل:

- أنا ذاهبة قليلاً إلى عند ناجية.

- حسن يا أمي العزيزة.

- أمي العزيزة؟ ماذا يعني هذا ؟ لا تقولي لي بعد الآن أمي العزيزة، وما أمي العزيزة!

- ماذا قلت؟

- قلت كلاماً بذيئاً. تقول ماذا قلت. أتوتر ياه!

أرادت ناظان أن تعانق حماتها معتقدة أنها ستهدئها.

- ألست أمي؟ من لي غيرك؟

دفعتها العجوز بتكبر:

- قفي بعيداً. لا أحب العناق.! وهل أنا بعمر أمك؟ لا أريد أن أكون في موضع العجائز الجاهلات العاميات!

سحبت حفيدها من يده، ونزلت الدرج ببطء.

بقيت ناظان متجمدة. كانت تقصد خالتها العجوز التي في السليمانية بكلامها: "وهل أنا بعمر أمك؟ لا أريد أن أكون في موضع العجائز الجاهلات العاميات!". أما بالنسبة لأمها... فهي أيضاً لا تتذكرها. فقد ماتت بالزائدة الدودية، وأودعوا ابنتها عند أختها الأكبر.

تتذكر ناظان أباها. بعد ذلك، عندما كبرت... كان يأتي بألبسة الضابط المتلامعة، ويضع ناظان على ركبته، ويداعب شعرها، ويقبلها، ويحنو عليها. كان يجلب في علب مزينة سكاكر وشوكولا وربطات شعر ملونة.

بعد ذلك لم يعد يأتي. وعلمت بعد وقت طويل أنه استشهد في حرب لا تدري ما اسمها، وصارت تبكي في فراشها صامتة.

صَحَتْ عندما صُفع باب البيت بقوة. خرجت الحماة ممسكة بطرف غطائها.

جارتهم ناجيّة النحيلة جداً زوجة العاطل عن العمل والمقامر نوري يسكنان قبالتهم. البيت الذي يسكنون فيه عبارة عن غرفة واحدة طليّت جدرانها من الداخل وصدئ قرميدها. كانت ناجية في تلك الأثناء تنقي الرز خلف النافذة. حين صُفع باب بيت المحامي المقابل بشدة، رفعت رأسها عن الصينية: السيدة الكبيرة تخرج للنزهة مرة أخرى. إنها أصلاً

لا تبقى في البيت. تتجول من باب إلى باب ، وتتشاجر مع كنتها طوال اليوم.

قالت لنفسها: "إنها هي. لوّنت نفسها كالساقطات من جديد. لا تخجل. لو أن لي حماة مثلها، لخنقتها ذات ليلة."

تذكّرتهاوهي تتحدث مع زوجها: ذبّلت عينيها المكحلتين، حركت يديها وذراعيها وهي تصوغ عبارات شبقية. وماذا عن القهقهات التي أطلقتها؟ تكاد تحتضن الحجر معتبرة إياه ذكراً. ماذا قال زوجها بعد ذهابها؟ قال: "يوجد أمر ما في هذه المرأة"

انقطع شريط أفكارها: السيدة الكبيرة قادمة إليها غالباً! آآآ... تركت الصينية جانباً، ونهضت. هرعت إلى باب الزقاق:

- تفضلي يا خالة!

قالت السيدة هاجر:

- لا!. لا أريد كلمة خالة هذه مرة أخرى!

دهشت ناجية: لماذا يا خالة؟

- انظري إلى الخبيثة، قالت خالة مرة أخرى. وهل أنا بعمر خالتك يا هذه؟

أدركت ناجية الأمر، فأطلقت ضحكة مجلجلة.

- يا إلهي أيتها السيدة الكبيرة. صحيح أنك محقة. حضرتك تبدين أكثر شباباً منا والله. تفضلي!

دخلتا إلى الداخل. عبرت السيدة الكبيرة إلى زاوية البيت بعظمة صاحبة قصر، وجلست. إنها تختار زاوية البيت الرئيسة دائما، وفي كل مكان، ولا تدعها لأحد.

فتحت الجزء العلوي من غطاء رأسها. أظهرت رقبتها من فتحة البلوزة الحريرية المناسبة للصبايا، وعلى الصدر ظهرت الشكلة. هذا هو قصدها أصلاً: عرض شكلة الصدر!

راقبت بطرف عينها ناجيةَ ما إذا كانت تنظرُ إليها وتتحسر.

كانت المرأة الفقيرة تنظر معجبة، وتتحسر طبعاً. وكيف لا وهي شابة، وجميلة رغم ضعفها. إنها تستحق وضع أشياء كهذه أكثر من السيدة الكبيرة، ولكن من أين؟ كان زوجها مقامراً لايرجى منه خيراً.

لمجرّد الحديث سألت ناجية: كيف حال السيدة ناظان؟

هذا هو الجانب الأضعف للحماة.

- كيف ستكون؟ ألا تعرفين تلك الرثة؟ تعمل حتى لو لم يكن هناك ما يُعمل.

- مسكينة. لا تستطيع رفع رأسها من العمل...

- هذا ما يظنه الناس. مع أن العمل الذي تقوم به لا يساوي خمسة قروش. بيدها التي تمسك فيها صفيحة النفايات، تقشر البصل، وتنكش أنفها، وتنقي الرز..

تنهدت: أين هي من السيدات!

تابعت بصوت منخفض كأنها تعطيها سراً:

- ابني لا يحبها أبداً، ولكن ماذا يفعل؟ بينهما ولد. وهل هي من مستوى مظهر ابني؟

بللت ورقة السيجارة التي لفّتها بعناية بلعاب رأس لسانها، ولصقتها.

- بينما تنتظره بنات وزير الوزراء في اسطنبول، أنزل قلبه لهذه الرثة. إنه الشباب، الشباب الطائش. أين أنت منها، أليس كذلك؟

- صحيح...

- أنا أعتقد أنهم عملوا له سحراً. لولا وجود ولد بينهما، لجعلته يسفِّرها من زمن. حسنٌ، لا يمكن لابني أن يبقي على تلك المرأة التي تشبه الخادمة إلى الأبد...

أشعلت ناجية سيجارتها.

خلدون جلس على المقعد بجانبها ببنطلونه القصير وقميصه الإفرنجي، يبدو أنه يلعب باللعبة التي بيده، ولكن أذنه مع جدته.

- ...لا يحب أمه أبداً. حتى في الليل ينام معي. يريد أن يأخذه أبوه إليهما، فلا يذهب. إنه يحبني كثيراً. أقول له ماذا تفعل يا خلدون إذا مت يوما ما؟ تدمع عيناه. ويعانقني، ويقول لي: لا تموتي يا جدتي أبداً. إذا مت لن أدفنك في مقبرة بل في حديقة البيت!

داعبت شعر حفيدها الأشقر الأجعد.

عدم ذهابه إلى أمه تصرف جيد من الناحية الأخلاقية. كان سيبقى تحت تأثير تلك المرأة الباردة ذات روح الخادمة...

سأل خلدون من دون أن يلتفت:

- من هي ذات روح الخادمة يا جدتي؟

لم تجب السيدة هاجر، وقالت: "هيا اخرج والعب أمام باب الدار قليلاً "!

أدركت أنها تمادت. كانت تخشى من وصول الكلام إلى مظهر، وليس ناظان. لأنها تتصرف مع كنتها جيداً إلى أقصى حد، وتخاطبها: "يا ابنتي، يا صغيرتي" أمام ابنها.

- لماذا يا جدتي؟

- تشمّ الهواء، هل هذا سيئ؟ إنك تتضايق هنا.

- إذا خرجت إلى أمام الباب، ألا يأخذونني في كيس اليهود، ويضعونني في برميل الإبر؟

- إذا استأذنت جدتك، وخرجت، فلن يحدث هذا.

قفز خلدون عن المقعد متثاقلاً. وخرج وبيده لعبة القاطرة.

وجدت السيدة هاجر وسيلة جديدة للتباهي:

- أخذ مني الذكاء والجمال. ما شاء الله ذكاء متوقد. إنه يقول عبارات... أشكر الله أن ابني وحفيدي كأنهما نسخة مني. ألا ترين مظهر ابني؟ إنه كالسباع، أليس كذلك؟ المرحومة أمي كانت تحكي لي أن أخوالي الثلاثة كانوا مصارعين. لم يستطع أحد في قرة أورمان أن يثبّت ظهر واحد منهم على الأرض!

- هل أنتم من قرة أورمان؟

- آآآآه يا صغيرتي، آآآآه. لا تسألي. كان لدينا مزرعة في قرة أورمان. كنا نذهب إلى المزرعة كل صيف. كنت صغيرة في تلك الأثناء. يعني بعمر خلدوني. ذكرياتي أشبه بالخيال. إسطبلات مليئة بالأبقار والثيران والماعز والأغنام... ماذا عن الحليب والقشطة؟ كانت ملء الصفائح، ولا نهتم بها. البطيخ والشمام والعنب... كان يُجلب بالعربات، ويكوّم...

أخذت نفساً من سيجارتها، وزمّت شفتيها الرقيقتين، ونفخت نحو السقف. بعد أن راقبت الدخان طويلاً، تابعت:

- ...الله يعمي عيون الهجرة. سلب الكفرة الموسكويون بلدنا، ونهبوه. راح كل منا في جهة، وتفرقنا.

ما ذكرته السيدة هاجر عن المزرعة، وقام "الكفرة الموسكويين" بسلب بيوتهم ووطنهم صحيح أساساً. صحيح ولكن بعد تصحيح صغير:

المزرعة التي كانت تذهب إليها في الصيف أسبوعاً أو أسبوعين أحياناً ليست لجدها، بل للمسن الذي اعتقدت أنه جدها. أم السيدة هاجر فتاة شركسية ترعرعت عند هذا الغني جداً، وزُوجت لموظف برق صغير. وكلام السيدة هاجر "يمتد جذرنا إلى القصر العظيم" نابع من تقاعد والدة أمها من القصر، أي جدة السيدة هاجر.

كانت هاجر في تلك الأثناء فتاة بيضاء زرقاء العينين دقيقة الأنف لطيفة في الخامسة أو السادسة من عمرها. كانت تلعب مع أختها التي تكبرها بسنتين، وتركض في حقول البطيخ والشمام بين شقائق النعمان التي تبدو كالبحر عند تموجها مع هبوب الريح.

كانت فتاة مشاغبة عنيدة لا يمكن ضبطها. إذا علّق عليها أولاد الحي، أو أبكوا أختها، تهرع كالصبيان، وتقبض على الولد منهم حتى لو كان أكبر منها، وتصفعه على وجهه. لهذا السبب كان يهابها الصبيان.

كانت هاجر تحب والدها الأشقر الشعر والأزرق العينين الذي يأتي متمايلاً بألبسته المطرزة بعقدة اللف الخاصة بموظفي البرق أكثر من أمها. كان رجلاً بحاله. عندما يشرب ورأسه خلف النافذة المطلّة على حديقة الجيران يحمر وجهه، وتزوغ عيناه الزرقاوان. كم يغدو حلواً في أوقات كهذه! يضحك، ويغني بصوت يكاد لا يُسمع. يُجلس هاجر على ركبته، ويداعب شعرها، ويقبلها. كانت تندس بحضن أبيها كفرخ حمام. تسند رأسها إلى صدر أبيها فوق قلبه الخافق بالحنان، وتغمض عينيها. لم يكن أبو هاجر يحب أمها كثيراً على الأغلب. كانت امرأة عنيدة جداً،

وهي كتلة أعصاب من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، تقضي اليوم كله في المطبخ تهيئ الأطباق والقدور والقلايات بعصبية. وجهها لا يضحك. ترعد وتزبد إذا ما ضحك أحد الأولاد أو زوجها من حالها هذه!

لم يكن موظف البرق أشقر الشعر وأزرق العينين يشرب خلف النافذة المطلة على حديقة الجيران للاشيء. كان يشرب مفكراً بالبنت الصغرى من ابنتي جارته الأرناؤوطية المشاكسة المتدينة شاعراً بالمتعة التي يمنحه إياها مرورها كخيال من خلف أشجار الحديقة. كانت الفتاة لا تدري حتى بوجوده خلف النافذة. ليكن. هو يعرف كيف ينتشي بخيال حبيبته.

لم يتسرب هذا لزوجته يوماً، ولم يسمح بأن يكون هذا أداة للتلاسن في البيت.

لولا توسع "الموسكويين" في الأراضي العثمانية عابرين طونا كالسيل، وتهجيرهم من بلدهم ووطنهم ككثيرين غيرهم، لاستمرت هذه الحياة، واستمر هذا النظام.

كان يوماً مطيراً وبارداً. تقترب أصوات المدافع تدريجياً من خلف الأفق الداكن. اجتمع الضيوف والجيران لمناقشة ما يمكن فعله في حال مجيء العدو، وفجأة جاء الخبر المشؤوم كقنبلة:

"سقطت بلفنا، وأُسر غازي عثمان باشا!..."

هدأت أصوات المدافع عند الصباح، وقلب فرسان العدو العابرين شوارع المدينة كالعاصفة الجو رأساً على عقب.

كل شيء كان يحترق. اشتعلت البيوت الخشبية ذات أسقف القرميد، السياج، الحواجز الخشبية، مظلات البيوت تحترق، والناس يهربون من الحريق والموت.

تركت الأمهات كل شيء حتى أولادهن الذين في المهد. بدأت هجرة فظيعة في السهل الذي حوّله المطر إلى بحر من طين. ثمة عربات مهاجرين مقلوبة، وجنود يتلوون وسط الدماء، وبغال وخيول جريحة تنازع الروح، وبنادق مغروزة في الطين، وألسن لهب البلدة المحروقة الحمراء تنعكس في عيون النساء والرجال والأطفال المحملقة رعباً!

كانت هاجر وأختها في تلك الهجرة غير المنتهية. أمسكت هاجر بيد أختها التي تكبرها بسنتين، وراحت تجرها متحولاً وجهها إلى شمع أصفر، وتحفزها: "اركضي!"

لا أم ولا أب. من يعلم ماذا حدث لهما؟ لم تكونا في حال تسمح لهما بالتفكير. تهربان، وتهربان فقط.

تواصل هذا الهرب في إحدى الفترات على عربة مهاجر رطبة تجرها ثيران طويلة القرون. كانتا ترتجفان بشدّة. ثوباهما الرقيقان مبتلان. إلى أين يأخذونهما؟ من ذلك المسن ذو اللحية البيضاء الذي ينظر إلى وجه هاجر مشفقاً؟

لا تعرف، لا تعرف، ولا تسأل، لا تسأل. تركوا الحرائق والموت خلفهم. ماذا عن أبيهما؟ وماذا عن أمهما؟ لا أحد يعلم..

بعد أيام وصلوا إلى مدينة كبيرة ذات قباب رصاصية كثيرة. مازالت لا تعرف هاجر أن اسم تلك المدينة أدرنة. كأنهم نزعوا الظفر عن اللحم في أدرنة. فصلوا أختين لا أحد لكل منهما غير الأخرى في هذا العالم. أعطوا الكبرى لتاجر إزميري تبناها. بكت، وتوسلت. قالت: "لا تفصلوني عن أختي!" ولكنها لم تستطع إقناعهم. جذبوها من ذراعها، وجروها.

هاجر لا تبكي. تنظر منتصبة مقطبة الحاجبين تحدق بالباب الذي جرت منه أختها.

مرت الأيام. حزنت هاجر على أختها وأبيها وأمها باكية بصمت في سريرها ليلاً. انقطعت عن الطعام والشراب. في أحد الأيام جاء دورها أيضاً: أرسلت إلى اسطنبول لترعى ابنة مرشح ملازم مشلولة.

أمضت أغلب طفولتها وشبابها في دار خشبية كبيرة رطبة مسودة أخشابها ويسودها الظلام، ترعى ابنة المرشح الملازم نصف المشلولة، أو تغسل المواعين والألبسة، أو تمسح الأرضية الخشبية، وتكنس الدار الكبيرة عدة مرات في اليوم، وتتحمل الضرب بسبب أو بدونه.

كانت زوجة مرشح الملازم جافة جداً، جلداً على عظم بسبب مرض في الرحم ميؤوس من شفائه، وتعصف في البيت كعاصفة. كان الذنب ذنب هاجر دائماً إذا أرِقَتْ ليلاً، أو تشاجرت مع جيرانها أو حزنت لحال ابنتها.

أما هاجر فقد كانت بنتاً لا تخمد جذوة حب الحياة فيها مع الضرب، بل تزداد، رغم ضربها المبرح وتجمع الدم تحت أظافرها. هل كانت وقحة؟ لعلها ليست كذلك. كانت تريد أن تعيش، وترتقي فقط. حين بلغت الرابعة عشرة من عمرها عرفت ما تريد. سيكون لها ما يناسبها من بيت وزوج وولد، أو ستربي أولادها، وتعلمهم، فيكبرون ويشبون عن الطوق، وسيكونون "رجالاً عظماء" كالسادة، ويضعون ياقات منشاة، وربطات عنق. بعد ذلك ستزوج ابنها ابنة وزير وزراء. وهكذا ستختلط بالعائلات الكبيرة، وتذهب إلى مدن أخرى تنسيها أنها كانت خادمة.

دخلت فكرة الوزير والوزراء إلى عقلها من أحاديث السيدات الموظفات اللواتي كن يأتين إلى الدار. ولكن ماذا تعني "وزير" ومن هم "الوزراء"؟ لا تعرف. عندما يُقال وزير وزراء كانت تعتقد أنهم موظفون عند السيد المسن. كان ثمة موقعان أرفع من البيك بالنسبة إليها: وزير الوزراء، والسلطان الذي هو أعلى من وزير الوزراء!

بحسب ما علق في ذهنها فإن نسب أمها يمتد إلى السلطان. في هذه الحال ستكون النهاية سعيدة إذا ضغطت على نفسها، ومررت سنوات الضيق هذه. سينمو ابنها، ويكبر، ويفتح داراً مستقلة، ويتزوج من ابنة وزير وزراء. وتغدو هي "سيدة الدار الكبيرة". وطبعاً خادمات أزواج، ومربيات ومعلمات لأحفادها...

بدأت هاجر تبني خيالاتها هذه كلها في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمرها. وهذا لم يكن مصادفة. كان للمرشح الملازم المسن دور في هذا. فثمة تقارب حصل بين هاجر والبيك منذ الصغر. وتشكل تلقائياً. كأن هاجر والبيك مسكينان تحالفا إزاء البلية ذاتها. لقد ربطت السيدة بينهما. فحين جاءت هاجر إلى الدار لم يكن البيك قد بلغ الثلاثين من عمره. وكان يرسل حقيبته مع (الجندي المباشر) كل مساء، وينطلق في طريق خمارات سوق السمك، يأكل، ويشرب حتى ساعة متأخرة من الليل؛ ويعود إلى البيت ثملاً...

كانت هاجر تنتظر متمددة على ظهرها في فراشها حتى عودة البيك إلى البيت بعد منتصف الليل. يفتح البيك الباب بالمفتاح بهدوء، ويدخل غرفة فتاته المتبناة بهدوء تام لأنه يدرك ما تعانيه المسكينة طوال اليوم، يتبادل معها فضفضة الهموم، ويمسح بيده عليها، ويقبلها كابنته، وبعد ذلك يذهب إلى جانب زوجته.

بدأت المداعبات والقبلات التي كانت "أبوية" بداية يتغير لونها مع نمو هاجر، وفي سنة بلوغها الخامسة عشرة أخذت العلاقة صورة عشق. المرشح الملازم المضطر لقضاء فترة شبابه الأكثر حرارة مع امرأة مريضة عصبية أحب الفتاة بحرارة دمه الذي يسري في عروقه سريان الكهرباء. والفتاة أحبته أيضاً. وكانت فتاة حقاً لها حاجبان، وعينان، وفم صغير، وفخذان، وجسم... وكانت تعرف موعد عودة البيك جيداً، فتتمدد دون أن تنام كاشفة فخذيها بالشكل الأكثر إثارة، وكأن اللحاف قد انزلق لحرارة الجو!

يأتي البيك كالمجنون. ويرتمي فوقها، ويبدأ بمداعبتها. البنت الكافرة تتمدد وكأنها لا تعلم شيئاً فلا تنبس ببنت شفة، ولكنها تستمتع بألذ متعة، وأجمل طعم.

في منتصف إحدى ليالي عامها الخامس عشر جاء مرشح الملازم ثملاً أكثر من أي ليلة أخرى. وضع بذهنه ماذا سيفعل بالفتاة التي لم يخرج خيالها من ذهنه منذ أن كان في إمينونو، بل حتى منذ أن كان في الدائرة. ماذا سيحدث؟ لا داعي لسفالة. حتى لو حدث ما يحدث عادة، فلها حلّ.

فتح الباب بمفتاحه بهدوء مثل كل يوم. صعد السلم. كانت الفتاة الشابة نائمة شبه عارية. لم يُغلق الباب بالمزلاج. لم يُغلق أصلاً في أي وقت.

دخل، ورضخ للشيطان خلال وقت قصير.

سألت هاجر: "ماذا ستفعلون؟" وهي تبكي مشهشهة.

لا يعرف المرشح الملازم ما سيفعله بعد، ولكنه وضع عينه على

المباشر الذي يعطيه حقيبته، ويرسله إلى البيت. كان مهاجراً وحيداً، درس في الثانوية قليلاً. وكان يخاف كثيراً من الجندية. وبما أن هنالك قانوناً يعفى بموجبه المتزوج من يتيمة من الجندية، فإن المباشر إسماعيل مفصّل لهاجر.

بعد ثلاثة أيام حكى مع المباشر، وقال له بما يشبه الأمر أن يجد طريقة يكلم بها الفتاة عندما يعطيها الحقيبة من الباب، وأنه سيزوجها له فوراً إذا أعجبته.

إسماعيل يرغب بهذا الأمر منذ زمن، ولكنه لا يجد فرصة. كان شاباً قوياً بلغ لتوه الثامنة والعشرين وعلى حاله.

بينما كان يمد الحقيبة من فتحة الباب، أسقطها. انحنت الفتاة الشابة، وتناولتها من الأرض. لم ير وجهها فقط، بل صدرها المكتنز وشعرها الأشقر أيضاً.

كاد يجن. أهذه هي الفتاة التي سيتزوجها؟ يعني أن البيك قد رأى أن هذه الفتاة مناسبة له؟ كان راضياً بامرأة في الأربعين من عمرها، فكيف بفتاة جميلة كهذه. ارتمى على يدي البيك، وقبلهما... والبيك قال إنه سيدفع لهما أجرة البيت غير مصاريف العرس.

خلال شهر وُجدت ابنة جديدة للدار، وتزوجت هاجر، وسكنت بيتها الجديد المؤلف من غرفتين في نواحي السليمانية، وغدت سيدة.

بدأت حياة عاشت في مخيلتها منذ سنوات. ربطت المريلة على خصرها، واحتضنت بيتها بشكل جعل الجيران يُدهشون من المرشح الملازم. أي نظافة، وترتيب، ورعاية منزل هذه! تغني بصوتها الجميل أغنية، وتبدأ بمسح الأرضية الخشبية جاعلته يصرُّ تحت قدميها القويتين.

لم يكن لدى هاجر المزيد من الأثاث، ولكنها عرفت كيف تستخدم كل شيء بشكل مرتب، ففرشت المكان، وجهزته.

تذهب إلى الدار مرة كل أسبوع أو أسبوعين، وتدور حول سيدتها كالمروحة. قالت لأهل الحي بأن مرشح الملازم "عمها"، وأن سيدتها "زوجة عمها". وليس ثمة ما يجعلهم يعتقدون غير هذا. كان مرشح الملازم يأتي مع زوجته أحياناً، ووحده على الأغلب. لا يشتبه الجيران بأي شيء. يفتحون الحديث قائلين: "جاء عمك، وعمك قادم..."

غير هذا كله، فإن السيد لم يكن يأتي إلى البيت خالي الوفاض، بل يأتي محملاً بما يتيسر من لوازم البيت، وينفق على هاجر ما سينفقه في الخمارة.

لم تنطفئ نار عشقه لهاجر أصلاً.وكان يعتبر أدنى رغبة للمرأة الشابة أمراً، كما يحدث للمراهقين بعد الأربعين. ومع الزمن بدأ يغار من زوج المرأة. ولكن هاجر الذكية لا تبالي. لم تكن تحب زوجها أبداً!

حقيقة لم تحب زوجها أبداً. ليس زوجها فقط، بل مرشح الملازم أيضاً. أحدهما زوجها، والآخر تمنحه المتعة بمقابل..وهو على أية حال خلها. هذا كل شيء. أما قلبها فكان مع شبيه الأسد ضابط المدفعية أشقر الشاربين المعقوفين، الساكن في الزقاق الآخر.

كان يطير صوابها. والرجل منتبه. حتى إنه قابلها في الزقاق بذريعة، وتظاهرت بالهرب منه. ومنذ ذلك الوقت تغير طعم الحياة ومعناها بالنسبة للرجل الشاب. كانت تجلس كل يوم مع حماة الضابط عند مجيئه تقريباً، وتقدّم لها السجائر الظريفة التي تحبها، وتلفها لها. حتى إنها ذات يوم لفت مئة سيجارة للضابط الشاب لأنها سمعت أنه

يحبها كثيراً، وملأت له علبة صفيح بها. وحين وجد الضابط الشاب السجائر الجاهزة عند عودته مساء، دخن خمس عشرة واحدة منها بشكل متتابع شارداً بخياله!

خبر مؤلم ذات يوم: يذهب الضابط الشاب إلى وظيفته الجديدة المنقول إليها. الوظيفة في مكان من روملي. جن جنون هاجر. لولا أن ضبطت نفسها لبكت مشهشهة. والضابط الشاب في وضع لا يقل عنها. تركت العار والحياء جانباً، واعترضت طريق الضابط. كان زوجها قد ذهب إلى عمله تواً. قالت له ما قالته على عجل. قَبِل الضابط المحترق شوقاً أصلاً، كل شيء. بعد خمسة عشر يوماً، ذهبت مع زوجها الجديد وحماتها إلى روملي. دهش كاتب الضابط ومرشح الملازم حين وجدا البيت من دون هاجر. بعد ذلك جلسا معاً، وبدأا بالنواح.

ولكن هاجر لم تعد. كما أنهما لم يعرفا أصلاً إلى أين ذهبت، ومع من. وماذا يحدث إذا عرفا؟ هل سيعيدانها؟

كانت هاجر سعيدة مع زوجها الجديد. كما كان الرجل الشاب مهتماً بزوجته، ولا يرد لها طلباً. كانت المسألة الوحيدة التي تحتاج إلى حل سريع هي مسألة أم الضابط الشاب. حين أصدرت هاجر أمراً: "لا أريد حماة. أرسل أمك إلى ابنتها!" لم يعترض الضابط الشاب على الأمر. مع أنها كانت تحب أمه!

طأطأت العجوز رأسها مبدية "رضوخاً للقدر"، وقالت: "حسنٌ يا ابني، الله يسعدكما!"

ذهبت.

سنة، سنتان... يبتعد الضابط الشاب لأسباب استدعتها وظيفته،

ويضطر لترك زوجته الشابة وحدها. كانت حاملا، فيرجو جيرانه، وخاصة العجائز العاقلات، ويتوسل إليهن أن يهتموا بها. ولكن هاجر لم تكن بحاجة إلى أحد. حين سمعت ذات يوم أن المتمردين قتلوا زوجها الشاب، لم تدهش أبداً. ولم تبك أيضاً. ويوم أسبوعه انطلقت في طريق اسطنبول وجنينها في بطنها. وتقاضت راتب زوجها الشهيد. ذهبت بداية إلى بيت زوجها السابق في السليمانية. لم تجده. ذهب الرجل مع سيده إلى مكان ما من الأناضول. سألت، واستفسرت، وبحثت، وعرفت مكانه. كانت واثقة من جعله يعفو عنها.

وهذا ما حدث. حين رأى كاتب الضابط زوجته السابقة على باب الدائرة ذات صباح، لم يصدّق عينيه بداية. بعد ذلك، فرح إلى حدٍّ الجنون. لم يسألها عن شيء. أخذ إذناً، وذهب إلى بيته مع زوجته التي وجدها من جديد. حضّر لها بيديه الشاي والقهوة واشترى طعاماً. كانت أطراف أثوابه تقرع الأجراس فرحاً. لقد نسي أنها تركته وهربت. لقد عادت.

حين بشّر سيده في اليوم التالي، جن المرشح الملازم من الفرح.

بدأت من جديد الحياة التي انقطعت في السليمانية: لعب مرشح الملازم دور العم من جديد كما كان في السابق. قال لاحقاً: "كانت في اسطنبول. ذهبت لتغيير الجو. جلبتها..."

تتوالى الأيام والأسابيع والشهور، مسرعةً، وتضع هاجر ابنها الذي حملت به من الضابط الأشقر الذي أحبته بجنون ذات يوم. الولد لأبيه الخالق الناطق. أشقر وضخم البنية مثله. سُجّل في النفوس على خانة كاتب الضابط، ولكن باسم أبيه الحقيقي مظهر.

حين أتم مظهر السنة والنصف من عمره أُرسل مرشح الملازم إلى إحدى الولايات العربية. وكاتب الضابط إلى مكان آخر تماماً: إحدى محافظات الجنوب الساحلية. وهنا سيُنسون، ويموت كاتب الضابط بداء السل الذي كان يحمله منذ سنوات طويلة. وحين أُدخل القبر في الخامسة والثلاثين من عمره، لم يترك شيئاً لزوجته.

....

عاد خلدون إلى الغرفة راكضاً:

- جاء بابا يا جدتي!

نظرت السيدة هاجر من النافذة. الوقت مازال مبكراً. لم يأت مبكراً هكذا من قبل. لماذا أتى يا ترى؟

في هذه الأثناء مرت العربة من أمام النافذة، ووقفت أمام باب الدار المقابلة. دفع مظهر للحوذي أجرته، وقفز من العربة. تبدو عليه السعادة. صعد سلم الدار الحجري خفيفاً كطائر. بدأ يقرع الباب كتلميذ غير مبال، وليس بتأنٍ كما يفعل دائماً.

كانت ناظان قد أنهت عملها، وتفكر بحماتها وهي تكوي قمصان زوجها: "وهل أنا بعمر أمك؟ لا أريد أن أكون في موضع النساء الجاهلات السوقيات!"

ذهبت إلى النافذة، ونظرت: آ... كان زوجها. لماذا جاء إلى البيت مبكراً هكذا؟

هرعت مستغربة، وفتحت الباب. صعد مظهر السلم بخفة الريشة. كان يعتقد أن أمه في البيت. استغرب عدم ظهورها برغم وصوله إلى رأس السلم. كلما أتى إلى البيت كان يجد أمه على رأس السلم سابقة زوجته. سأل:

- أليست أمي في البيت؟

قالت ناظان: غير موجودة.

- أين هي؟

- ذهبت للنزهة.

تنفس الصعداء. هذا يعني أنه وحده مع زوجته. فتح ذراعيه. لم تهرع ناظان. كانت منكمشة. ماذا لو جاءت حماتها؟ ماذا لو سمعت بهذا في ما بعد؟ ماذا لو شاكستها؟

قال مظهر: تعالي..

تتلفت فيما حولها، فلا تجرؤ. توتر.

- تعالي ياه!

سحبها من معصمها، واحتضنها، وقبلها من شفتيها مؤلماً إياها. بعد ذلك جرها إلى غرفة النوم. دخل وأغلق الباب خلفه بالمزلاج.

- لك عندي مفاجأة!

نظرت ناظان شاردة.

- اعرفي ما هي؟

فكرت، فكرت، فكرت.

- مهما فكرتِ فلا جدوى. انظري!

أخرج من جيبه العلبة المخملية، وفتحها: أبهر الخاتم الظريف المرصع بحجر الماس عيني ناظان. لا يمكن أن تكون هنالك امرأة واحدة لا يخفق قلبها وتطير فرحاً.

- هل اشتريت هذا لي؟

- لك!

تساقطت دموع الفرح كحبات لؤلؤ، وارتمت بين ذراعي زوجها. تعانقا بقوة. تباعدا بعد ذلك. وضع مظهر الخاتم في إصبع زوجته الظريف.

- أشكرك كثيراً.

- ولكن احذري أن تريه لأمي. معلوم ياه!

تذكرت حماتها لذا لم يدم الفرح الذي بدا على وجه ناظان طويلاً. حقاً، كيف لم تنتبه لهذا؟ سألته:

- ماذا أفعل؟

- ماذا ستفعلين؟ لا شيء..تلقينه في صندوقك وينتهي الأمر.

- ألن ألبسه أبداً؟

- ستلبسينه طبعاً، ستلبسينه، ولكن...

مظهر أيضاً لا يعرف متى ستلبسه. ستراه العجوز عندما تلبسه، وستعبس عندما تراه، وتفتعل المشاجرات الكلامية في البيت من الغيرة.

صوت السيدة هاجر فجأة:

- يا ابني مظهر!

ارتعد الزوجان وكأنهما قد قبض عليهما متلبسين.

وضعت ناظان الخاتم بعلبته في صندوقها، وركضت بعد أن أحكمت غطاءه، وفتحت باب الغرفة: كانت حماتها منتصبة أمام الباب مزرقة من التوتر. قطبت حاجبيها المنتوفين غضباً:

- ماذا تفعلان في الداخل نهاراً؟

غضب مظهر:

- ما هذا السؤال يا أمي؟ نفعل ما نريد!

- أحسنت، أحسنت!

ذهبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها. أهذا مظهر، مظهرها؟ هذا يعني أنه سيصل إلى حد الرد على أمه على هذا النحو... نزعت غطاء رأسها، وقذفته جانباً، بعد ذلك الغطاء التحتاني، وبعده شكلة الصدر، والبلوزة، والجورب... مظهر، إنه مظهرها الذي كبرته.. هاه؟

خربشت شعرها.

سأريه، سأريه!

تربعت في زاوية المقعد.

هذا كله بسبب المرأة ذات روح الخادمة. لا يستطيع الابتعاد عنها دقيقة واحدة. ولماذا عاد ابنها مبكراً إلى البيت؟ يجب أن يكون عنده سبب. لا يمكن إلا أن يكون عنده سبب. هذا يعني أن ابنها صار ضدها، ويجابهها بتأثير كلام الناس!

فُتح الباب: يا ولد!

قفز الرجل الشاب كالسهم كي لا يدع فرصة للكلام. وانتصبت مقابل ابنها:

- ماذا تريد؟

- ماذا يجري لكم يا أمي، ماذا يوجد من جديد؟

- انقلع إلى جانب زوجتك!

دفعته إلى الخارج، وأغلقت الباب.

المحامي مظهر معتاد على زوابع أمه الكثيرة كهذه، ولكنه بدأ يكلُّ ويملُّ. إلى متى سيدوم هذا؟ إذا كان لا يتكلم لأنها أم، ولأنه يعترف بحق الأمومة فهل سيدوم هذا إلى نهاية عمره؟

ذهب إلى غرفة النوم، وأرخى نفسه على الأريكة أمام النافذة.

بعيد، بعيد جداً، تغيب الشمس ببطء في أفق البحر المتمدد كغطاء، والغربان عادت إلى أعشاشها. عبرت عربة ركاب ذات حصان واحد من الطريق المغبر ببطء. ماذا يجب أن يفعل؟ يعرف كم أن أمه امرأة حاقدة. ويعرف أنه إذا لم يرض أمه، ستغطي رأسها، وتتجول على الجيران، ولن تتردد بالإساءة إليه ولزوجته بأقذع ما يمكن للسان أن يطلقه، حتى إنها قد تخرج إلى الزقاق، وتضع يدها على أذنها، وتصرخ بأعلى صوتها.

في هذه الأثناء جاء ابنه خلدون باكياً. سأله شاعراً بأمر ما:

- ماذا يوجد يا ابني؟

- طردتني جدتي!

- ماذا قالت؟

- قالت كلاماً معيباً جداً.

- ولكن ماذا قالت؟

احمر الولد حتى أذنيه، وقال:

- عيب جداً يا أبي العزيز. عيب جداً.

ألحَّ عليه كي يمنح أمه العلامة التامة:

- احك مهما كان عيباً!

قال الولد متردداً رغم كل شيء:

- اذهب إلى أبيك الديوث وأمك الـ.... !

قفز من مكانه. كان كل طرف منه يرتجف. وقفت بوجهه زوجته حين كاد يصرخ، ويعربد.

دهشت المرأة:

- ماذا يوجد؟ ماذا يحدث لك؟

- هل سمعت؟ هل سمعت ما قالت أمي؟

- ماذا قالت؟

أعاد ما سمعه من خلدون على نفس واحد وعيناه محمرتان.

أمسكت ناظان زوجها:

- لا تذهب أرجوك، لا تذهب!

- أنبلعها يعني؟

- ابلعها فهي أمك. ليست غريبة. سأكون أنا المذنبة من جديد في النهاية. إذا كنت تحبني فلا تتحدث بشيء!

أمسك مظهر نفسه بصعوبة، وانتقل ليجلس على الأريكة التي كان جالساً عليها قبل قليل. كلَّ وملَّ. وهل لها الحق أن تطلق كل ما يأتي على لسانها لأنها أمه؟

أمسكت ناظان ابنها من يده، وخرجت. كانت خائفة من مجيء حماتها، ورؤيتها لها. يمكن أن تقول: "تغتنمين الفرصة، وتعبئين ابني ضدي!"

انهمكت بكيّ قمصان زوجها.

جلس خلدون جانباً، وفتح ساقيه، وكان يتمتم وهو يلعب بقاطرته. أصغت ناظان:

- أمي ليست ....، وأبي ليس ديوثاً. وأنت كل هذا. لماذا كذبت على الخالة ناجية؟ ألا أحبُّ أمي أنا؟ يجب أن يدهنوا فمك بالفلفل. إذا كنت أنام ليلاً معك، فهل هذه رغبتي؟ يا جدة كذابة. موتي إن كنت

ستموتين. إن شاء الله يأكل النمل عينيك. لماذا تكون أمي ذات روح خادمة؟

رفع رأسه، فتلاقت عيناه بعيني أمه. كانت أمه تصغي لما قاله! قال:

- أنا لا أحب جدتي أبداً.

طار صواب ناظان.

- ما هذا الكلام يا ابني؟ لا يصح لإنسان أن لا يحب جدته.

- لو سمعت ما قالته للخالة ناجية...

لم تدقق بالأمر رغم تخمينها جيداً ما قالته. لم يكن لديها شك في أن القضية ستنفجر في النهاية على رأسها، ويكون الذنب ذنبها. قالت:

- الجدات يحكين. على الأولاد ألا يعيدوا عبارات كهذه!

- حسنٌ يا أمي. لن أعيدها مرة أخرى...

- أحسنت.

حضرت المائدة بعد أن أنهت الكي. أهملت زوجها، وذهبت إلى باب حماتها، وقرعته. لم تتلق رداً. قرعت من جديد. حين لم تتلق رداً، أدارت الأكرة، وفتحت مصراع الباب: كانت جالسة في زاوية المقعد المطاول مزرقة مقطبة الحاجبين. نظرت إلى كنتها بحقد:

- ماذا تريدين؟

- الطعام جاهز، ألا تتفضلين؟

انفجرت كمدفع:

- ليفقع أكلك على رأسك، انقلعي!

أغلقت الباب بهدوء. تناولوا الطعام بصمت وضيق.

جلس الزوج والزوجة حتى وقت متأخر من الليل، ولكن أحدهما لم ينبس بكلمة واحدة في هذا الموضوع.

في اليوم التالي ذهب مظهر إلى عمله باكراً. وغسلت ناظان الأطباق الباقية من المساء بداية، بعد ذلك بدأت تفكر بما ستعد من أجل الغداء. عندما جاء خلدون بمنامته إلى المطبخ، وقال: "يا أمي، أنا جائع!" تذكرت أنهم لم يتناولوا إفطارهم، وأن حماتها ستكون جائعة لأنها لم تتناول شيئاً منذ المساء، ولا بدّ أنها تريد أن تتناول شيئاً ما. وحين تردد صوت بائع الحليب، هرعت إلى الباب بوعاء الحليب.

كانت السيدة هاجر تراقب من الباب. اغتنمت الفرصة حين رأت أن الأم والولد نزلا إلى الأسفل لشراء الحليب، وذهبت إلى المطبخ بهدوء، وأخذت قطعة جبن من النملية وقطعتي خبز من سلة الخبز، وعادت إلى غرفتها، وأغلقت بابها من جديد.

٣

المحامي مظهر وراء طاولته وقد وضع رأسه بين يديه مفكراً: ماذا سيفعل بأمه؟ ما هي مشكلتها؟ ماذا تقصد؟ هل تصدر كلماتها عن لسان امرأة تدعي الرقي والأصالة؟

فكر مطولاً، فلم يجد جواباً. إذا كان ثمة جواب فلا يمكن أن يكون غير غيرتها من كنتها، ككل الحموات تقريباً، من منطق المثل القائل: "جاء من في الجبل ليطرد من في الكرم".

أشعل سيجارة. عليه أن يجد حلاً لهذا الأمر. إذا استأجر بيتاً، وفصل أمه، ستشتكي يميناً ويساراً من الوحدة. ولنر إن كانت ستقبل بالسكن المنفصل؟

تجسدت أمه أمامه. كانت تنظر مقطبة الحاجبين، وتقول: "أنا لا أسكن منفصلة. لا تتعب نفسك!"

نهض من خلف الطاولة. بدأ يمشي بين زوايا المكتب.

لا يمكن أن تقبل. من غير الممكن أن تقبل بالسكن المنفصل. ستقومُ القيامة، وتعمل ما بوسعها لتسيء إلى سمعة ابنها. حسنٌ، ماذا سيحدث؟ كيف سيتخلّص من هذه "البلية" التي تثير القلق في البيت.

ثمة ظلٌّ في الباب، انتَبَه. كان زوج الجارة ناجية. دخل مرائياً عاقداً يديه أمامه، وحاول التقاط يد المحامي مظهر. لم يعطه يده.

- البارحة كانت والدتكم المحترمة في بيتنا المتواضع. وعدت بأن تبحث مع حضرتكم أمر عمل لمحسوبكم، وأن أراجعكم...

قال باختصار:

- لم تبحث أمي معي أمراً كهذا، هل أنت عاطل عن العمل؟

- نعم مع الأسف يا سيدي.

- هل لديك عمل أو مهنة؟

- والله يا سيدي درست في المدرسة المتوسطة فترة قصيرة جداً، ولكن...

- حسنٌ؟

- مستعد للقيام بأي عمل يا سيدي...

خطر ببال مظهر موكلاً يدير باراً.

- أ تعمل في بار؟

لمعت عينا رضا أفندي:

- إنه مفصّل علي بالضبط يا سيدي. أنا كنت سأرجو هذا من حضرتكم. سمعت أنكم توكلتم بدعوى صاحب البار "الصغير". لي أصدقاء في ذلك البار. نادلون. قالوا لي: إذا حكى السيد بالأمر فلن تكسر كلمته..

- حسنٌ يا رضا أفندي، سأحكي معه.

- الله يرضى عنك. الله يطيل عمرك بالعز! إذا كان عندك شيء سيؤخذ إلى البيت، أأمرني لآخذه يا سيدي!

لم يأت الكاتب الذي يقوم بأعمال الخدمة بعد إلى المكتب. أخرج نقوداً من جيبه، وأعطاه إياها:

- ستكون مشقة...

- رحماكم، أرجوكم يا سيدي، بالعكس إنه شرف...

- لحم، بندورة، باذنجان، عنب...

- أمركم.

- ليبق الباقي معكم!

تحية رضا أفندي قديمة الطراز. انحنى إلى الأرض، وأتبع الدعاء بالدعاء، وخرج من الباب ماشياً إلى الخلف. نزل إلى السوق بخطى حثيثة. اشترى طلبات السيد. وانطلق إلى البيت.

كانت زوجته جالسة وراء النافذة. حين رأت زوجها المنفعل، نقرت على الزجاج مدركة أنه وجد عملاً. التفت رضا أفندي، ونظر، فرآها. أشار إشارة بمعنى: "انتظري، أنا قادم" وصعد سلم الدار الحجري راكضاً. قرع الباب.

كانت ناظان قد غليت الحليب، وهي تأخذه إلى الطاولة. نظرت من النافذة. جلب رضا أفندي الأغراض. ذهبت وفتحت الباب.

- هل أرسلها معك يا رضا أفندي؟ عذّبناك كثيراً...

- رحماك يا سيدتي، أرجوك، إنه شرف لمحسوبكم. أمن الممكن أن أقابل السيدة الكبيرة يا سيدتي؟ أريد أن أقبّل يدها...

قالت ناظان لابنها النازل خلفها:

- اذهب، وناد جدتك يا ابني. قل لها: جاء العم رضا أفندي، ويريد أن يقابلك!

صعد خلدون الدرج مسرعاً مرتدياً منامته البيضاء. وصل إلى باب غرفتها. دفعه. كان مغلقاً.

- جدتي!

لم تجب متقصدة. كانت أمام المرآة تصبغ نفسها. إثر نداء حفيدها الثاني والثالث والرابع، فتحت الباب بكبرياء:

- ماذا يوجد ولاه؟

- يناديك العم رضا أفندي!

عبارة "العم رضا أفندي" محت تقطيبة وجه العجوز:

- أنا قادمة.

وقفت إزاء المرآة، وبعد أن دققت بوجهها للمرة الأخيرة، خرجت. نزلت السلم مسرعة: كانت كنتها عند الباب تتحدث مع رضا أفندي!

اندست بجوارها بلؤم:

- هل يريد رضا أفندي أن يحكي معك أم معي؟

انسحبت ناظان متكدرة:

- أرسل مظهر خضاراً...

- مظهر؟ ألا تستطيعين قول: مظهر بيك؟ عديمة التربية!

كأن ماءً مغلياً سُكب فوق ناظان. صعدت وبيدها صرة اللحم والخضار دون أن ترد.

كانت السيدة هاجر قد نسيتها. نظرت إلى رضا أفندي كأنها ستأكله، وقالت:

- خير؟

مدَّ الرجل يده:

- جئت لأقبّل يدكم المحترمة يا سيدتي!

- لماذا؟ ماذا يوجد؟

- اهتم السيد بأمر عملي يا سيدتي.

تذكرت السيدة هاجر وعدَها له بالأمس: لم تجد إمكانية قول شيء لابنها بهذا الشأن. قالت:

- أهكذا؟ سررت لهذا، ولكنني لم أجد فرصة لأقول له شيئاً... الهم ليس واحداً. عدت إلى البيت من عندكم، فلم يكن لي نصيب رؤية ابني بسبب هذه المرأة القذرة. أسألك يا رضا أفندي، فأنت متزوج. طالما هنالك ليل، هل تدخل إلى غرفة النوم مع زوجتك نهاراً؟

ولمجرد الكلام قال رضا أفندي:

- أيمكن أن يدخل قط؟

قال رضا في داخله: "أكون عديم الشرف إن كان لا يوجد شيء عند هذه المرأة"

- إنه مجرد كلام يا سيدتي، عفوكم...

- كم تقدر عمري؟ هل أنا عجوز إلى حد مناداتي يا خالة، ويا جدة؟

- أرجوك يا سيدتي، ما علاقتكم بالعجائز؟

- هه، هكذا. وزوجتك ليست مثلك. دأبت على مناداتي بخالة...

- عن إذنكِ يا سيدتي...

- لماذا؟ وهل تضايقت من الحديث معي إلى هذا الحد؟

- أي كلام هذا يا سيدتي، أي كلام؟ على العكس، أريد أن أجلس معكم، وأتكلم...

أسبلت عينيها المكحلتين، وألقت نظرة إليه، فلم يبق عنده شك أن لدى المرأة رغبة!

- يعني أنك كنت تريد أن تجلس معي، وتتحدث!

- لابد أن هذه ستكون فرصة كبيرة يا سيدتي.

- زوجتك؟ زوجتك ياه؟ انظر إنها تراقبنا منذ أن أتيت. لنر ما تقول لها عندما تذهب إلى البيت!

التفت رضا. كانت زوجته على النافذة فعلاً. قال:

- لا أهمية لهذا. عن إذنكم يا سيدتي...

- مع السلامة..

انطلق رضا في طريق البيت. انتظرت السيدة هاجر الرجل حتى دخل بيته. أغلقت الباب من غير رغبة.

قابلت ناجية زوجها غاضبة:

- لماذا لم تعطهم الأغراض، وترجع فوراً؟ لم يكن الرجل هناك.

- دعك من هذا... وعدني مظهر. سيدخلني البار الصغير. ولكن العجوز لم تر الرجل. يبدو أنهما تشاجرا من جديد...

سألت ناجية بفضول:

- هل تشاجرا؟ لماذا؟

- من أين سأعرف أنا؟ نام الرجل مع زوجته نهاراً، غضبت العجوز. ما أخبث هذه المرأة. إنها زوجة الرجل، مالك أنت؟

- إنها امرأة ثرثارة. البارحة تكلمت بحق كنتها وقوفاً وجلوساً. مع أن المرأة المسكينة كالملاك. من غير الممكن أن يكون في ذلك البيت حياة أو نظام طالما أن تلك العجوز حية. حسنٌ، بماذا تكلمتما أيضاً؟ إنها معجبة جداً بك!

لكي يبدو غير مبال، قال:

- كفى. أمع الستينية؟
- أي ستينية؟ لم تبلغ الخمسين بعد...
- هيا يا روحي، أنت أيضاً.
- والله لم تبلغها يا رضا.
- مـــا لي أنا يا هذه؟ لتكن في الثـــلاثين إن أرادت. أنا أنظر بقضيتي. ليتم أمر البار أولاً...
- ماذا يحدث؟
- ماذا يحدث؟ سنخلص من الجرب ياه!
- ستعمل ليلاً، ما الفائدة؟
- العمل عمل. لا ليل له أو نهار. انظري أنت إلى ما سأكسبه من نقود. هناك أصدقاء نادلون، بشرفي يكسبون أموال الدنيا. لو أنني أدخل...

سألته ناجية قائلة:
- أتشرب الشاي؟
- لا.

أشعل سيجارة، وتمدد على جنبه فوق المقعد.
- لماذا لا تشرب؟
- إذا تحققت هذه المسألة، عشنا... أتعرفين ماذا سأفعل؟ سأودع الإكراميات التي آخذها من المصرف، وأجمعها. بعد ذلك، خمارة صغيرة، إما على حسابي أو مع شريك...
- ماذا ستشتري لي؟
- لا!... يجب ألا يصطف العميان سريعاً قبل بناء الجامع!

نهض. خرج من البيت للبحث عن أصدقائه.

٤

قبل الظهر، أخرجت السيدة هاجر من صندوقها سبحة جذر جوز الهند، ووضعت غطاء رأسها المطرز، وانزوت في زاوية المقعد، وبدأت التسبيح.

كانت تعرف عادات ابنها. ليشتط غضباً، فلن يستمر هذا أكثر من يوم. يلين في اليوم الثاني كشمع العسل، ويغدو كالحرير. أَمِلَتْ أن يأتي مساء أمس، وأن يرضي أمه، ولكنه لم يأتِ. وبما أنه ذهب في الصباح الباكر، فلا بد أن يأتي ظهراً.

فكرت: "ماذا لو لم يأت ويتكلم معها لأيام؟"

حتى هذا الاحتمال أخرج السيدة هاجر عن طورها. "يعلم الله سأجعله كالجمر وأسوّد دنياه".

شردت عيناها. أنفقت شبابها في سبيله، وسبيل تعليمه، وجعله رجلاً. ألم يكن عدم زواجها من أجل ألا يُسحق على يد زوج أم؟

قال صوت في داخلها: "لا، لم يكن سبب عدم الزواج هو ألا يُسحق وحيدك على يد زوج الأم. كنت ستقبلين من زمن، ولكن لم يظهر طالب. وجدوا من المناسب اللهو معك وركلك في النهاية على الزواج منك."

هذه هي الحقيقة. هذه هي، ولكنها لم تعجبها ككل حقيقة مؤلمة. ويجب على ابنها وكنتها والآخرين أيضاً معرفة أنها لم تتزوج كي لا يُسحق ابنها الوحيد على يد زوج الأم، وأن يؤمنوا بهذا.

تذكرت سادة الدور التي كانت تذهب إليها لغسل الملابس ومسح الأرض ورجالها اللامعين. آه يا لتلك الأيام، آه!

كان هنالك السيد فروزان، في ديوان مراسلات الباب العالي. كلما ذهبت إلى بيتهم للخدمة، تتورم لوزتيه أو يؤلمه رأسه، فلا يذهب إلى الدائرة.

يجب أن تكون أمه قد انتبهت للأمر، فتترك ابنها وحده وتغيب إما عند الجيران وإما تذهب إلى السوق المسقف لشراء بعض الأشياء، لتعود إلى الدار متأخرة.

يا إلهي كم كان السيد فروزان خجولاً في البداية!

لم يكونا قد تعارفا بعد. في اليوم الثاني لذهاب هاجر إلى الغسيل: غادرت أمه إلى الجيران أو السوق المسقف. السيد الصغير تظاهر بالنوم بمنامته الحريرية الصفراء في غرفته. في تلك الأثناء لم تنتبه للسيد فروزان، وحتى لو انتبهت، اعتقدت أن ابن الباشا الشبيه بكرة الثلج لن يتنازل لغسالة. وفي أثناء عملها مطيّرة الماء والصابون، كانت تفكر بالشيخ، وعدم قيامه إلا بعد ارتدائه لباسه الكامل بلفته وجبته وقميصه، ظهر السيد فروزان كظل أبيض أمامها. خافت كثيراً فجأة. بدأ قلبها يخفق بقوة. ولكنه لم يكن ثمة ما يُخيف. وجه السيد فروزان الحلو وعيناه السوداوان الواسعتان تمنح الجرأة. كان له صوت حلو ومتناغم ومداعب للقلب. قال:

"بالعافية!"

"أهلاً بكم يا سيدي الصغير. كيف صارت لوزتيكم؟"

"لوزتاي؟ يا إلهي يا هاجر...اعتقدتِ أن الأمر جدي؟"

"أليس كذلك؟"

"لا ياه."

"إذاً لم تكن لوزتاكم قد تورمتا..."

"لماذا بقيت في البيت. أهذا ما تتوقين لمعرفته؟"

"................؟"

"من أجلك!"

"أمن أجلي؟"

"نعم من أجلك!"

كيف دار رأسها، وكيف خفق قلبها، وكيف دغدغ داخلها! ابن فيلا ضخمة إلى هذا الحد، ظريف كالبنات، وولي عهد باشا يلفق ذريعة للبقاء في البيت من أجلها؟لم تجب رغم أنها ماعت متعة ولذة، وأطرقت برأسها. لابد أن السيد فروزان اعتبر هذا السكوت إقراراً، فجاء إلى جوارها، وجلس القرفصاء، وسألها:

"إيه؟ ما قولك؟"

عندما لم يتلق الرجل الشاب جواباً، أمسكها من ذقنها، ورفع رأسها، وتقابلت عيونهما:

"ردي. أنت رائعة جداً، وهذا السبب."

بعد ذلك أمسكها من تحت إبطها، وجذبها إليه، فارتخيا على مؤخرتيهما حيث يقرفصان. أصبحت بين ذراعيه. قلبها يخفق كأنه سينتزع من مكانه.

"لا تفعلونها يا سيد فروزان!"

لم يعد الشاب "ابن الامرأة" الأهيف ذاك.

"يمكن أن تأتي أمك يا سيد فروزان!"

"..................؟"

"والله ستأتي أمك يا سيد فروزان!"

انهارت على ظهرها فوق الغسيل الوسخ.

أسبلت السيدة هاجر جفنيها في زاوية المقعد ناسية التسبيح. كأنها تتمدد على ظهرها قبل سنوات طويلة فوق الغسيل الوسخ، وتُسحق تحت ثقل السيد فروزان اللذيذ.

صوت طرقات الباب الخارجي فجأة.

صحت، وفتحت عينيها. غطاء رأسها انزلق قليلاً، فأعادته. بدأت بالتسبيح قائلة: "سبحان الله، سبحان الله..."

الساعة التي على طاولة الزينة تشير إلى الظهر. فهمت أن ابنها جاء لتناول الغداء. قطبت حاجبيها، ومسحت عينيها، وبدأت تنتظر.

لن تصالحهما بسهولة مهما حصل. عليها أن تجعل الزوجين يركعان عند قدميها، وأن تريهما ما يعنيه عدم الانصياع لأمرها.

صعد ابنها السلم الخشبي بوقع أقدامه المعهود مصدراً صريراً. وقف عند رأس السلم. تحدث مع زوجته وقوفاً. بعد ذلك يبدو أنه وضع ابنه في حضنه، إذ سمعته يقول: "ارفعني أكثر يا أبي العزيز، ارفعني إلى السقف!"

بعد ذلك غاب وقع أقدام الزوج والزوجة. لابد أنهما ذهبا إلى غرفة النوم.

هبت في داخلها غيرة كالعاصفة. يعني أن أمه لا تهمه؟ يعني يمكن له أن يهملها؟ فجأة خطر ببالها أن تحطم الزجاج والنوافذ والمرآة والمصباح البطيخي، وأن تلقي بنفسها إلى الزقاق، وتفضحهما.

يمكنه أن يهمل أمه هه؟ هل وصل إلى هذه الحال؟ هل انجرف وراء تلك المرأة إلى هذا الحد؟

قالت لنفسها: "هذا ما يبدو. لو لم ينجرف لجاء، وسأل عني وعن حالي، وأرضاني. ألم يعد يرى ضرورة لأمور كهذه؟ هل وجودي وعدمه سيان عنده؟ وجودي وعدمه لا يعنيان له شيئاً؟

فجأة لعب بعقلها احتمالٌ آخر: ماذا لو جاء ابنها يوماً ما، وقال: "ابحثي لنفسك عن غرفة في مكان مناسب، واسكني منفصلة عنا!"؟

ارتبكت. أيقول هذا؟ أيمكنه أن يقولها؟ أيمكن أن يتمادى إلى هذا الحد؟ ماذا لو تمادى، وحملها، ورماها دون أن يشعر بتأنيب ضمير؟

قذفت السبحة التي جمعتها بيدها إلى المقعد. تعرف ما ستفعله حينئذ! قامت من المقعد ووقفت أمام المرآة بانتباه.

"أقوِّم القيامة! أذهب إلى العدلية، وأنتظر في الممر. وأقف أمامه لحظة دخوله إلى المحكمة، وأغمض عيني، وأفتح فمي. أجعله لا يستطيع البقاء في هذه المدينة."

حسنٌ، ولكن ماذا يحدث؟ إلى أين سيؤدي هذا؟ ماذا سيتحقق؟ ألا تخسر ابنها نهائياً؟

ارتعبت.

خسارة؟حقاً، أتخسره؟ أيغدو للأخرى نهائياً؟ ألن يحترمها أحد بعد ذلك لأنها "والدة السيد المحامي" وتعامل معاملة "المرأة الغسالة"؟

لا، لا... لا يمكن أن تعود إلى "الغسالة". في الحقيقة إن أحداً لا يعرف هذا في هذه المدينة. وليكن، هي تعرف ياه! من يعرف هو من يضطر للجوء وحيداً تحت بيت ما وفي غرفة ما؟ لم تكن تريد أن تكون "الغسالة" ولا أن تنسى في غرفة في بيت هذا أو ذاك!

هذا هو الولد الذي حملته في بطنها تسعة أشهر، ثم ولدته بألف مشقة، واحتملت عذابه، وجعلت شعرها مكنسة حتى ربته أن يكون رجلاً، وليس غيره. ومن هي تلك الأخرى؟ إنها فتاة، مجرد امرأة غير معروف أصلها، أما ابنها فهو محام كبير. إنه شاب وسيم يستحق الزواج من بنات وزير وزراء، وليس من فتاة عادية نشأت في أحد بيوت السليمانية الفقيرة!

خطر ببالها والد مظهر الحقيقي الضابط الأشقر الشارب وسيفه الذي يجره. تنهدت السيدة هاجر. مظهر مطابق لأبيه الوسيم ذي الشارب الأشقر تماماً. مهما يكن، ماذا قالت ابنة حمي القاضي السيدة بكيزة: "آ...حقيقة من النادر إيجاد رجل وسيم كالسيد مظهر"

أكذب هذا؟ إنه كلام صحيح، وصحيح تماماً. كم كان ابنها جيداً قديماً! ألم يكن يقول:"أمي العزيزة"؟ وكان يقول "أمي العزيزة" عدة مرات، وعيناه تضحكان من الداخل. يخبر أمه بالدعاوى التي يأخذها والنقود التي يكسبها. ولا يذهب من مكان إلى آخر أو يشتري ولو عوداً من دون علمها.

ماذا الآن؟ الآن يسمع كلام زوجته "الخادمة التكوين" ويتوق للانفراد بها.

لماذا تزوج؟ فجأة فُتح الباب. نظرت السيدة هاجر إلى المرآة بطرف

عينها: كان ابنها. دخل، وأغلق الباب. اقترب من أمه. أراد أن يمسكها من ذراعيها مبتسماً وكأن شيئاً لم يكن.

لا، لا... يجب ألا تمنحه فرصة المصالحة بهذه السهولة!

انتفضت:

- اتركني!

تخلصت من يد ابنها، وألقت بنفسها على المقعد، وبكت مشهشهة كالأطفال.

تجمد مظهر. ينظر مندهشاً إلى حال أمه الخفيف الطفولي غير المناسب لعمرها، ينظر فقط. ماذا يوجد؟ من حكى، وماذا؟ هل ما حدث يملأ بذرة تين؟ لم يلح لمعرفة عادتها. انتظر مطولاً ويديه خلف ظهره. حين خفَّ بكاء المرأة من دون سبب، سألها:

- انتهى؟ انتهى حرصك؟

لم يتلق جواباً. ذهب إلى جانب أمه. جلس على المقعد بداية، ثم وضع رأسه على ثدييها اللذين رضع حليبهما ذات يوم، ومازالا حيويين غير متهدلين.

- يا أمي أنا، أمي العزيزة!

دفعت رأس ابنها الجميل أشقر الشعر بكُرْهٍ:

- أنا لست أم أحد!

- ألست أم أحد؟ لماذا؟

- ليس لي أحد في هذه الدنيا. أنا خرجت من شق في الأرض!

نهض مظهر، وجلس.

- حسنٌ، ما الضرورة لهذا الكلام القاسي؟ من تكلم معك؟

- لا أحد. لم يقل لي أحد شيئاً يا ابني. ثمة خلل في عقلي. خلقوا مشكلة من لاشيء!

- حسنٌ، ولكن...

- لا حسنٌ، ولا غيره. اذهب أنت إلى زوجتك وابنك. وافعل ما تريد فعله للأم؟ هما ولداك ورب‌ياك إلى هذا القدر. اذهب إليهما. الله يبارك لكم بعضكم بعضاً!

- أمي العزيزة...

- أنا فاهمة منذ وقت طويل. أنا عالة في هذا البيت. كأنني مفرقة بينكما...

دخل خلدون إلى الغرفة بهدوء، واندس يحضن جدته صامتاً. أما السيدة ناظان فقد كانت واقفة أمام الباب مترددة بين الدخول وعدمه. ولأنها تعرف عادة حماتها، قالت لزوجها: "غضبها كله مني. ادخل أنت، وتصالحا، وأنا أدخل في ما بعد!" ولكنها لم تستطع إقناعه. كانت ترى بعينيها تصرفها الحاد مع ابنها، فهو لم يفعل شيئاً كبيراً، بل كلمها بحدة ليس إلا.

ماذا لو طردتها؟

فجأة التقت عيناها بعيني زوجها. حين أشار الرجل الشاب بمعنى: "تعالي، قبلي يدها!" تراجعت عن ترددها، ودخلت. جاءت إلى جانبها.

- لأقبل يدك يا أمي!

نظرت السيدة هاجر إلى كنتها حانقة. وصرخت بكل حقدها وكرهها:

- هيا، هيا يا ملمعة! تأتي من دون خجل: ولأقبلك!

بدأت الغرفة تدور فوق رأس ناظان، وتُظْلِمُ عيناها. بعد أن نظرت بحزن إلى زوجها، خرجت دامعة العينين.

لم يستطع مظهر تحديد ما سيفعله، أو ما يجب أن يفعله. أيبقى أم يذهب؟ نظر إلى أمه بحدة. تلاقت عيونهما.

- أعجبك ما فعلتِه يا أمي؟

قالت:

- أعجبني. لو لم يعجبني لما فعلته.

- يعني أعجبك؟ يا للأسف. يا للأسف الشديد والله...

- لماذا؟ لماذا الأسف؟

- لأن أموراً كهذه يجب ألا تكون لائقة بأسرتنا!

- هيا، هيا... لا حاجة لي بنصائحك!

خرج مظهر من دون أن يرى ضرورة الحصول على إجابة واحدة. عبر نحو طاولة الطعام التي تجهزها زوجته في زاوية البهو، وجلس. في الحقيقة إنها امرأة سافلة. أصبح بإمكانه إطلاق صفة "سافلة" إضافة إلى "وقحة" على أمه. فكر بماذا يمكن أن تكون المرأة المسكينة قد أذنبت. ليس لها أي ذنب. هو الذي سحب زوجته إلى غرفة النوم حين جاء بالخاتم، وهو الذي طلب بشكل خاص أن يبقى هذا الأمر سراً. لم يكن لزوجته أدنى ذنب.

أسند مرفقيه إلى الطاولة، ووضع رأسه بين يديه. أما السيدة هاجر فقد أغلقت الباب بعد خروج ابنها وحفيدها بقوة. كانت مسرورة لفعلتها هذه. على الأقل أفرغت ما تشعر به نحو كنتها منذ زمن طويل، وارتاحت.

ذهبت بهدوء إلى نافذتها المطلة على البهو. رفعت بشكل خفيف الستارة المسدلة بقوة، وألقت نظرة إلى الخارج: ابنها يفكر عميقاً ورأسه بين يديه. هذا يعني أنها أثرت فيه جيداً! لتؤثر. أما بالنسبة لكنتها... فهي الأخرى تبدو متضايقة. تقطع الخبز من جهة، وتنظر إلى زوجها بطرف عينها من جهة أخرى.

فجأة وجدت كنتها جميلة جداً بحالها تلك، فغضبت. من أين جميلة؟ عيناها تخدعانها. ليست جميلة أبداً. هي الجميلة أصلاً. كيف جعلت مرشح الملازم وزوجها كاتب الضابط يركضان خلفها لسنوات؟ والضابط الأشقر؟ وعودتها لزوجها إثر موت الضابط الأشقر! لولا أنها جميلة، وذات جمال خارق، فهل كان زوجها ليقبل؟

نظرت من جديد. تناولت المرأة طبق زوجها بداية، وقدمت الطعام. فكرت: "وسخة، قذرة! لن تملأ عينيه... لم يمت زوجك ياه. إنه رجل ضخم. لينتظر. لو كنت أنا لما قدمت الطعام لزوجي قبل ولدي. وما الرجل؟ لكن الولد؟ حسنٌ، وهل أنا كالجميع. انظر إلى هذه، لم تقدم لابنها الطعام حتى الآن".

مضى تناول الطعام وسط الضيق، من دون حديث تقريباً. وكانا يفكران بالأمر ذاته: أحياة هذه؟ لماذا يعانيان من الهم بلا سبب؟ ليس هنالك مخالفة جدية. فماذا حدث؟ ماذا يحدث إذا ناقش زوجان أية مسألة في غرفة النوم؟

وصل ضيق مظهر إلى حد كبير، فاقترح:

- توترت أعصابي بشكل مؤلم، لنخرج بعد تناول الطعام، ونشم الهواء...

بدا على وجه ناظان مابين التردد والقلق. سأل مظهر منتبهاً:

- ماذا؟

- لاشيء.

رفعت ناظان عينيها نحو غرفة حماتها:

- لن يكون عيباً لو دعوت أمك!

- أمي؟ ما الضرورة؟ أبسبب الموقف الذي اتخذته تواً؟

- تحدث بهدوء...

- لماذا؟

- تسمع.

- لتسمع. بطوننا ليست لصيقة ياه!

نهض عن المائدة. غسل يديه وفمه، وفرّش أسنانه. بعد نصف ساعة، خرجا من دون قول: مع السلامة.

تابعت السيدة هاجر هذا كله من غرفتها، وغضبت. هرعت إلى النافذة الخلفية. رأت ابنها وكنتها يركبان الحنتور، ووضع ابنها حفيدها في حضنه، وفتح الحوذي باب الحنتور.

لم يقولا حتى: "مع السلامة.." إذا أججت كنتها ابنها، وحرضته فلا يقول طبعاً. ولكنني سأري تلك المرأة " ذات روح الخادمة". ستريها كيف تحرّض ابنها ضدها لتوقع بينهما.

بعد انطلاق العربة خطر ببالها أمر آخر: ما سبب إغلاق غرفة النوم عليهما نهاراً في ذلك اليوم؟ أيحبُّ أحدهما الآخر إلى حد عدم احتماله انتظار الليل، أم أن هنالك ما يخفيانه عنها؟

الاحتمالان ممكنان، ولكن... معرفة الثاني أسهل.

خرجت من غرفتها على رؤوس أصابعها وكأن أناساً في البيت تخشاهم. عبرت البهو بهدوء. وصلت إلى غرفة نوم أبنها وكنتها. لم يكن الباب مقفلاً، دفعته، ودخلت. التقط أنفها رائحة لافانتا قوية. "لافانتا وكولونيا... الحافية معتادة على أمور كهذه في أكواخ السليمانية!"

تفقدت الغرفة بانتباه: سرير عريض، أغطية نافرة الرسوم، صور العروس المعلقة على الجدار المجاور للسرير، كل شيء يوتر أعصابها، ويغضبها، ولكن ما سبب إغلاق غرفة النوم عليهما نهاراً في ذلك اليوم؟

فجأة وقع تحت بصرها الصندوق المغطى بجلد الجمل الموضوع جانباً. جلب ابنها هذا الصندوق الجميل من اسطنبول. رغم مرور سنة على هذا الحادث فلازالت تشعر بغيرة داخلها كسكين، وتحول كرهها لكنتها إلى حقد. مسحت بكفها على وبر غطاء الصندوق المائل إلى الحمرة. لولا وجود كنتها لكان هذا الصندوق لها. هل كان مقفولاً؟

تفقدت الغطاء، ليس مقفولاً. رفعته. صرر، صرر... صرر بيضاء وملونة، حريرية ومزهرة. ترى ماذا يوجد فيها مما اشتري بغيابها؟ لعل ابنها يشتري سراً، ويملأ صندوقها.

تنهدت. قالت لنفسها: "ولد عاق. ليست هي التي حملتك في بطنها تسعة أشهر، وولدتك بألف مشقة، وأرضعتك، وكبرتك، ثم جعلتك رجلاً! أنا ربيتك، وأنا كبرتك!"

مدت يدها إلى إحدى الصرر. لحظة إخراجها، خطر ببالها. ترى هل تركت الصندوق مفتوحا عن قصد؟ من يعلم، لعلها قالت لزوجها: "أمك

تدخل غرفتنا في غيابنا، وتفتشها. إن كنت لا تصدق، فالإثبات سهل. ها أنا أضع الصرر هكذا. والصناديق هكذا. سترى كيف تبعثرت عندما نعود!"

سحبت يدها. يُنتظر كل شيء من تلك المرأة. إنها ماكرة تنظر إلى الأرض. لا ترد على حماتها، وتصمت مطرقة لتبدو على حق أمام زوجها. لسان حالها يقول: "ها أنت ترى! كم أمك سيئة. لا أرد عليها رغم إهانتها لي..."

توترت. إذا وضعت إشارة، فلتضع. ماذا يوجد؟ أأخاف من تلك القذرة؟ أخرجت الصرة من الصندوق برغبة جامحة. سحبت الدبوس، وفتحت الصرة: بلوزات، ألبسة داخلية، مناشف... تعرفها، تعرف هذه كلها. اشترى لها ابنها منها أيضاً.

في أثناء إخراجها الصرة الثانية، سقطت علبة ذات وجه مخملي بنفسجي. انفعلت السيدة هاجر: إنها علبة مجوهرات! ها هي لا تعلم بهذا. لم تره، ولا علم لها به. أهو خاتم أم قرط؟

تناولت العلبة بحرص من الأرض، وفتحته: خاتم ماسي!

هناك انهارت متألمة. هذا يعني أن ابنها قد اشترى خاتماً ثميناً إلى هذا الحد من دون علم أمه، وأهداه لزوجته، للمرأة الخادمة، المرتخية، غير القادرة على ربط كلمتين معاً!

يدور رأسها، وتظلم عيناها والخاتم بيدها. فهمت الأمر. صار ابنها عاقاً تماماً. يمكن أن يسمع كلام زوجته ذات يوم، ويرميها أمام الباب. هل سيتحقق ما يدخل إلى أحلامها، ويرسخ؟ الطرد؟ هل ستلقى إلى بيوت الناس؟ هل ستغدو المرأة "الخادمة" صاحبة البيت عندما ترمى

هي؟ لابد من هذا. حتى ابنها تغير. كان يأتي بعد الشجار دائماً مهما قالت أو فعلت، ويعانقها، ويقبل وجهها وعينيها، ولا يخرج من دون أن يصالحها. اليوم؟ اليوم ياه؟ اختصر، وخرج من دون أن يصالحها!

اغرورقت عيناها بالدموع. يعني أنه يمحو أمه من دفتره تدريجياً؟ لنر إن كانا سيدعان خلدوناً عندها بعد الآن؟

نظرت إلى الخاتم. كم هو جميل وبراق! من يعلم بكم اشتراه؟ هل اشتراه لأنها طلبته أم هو الذي بادر من نفسه؟ لابد أنها هي التي طلبته. ولعل هذا عناد لها. من أجل أن تعطي الناس فكرة عن مقدار حب زوجها لها. أي أنها تريد أن تقول: "زوجي يحبني إلى هذا الحد. ها أنتم ترون!"

ما معنى هذا؟ هل يعني: "زوجي يحبني، ولا يحب أمه!"؟

أرادت وضع الخاتم في سبابتها، فلم يدخل. كان إصبعها غليظاً. وضعته في البنصر. هذا يعني أن سبابة كنتها بثخن بنصرها. مهما يكن، فالخاتم جميل جداً. كانت تريد أن يكون لها. لم يكن لديها خاتم مثله في حياتها. لا زوجها، ولا عشاقها، ولا ابنها اشتروا لها مثله...

سؤال جديد: "حسنٌ، لماذا لم تلبسه كنتها عند ذهابها للنزهة؟ ألكي لا تراه حماتها، أم أن ابنها قال لها: لا تريه لأمي؟"

اقتنعت بهذا.

"آه منك يا مظهر، آه. أسفي عليك. يعني أنك تضع الكنة فوق أمك الحقيقية؟"

قُرع الباب. وضعت الخاتم في علبته، وألقته في الصندوق. وبعد أن وضعت الصرر، أغلقت غطاءه، وخرجت من الغرفة..

ترى من جاء؟

نظرت من النافذة: الجارة المقابلة ناجية!

انتعشت. شدت خيط الباب وفتحته.

ارتدت ناجية في قدميها العاريتين قبقاباً. لم تكن تريد أن تصعد. قالت:

- رأيت ابنك وكنتك ذاهبين للنزهة، قلقت قائلة: لماذا بقيت السيدة الكبيرة وحدها في البيت، ولم تذهب؟

عبرت غيرة جديدة داخل السيدة هاجر.

- ألحا، ولكنني لم أذهب.

- أسيء هذا؟ كنتم تتنشقون الهواء، وتنطلقون...

- أرجوك، ليكن هذا الهم همها. اصعدي!

- سأذهب.

- فهمنا يا روحي. تذهبين...

صعدت ناجية السلم بقدميها العاريتين، وفي فمها علكة. سحبتا كرسيين من جانب طاولة السفرة في البهو، وجلستا.

- أنا قلبي شاب يا ابنتي، قلبي شاب. لو صرفا آلاف الليرات لما وجدا نصف الحيوية التي في قلبي!

ناجية:

- الله لا يحرمنا، السيد مظهر وعد رجلنا أن يهتم بأمر عمله... لو رأيت رجلنا، فمه استطال حتى شحمتي أذنيه!

- أنا نسيت مع ذاك الغضب. كان سيهتم أكثر لو كلمته.

- وهل توجد شبهة في هذا؟

- لا ، ضايقاني. أتدخلين مع زوجك إلى غرفة النوم في عين النهار؟ وهل هذا أمر مسبوق من قبل؟ ماذا يجب أن يكون الإنسان..

قالت ناجية لنفسها: "أدخل بالتأكيد. أللدخول إلى غرفة النوم وقت وساعة؟" ولكنها رغم هذا ، قالت:

- حكى لي رجلنا. عيب جداً. أيترك الإنسان الليل، ويدخل إلى غرفة النوم في عين النهار أمام حماته؟

- ولكنني عرفت السبب. إذا كانا جنيين، فأنا الشيطان!

سألت ناجية بفضول:

- ما السبب؟

- ماذا سيكون... تعالي، وشاهدي!

مشت في الأمام، وتبعتها ناجية بفضول. دخلتا إلى غرفة نوم ابنها وكنتها. كانت غرفة ظريفة تخيلتها ناجية طيلة سنين. سرير، ولحف أغطيتها حرير، وسجاد طويل الوبر على الأرض. تململت الغيرة التي في داخلها.

كانت السيدة هاجر قد فتحت صندوق كنتها. أخذت العلبة البنفسجية التي ألقتها بين الصرر، وأرتها الخاتم بيد مرتعشة

- هذا هو!

إمحت غرفة النوم الظريفة والسرير واللحاف الحريري الوجه من رأس ناجية: كان الخاتم جميلاً إلى حدٍّ أنها قالت:

- أيّ... جميل جداً يا خالة! يعني أنه يحبُّ زوجته إلى هذا الحد؟

امتقع لون السيدة هاجر. هكذا ياه، لولا حبه لزوجته، حد جنونه بها، فهل يشتري لها خاتماً قيّماً إلى هذا الحد؟ لنقل إنه اشترى، فهل

يخفي هذا عن أمه الحقيقية التي ربته وجعلت من شعرها مكنسة حتى صار يستطيع الإمساك بالخبز، غير أنها حملته في بطنها تسعة أشهر؟

ندمت لأنها أرتها الخاتم. يمكن أن تعتقد ناجية "أنه يحب زوجته أكثر من أمه!"

أغلقت العلبة بحرص، وألقتها في الصندوق.

خرجتا.

مازال الخاتم بحجره الماسي يلمع في رأس ناجية. مهما قالت العجوز فإن الرجل يحب زوجته كثيراً. تنهدت لحرمانها من الحب على هذا النحو. ما الذي ينقصها؟ إنها شابة حتى لو لم تكن جميلة بقدر ناظان، وبصرف النظر عن نحافتها، فهناك وجهها. رغم أنها هكذا فإن زوجها لم يجلب لها طوال تلك الأيام خاتماً ماسياً أو لؤلؤياً، ولا حتى خاتماً عادياً بخس الثمن لتضعه في إصبعها.

هذا يعني أن لا قيمة لها أبداً أمام زوجها.

مازالت السيدة هاجر تنفخ العروق في رقبتها الحيوية وهي تحكي أموراً ما، ولكنها لم تسمع.

هي أيضاً امرأة. وبحاجة إلى هدايا زوجها. لا تكتفي المرأة بالحب والمداعبة، ولا تشبع. بقي أن حب رضا ومداعبته ليسا ذلك الأمر العظيم.

خطرت ببالها عروق الرجل وذراعيه النحيفين. يأتي إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل ثملاً تماماً، ويخلع ثيابه منهاراً، ويلقي نفسه بصعوبة على الديوانة. ويدير ظهره فوراً عندما يلقي نفسه، ويبدأ الشخير. ليس فيه شغل كزوج أيضاً! حسنٌ، لماذا تعيش مع رجل كهذا؟

إلى أين سيؤدي هذا؟ رجل لا يبالي بزوجته ولم يبلغ الأربعين، كيف سيكون في الخامسة والأربعين؟

انتبهت لقول السيدة هاجر: "أليس كذلك؟" فقالت من دون فهم ما قالته: "صحيح جداً!"

تابعت السيدة هاجر:

- أنا ولدت ذلك الولد، وجعلت شعري مكنسة حتى وصوله إلى هذا العمر، وجعت لأطعمه، وعطشت لأسقيه، وليست هي. جاءت إلى بيتنا، وصارت رجلاً. لعوب السليمانية التي لا سروال لها!

- صحيح يا خالة.

-هل كانت تضع خاتماً ماسياً في بيت أبيها؟ من يعلم ما قالته لصغيري، وكيف ألحت عليه، وأغرقته في ديون ونفقات حتى جعلته يشتريه. نحن أيضاً كنا زوجات، ولنا أزواج أشداء لا تتسع لهم الأبواب. ولكننا لم نُدخل أزواجنا في الديون ليشتروا لنا خواتم!

بدأ قلبها يخفق. نهضت. جلبت كأس ماء من المطبخ، وأتت. شربت نصفه، ووضعته على الطاولة جوارها.

- أنا لا أجد ابني مذنباً. إذا سألت لماذا، فلأنه رجل. عقله لا يدرك تفاصيل مثل هذه. إذا قالت له زوجته، أرجوك لا تري الخاتم لأمك، لا تذكره لها، يكفي. وإلا فإن ابني ليس له سر يخفيه عني. صغيري لا يقول شيئاً إذا قالت أمه...

- السيد مظهر صامت جداً يا روحي!

- ماذا سيفعل يا ابنتي؟ أمن السهل عرض الهموم على هذا وذاك في العدلية طوال اليوم؟

- ماذا خطر ببالي، أتعرفين؟

- ماذا؟

- لئلا تكون سحرت ابنكم؟

تلخبط وجه هاجر:

- حقاً يا ناجية. عاش عقلك ألف مرة يا بنت. انظري، لم أفكر في هذا.

- كانت هناك الداية حسنة، قالت إن الشيخ الذي لا أعرف من هو يكتب لسان حمار بخمسين قرشاً. من يعلم يا خالة؟ كل شيء ممكن. فقد اشترى خاتماً ثميناً هكذا بالدين، وخبأه من دون أن يريه لأمه.

التمعت عينا السيدة هاجر:

- صحيح. صحيح، لأن مظهري لم يكن هكذا أبداً يا ناجية. ألا أعرف صغيري؟ لم يكن صغيري يضع لقمة في فمه قبل أن يضعها في فمي.

- إذا سمعت مني، لنجد الداية حسنة، وندس بيدها بضع ليرات، ولتجعل الشيخ يفك سحر كنتك!

- هل تقومين بهذا العمل؟

- آ، أكيد يا خالة. لا تقلقي، واعتبري أن هذا الأمر قد تم!

- الله لا يحرمني منك يا ناجية. أنا أيضاً أريد معرفة الداية حسنة تلك...

- هي لا تريد. تخاف. تخاف من الحكومة. أنا أجدها، وأكلمها. وآتي لأخبرك بما قالته.

اقتنعت تماماً بأن كنتها كتبت لسان حمار لأبنها. لم يكن ابنها

هكذا من قبل. لم يكن يخفي شيئاً عن أمه، ويخبرها عن حزنه أو فرحه. لم تبق هذه العادات. يدخلان إلى الغرفة بمناسبة أو غير مناسبة، ويتحادثان، من يعلم بماذا!

ماذا كانت في هذا البيت؟

لاجئة؟

لتأت هذه العارية، وتسكن في هذا البيت الكبير. ومن يعلم، لعلها بهذا المسار ستطرد.

ارتجف قلبها. قالت:

- كم ستطلب، تعالي إلي يا ناجية. لننقذ صغيري من إسراف عديمة الأدب هذه. هدفها أن تسحب من ابني، وتسحب، ثم تختبئ في زاوية ما. وفي أحد الأيام، مع السلامة وتذهب إلى جحرها!

- ....

- في الحقيقة لن أسمح بسلب ابني، وتجريده. هذا لا يهم الكنة بنت الناس، ولكنني أم. أنا قلبي يحترق. عندما رأيت الخاتم، شعرت أن ماءً مغلياً صُب عليّ من رأسي إلى قدمي. من يعلم كم ألفاً ثمنه؟ أمر مؤسف وحرام، أليس كذلك؟ اغرق في الديون والنفقات. واشتري خاتم الماس لبنت السليمانية التي من دون لباس داخلي. أي فوضى، أنا لم ألد صغيري من أجلها!

٥

سألت ناظان:

- لم تستدن، وتشتري الخاتم، أليس كذلك؟

قال مظهر:

- لا، لفت نظري في الواجهة منذ فترة طويلة. عندما توفرت لدي نقود، قلت دون تردد: لأشتريه وأحفظه في الصندوق. اشتريته إذن. ثم أنني تزوجتك من دون أن أدفع لك مهراً كبيراً... ليكن هذا الخاتم بدل المهر...

ارتشف شايه.

كانا متقابلين في أحد المقاصف العائلية التي انتشرت كطراز جديد يشربان الشاي. كان من غير المستهجن بالنسبة إلى مظهر المتوائم بسرعة مع الأمور الجديدة القادمة مع الثورات شرب الشاي أو القهوة وحتى العرق مع زوجته في مقصف أو حديقة، فالمحيط لا زال يستهجن هذا. ولكن الزبائن الداخلين إلى المقصف والخارجين منه لا ينظرون إلى المحامي مظهر نظرة محترمة حتى لو كانت من معه زوجته. أتجلب امرأة إلى وسط الرجال؟ من سمع بهذا؟

كانت ناظان تحس بنظرات الرجال متجهة إليها من بعيد، وتدرك

أنها مستهجنة، ولكنها لا تهتم. إنها مع زوجها. لو أخذها إلى الموت، لذهبت. خاصة بعد تفكيره بها، ودفعه حفنة نقود لشراء الخاتم! رغم أن قلبها يخفق بالفرح، فهي لا تبدي أقل تعبير، فقد أنزلت عينيها صامتة.

أما مظهر فقد فقدَ أمله هذه المرة أيضاً. مهما فعل فلا جدوى. لن تبدي انفعالاً كما يريد، ولن تظهر فرحها.

- كان من الأفضل لو أننا أرينا الخاتم لأمكم...

سأل مظهر محتداً:

- لماذا؟

- لا أعرف. أمكم أيضاً...

- أولاً الغ خطاب الجمع هذا. قلت هذا ألف مرة. لا يمكن أن تكون هذه الجدية بين زوج وزوجة. بعد ذلك، دعي حمل عبء الدفاع عن أمي. أنا أعرف أمي أكثر منك!

غضب، وساوره شك خفيف. حين تتكلم معه زوجته بصيغة الجمع، يجدها بعيدة حقاً عنه. لماذا تتصرف على هذا النحو؟ يبدو له أن هنالك قصداً رغم معرفته عدم وجود قصد لديها. إنهما متزوجان منذ خمس سنوات. وهذه الرسمية وإخفاء الأحاسيس على مدى خمس سنوات أشبه بالهرب إلى الوراء...

كانت ناظان تفكر بالأمور نفسها أيضاً: لماذا لا تعبر عن مشاعرها؟ زوجها يريد هذا. لو أنها استطاعت التعبير عن مشاعرها، وانفعلت، وعانقت زوجها الذي تحبه حقيقة... واستطاعت القول: "يا زوجي العزيز، يا عزيزي الحلو"...

رفعت عينيها إلى زوجها. بدا لها أنه يرتشف الشاي متضايقاً.

تعرف جيداً متى يتضايق، ومتى يفرح، وكيف يفقد مرحه فجأة لحظة الفرح.

لمجرد الكلام قالت:

- أين ذهب خلدون يا ترى؟

انسل مظهر من ضيقه. جال ببصره حوله. المكان الذي يجلسون فيه يمزج بين المقهى الريفي والمقصف. في الطرف الآخر البعيد، وراء قضبان الحاجز الخشبي، يشرب أحدهم ضخم الكرش بطحة عرق باكوس. خطر بباله فجأة الانتقال إلى ذلك الطرف، وإلقاء السلام على الرجل برغم عدم معرفته به، والجلوس إلى طاولته. لقد اشتهى العرق إلى حدّ...

نهض عن الطاولة، وذهب إلى باب المقصف للبحث عن ابنه.

كان خلدون هناك بجوار الحوذي، يسأل عن أمور ما، ويستمع لإجابات الحوذي كأنه إنسان كبير. كانت يداه معقودتين خلفه. آه لو غدا حوذياً!

- هل هذه العربة لك؟

ضحك الحوذي القصير الضئيل:

- إذا لم يظهر صاحب لها...

- والخيول؟

- والخيول أيضاً.

- من أين جلبتها؟

- من الشارع!

- هيا ياه، أنت أيضاً...

- ألا تصدق؟

- أتوجد عربة في الزقاق؟

- ألا توجد؟

- لا توجد طبعاً.

- اسأل أبيك، وسوف ترى... أسقطوها، فوجدتها!

كانت عبارة "اسأل أبيك!" دليلاً على صدق الحوذي.

- وهل أستطيع أن أجد أنا أيضاً؟

- يمكنك أن تجد عندما تكبر.

لم يسأل عن شيء آخر. يعني أنه يمكن أن يجد عندما يكبر. حسنٌ، متى وكيف سيكبر؟

خطرت بباله أمه. لابد أن تعرف. أبوه يعرف أكثر، ولكن لا يمكن أن يُسأل. يمكن أن يقول: "مخبول. ألم تدرك شيئاً ضئيلاً إلى هذا الحد؟" أو "أنت مخبول جداً ولاه خلدون!"

صعد سلم المقصف. جاء إلى جوار أمه.

سأله أبوه:

- أين كنت؟

لم يكن مناسباً له أن يقول إنه مع الحوذي. سيعيب عليه قائلاً أيضاً: "أنت ابن سيد، ألا تخجل من صحبة حوذي؟". قال:

- كنت أنظر إلى الشارع.

- ماذا يوجد هناك؟ أيرقصون قرداً؟

خطرت أمور في داخله، ولكنه ضبط نفسه. وهل هذه عبارة؟ لو أنهم يرقصون قرداً لما قال أنظر إلى الشارع، بل: يرقصون قرداً وأتفرج عليه. لا يقتنعون بأي شيء.

سُر مظهر حين رأى ابنه شارداً بأداء "التفكير" قال:

- هاه؟ أكانوا يرقِّصون قرداً؟

- لا.

- ماذا إذاً؟

- لاشيء، هكذا...

تنهد مظهر. وجع رأسه يزداد تدريجياً. كلما أمل بشيء أو رغب به كثيراً وتحقق عكسه، يتضايق، ثم يبدأ وجع رأس خفيف يشتد تدريجياً.

- أننهض؟

قالت ناظان:

- أنتم تعرفون.

كانت عبارات: "أنتم تعرفون" تجعله سيئاً جداً. ألم يكن لهذه المرأة ما تعرفه، وما تريد أن تفعله؟ وقعت عينه على ابنه. اندس بأمه كقط، ويراقب أباه. يجب أن يكون عنده همٌّ يخفيه عنه. سأله:

- ماذا يوجد من جديد؟

انكمش خلدون كحلزون :

- لا شيء.

- يوجد شيء. احك ما هو؟

فهم أن أباه قد غضب. بدل أن يغضبه، فيؤنبه، ويضربه، قال:

- كيف يكبر الأولاد يا أبي العزيز؟

يجب أن يشرح هذا باختصار للولد. هو لا يعرف الأمر بشكل جيد أصلاً. درسوه أموراً ما في الثانوية، ولكن...

- هذا موضوع عميق جداً يا ابني! لن تفهمه إذا شرحته لك.

الأفضل أن تأكل كثيراً، وتنام بعد الظهر، وتكبر بسرعة. واذهب إلى المدرسة، وتعلم من المدرسين. فهمت؟

لم يجب خلدون. هذا يعني أن الأمر قد تم، فهم أم لم يفهم. طالما أن أباه أراد هذا، فسيكون ما أراد. رغم هذا "كيف يكبر الأطفال" يا ترى؟

نهضوا.

كانت الشمس تجنح للمغيب ببطء خلف الجبال الزرقاء البعيدة.

عندما عادوا إلى البيت وجدوا أن "العجوز" لازالت في غرفتها. بابها ونوافذها مغلقة بإحكام. شعرت ناظان بخوف الحماة. شعرت بهدوء ما قبل العاصفة داخل البيت. من يعلم أي عاصفة ستهب بعد هذا الهدوء! لم تكن تريد هذه العاصفة. كلّت وملت. لسان المرأة قذر، ومن السهل أن تستفزه. يرتجف المسكين كورقة خريف بعد الشجار.

بعد أن نزعت غطاء رأسها، قالت:

- لن يكون سيئاً إذا راضيتم أمكم.

هز مظهر كتفه. كان متضايقاً، ووجع رأسه يزداد. كان في هذه الأثناء لا يحتمل الدلال ليس من أمه فقط بل وحتى من أبيه لو قام من قبره. أمّه من طرف، وزوجته من طرف... أمه معروفة. لو أن زوجته على هواه...

خلع سترته وبنطلونه، وتمدد على الديوانة. تعب! مع أنه لم يعمل ما يتعبه. قال لنفسه: "هذا يعني أن الانهيار النفسي يتعب الإنسان كثيراً!"

ماذا يجب أن يفعل؟ كيف يتخلص من هذا الضيق المزعج المتراخي؟ خطر بباله الرجل السمين وبطحة باكوس التي أمامه.

نط عن الديوانة جالساً: حقاً، لماذا يؤجل شهيته لشرب العرق؟

- يا امرأة!

كانت المرأة الشابة ترتب صندوقها. يا لها من امرأة عبثية. ما لها وهذه الصرر؟

- نعم؟

- اشتهيتُ شربَ كأسين. أخرجي مخللاً وجبناً وما شابه...

بعد أن مسحت ناظان على علبة الخاتم، ووضعته بعناية في زاوية، قالت:

- حاضر!

قالت هذا ولكن من دون رغبة. يغدو زوجها مخيفاً حين يشرب العرق. يتحدث كثيراً، ويضحك، حتى أنه يغني، ويجعل زوجته كالمخلل ليلاً. كم كانت ناظان تريد أن يكون زوجها مثلها في حالة من يخشى سحق نملة!

عبرت إلى المطبخ يائسة، وأخرجت مخللاً وجبناً، وحضرت مائدة عرق على طاولة البهو.

السيدة هاجر التي تتابع كل هذا من نافذتها المطلة على البهو قالت لنفسها: "امرأة مسعورة! أغرقت الولد في الدَين ليشتري لها خاتماً. والآن يشرب عرقاً ليستمتع! لا أكون هاجراً إذا ما أريك! سأريك كيف تكتبين سحراً لابني!"

انتقل مظهر إلى الطاولة. كان يشرب العرق ممزوجاً بالماء. نصَّف الكأس عرقاً، وأضاف إليه ماءً، وشربه رشفة واحدة.

أوووه... توجد حياة!

أشعل سيجارة. كانت عبارة: "أوووه... توجد حياة!" لصديق

عينتابي. إنها عبارة أوكّش ذو الشارب الطويل الرفيع الأسود. أي شاب ناري متوفز كان! دخلا كلية الحقوق معاً. بدأا النضال القومي في السنة الثانية، وهرعا معاً كالجميع لخدمة الوطن. عندما يملأان رأسيهما في خمارات إمينونو وسوق السمك، كان أوكّش يفرك يديه بعد الكأس الأول، ويقول: "أوووه، توجد حياة يا هوه!" كان ولداً حيوياً لا يهدأ. يمكن القول إن مظهراً قد أخذ منه شعور النضال القومي. كلّفه قريبه الموظف في أمانة المدينة بتسليم أمانات سرية لأشخاص مشبوهين ذوي تصرفات غريبة في أمكنة سرية. قبلا دون اعتراض، وعملا بجرأة شديدة.

آه، يا لتلك الأيام، آه!

هل أمل أن يبقى محامياً بسيطاً يذهب من عمله إلى بيته وبالعكس، ويرى حماسه ينطفئ تدريجياً في مدينة صغيرة كهذه؟

جلوس زوجته قريباً منه محا خيالاته. قال:

- مرحباً...

لم يتلق جواباً. اكتفت بالابتسام كما تفعل دائماً.

- أجيبي ولاه، أقول مرحباً.

- مرحباً...

- مرحباً ياه. تحركي ياه!

خطر بباله أمر آخر: ترى كيف تغدو إذا شربت عرقاً؟ هل تدب فيها الحيوية؟ كان يعرف أن العرق في أكثر الأحيان يُخرج الشخصية الأساسية التي في الداخل إلى السطح. من يعلم، لعل الشخصية الثانية لزوجته أكثر حيوية وبريقاً وانفعالاً.

ملأ لها قدحا، ودفعه إليها.

- اشربي لنرى!

طار عقل المرأة الشابة! أهي التي ستشرب؟ ماذا أيضاً...

- هيا، لماذا تقفين؟

- أنا؟ هل أنت جاد؟

- أنت، قولي هل أنا جاد؟

- معقول؟

- طبعاً. أنا أريد. إذا قدّم لك زوجك سماً عليك ألا تقولي: لا!

- صحيح، ولكن...

- ماذا؟

- لا تفعلوها يا سيد مظهر.

بدا مظهر أقرب إلى الهازل:

- ستشربين. آمرك!

تناولت ناظان الكأس دون رغبة. وبينما كانت تقربه إلى فمها قلبت معدتها رائحة اليانسون الحادة، وأطلقت صوت "إع".

هذا السلوك وتّر أعصاب مظهر مجدداً:

- أقول اشربي!

- يا سيد مظهر!

- إما أن تشربي أو...

- ....؟

- تقبلين وجهي الميت!

التقطت الكأس وقد طاش صوابها، وارتشفت، لكنها لم تستطع ابتلاعها. بدأ لسانها وبلعومها يحرقها. فجأة قذفت العرق من فمها.

انفجر مظهر كقنبلة:

- انقلعي، انقلعي!

نهضت ناظان عن الطاولة كأنها ارتكبت ذنباً عظيماً معتقدة أنها مُحقت. دخلت إلى غرفة نومها ساكنة.

السيدة هاجر تتابع هذا كله من نافذة غرفتها وأطراف ثوبها تقرع الأجراس فرحاً، وفمها بدا مستطيلاً حتى أذنيها، وقد خطر ببالها أن تهرع إلى ابنها غير مبالية بالحرد، وتعانقه، وتقبله من خديه. أمسكت نفسها بصعوبة.

شرب مظهر الكأس الخامس من دون ماء أو مقبلات، ونهض عن الطاولة. هل يمكن الجلوس برأس كهذا في بيت من دون مرح أو متعة؟

وضع قبعته على رأسه، وخرج.لم يكن يحب أمه وزوجته أيضاً. لا يمكن مقارنة زوجته بأمه، يعرف هذا. مثلاً إذا دفع الكأس أمام أمه، تلتقطه رغم صلاتها وتشربه. حتى إنه لا حاجة لتقديمه لها، ستقوم بنفسها، وتملأ قدحها بالعرق، وتشرب. ولكن الموقف الذي تتخذه من كنتها مخيف.

إنه ليس سعيداً مهما حصل. لا تهمه أمه كثيراً، جيدة كانت أم لا. لو كانت زوجته على هواه واشتكت من أمه، وطلبت سكناً منفصلاً، سيجد حلاً. إنها لا تريد، ولا تشتكي مع توالي الأيام.

قال لنفسه: "متعبة!" حقيقة... هذا هو التشخيص الأصوب لزوجته: "متعبة!"

لا تخرج من المطبخ طوال اليوم، وفي أوقات فراغها إما أن تمسح الأرضية الخشبية، أو تغسل، أو ترتق، أو ترقع. لم يأخذها خادمة بل

صديقة حياة. صديقة حياة براقة نارية. خطرت بباله (ليمان) المحامي قدري: إنها امرأة طويلة، ضخمة، دائمة القهقهة، ومصدر سعادة وتلوين في البيت! لو أن له امرأته على هذا النحو. لو أنه يسمع ضجيجها على السلم عندما يقرع الباب، وتردد جدران البيت قهقهات نشوتها! لو يجلسان متقابلين لشرب العرق. لو تغني له أغاني جميلة. أين هذا؟

ناظان امرأة "متعبة" غالباً. هكذا هي "متعبة". انتبه إلى هذا فجأة، ودهش. كيف لم ينتبه إلى هذا حتى الآن؟ كانت تضطجع فقط. خاصة بعد أن ولدت خلدوناً، فقد تعبت أكثر. لم تكن أمه غير محقة تماماً بقولها: "ذات روح الخادمة".

قفز إلى حنتور شاغر.

- إلى بار جيلان!

- إلى بار جيلان يا سيدي؟

- نعم، ماذا يوجد؟

لم يجب الحوذي، ولكنه استهجن قوله: "إلى البار". لعله أخذه من بيته إلى مكتبه، ومن مكتبه إلى بيته مئة مرة على الأقل، ولكن إلى البار؟

لسع سوطه كفل الحيوانين.

كان بار جيلان أحد البارات الصغيرة، يحتوي على طاولات وكراسٍ ملفقة تعزف فيها موسيقى الجاز، وشاع طرازها في كبرى مدن الأناضول في ذلك التاريخ. كان مستودعاً كبيراً مهجوراً خارج المدينة. ترك صاحبه القصير الضئيل منظره الخارجي كما هو، وغيّر شكله الداخلي كثيراً. زيّن جدرانه بلوحات "شموس غاربة"، "بحار هادئة"، "وأشجار نخيل سقطت عليها حمرة شمس غاربة".

استقبله صاحب البار عند الباب.

- واخ يا سيدي، واخ يا سلطاني... أي شرف هذا، وأي شرف؟ أريح قذفتك إلى هنا، أم سيل؟

كانت عيناه تضحكان. رغم أنه يخطط منذ فترة طويلة للجلوس مع الرجل الذي تابع دعواه على انفراد، إلا أنه لم يفلح بأي شكل. هذا وقته بالضبط. ملف الدعوى لدى المحامي، ولكن هنالك كثيراً مما يجب أن يشرحه له خارج الملف. الرجل الشاب الذي يبدو جدياً جداً في المكتب ودهاليز العدلية ونقابة المحامين،مسرور جداً الآن. سيسحبه إلى إحدى الطاولات المتطرفة، ويشرح له ما خطط لشرحه منذ زمن طويل. يجب على المحامي أن يعرف الطرف الآخر جيداً. الجماعة فهموا جيداً ما يعنيه "البار". البار يعني مصرفاً تقريباً. قال: "أخرج العربي، والقِ ثمانيَ أو عشر طاولات وعشرين أو ثلاثين كرسياً، واجلب نساء من اسطنبول، وجازاً مكسور المؤخرة، صار باراً. وابدأ بسلب من لهم نقود كثيرة وعقل قليل." حتى إنه عرض على العربي بعد أن فسخ شراكته، شرط أن يتحمل النفقات كلها.

في تلك الأثناء فتحت طاولة مكلفة في مكان قريب من حيث تجلس الجليسات اللواتي لا يعملن، ويبددن ضيقهن بالتدخين. إحدى امرأتين تتابعان منفعلتين انهماك رب العمل البخيل الذي لا يبيع كرماً كهذا بسهولة، قالت:

- الله يعطي رجلنا، إنه منهمك.

تسعل المجاورة لها على منديلها باستمرار. هزت رأسها:

- نعم.

- من هو ضيفه يا ترى؟

- لنر إن كان ضيفاً؟

- وهذا أيضاً صحيح ياه...

- ولكنه رجل وسيم جداً!

- جداً. أريد قضاء ليلة معه...

قالت جالة الطويلة:

- وأنا، أريد قضاء لياليّ كلها!

بعد أن سعلت نسرين بشكل متقطع في منديلها الزهري، ومسحت فمها، هزت كتفها، وقالت:

- أنا أيضاً أريد لو كان في اسطنبول، أما هنا... الله لا يرينا! لينته عقدنا، و... فجأة وقعت عينها على بليتها. جالة أيضاً رأت هذا. لكزتها بكوعها. قالت نسرين:

- أعلم.

ركزت جالة عينيها بجاذبية مدهشة على الشاب الأشقر الممتلئ قليلاً، الصغير الشاربين الذي حضر له رب العمل مائدة، لا تبعد عنهم. فجأة غلى دمها. قلبها خاوٍ ينتظر. لن يكون سيئاً إذا حدث شيء بينهما.

أشعلت سيجارة. ونفثت الدخان إلى السقف بحركة سعيدةٍ.

الأشقر الوسيم أيضاً ركز عينيه عليها. بعد أن تبادلا النظر مطولا وبانتباه، ابتسمت ابتسامة خفيفة.

رد عليها الرجل الشاب.

انتبهت للأمر نسرين التي تسعل بشكل خفيف، فهمست:

- الله يسهّل عليك.

وقالت دون أن تنظر:

- مرسي. المخبول يدخل القفص...

- لا يدخل، إنه دخل.

- انتظري، انتظري. يقول شيئاً لرب العمل وهو ينظر إليّ. هاه، إنه ينادي النادل. تمام. النادل قادم...

- هيا، مبروك...

انحنى النادل أمامها:

- جالة خانم، تفضلي!

سحقت سيجارتها في المنفضة المجاورة لها، ونهضت.

استُقبلت على الطاولة بشكل راقٍ. كانت تحب أموراً كهذه. يجب أن يكون الرجال راقين، وغير مقصرين بالاحترام. والشاب الأشقر كما تريد تماماً. قُبِّلت يدها بطريقة لم ترها منذ أن جاءت إلى المدينة.

قال رب العمل:

- المحامي مظهر!

- شكراً، أنا جالة...

رفعت ثوبها العريض البطيخي اللون، وجلست بجانب الرجل الشاب.

شبَّه المحامي مظهر المرأة التي وضعها في سجن نظره منذ رآها بليمان زوجة المحامي قدري اللعوب المغناج. وهذه أجمل منها، جذابة خاصة. ويداها؟ كانتا ناعمتين طويلتي الأصابع كما يريد بالضبط. لازال يشعر بنعومة كفيها. ولا يريد أن يتذكر يدي زوجته المتصلبتين كيديّ الرجال من غسل الغسيل والمواعين.

بعد مجاملة ذات احترام، رفعا الكلفة فوراً. أدركت المرأة الشابة أن الرجل الوسيم أكثر حيوية مما اعتقدت. رجل تماماً. أيمكن التفكير بامرأة لا تموت إذا قال لها رجل كهذا موتي؟

- أي مشروب تأمرين يا سيدتي؟

- عنبرية!

تلاقت عيناها بعيني رب العمل. لم تكن نظرة تهديد أو تعني: "افتحي عينيك. الرجل الذي أمامك عنده مال!" كان ينظر بمعنى: "ابسطي السيد، لي عنده عمل يجب أن ينهيه!"

أغمضت عينيها، وفتحتهما بمعنى: "حسنٌ، حسنٌ فهمت..."

بعد انفرادهما على الطاولة قرّبت كرسيها أكثر من المحامي الشاب. انتبه. تبادلا النظر، والابتسام.

- أليس من الأفضل أن نذهب إلى إحدى الخلوات؟

هذا يناسب الرجل الشاب. أخبرا النادل الباسم الواقف عند رأسيهما برغبتهما الذهاب إلى إحدى الخلوات. تحرك النادل فوراً.

بعد أن حل رب العمل شغله مع الكاتب، وعاد، وجدهما في الخلوة. فهم الأمر. لابد أن المحامي مظهر قد أعجب بالمرأة. ليكن. لن يغير على جالة منه. ثم أن هذا أفضل. إن شاء الله يعشق المرأة، وتربطه بالنقود.

قال مظهر:

- تشربين ببطء شديد.!

أخذت المرأة الشابة يد مظهر التي تداعبها بين يديها، إلى شفتيها، وقبلتها.

- لِمَ تدخلون بنفقات غير ضرورية؟

أراد أن يقول: "أنا محامي صاحب البار، يمكن ألا يأخذ مني نقوداً" ولكن لم تسمح كرامته بقبول هذا.

- كل شيء يليق بكم!

- مرسي. أنا لا أحب العنبرية كثيراً...

- ألا تحبينها؟ ماذا إذاً...

- العرق سلطان المشروب، ولكن...

كاد مظهر يقفز من مكانه:

- لنؤمنه فوراً!

سحبته من يده، وأجلسته:

- احذر!

- لماذا؟

- عادة رب عملنا سيئة...

صار مضطراً. قال:

- أنا محامي رب عملكم.

- أهكذا إذاً؟

- نعم.

- أنتم تنظرون في دعوى الإخلاء تلك، أليس كذلك؟

- هذا ما يحدث.

- أمتزوجون أنتم حباً بالله؟

اكفهر وجه مظهر:

- مع الأسف...

- أمع الأسف؟ غريب... غير مسرورين من زوجتكم؟

استجمع نفسه. من غير اللائق بحث أمور بيته وزوجته مع امرأة بار تعرف إليها تواً. قال:

- يا ابني النادل!

هرع النادل الظريف:

- هل تستطيع أن تجد لنا زجاجة عرق؟

ضحك النادل:

- إنه ممنوع في البار، ولكن ليس عليكم... أمركم. (انحنى) أنا صديق رضا...

- أي رضا؟

- الذي يسكن مقابل داركم...

- ها، رضا أفندي... إيه؟

- طالما أنكم أتيتم، لو تكلمون رب العمل... لدينا نقص نادل. ثم إنكم وعدتموه...

- حسنٌ. ذكرني مرة أخرى!

لم تنس جالة أن السؤال الذي سألته إياه بقي من دون جواب. قالت:

- سألتكم إن كنتم غير مسرورين من زوجتكم؟

تلقت إجابة:

- لست مسروراً.

- لماذا؟

قبل قليل شرب نبيذاً كثيراً على الطاولة الأخرى. أثَّرَ على رأسه جيداً امتزاج النبيذ مع العرق الذي شربه من قبل، وثمل. عدّد الهموم

المتراكمة داخله عبر السنين: متزوج منذ خمس سنوات. لديه أم وزوجة وولد. زوجته امرأة على قدر حالها. لا تعطي أهمية كبيرة لغير الغسيل والجلي والمسح والترقيع. ولكنه يريد امرأة حيوية مغناجاً. يريد أن تقابله وراء الباب منفعلة عند عودته إلى البيت مساء؛ وأن تعانقه، وتغمره بالقبلات، وتنسيه همومه؛ وأن تجد ما يسليه؛ وأن تجلس أمامه، وتشرب العرق طبعاً.

ولكن زوجته... تنهدت جالة، وقالت:

- كم تتشابه حياتانا يا سيد مظهر؟ أنا أيضاً فكرت بالحياة الزوجية مثلكم. كم رغبت بأن يكون زوجي حيوياً محباً للحياة. مع الأسف أنا أيضاً مثلكم لم أستطع إصابة الطائر الذي أريد بالحجر الذي رميته. كان زوجي رجلاً خوافاً ضئيلاً يخشى دهس نملة. كانت متعه كلها عبارة عن الصلاة خمسة أوقات في جوامع اسطنبول الكبرى، ولعب النرد. وغير هذا كنت بالنسبة إليه مجرد خادمة، كنت طاولة أو كرسي أو صندوق ولا أختلف عن أي غرض لا يعيرها أي اهتمام ولا يمحضها الود والاحترام. هو شخص مضطر أو محكوم بالحركة كما يريد، ومتى يريد. كانت حياتي تمر وسط أغطية تلفني بقوة، ووراء نوافذ موصدة شبابيكها. حماتي كابنها تماماً: لا تلتفتي يميناً حرام، ولا تلتفتي يساراً حرام، لا تكشفي وجهك، لا تضحكي، لا تتنزهي... مع أنني أحب الانفتاح، صاحبة فكر حر بطبيعتي. يمكنكم أن تتوقعوا النهاية يا سيد مظهر... تركت بيت زوجي، وخرجت. وكان خروجي ذلك الخروج...

سأل مظهر بفضول:

- حسنٌ، وأبوكم؟ ألم تعودوا إلى بيت أبيكم؟

ذرفت دمعتان من عينيها.

- عـدت... ولكنني وجـدت بابه مـوصـداً بوجـهي. لم يكن أبي مختلفاً عن زوجي. خاصة بقضايا الشرف والدين...

وضع مظهر يد المرأة الشابة بين يديه. جلسا متلاصقي الركبتين، وتكلما حتى وقت متأخر. سأل مظهر عما يشغل باله منذ قليل حتى الآن:

- حسنٌ، كيف سقطتم هنا؟

لمعت عينا جالة الواسعتين الخضراوين بما يشبه التمرد:

- سقوط؟ أنا لا أرى الأمر هكذا يا سيد مظهر. في السقوط أمر خارج الإرادة والرغبة. أما أنا فقد أتيت برغبتي واختياري!

- اختـيار؟ اغفري لي خطأي الصغير في هذه الحال. أنا أسحب كلامي. حسنٌ، ما هو سبب رغبتكم بالعمل هنا؟

هزت كتفها:

- لاشيء. لعلها المصادفة. ولعلها رغبة الثأر من سنوات الحكم بالعمل زوجة لذلك الرجل الجامد المتراخي الفاقد للحياة!

تذكر مظهر حياته: "مثلي تماماً!"

ارتشفت جالة عرقها. بدأت عيناها تغرورقان. بينما كانت تهندم ثدييها القويين المشدودين النافرين من ثوبها المفتوح الصدر كثيراً، عبرت موجةٌ نار جسد مظهر. عبرت ظلالٌ أمام عينيه. تلاقت عيونهما. كل منهما كاد يفقد صوابه من الرغبة.

قال مظهر بصوت مرتجف ومبحوح:

- بعد ذلك؟

- كيف أعرف ما بعد ذلك؟ أغضب أحياناً. وخاصة في الليل، عندما أعود من هنا أبكي صامتة على سريري. هذه حياة لم أرغب بها أبداً. مع أنني كنت امرأة حيوية! ألا يقرع الباب؟ كنت أنزل كالمجانين أهز البيت من أساسه. كنت أفتح الباب وأعانق المسكين. أقبّله، وأقبّله.. ولكن هذا كل شيء. هل ردّ مرة؟ أبداً. كانت حاله متعبة ومنتهية. يصعد السلم حزيناً كأنه يعاني من آلام مزمنة، ويلقي بنفسه بصعوبة على سريره. أدور حوله كالمروحة. مهما فعلت لا جدوى. ينام على السرير جامداً كالميت...

ارتشفت عرقها. غضبت. ازداد تلون خديها الملونين أصلاً. بدأت خضرة عينيها باللمعان حيوية وكأن الضوء ينبعث منهما.

- آه يا أمي العزيزة... تحملي يا ابنتي، تحملي يا صغيرتي ناريمان. الله حافظ، النهاية جيدة يا ابنتي...

- اسمكم الأصلي ناريمان؟

- نعم.

- أتسمحين لي بأن أخاطبكم باسمكم الأصلي؟

- أكون ممتنة.

- حسنٌ، بعد ذلك؟

- بعد ذلك... ضغطت على نفسي، وتحملت أسابيع وأشهر. نظرت، فوجدت أن الضغط يولّد الانفجار، فرفعت راية التمرد في أحد الأيام!

- ماذا كان يعمل زوجكم؟

- كان صاحب مخزن قماش كبير في "سلطان حمام". هم أغنياء

جداً بالأساس. لا يحتاج للعمل، ولكنه يعمل. ما الفائدة؟ ما بحثتُ عنه ليس النقود والغنى، بل الحياة والحيوية. أردت زوجاً يطقطق عظامي، ويشعرني بانقطاع نَفَسي عندما يلفني بين ذراعيه. أنا أتكلم بصراحة يا سيد مظهر: أريد لزوجي أو الرجل الذي أدخل بين ذراعيه أن يعنّفني، ويجنني، ويعصرني!

بدأ دم مظهر يغلي في عروقه.

– أما زوجي، ومنذ الليلة الأولى، أدار ظهره، ونام، وشخر كثيراً حتى الصباح.

– كان مسناً إذا؟

– ما علاقة هذا؟ لم يكن قد بلغ الثلاثين.

– ماذا إذاً؟

– إنه هكذا منذ الولادة، ولكنني علمت بالسبب الأساسي لفقدانه الرغبة في ما بعد.

تقابلت عيونهما. شعر بأمور ما.

– أهو من النوع الذي لا يرغب بالنساء؟

– نعم.

شرب مظهر العرق الذي في كأسه رشفة واحدة.

– كما تتوقعون امرأة بصورة رجل؟

ظهر النادل السابق عند باب الخلوة. كان مبتسماً. كأنه جاء للتذكير بعمل رضا نادلاً:

– أتأمرون بشيء؟

عندما رآه مظهر، تذكر رضا. قال:

- في عقلي.

انسحب النادل.

التفت مظهر إلى جالة:

- قلت هذا للتو أيضاً، يا لتشابه حياتينا، أو الأصح، نوعينا! أنت لم تجدي ما ترغبين في زوجك، وأنا في زوجتي. لهذا فأنت امرأة عقلي...

قالت جالة:

- (مرسي).

- لم أستطع جعلها تقول زوجي العزيز طوال تلك الأيام.

- واخ، واخ، واخ...

- مع أنني كم أردت أن تعانقني، وتغمرني بالقبل!

في اللحظة التي أرادت جالة أن تعانقه، دخل إلى الخلوة صاحب البار القصير الضئيل. سأله مظهر عن تأخره. دقق حسابات المشروب مع الكاتب.

في هذه الأثناء رأى النادل الباسم الوجه من جديد. إنه الوقت المناسب. قال:

- أريد أن أسترحمكم بشيء...

دهش الضئيل:

- استرحام؟ مني؟ ماذا تقول ها؟ مرني يا عيني!

- استغفر الله. عندي جار، إنسان جيد جداً. بحاله. رجاني قبل مدة. قال إنه يوجد هنا شاغر لنادل...

ضحك صاحب البار:

- أهو رضا؟

- كيف عرفت؟

- له أصدقاء هنا. يلحون علي منذ أيام. يعني أنه وصل إليكم؟

- ولكنه إنسان جيد جداً.

- سأفعل، فلقد تدخلتم أنتم بالموضوع...

- أشكركم. أيأتي غداً؟

- متى ما يريد، ويبدأ العمل فوراً!

بإشارة من عينه أبلغ النادل الذي يدور حوله بالوضع.

بعد أن شرب كثيراً مع صاحب البار حتى الثمالة، نهضا متأخرين كثيراً. خرج من البار منتشياً وفي داخله جالة. لم يبق عنده وجع رأس أو ضيق. قفز إلى حنتور شاغر.

- سر إلى البيت!

- كما تأمرون يا سيد مظهر.

يجب أن تكون عنده زوجة كجالة، عفواً، ناريمان. امرأة حيوية متململة تنتظره عند باب الزقاق. وليس مثل زوجته المطأطئة، والمستسلمة بعبارات: "أنتم تعلمون، كما تريدون..." يجب أن تنتصب أمامه، وحتى أن تؤنبه عند الضرورة أو عندما يظلمها. عندما تُذكر المرأة يخطر بباله الغنج، والدلال، والتمايل من الرأس إلى القدمين. ليس لدى زوجته دلال أو تمايل أو غنج. تخلّيتُ عن الدلال والتمايل والغنج، لكن لو أن لها إرادة على الأقل!

أشعل سيجارة. لو أن جالة زوجته... لو غدت، لابد أنها ستعرف كيف تملأ عين أمه. من غير الممكن ألا تحب أمه جالة، عفوا، نرمين. لعل أمه تغضب من انسحاق كنتها، وتكرهها.

حين وصل الحنتور إلى مقابل بيت ناجية، طارت الخمرة من رأسه.

- قف يا ابني!

وقف الحنتور. قفز. دفع له نقوده، وصرفه. حسنٌ، ولكن أمِنَ الصحيح إيقاظهم في هذه الساعة من الليل. قال لنفسه: "يا رجل. صحيح أم خطأ، البشارة بشارة..."

قرع الباب الخرب بقوة براحة يده. عند القرعة الثالثة، أضيئت النافذة المطلة على الزقاق بشكل خفيف. صوت امرأة مصابة بالزكام سأل:

- من هناك؟

- أنا. جاركم مظهر!

شعر مظهر بأن البيت المنزلق إلى الأمام قد اهتز، وأن انهماكاً ولملمة أغراض، وإخفاء أشياء قد بدأ. أم أنهم يرفعون المفروشات إلى الداخل؟ فتح رضا الباب في آخر نفس:

- تفضلوا يا سيدي. أرجوكم. اشربوا قهوة مرّة!

قال مظهر بإرادة، وحركة مصرة:

- لا، الوقت متأخر جداً. أنا نعسان. سأذهب لأنام. ولكنني أقلقتكم لأنني قد لا أراكم صباحاً...

قال رضا لاهثاً:

- استغفر الله يا سيدي، حاشاكم...

- اذهب، وقابل صاحب البار. لقد وافق على عملك هناك.

- صار؟ الله يرضى عنك يا سيد. الله يجعل التراب بين يديكم ذهباً. الله...

ناجيــة أيضـاً نزلت. تنظر من وراء كـتف زوجـهـا، ولا تقل عنه بالدعاء. قال مظهر:

- ليست مسألة مهمة يا روحي. هيا تصبحون على خير...

- بالسلامة يا سيد. الله يخلي لكم ولدكم. الله يجعل التراب..

اتجه إلى بيته. فتحه بمفتاحه، ودخل. انتبه حين عبر البهو. ثمة ضوء في نافذة أمه. توقف. أيدخل، ويحاول مصالحتها؟ تراجع. اتجه إلى غرفة النوم وفي داخله جالة، لا، ناريمان.

كانت زوجته مستيقظة. قفزت من السرير، عانقته.

يا للدهشة! إنها حركة لم تقم بها طوال هذه السنين. كيف حدث أن وضع كل منهما شفتيه على شفتي الآخر؟

٦

ناظان أيضاً مندهشة لطريقة حدوث هذا. كيف حدث هذا حقاً؟ ماذا لو عاب عليها زوجها هذه الحركة؟ وإذا قال: "أيّ امرأة وقحة"؟ بالنسبة إليها كل محاولة تأتي من الرجل. أما المرأة فمكلفة بالرضوخ لرغبات الرجل من دون استفسار. لأن الرجلَ "رب صغير" للمرأة.

نظرت إلى الرجل الطويل المتمدد بجانبها: كأن وجهه الأشقر الذي ينيره مصباح الليل بضوء أصفر خفيف يبتسم. صدره يعلو ويهبط بتنفسه المريح. هل عاب عليها حركتها تلك؟ ترى هل اعتبرها وقحة؟ كيف ستفهم هذا؟

أدارت ظهرها بهدوء للرجل النائم. تذكرت حال زوجها لحظة أن عانقته: كيف دهش؟ كيف حملقت عيناه؟ قال: "غريب، غريب جداً..." بعد ذلك تمتم بأمر ما... نعم ياه، تمتم: كأنه قال: "ما الدافع لهذا؟" لو أنها قالت له: "وهل يجب أن يكون هناك دافع؟ ألست زوجي؟ قلبي دفعني. غلى دمي!" لم تستطع قول هذا، لا تستطيع قول عبارات كهذه حتى لو خربت الدنيا. ماذا كانت تقول خالتها: "أرجوك يا ابنتي، كوني كما أنت، ولا تكوني وقحة على الرجل. بقدر ما تكون المرأة ثقيلة، بقدر ما تربط رجلها بها!"

تنهدت. لو أنها لم تعانقه... مع أن الرجلَ ثملٌ، من المحتمل أن ينسى صباحاً، ولكن... إذا لم ينس؟ ماذا لو تذكر صباحاً، وقال: "ما تلك الوقاحة مساء؟" بماذا ستجيب؟

غطّتْ في النوم عندما بدأت الديوك بالصياح فرادى.

رأت زوجها في حلمها. إنهما في غرفة النوم أيضاً. معهما حماتها وابنها. زوجها يسألها عن سبب الوقاحة التي حدثت مساءً. يصرخ. كأن حماتها تذهب إلى النار بالمنفاخ قائلةً: "أرجوك يا ربي! ماذا سأرى، وأسمع أيضاً! أتعانق امرأة شريفة زوجها؟" بعد ذلك تُمسك من يدها، وتُلقى أمام الباب. تبكي، وتتوسل، وتمرغ وجهها على عتبة الباب. ومهما فعلت من دون جدوى. طلّقها زوجها "ثلاثاً" وكل واحدة ثلاثاً. لم تعد تستطيع الدخول إلى ذلك البيت. فتلجأ مضطرة إلى بيت ناجية. وناجية أيضاً تقول: "آه يا أختي! هل جننت؟ أتعانق امرأة زوجها هكذا فجأة؟" ترسل خبراً مع ناجية: "ليعطوني ابني، وأذهب إلى خالتي!"

أنت من يذكر الولد! ويقف مظهر أمامها حاملاً مسدساً: "هل ستذكرين الولد مرة أخرى؟"

تقول مرتجفة: "لا. لن أذكره. والله، بالله لن أذكره!"

"انقلعي من هنا إذاً، هيا!"

تذهب من دون أن تلتفت أو تستطيع الالتفات لإلقاء نظرة أخيرة إلى ابنها. طرقٌ، قطارات، سفن... في اسطنبول، السليمانية، بيت خالتها. تقول خالتها أيضاً: "آه يا ربي. أتعانق امرأة زوجها؟ ألم أقل لك إن المرأة الشريفة لا تفعل ذلك، كوني ثقيلة، كوني سيدة وليس كنّاسة شارع؟ لماذا لم تسمعي كلامي؟ احتملي الآن جزاءك!"

تضرب باب الزقاق بوجهها.

الشوارع مرة أخرى. ثمة رجال بشوارب كثة، ووجوه مسعورة، ونظرات متوحشة. يهاجمونها كأنهم سيلتهمونها. تهرب. يلحقون بها، ويمسكونها من ذراعها، ويريدون جرها بالقوة. تصرخ بكل قوتها: "اتركوني، أنا امرأة شريفة!" ولا أحد يسمع.

تُدفع إلى مستودع قذر. على الأرض حلزونات وأمهات أربع وأربعين وأفراخ أفاعي. تصرخ، وتصرخ، وتصرخ. تصرخ حتى تكاد حنجرتها تتمزق. في هذه الأثناء تسمع قرع طبل جوارها...

تستيقظ وقد غطى جسمها العرق: كان باب غرفة نومهما يُلكم. تقفز عن السرير، وتركض. حماتها:

- ماذا حدث؟ لماذا تصرخين؟

تحمر حتى شحمتي أذنيها، وتطأطئ رأسها. هذا يعني أنها كانت تهذي في نومها، ثم صرخت حتى كادت تتمزق حنجرتها.

- كنت أصلي. سمعت صوتك. قطعت الصلاة!

استيقظ مظهر أيضاً:

- ماذا حدث؟

قالت السيدة هاجر:

- أأعلم أنا؟ كانت زوجتك تصرخ بأعلى صوتها. اعتقدت أنهم يقطعون أوصالها...

- أوصال من؟

- قلت زوجتك ياه!

- أنت يا ناظان؟

قالت وكأنها غارت تحت الأرض:

- لابد أنني صـرخت في حلمي. كنت أصـارع أفـاعٍ وأحناشـاً. دفعوني إلى مغارة قذرة..

تناول مظهر علبة السجائر والكبريت من الكوميدينة، وأشعل سيجارة. هو أيضاً بذل جهده طوال الليل مع جالة: لم يسمع أمه تقول: "امرأة مجنونة. أيصرخ الإنسان في نومه؟ أشوهد هذا من قبل؟" مازال تحت تأثير جالة.

يا لجمال الحلم!

زوجته جالة وليست ناظان. يأتي مساء إلى البيت. جالة تنتظر قدومه ترنو ببصرها من النافذة. تنزل السلم وكأنها ستهدمه، وتعانقه، وتغمر كل أطرافه بالقبل.

وسفرة المشروب التي في البهو؟

وحالها ليلاً على السرير؟

غضبت السيدة هاجر لعدم اهتمام ابنها بها، كان يدخن وهو شارد. ولم يقل لها حتى: "تفضلي يا أمي!" رغم مجيئها إلى عند قدمه، يعني أن ابنها لم يعرها اهتمامه.

عادت إلى غرفتها غاضبة، وأغلقت الباب بقوة وكأن مدفعاً قد انفجر في هدوء الصباح.

قفز مظهر: ماهذا؟

قالت ناظان: أمك...

- ماذا يوجد من جديد؟

- أغلقت الباب.

- لماذا إغلاق الباب هذا؟

لم تجب. كان يمكنها أن تشرح: "لم تنظر إلى وجهها، وتدعوها، وتوافقها..."، ولكنها لم تفعل. كانت خائفة أن يقع الأمر على رأسها في النهاية.

فجأة بكت السيدة هاجر بصوت مرتفع. وسُمعت تدعو أدعية مخيفة. كأنها تعوي.

قفز مظهر عن السرير.

- ما هذا منذ الصباح الباكر يا هو؟ ماذا تريد من جديد؟ هل فعلتُ شيئاً؟ هل لمست لها شعرة؟

اصفرت ناظان. قالت:

- والله أنا لم أفعل شيئاً. ولا علم لي بشيء!

- حسنٌ، هل هي مجنونة يا هو؟

لم تجب.

أما السيدة هاجر فقد كانت تعوي حقيقة مع تصاعد دعائها:

- الله يعمي عينيك الاثنتين، ويمرغك تمريغاً. الله يبعث لك البلاء! افتح كفك على أبواب الجوامع. الله يجعل تعبي يتفتح في عينيك وركبتيك. الله يقهرك باسمه القهار!...

طار صواب مظهر. أطفأ سيجارته في المنفضة، وقفز.

- ماذا من جديد؟ ماذا حدث في الصباح الباكر؟ من قال لك شيئاً؟

نزعت السيدة هاجر نعلها من قدمها، وقذفته نحو ابنها الواقف بالباب:

- انقلع، انقلع يا عديم الشرف، انقلع يا سافل! الله يهدك!

اصطدمت فردة النعل بطرف الباب.

غاص مظهر في الغرفة. أمسك أمه الهاجمة عليه من معصميها بقوة.

- هل يبرد قلبك إذا انهد طولي؟

- يبرد. الله يبعث لك البلاء، ويمرغك!

- حسنٌ، حسنٌ، من حكى، وماذا؟

- وتسأل من دون خجل، أهكذا إذاً؟

- لا أعرف شيئاً.

- عديم الحياء والشرف! حملتك تسعة أشهر في بطني، حتى صرت بهذا الطول...

- هذا معلوم. غيره.

- ليقولوا غيره لك، وللنّور أمثالك!

- قولي ما تقولين، فأنت أمي. ما تقصيرنا لنعرفه!

- لست منتبهاً للخطأ الذي ارتكبته، أليس كذلك؟

- لست منتبهاً، ما هو؟

- ولاه، أنا حتى اليوم أمك. يمكنك أن تجد زوجة، ولكنك لن تجد أماً. الشوارع مليئة بالزوجات. كن سلطاناً وليس محامياً إن أردت. لم يجف غائطك من تحت أظافري بعد!

- حسنٌ يا هوه...

- ما هذا التكبر ولاه؟ جئت حتى قدمك، وكلمتك، لم ترد علي!

ضحك بألم. اعتقد أنه ارتكب ذنباً هاماً. قال:

- والله لم أنتبه يا أمي. رأيت حلماً لذيذاً في الليل، فكنت تحت تأثيره. لا تؤاخذيني...

لانت السيدة هاجر أيضاً.

- أنا أعرف تحت تأثير ماذا أنت!

- تحت تأثير ماذا؟

- اغلق هذا الباب، وتعال، اجلس هنا. لدي ما أقوله لك. أقول لنفسي: لا تتدخلي إلى هذا الحد، ما الضرورة. ما علاقتك... ولكن لم يحدث. ليعمَ الكبد. قلبي لا يرتاح...

أغلق مظهر الباب، وجاء بفضول، وجلس على المقعد جوارها. بعد أن دققت السيدة هاجر مطولاً بابنها بعينيها المكحلتين على نحو خفيف، قالت:

- أنت لا يمكنك أن تجد أماً مثلي يا مظهر!

- لا شك في هذا.

- ولاه، إذا اصطدم ظفرك بحجر، يتألم قلبي!

- أعرف.

- أنا أم أفكر بدقة في كل شيء، إلى حد...

- معلوم يا روحي!

- قف، لا تقطع كلامي. أبدأ الآن بمعلومك هاه!

- ....؟

- أخذت زوجتك وابنك نزهة بالعربة. لم تقل إن التي في الداخل أمي التي حملتني في بطنها تسعة أشهر، وجاعت لتطعمني، وعريت لتكسوني. أما أنا، فقد طأطأت رأسي والسبحة بيدي، وشكوت أمري لربي دون أن أنبس بكلمة. الجميع يقولون لي: كيف ابنك معك أيتها السيدة الكبيرة؟ هل يقصّر باحترامك؟ رغم هذا أطلق عبارة: الله يرضى

عليه. إذا قلت إنه لا يفكر بأم أو بشيء آخر غير زوجته وابنه، سيزمر لك الناس في هذه المدينة الصغيرة.

وضعت ابنها في بؤرة نظرها كي تفهم تأثير كلامها عليه. وصل مظهر إلى حد الانفجار ضيقاً، ولكنه ينتظر النهاية.

تابعت السيدة هاجر:

- أنا أم تقدم رأسها، ولا تقدم سرها! أنا أجلس هنا جائعة منذ البارحة. هل سألت عني عندما أتيت؟ ماذا يوجد يا أمي؟ هل أنت جائعة أو عطشانة؟ قلت هذا؟

- يا روحي أمي، هل هذا كلام الآن؟ بيتي هو بيتك. هل يوجد بيننا ما هو لنا أو لك؟

- يوجد يا ابني! يوجد بيننا كنة. أنا لا ألمس مالك من دون إذن! إذا امتدت يدي، يسحبها مرفقي. ما الضرورة؟ الله لا يجعل نصيبي أن أمد يدي إلى مال الآخرين...

- ....؟

- يوجد أكثر من هذا. أنت تخرج صباحاً، وتعود مساء. هل تعلم ما يجري في البيت؟

سأل بفضول:

- ماذا يوجد؟ ماذا يجري؟

- أنا هنا، في البيت طوال اليوم، رغم هذا لا أستطيع معرفة كل شيء...

- ماذا يا أمي؟

- الأحابيل التي تدور في البيت!

- أي أحابيل؟
- أذني تلتقط. أصدقائي وأحبابي كثيرون لله الشكر. ويزنون كرامتي بميزان الذهب. إذا ذهبت ضيفة إلى مكان، يضعونني في صدر البيت على أنني سيدة قصر. لماذا؟ أبفضل أن ابني محامي؟ لا!... بفضل حلاوة لساني وابتسامة وجهي...
- ما هي الأحابيل الدائرة، احكي عنها.
- أنت تحت تأثير ما يا ابني!
- مثل ماذا؟
- أنت مسحور.
- أأنا مسحور؟ دعي عنك هذه الترهات يا أمي!
- ترهات؟ التوبة، ستمسخ. العالم يحافظ على حاله بفضل أدعية الحجاج والشيوخ!
- المهم، تجاوزي هذا...
- عدم الإيمان غير جيد. كل المساوئ تولد من عدم الإيمان. اسمعني يا مظهر: يقول المثل: لا قلب كقلب الأم، ولا ديار كبغداد! وأنت في عملك تنفق تلك التي تطير الصواب المدعوة زوجتك النقود حفنات على السحرة كي تكتب لك لسان حمار!
لم يفهم مظهر شيئاً، فسأل:
- ما هو هذا؟
- سحر. من أجل أن تحولك إلى حمار، وتربط لسانك!
- ناظان تعمل هذا؟
- بالتأكيد!

- حسنٌ، ولكن يا أمي، لناظان فم يأكل، وليس لها لسان يحكي. طوال اليوم إما أن تغسل وإما تمسح وإما ترقع الجوارب وإما..

- هذا ما تعرفه أنت، وتقوله. لم تأت إلى هذه الدنيا واحدة رعناء وقذرة وساحلة جوارب مثلها. تعرف زمن عودتك إلى البيت، فتنهمك بالعمل. أي واحدة تطأطئ، وتحرق القلب هي! ألم تفهم سبب صراخها بأعلى صوتها حتى الصباح؟

- لا! ما هو؟

- لأن الجان وخدمهم الذين تعمل معهم ضغطوا على بلعومها!

- ....؟

- ليس لله تعالى إصبع ليغرزها في عيوننا. ربي يعمل هذا بعبده السيئ! أنا هنا منزوية للعبادة حاملة السبحة، ولكن تعال واسأل قلبي. نعم إنها تغسل المواعين، وتكنس الأرض وتمسحها، وتطهو الطعام، لأنني لا أغيب عنها يوماً.

كان مظهر يصغي لأمه. غضب من "اللسان الحمار" هذا إن كان صحيحاً. ليس لأنه يؤمن بالسحر أو ما شابه ذلك، بل لانخراط زوجته بأمور سافلة كهذه. ثم كيف لامرأة مسكينة إلى هذا الحد، ولا تستطيع سحق نملة، ولها فم يأكل وليس لها لسان يحكي أن تطرق أبواب الشيوخ والحجاج، وتخفي هذا عن زوجها بمهارة؟ سأل.

قالت السيدة هاجر:

- ماذا أفعل يا ابني؟ أنا امرأة متوجعة. لا أستطيع الركض خلفها كل دقيقة! ثم ما الحاجة لذهابها بنفسها؟ لا ينقطع عنها القادمون. طرق، الباب! من؟ الحلاب. طرق، الباب! من؟ بائعة الصرة. الباب يُطرق كل ساعة. تنزل إلى الأسفل، وفس فس فس..

- ممن سمعت أنها كتبت لسان حمار؟

- أقسمت ألا أقول ممن سمعت. افتح عينك، وتفقد نفسك وثنيات ألبستك السرية، وجده. أنا أيضا لا أعرف ماذا تعني كتابة لسان الحمار. السحر أنواع. لا يكون حرزاً فقط. هناك الدخان، والظفر، وبول الشيطان، وقرن العقرب... من أين سأعرف أنا؟ من أين ستعلم إذا كانت تخلطه لك بطعامك، أو تدقه لك لخلطه بشرابك؟

كاد ينفجر من الضيق. عاد إليه وجع رأسه. ماذا يجب أن يفعل؟ ماذا يمكنه أن يقول طالما لا يوجد دليل؟ يجب أن تكون هنالك إشارة ما ليمسكها من شعرها، ويمرغها على الأرض، أو يمسكها من ذراعها، ويرميها إلى الزقاق!

قالت السيدة هاجر مدركة أن الحجر وضع في موضعه:

- آآآه، آه. إذا حكيت، يقولون حماة، وهل يمكن أن تكون جيدة؟ الله يعميها: إذا لم أتكلم، فسينفطر قلبي... وهل العاطلة الفقيرة بنت السليمانية لائقة بسبع ابن سبع مثلك؟ من هي لتصب الماء على قدميك؟ أرى في زياراتي نساء فيهن خميرة باشوات فينفطر قلبي!

كانت تراقب ابنها بطرف عينها.

- سيدات شبيهات بالغزلان والكعك الأسباني والراحة... إذا فتحن أفواههن، يخرج اللؤلؤ والمرجان! ماذا عن التي لك؟ كنَّاسة شارع بهندام خادمة. وتقول لي: لماذا لا تصطحبينها؟ كيف آخذها يا ابني؟ أخجل من العالم والناس. لا تعرف الكلام، والحديث... يسألونها عن حالها، فتنظر إلى عيني. إذا قلت إنها مخبولة، فهي ليست كذلك. لا... أيمكن أن تكون التي تكتب لسان حمار مخبولة؟

- ....؟

- فتح حديث الزوجات والأزواج في بيت رئيس محكمة الجزاء، كان عليك أن تعلم ما قالته الصبايا عند ذكرك...

التفت مظهر بفضول.

- ماذا حدث؟

- ماذا سيحدث، لم ينتهوا من الحديث عن وسامتك!

خفض مظهر عينيه ممتناً.

- مهما قلت فإن تلك المرأة بروح الخادمة ليست من مستواك، والسلام!

- مهما كان فقد حدث ما حدث...

- لو أنك سمعت كلام أمك، لعدنا من أقصر الطرق، وانتهينا. لم تسمع مني. أقليل ما قلت يا ابني، يا صغيري، هذه البنت ليست من مستواك. ارمها عنك طالما أننا في أول الطريق. قلت: لكل قمحة مسوسة كيال أعور. هي أيضاً تجد من يناسبها، ولكن لا جدوى...

تنهد مظهر، ونهض. يروح ويجيء بين زاويتي الغرفة ويديه خلف ظهره. يعني أنهم يحكون عن وسامته في بيت رئيس محكمة الجزاء. خطرت جالة بباله. قالت مسبلة عينيها الخضراوين الواسعتين: "آه يا سيد مظهر، أيمكن التفكير بامرأة لا تكون عبدة بين يدي رجل مثلك؟"

حين خطرت ناريمان بباله، هدأ وجع رأسه، وتبدد ضيقه. لو ينهض، ويذهب إلى المكتب، ويرسل خبراً لجالة، ويدعوها؟ ثمة خفةٌ ورقة ضربتها الشمس وأرجفتها في داخله، وصل إلى حال جيدة يعفو فيها عن كل شيء، ولا يهتم لتقصير. عانق أمه، وقبلها من خدها.

قالت السيدة هاجر:

- الله يسعدك يا ابني. أريد أن أراك هكذا دائما. أأنت ذاهب؟

- ذاهب يا أمي. توجد أوراق يجب أن أقرأها...

عاد إلى غرفة النوم.

كانت زوجته منهمكة بابنها خلدون، وتلبّسه...

قال له محتداً:

- اذهب، وقبل يد جدتك.

نظر خلدون إلى أمه. رآه مظهر، فصار كعفريت:

- قلت لك اذهب، وقبّل يد جدتك. لماذا نظرت إلى أمك؟

أمسكه من ذراعه، ودفعه أمام الباب.

لم تفهم ناظان شيئاً. ماذا يوجد؟ هل تحول كل شيء ضدها من جديد؟

في أثناء خروجها من الغرفة بهدوء نظر مظهر إليها من الخلف نظرة كره. وقال في داخله: "قذرة، سوقية! ماذا ستكون؟ وهل يأتي خير من بنت السليمانية العارية؟"

ارتعد. تذكر أنه لم يكن ظالماً بحق زوجته في أي وقت من الأوقات. حاسب نفسه. لا لم يكن مشفقاً أيضاً، ولم يكن هنالك عذاب ضمير. أعاد عبارته ضاغطاً على الكلمات: "قذرة، سوقية!من ستكون؟ وهل يأتي خير من بنت السليمانية العارية!"

ارتدى ثيابه بسرعة. حتى إنه أخذ عكازه ذا القبضة الفضية الذي نسيه من زمن. وخرج من البيت.

كانت ناظان تنظر إلى زوجها من نافذة البهو. توقف أمام بيت

ناجية. خرج رضا أفندي زوج ناجية. مشى خلفه قليلاً فاركاً يديه أمامه. انعطفا عند الزاوية، وغابا. انسحبت من النافذة.

حسنٌ، ما قصة زوجها؟ ذهب ليتشاجر مع أمه، حتى إنه تشاجر. بعدئذ؟ ماذا حدث ليتضايق الرجل؟

- أليس عندك شغل هذا الصباح؟

التفتت وكأن ماءً مغلياً قد صُب عليها.

- هل جليت المواعين؟ هل اشتـريت الحليب؟ هل كنست الأرض؟ قولي ما الداعي. زوجك يخرج، وأنت إلى النافذة!

ذهبت ناظان إلى المطبخ رأت أنه من المناسب ألا تجيب.

كان يأتي صوت حماتها من الخارج:

- عرفت كيف تأخذين زوجاً، ولكنك لم تتعلمي كيف تليقين به!

نادت:

- خلدون؟

- نعم يا جدتي؟

- جدتي العزيزة!

- ....؟

- إذا نمت عند أمك القذرة ليلة واحدة، تتغير فوراً!

جاءت إلى باب المطبخ:

- كانت أطراف ثوبك تقرع الأجراس فرحاً لخلافي مع ابني!

التفتت ناظان: أنا؟

- لا، أنا! وتسأل. أنا ولدت ذلك الولد، ولست أنت، فهمت؟

- لم أدّعِ ادعاءً كهذا...

- ادعي إذا استطعت. لا أحد يعرف ما عانيته لأوصله إلى هذا الطول إلا أنا وربي. لا يمكن المحافظة على الزوج بكتابة لسان حمار وما شابه. ضعي عقلك في رأسك، واقعدي حيث أنت!

لم تفهم ناظان شيئاً. إنها المرة الأولى التي تسمع فيها "كتابة لسان حمار". سألت:

- ما هو هذا؟

لم تجب. ذهبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب.

حقيقة إنها أول مرة تسمع به. تمتمت: "لسان حمار". استغربت بداية، ثم داهمها الضحك. بعدئذ لم تتوقف عنده. وماذا سيحدث لو توقفت؟

في داخلها قلق... امتد في رأسها لسان حمار ضخم.

تنهدت. ماذا ستطبخ اليوم؟ خرج مظهر من دون أن يقول شيئاً. لعله يرسل خضاراً مع رجل من المكتب. الوقت مازال مبكراً أصلاً.

جاء خلدون:

- تقول جدتي: لتلبسك أمك ملابس جميلة!

- هل ستأخذك في نزهة؟

- مع أنني لا أريد أن أذهب...

- اسكت...

ظهرت السيدة هاجر من باب المطبخ مقطبة حاجبيها:

- ما هذا؟ أتقولين للولد بأن لا يذهب؟

- أنا؟

- أنتِ!

- لماذا أقول له يا أمي؟

- لا تقولي لي أمي يا بنت!

لم تجب. خرجت مع خلدون من المطبخ، ودخلا غرفة النوم. بينما كانت تخرج قميص خلدون الإفرنجي الأبيض من الصندوق، ظهرت السيدة هاجر مرة أخرى، وقالت:

- طنوا بأذن زوجك، فانتبهي لنفسك.

سألت ناظان بفضول:

- ماذا طنوا؟

- هذا كل ما أقوله لك؟

فكرت، وفكرت... ماذا يوجد، وماذا يحدث؟ لماذا طنوا بأذن زوجي؟ تقضي وقتها كله بأصعب الأعمال بين جدران البيت، فأي وقت لديها للذهاب إلى مكان ما، وعمل حركة غير مناسبة؟ لو كان لها حركة غير مناسبة فلهم كل الحق بأن يطنوا بأذنه...

- لا تفكري كحمار غاص في الطين، وألبسي الولد!

تمردت:

- زوّدتِها كثيراً!

- زودتها كثيراً؟ قلت بأنني زودتها كثيراً؟ لي؟ في وجهي ها؟ في وجه امرأة مثلي لها فم تأكل، وليس لها فم تحكي، ولا يتوقف لسانها عن ذكر الله ها؟

- أنت تجبرينني. فتحتم فمكم على التحقير والكلمات القاسية منذ الصباح...

- أضعك الآن تحت قدمي، ولا أترك فيك مكان إلا وأسحقه!

مـازالت تقف أمـامي وتوتر أعـصـابي! لا تنسي أنك ابنة السليـمـانيـة العاطلة الفقيرة! جئت إلى بيتنا، وعشت يومك فيه. يا قذرة.

أصيبت ناظان بنوبة إغماء، وانهارت أمام الصندوق. وبدأت تبكي مشهشهة.

وضعت السيدة هاجر يديها على خصرها، وفتحت فمها:

- ...أريد رجلاً يقف أمامي، ويوترني! أنا يمتد أصلي حتى القصر العظيم! مكاني بين أقراني وأصحابي ومعارفي في صدر البيت. يقدرني الجميع أجل تقدير. افتحي عينيك، وانظري. ومن أنت؟ وهل أنت من مستوى ابني؟ تلبست ابني كالجان. من يعلم، لعلك عملت سحراً مع خالتك الشمطاء. مستوى ابني بنات وزير وزراء. عندما أخرج، وأتنزه، أرى زوجات الآخرين. صبايا كالراحة بجوهرهن. أنت لا تستطيعين صب ماء على أيديهن، يا ساقطة!

ذهبت إلى غرفتها بحرص، ونادت:

- خلدون!

أجاب خلدون:

- سيدتي؟

- هات ألبستك، وتعال إلى هنا!

- حسنٌ جدتي، أنا قادم...

انتقلت السيدة هاجر إلى أمام المرآة لتبدأ التزين بالمساحيق والكحل والأقلام. وتتكلم بمناسبة وبدونها، وبعد أن هاجت، وقذفت عبارات قبيحة، راحت تقول:

- عديمة التربية. أنا لم أنشأ في الأزقة المتطرفة مثلك. تربيتي لا تساعدني على الوقوف أمامك، والرد عليك!

لم تجب ناظان إجابة واحدة. تبكي صامتة أمام الصندوق، منتظرة خروج أم زوجها.

بعد فترة سمعت وقع نعليها يعبر البهو.

- تعال يا صغيري. هات يدك!

نزلت السلم بخيلاء. خرجا من باب الزقاق.

كانت ناجية وراء النافذة من جديد. فتحتها عندما رأت السيدة الكبيرة، وقالت:

- مع السلامة، إلى أين؟

أفرغت كثيراً مما بداخلها على كنتها، ولكنه مازال ممتلئاً. اقتربت من نافذة ناجية.

- سأصل إلى ... ما هو هذا ياه... لا تترك عقلاً في الإنسان، الله يبعث لها العمى.

سألت ناجية بفضول:

- ماذا يوجد يا خالة؟ خير إن شاء الله؟

- ماذا سيكون؟ قلت لخلدون: اذهب، وقل لأمك أن تلبسك ثيابك، لنخرج قليلاً. واخ منك؟ تضغط على الولد كي لا يذهب. ذهبت إليها. أرادت أن تقلب الأمر، فهل تنطلي علي؟ أغمضت عيني، وفتحت فمي. أأقول لك شيئاً يا ناجية؟ هذه المرأة ليست فارغة. إذا سألت عن السبب، فقد احمرت تماماً عندما ذكرت لها لسان الحمار. لا قالت نعم، ولا قالت لا. أيصمت الإنسان؟ يعترض على الأقل. أليس كذلك؟

- صحيح يا خالة. أنا أذهب بعد قليل، وأسايرها، وأعرف خفايا عقلها.

- الله لا يحرمني منك يا ابنتي. همها كله هو أنا. جاء ابني صباحاً إلى غرفتي. يأتي دائماً ياه... كيف حالك يا أمي العزيزة؟ هل تحتاجين شيئاً؟...

- لو أنك فتحت موضوع الخاتم ...

احترق قلب السيدة هاجر. صحيح، نسيت هذا. نعم ياه، اشترى ابنها خاتماً لزوجته، وأخفيا هذا عنها.. رغم هذا قالت:

- لا، لن أنبس بكلمة. لن أتنازل لهذا يا ناجية. سيندم ابني على ما فعله عندما يعلم أي بضاعة هي تلك المرأة. ثم أي ذنب للولد؟ يومه كله في عمله. والمرأة القذرة تفعل ما تفعل. ألا يعلم ببنت السليمانية التي تخرج الإنسان عن طوره؟ من يعلم أي سحر ورقية كتبت للولد؟

- أنا أستدرجها بالكلام جيداً يا خالة!

- ولكن احذري أن تعرف أنك التقيت بي!

- آ... أأقول لها هذا؟

- هيا عن إذنك...

- مع السلامة يا خالة، بالتوفيق.

نظرت إليها من الخلف مطولاً. لم تصدّق كلامها، ولكن ما الضرورة لهذا؟ انسحبت من النافذة. رتبت شعرها أمام المرآة على عجل، وعبرت إلى الطرف الآخر بثوبها الضيق القصير.

فهمت ناظان من طرق الباب المتعاقب أن القادمة ناجية، فنهضت من أمام الصندوق الذي مازالت تبكي عنده صامتة، وفتحت الباب.

دخلت ناجية وكأنها لا تعلم شيئاً.

- يا سيدة ناظان؟

أجابت وهي تمسح دموعها محاولة عدم إظهار انفعالها:

- نعم؟

- ماذا تفعلين يا أختي؟

- لاشيء، أقوم بأعمال البيت. تفضلي!

- أأصعد، لا أدري؟

تركت قبقابها هناك عند السلم، وصعدت بقدميها الكبيرتين كقدمي رجل المليئتين بمسامير اللحم.

- آآ... بكيت أنت؟

لم تجب ناظان. كانت في حال تكاد تبكي إذا لمسها أحد. قرصت خدها كي تستطيع ضبط نفسها.

قالت ناجية عندما لم تتلق جواباً:

- غريبة وضعية الحماة تلك؟ ما ذلك الصباغ الذي تصبغ به نفسها؟ ألا تخجل من العالم والناس. ألا يراها ابنها؟

تنهدت ناظان، وضبطت نفسها بصعوبة كي لا تجيب.

- جاءت منذ الصباح، وحكت عنك على الماشي. ما الذي تفعلينه لها حباً بالله؟

قالت ناظان: لا أدري.

- لو كانت لي حماة مثلها، لضغطت على بلعومها، حتى تسلم روحها إلى بارئها وإلى جهنم وبئس المصير. ما هذا؟ ألا تحكي لزوجك؟ ألا تقولين له إنها تتناولني أينما ذهبت؟ لا تدع حديثَ بنت السليمانية العاطلة الفقيرة، ولا السحر الذي تعمله. احكي. ماذا تكسبين من السكوت؟ لاشيء. تسيئين لنفسك؟

انهارت ناظان، وبدأت تبكي من جديد.

- اسكتي يا أختي، اسكتي. لا يُعالج هذا الأمر بالبكاء. احكي كل شيء لزوجك!

- لن يسمع...

- أيحب أمه كثيراً؟

- لا أعرف...

- أأقول لك شيئاً؟ انتبهي لزوجك. يمكن لهذه المرأة أن تفعل كل شيء. طالما أن ابنها متعلق بها إلى هذا الحد، فهذا يعني أنه تحت تأثيرها. من يعلم، لعلها تعمل له سحراً. كيف ستعلمين إذا كتبت لسان حمار؟

سألت ناظان بفضول:

- ما لسان الحمار هذا حباً بالله؟

- ألا تعرفين؟

- لا!...

- سحر. يغدو حماراً من يُكتب له، فيذهب إلى الطرف الذي يُجذب إليه. وهو مؤثر جداً. يقول من جربّه بأنه يربط الرجل. أنا لم أستعمله، لا أدري. ليس لرجلي أم أو أخت. لهذا لم أجد ضرورة له، ولكن لابد منه لك. افعلي ما تفعلين لتكتبي لسانَ حمار أو حرزَ حب على الأقل! ذكرتُ رجلي فخطر لي هذا. عرج سيدك علينا مساء. يسلم، فقد حل أمر عمله. الرجل جيد جداً. لولا أن أمه تمسك بخناقه...

تنهدت ناظان، وقالت:

- تأتي، وتخلق ذريعة من لا شيء. ترونني هنا. هل أخطو خطوة خارج البيت طوال اليوم؟ كالمحكومين. وبينما أنا هكذا...

- أعـرف أنه لا يفـيـد يا أختي، لا يفـيـد. الأفـضـل إبعـادها عن البيت!

- أيـ.....ـن...وهل هذا ممكن؟

- ممكن، كل شيء ممكن. يجب أن يُعرف كيف تفتح الغابة بالبلطة، ويكفي أن يعـرف الطريق على أصـوله. أليس هذا مـؤسف من أجلك؟ قلبي ينفطر من أجلك. لا تدع لفظاً سيئاً إلا والصقته بك، كونك قذرة، وبنت السليمانيـة ذات نصف بابوج. أنت اليوم زوجة محـام كبيـر. ما هذا؟ كل يوم تتلون، وتتـزين، وتـخـرج، وتعـود في سـاعـة عـودة ابنهـا. كيف الحال بينك وبين زوجك؟

- كيف يكون؟ جيد. جيد، أما...

كانت ستقول: "يخرب كثيراً بسبب الحماة" ولكنها ضبطت نفسها. فهمت ناجية الأمر، فقالت:

- احكي يا أختي، احكي. لا تخافي، افرغي سُمَّ داخلك. لا يصدر عني أي كلام. أنت شابة، وأنا أيضاً. الواحدة منا تفهم الأخرى. عندما تتدخل الحماة يتغير الرجل، أليس كذلك؟ يتغير. أيصرخ بك؟

- آه، وكيف!

- ذهب ابنها إلى غرفتها صباحاً، وسأل عن حالها، فغرتِ أنت، صحيح؟

- بسم الله الرحمن الرحيم... أنا غرت؟

- أرادت أن تأخذ الولد، فعلّمتِه ألا يذهب...

- كذب، ولله، بالله كذب!

- يا ما هنالك أيضاً... امرأة ثرثارة جداً. عندما ستموت هذه المرأة

فلن تكون في قبرها. افعلي هذا يا أختي. اعملي حرز حب لزوجك، وخيطيه له داخل بطانة ثيابه. من أين سيعلم؟ ولكن يحب إبطال مفعول سحر العجوز. هناك الداية حسنة قريبة أمي. إنها عجوز ستينية، ولعلها ثمانينية. ولكنها كتومة جداً. ليست لأنها قريبة أمي، إذا خنقوا رجلاً أمامها فلا تبوح بسر. يوجد شيخ تعرفه. هو الذي يكتب. حكت لي عما عانته من الحماة. أعرف أي عقارب تكون الحموات. قالت لي إذا وجدت مسكينة كهذه، اخبريني لنجد حلاً. هي امرأة طيبة القلب جداً، ومحبة للخير. والشيخ طيب أيضاً. ولعله تسعيني. لا يعمل هذا لنقوده، بل لثوابه. يأخذ نقوداً قليلة. إن أردت...

تلفتت ناظان فيما حولها خائفة:

- أرجوك يا سيدة ناجية، يا أختي...

- آ...أيخرج مني سرٌ؟ ثم أن زوجك... أوجد عملاً لزوجي. كم يجب أن يكون الإنسان سافلاً كي...

- ....؟

- إذا ضيعت زوجك من يدك فلن أتدخل. أنا قلت ما علي. ما أعرضه هو عمل أخوّة. أنت تعرفين. فكري... لا يمكن تحمل حياة مثل هذه. أنت شابة وجميلة. أنت لست أقل شأناً من زوجات الآخرين، بماذا تختلفين عن البنات ثم أنك أنجبت ولداً؟

- اسألي حماتي عن هذا!

- لا أسأل. أليس لي عين؟ وهل تتطلب القرينة البينة دليلاً؟ فكري... أنا هنا، طيري لي خبراً، يكون الحرز بيدك في اليوم الثاني!

نزلت السلم تاركة ناظان تفكر بعمق.

هذا يعني أن "لسان الحمار" يفيد بربط الرجل بها؟ ترى لو قالت لناجية: نعم؟ أيمكن الوثوق بامرأة لسانها فلتان؟ ماذا لو ثرثرت أمام حماتها؟ أو أن الداية حسنة باحت بالقول: "أنا كتبت لزوجة المحامي مظهر"؟ ومن هناك وصل إلى إذن حماتها، ومنها إلى إذن زوجها؟

قُرع الباب. هرعت: رضا أفندي. أرسل زوجها خضاراً ولحماً.

- آه يا رضا أفندي، أرسلها معك من جديد؟ ولله نتعبك كثيراً...

قال رضا أفندي باسماً:

- أرجوكم. لِمَ التعب؟ واجبي؟

- صارت شغلتكم؟

- صارت يا سيدتي.. سأبدأ مساء... الله يحفظ لك السيد. الله يجعل التراب بين يديه ذهباً!

أغلقت الباب بهدوء بينما الرجل يقرأ أدعية متلاحقة.

رضا أفندي هذا إنسان طيب جداً. وزوجته ليست سيئة، لو أن لسانها لا يفلت أكثر من اللازم...

صعدت السلم ببطء، وهي تفكر. يمكن أن تدفع نقوداً كثيرة من أجل لسان حمار أو حُرُزٍ أخرى، وكم سيكون هذا جيداً. ولكنها لا تثق. لسان المرأة فَلِتٌ جداً. يمكن أن تثرثر هنا أو هناك. تركت ما بيدها في المطبخ. لو أنها سكنت مع زوجها منفصلين عن حماتها...(غمَّت عينيها) كم سيكون جيداً! تتصرف بحرية في بيتها وكما تريد، تذهب في نزهة عندما تنهي عملها، وتستقبل الضيوف. تحكي في بيتها، وتستخدمه كما تريد، أوووه...

تنهدت.

ألا يمكن لها أن تكسب ناجية، وتضمن ضبط لسانها ؟ لعل النقود قادرة على هذا... ولكن إذا انقلعت العجوز من البيت، لابد أن كل شيء سيكون سهلاً. كانت جاهزة للرضوخ أمام لسان الحمار أو الحرز، والتضحية بمصروفها من أجل نظام سليم للبيت. وضعت اللحم في النملية، والباذنجان والبندورة في صينية على الأرض. وسحبت كرسياً صغيراً، وجلست.

إذا انقلعت حماتها، فسيتغير شكل البيت أيضاً. لم يكن يعجبها مكان غرفة الضيوف. فقد احتلت التي يبعث لها العمى أجمل غرفة في البيت، وذات أفضل إطلالة. مع أنها كانت تريد أن تجعل تلك الغرفة غرفة ضيوف. وماذا عن مجموعة الأرائك... رغم أن مخمل وجوهها قد عتق وتساقط وبره فإنها لا تستطيع تغييره، ولا شراء غيره. كانت تريد مثل ذلك الذي في بيت رئيس محكمة الجزاء. أقنعت زوجها، ولكن هل يتوقف لسان حماتها ؟ قالت: "أرجوك يا ابني، ما الضرورة له؟ وهل هذا زمن النفقات؟ حتى إن هذه المجموعة كثيرة على هذا البيت!" ولعلها قالت لابنها أيضاً: "لا تصغ لكلام الزوجة. الرجولة هي عدم الإصغاء للزوجة. ثم هذه كثيرة على بنت السليمانية العاطلة الفقيرة!"

قطبت جبينها. تمتمت قائلة: "امرأة قذرة!" إنها تتدخل في كل شيء، في بيتها، وأغراضها، وابنها، ولباسها وهندامها، وكل ما لها. هناك حموات كالملائكة. أم رئيس محكمة الجزاء على سبيل المثال... كنتها كابنتها، حتى إنها تضعها فوق ابنتها. والكنة تبادلها الثقة. وتحترم حماتها كثيراً، ودع جانباً عصيان كلمتها، فهي تفهم ما تريد من نظرتها.

كانت تقشر الباذنجان، وتفرمه في زاوية الصينية.

لو أن حماتها كأم رئيس محكمة الجزاء أيضاً! قالت لنفسها: "ولله أجوع وأطعمها، أتعرى واكسيها. يا لجمال تلك. كالأم وابنتها. لمن ستبقى هذه الدنيا الفانية؟ ولكن هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن تتوقف عن التجوال من باب إلى باب والإساءة إلي أمام الناس؟ أيمكن أن تسير الأمور على ما يرام من دون أن تنق أمام هذا وذاك؟ لا يمكن. انظر، أقرب الأمثلة ناجية... الله يبعث لك العمى، من أين وجدت الوقت للنميمة، والخروج صباحاً؟

بدأت تتحدث بصوت مرتفع، وكأن حماتها أمامها: "الله يهدك! ذهب ابنها إليها فغرت. من يسمع يعتقد بصحة هنا... ومسألة خلدون؟ تقول إنني أحرض الولد كي لا يذهب. متى حرضته يا قذرة؟ لولا أن ناجية هذه ثرثارة لعرفت ما أعمله معك، ولكنني... لا أستطيع الوثوق. كنت أجعله يرميك كالكلاب!"

أسندت ظهرها على كرسيها. لنر إن كان يفلح السحر مع هذه المرأة؟ بدا لها أنه لا يفلح.

"هي جنية، شيطانة، أمكر من الشيطان. وهل يؤثر شيطان على شيطان؟"

بعد أن فرمت الباذنجان، جاء دور البندورة. كانت ستغسل البندورة. نهضت قبل أن تغسلها، وغسلتها جيداً قبل أن تفرمها.

قالت ناجية: "لا تختلفين عن البنات رغم أنني أنجبت ولداً." وهل هذا كذب؟ أمُّ رئيس محكمة الجزاء أيضاً قالت: "آه يا صغيرتي، مازلت كالصبايا الشابات!" فازرقت العجوز، وأبعدتها عنها قائلة: "اذهبي،

وانظري إلى خلدون!" من يعلم لعلها صرفتني بشكل خاص. آ...وهل في هذا لعل؟ بالتأكيد. لعلها بعد أن خرجتُ قالت: "أرجوك أيتها السيدة الكبيرة. لا تقولوا عبارات كهذه لتلك القذرة، فتميع!" ومن يعلم أنها لم تقل هذا؟

عادت إلى مكانها بالبندورة التي غسلتها، وجلست.

كانت تعرفها كراحة يدها. مع أنهما لو سكنا منفصلين لما ظهرت منغصات كهذه.

... ناجية هذه..ثرثارة، ولكنها ليست سيئة. تقول الحق بلا تردد. كيف شبهتها بالبنات، وحكت عن معاناتها من حماتها؟ لو أن قلبها سيء لما تفاهمت معها بل مع حماتها! حقاً... لو أن معبودها النقود، ألن يكون من الأسهل عليها التفاهم مع حماتها؟ ثرثارة، ولكنها طيبة القلب. خاصة إذا طورت الصحبة معها، وسايرتها بالكلام، يتم كل شيء. تلصق كالصمغ. طالما سنحت لها الفرصة، عليها أن تعطيها حقها.

"مؤكد، علي أن أعطيها حقها. من يعلم، لعل الله أشفق علي، فأرسل إلي ناجية واسطة. ماذا كانت تقول خالتي؟ تقول: إذا لم يتضايق العبد، فلا يسعفه الخضر يا ابنتي! صحيح. الأفضل أن أكسب قلب المرأة... وأجعها تقسم. إنها ليست كافرة. وماذا في الأمر؟ ما مصلحتها بإبلاغ العجوز؟ بعد أن أقلع العجوز من البيت، أغدو أكثر حميمية معها، وأساعدها قدر المستطاع. زوجي وجد عملاً لزوجها..."

تخيلت حماتها: كانت تنظر بحقد بعينيها المكحلتين، وحاجبيها المنتوفين والمرسومين، ووجهها الشيطاني، ولسانها الناري:

"أنا التي حملته تسعة أشهر في بطني!"

"الله لا جعلك حملته. كل أم تعمل ما عملته. وأنا أيضاً حملت ابني. غداً سأصير حماة، ولكنني لن أعمل مع كنتي ما تعملين."

"سنرى..."

"آه، هل ستعيشين إلى ذلك الوقت؟"

"بالتأكيد. ماذا تظنين؟"

"الله يخرب هذا إذا كان قد كتبه!"

"كلبة. لو قُبِلَ دعاء الكلاب، لأمطرت السماء عظاماً..."

"أنت الكلبة!"

"ماذا؟ أنا؟ أتقولين هذا لي؟"

ركزت ناظان عينيها إلى النافذة المقابلة عبر باب البهو المفتوح. السكين بيدها، وتمسك مقبضها بقوة، وترتجف كأن حماتها قبالتها، وتتقاذفان لهباً. كأنها قفزت فوق حماتها فجأة، وأمسكت معصميها، ووضعتها تحتها، وبدأت تلكمها.

تهوي بيدها الممسكة السكين في الفراغ قائلة: خذي! خذي الله يبعث لك العمى! خذي!

تقلصت بشرة وجهها، وعيناها الشهلاوتان تقدحان شرراً. صحت فجأة. هل جنت؟ نهضت بعد أن فرمت البندورة، وتناولت اللحم من النملية. تعثّر عملها من جديد. كلما ذكرت هذه الحماة أو انفعلت منها تضيّع مسار عملها. والآن فرمت الباذنجان والبندورة بدل أن تضع الفحم في الموقد وتشعله أولاً. كان يجب أن تشعل النار وتقلي اللحم، وبعد ذلك تفرم الباذنجان والبندورة، وتضعهما للطبخ.

أشعلت الموقد وكأنها تأخرت.كان يجب ألا تبالي بثرثرة ناجية، وتوافقها على هذا الأمر. كانت تريد أن تتمسك بزوجها وابنها وبيتها. هي أحبت مظهراً، وتزوجته، وليست أمه. نعم إنها أمه، وحملته في بطنها تسعة أشهر، لن يلقيها في الزقاق بالتأكيد. أصلاً إن قلبها لا يقبل بهذا أبداً، ولا تريد أن تتمرغ في آخر عمرها. لهذا السبب يجب ألا تلحق الأذى بها. كانت تعرف أن الدعاء عليها أمر ليس جيداً. ثمة مقولة: "لا تجذب دعاء المظلوم عليك، فيتحقق بطيئاً..."...

ذهبت إلى نافذة البهو. بدأت تنظر إلى الخارج، ويداها خلفها.

لن تجذب الدعاء عليها. ستطلب السكن منفصلة فقط. إذا تحقق تأثير "لسان الحمار" وصار زوجها معها مئة بالمئة، فسيكون أول عمل لها فصل حماتها، وتغيير نظام البيت. يمكن أن تغير وجوه الأرائك حالياً، وتترك شراء غيرها في ما بعد.

انتبهت لناجية فجأة: خرجت من البيت، وهي قادمة. في قدميها قبقاب، وترتدي ثوباً ضيقاً وقصيراً...ترى ماذا يوجد؟ تبدو منهمكة جداً.

فُتح الباب مع وضع المرأة يدها على مدقته. قالت ناجية لنفسها: "استغفر الله. هل تراقبني المرأة؟"

توقفت عند درجة السلم السفلى: أكنت تراقبينني؟

- كنت على نافذة البهو.

- قلت لنفسي: كيف فُتح الباب من دون أن أطرقه؟

- لا لئلا أصعد. وضعت اللحم على النار، وجئت. نسيت أن أسألك قبل قليل. هل اشترى لك زوجك خاتماً ماسياً؟

طار عقل ناظان:

- ممن سمعت؟

- وهل هنالك من لم يسمع؟ انتشر الأمر في المدينة كلها! وهو خاتم ثمين جداً، صحيح؟

بدأ البيت يدور في رأس ناظان. ماذا ستفعل الآن؟ أي حركة من المناسب أن تعملها الآن؟ ماذا لو وصل الأمر إلى أذن زوجها؟ وهي تجعل من هذا الأمر قضية، وتنزل على رأس ابنها؟ وقالت: "يااااه... يعني إنك تقوم بأعمال من دون علمي، وتشتري لزوجتك بنت السليمانية العاطلة الفقيرة خواتم، وتخفيها عن أمك"؟

نظرت إلى ناجية كالميتة:

- لا تبلغي حماتي أرجوك!

- أتخفيه عنها؟

- لست أنا. ابنها نبهني بهذا. تعرفين عادتها. إذا علقت بشيء، فتعلق. وفي أثناء ذلك لا يحدث غير وجع رأسي!

- لا تخافي، طالما تخفين الأمر، فلن يصدر عني أي شيء. جميل؟

- جداً.

- هاته، لأراه في ضوء النهار!

بعد لحظة تردد، ذهبت ناظان إلى غرفة النوم. ماذا سيخرج من هذا؟ لن يفقد من قيمته شيئاً بالرؤية!

فتحت الصندوق. ولكن...أمر غريب. العلبة، علبة الخاتم الثمين المخملية البنفسجية لم تكن حيث وضعتها! قلبت الصندوق رأساً على عقب. بعد ذلك أفرغت الصرر. غير موجود، غير موجود، غير موجود! هرعت إلى ناجية، وقالت:

- غير موجود. الخاتم غير موجود يا أختي!

سألت ناجية مستغربة:

- كيف غير موجود؟ إلى أين ذهب؟

- لا أعرف يا ناجية. أنا انتهيت. ترى أخذه زوجي؟

هزت ناجية رأسها هزة العارفة.

جنت ناظان، وقالت:

- ماذا حدث؟

- سأقول لك شيئاً، ولكن ليبق سراً بيننا!

تمسكت بيديها:

- أتعرفين؟ احك أرجوك. لن أبوح بسر.

- اقسمي!

- لتعمى عيناي...

- برأس ابنك؟

- برأس ابني، خلدوني. لأغسل خلدوني على مغسله بيدي إذا قلت شيئاً لأحد!

قالت ناجية وكأنها تعطي سراً:

- حماتك أخذته!

- حقاً؟ ماذا تعرفين؟

- بالأمس ذهبتم في نزهة بالعربة؟

- إيه؟

- في ذلك اليوم فتحت حماتك الصندوق، وأرتني إياه!

- حباً بالله؟

- الله لا يبارك لي في شبابي إذا...

- بعد ذلك؟ لماذا لم تحدث مشاجرة من أجل الخاتم؟

- لا أعرف. لابد أن لديها لعبة سافلة ما. اسمعيني، تدبري حلاً لتلك المرأة. والله أنا لا دخل لي، ستجرجرك جراً!

- ترى هي التي أخذت الخاتم؟

- لن يكون عندك أي شك!

انهارت ناظان على كرسي. بدأت تبكي مشهشهة. ماذا لو كان الخاتم مع العجوز؟ معها وأنكرته؟ وقالت: "لم آخذه، لا علم لي"؟

- ماذا سأفعل الآن يا ناجية؟ انصحيني حباً بالله. تشتت عقلي تماماً...

- ستأتي ظهراً. اسأليها بحسب الأصول!

- هل عرجت عليك صباحاً؟

- على الماشي.

- ألم تقل شيئاً؟

- لا.

كانت تبكي باستمرار. خطر ببالها زوجها. إنه ينظر مؤنباً. كان يقول: "امرأة مخبولة مهزوزة حيوانة! ألم أقل لك لا تذكري الخاتم أمام أحد؟"

أذكرته؟ لم تذكره، ولكن تعال، وأفهم هذا!

قالت ناجية:

- اعطني بضعة قروش.

- دين؟

- لا يا روحي. لأكتب لك ذاك الحرز.

- أرجوك يا ناجية، لا تقولي شيئاً لحماتي. عندما تأتي، أرجوها، وأتوسل إليها، وأحاول أن أفعل شيئاً. حسنٌ، ولكن من المشكوك فيه أن تقول الحقيقة...

ذهبت إلى الغرفة، وجلبت نقوداً، وأعطتها لناجية.

- ليبق هذا بيننا يا أختي. سأموت!

- آ... ماذا أيضاً. وهل تعتقدين أنني بنت حارة عاطلة فقيرة؟

- أستغفر الله، لم أقصد هذا...

- أنا بئر سر، بئر سر!

نزلت السلم راكضة وذهبت.

٧

حين جاءت السيدة هاجر ظهراً قبل مجيء ابنها بنصف ساعة، وجدت وجه كنتها أصفر اللون. فهمت الأمر: هذا يعني أنها انتبهت للخاتم تواً؟ دخلت إلى الغرفة بهدوء أمس عندما خرجت إلى الشرفة لنشر الغسيل، وأخذته، وخبأته. لم تخبر حتى ناجية.

لم تعر اهتماماً أبداً. صعدت السلم متكبرة. دخلت إلى غرفتها، وخلعت ثيابها على عجل. غرقت في الحديث قليلاً في بيت مدير المالية. كانت تحب أم مدير المالية كثيراً. وهي مثلها عندها ابن، ومثلها تماماً أيضاً ضد كنتها. إذا بدأت الحماتان الكلام، فلا تنتبهان كيف تمر الساعات.

وهكذا مر الحديث. اتفقتا على عدم التهاون أبداً مع الكنة. حتى إن أم مدير المالية أطلقت عبارة "حباً لله يا هاجر!" عندما بادرت السيدة هاجر بالحديث عن مسألة الخاتم الماسي، وقالت: "لا يمكن أن يخطر كل هذا ببالي"

حين انعكس خيال الكنة القادمة إلى بابها صفراء الوجه في مرآة الزينة، التفتت إليها بحدة:

- ماهذا؟ هل تراقبينني؟

دخلت ناظان مرطبة الرمشين:

- لا يا أمي العزيزة...

- أما قلت لك الغ أمي العزيزة هذه؟ أي امرأة لا عقل لها أنت! هل أكلت مخ حمار؟

طأطأت برأسها، وخبأت كل هذا في قلبها.

- ماذا تريدين؟

- لاشيء. كنت سأسأل عن ذاك الشيء...

- عن ماذا كنت ستسألين؟

- الخاتم...

- الخاتم؟ أي خاتم؟

واخ، واخ. كانت تخبئه. أم أنها لا تعلم حقاً.

- أقول أي خاتم، أجيبي!

- كان مظهر قد اشترى خاتماً...

- مظهر؟ انظروا إلى عديمة التربية! إنها تسمي سيداً عظيماً بمظهر فقط. هو سيد السادات. كم مظهر مثل هذا كان في بيت أبيك؟

- ....؟

- لا تقفي أمامي هكذا. إلى أين تذهبين؟ أي خاتم يا بنت، احكي لي! هل اشترى زوجك خاتماً من دون علمي؟

- أنا لم أطلب منه، اشتراه من نفسه...

- حسن، لماذا لم تخبريني؟

- السيد مظهر نبهني إلى هذا...

- نعم! هذا يعني أن ابني بدأ يعمل أعمالاً يخفيها عني؟ حسن...

سينال ما يستحق! ولكن يبدو أن هذا الكذب كذبك. لابد أنك خدعت ابني. لابد أنك ملأت رأسه. وإلا فإن مظهراً... سيأتي الآن!

ارتمت على يدي الحماة:

- أرجوك لا تبلّغيه!

سحبت يديها:

- لماذا؟ لماذا تخافين؟

- لا يوجد خاتم. لا أعرف أين الخاتم،...

- لا. توقفي! بأي حق تقولين عني لصة؟

- استغفر الله يا أمي العزيزة...

- لتتألم عظام أمك في قبرها إن شاء الله! مازالت تقول أمي العزيزة. إذا قلت هذه الكلمة مرة أخرى، سأنزع عنك شعرك من رأسك. وسخة، خادمة.

خلع خلدون ثيابه، وهو ينظر من الباب.

- لا يوجد لدي خاتم وما خاتم، يا الله!

خرجت من الغرفة كميّتة. ماذا سيحدث الآن؟ كيف ستبلغ زوجها؟ لعل زوجها أراد المزاح معها، وأخفى الخاتم... لكنه لم يمزح معها على هذا النحو. إنه لا يحب المزاح أساساً، ولكنه احتمال. ماذا ستفعل بحماتها حتى لو كان يمزح؟ ماذا لو أغمضت عينيها، وفتحت فمها واعتبرتها لصة؟

ذهبت إلى الطاولة، وكانت ستحضر السفرة. ولكن أين؟ كان كل جزء من جسدها كالثلج، وراحت ترتجف من الداخل. نسيت أنها جاءت إلى الطاولة لإعداد السفرة. لماذا أتت إلى الطاولة؟ بماذا تفيد الطاولة؟

ذهبت إلى غرفة النوم من دون سبب. مازالت الصرر على الأرض. صحت. ماذا لو أتى زوجها، ودخل إلى الغرفة، وسأل عن سبب وجود الصرر على الأرض؟ وضعتها في الصندوق على عجل. ماذا ستفعل الآن؟ كان في عقلها أن تعمل شيئاً ما، ولكن... ماذا؟

فجأة خطر ببالها أنه وقت الظهر، وزوجها على وشك المجيء، وسيصرخ إذا لم يجد السفرة جاهزة. خرجت من الغرفة كأنها متأخرة، وركضت إلى المطبخ. ترى هل أراد زوجها أن يمازحها؟

قال خلدون:

- يا أمي!

التفتت:

- ماذا يا صغيري؟

- تقول جدتي: نم عندي ليلاً!

- نم، إذا قالت نم يا ابني...

- ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ أنا لا أحب جدتي أبداً...

طار عقلها.

- أرجوك يا ابني خلدون... ماذا تفعل؟ تسمع جدتك، ثم...

- إنها تسميك البنت الخادمة!

قرع باب الزقاق بقوة. كان قلب ناظان يخفق بشدة، كأنه سينتزع من مكانه. كأنها شُلّت من الوسط حتى الأسفل. ركضت. فتحت الباب متأخرة قليلاً.

دخل مظهر بقبعته النازلة حتى حاجبيه، وبذته البنية، وعكازه الظريف. لديه موعد مع جالة بعد الظهر. كان يخطط لجولة واسعة

بالعربة. كانا يلتقيان ليلاً في البار، ويجلسان متلاصقي الركب بشكل منتظم حتى ساعة متأخرة، ولكن هذا لا يكفي. لولا أن المدينة صغيرة لاستأجر غرفة في مكان ما، وألقى فيها المرأة، وقطع علاقتها بالبار. كان صاحب البار قد قال: "بسلامتك يا سيد مظهر. ليست وحدها بل الخمس فداؤك!"

صعد السلم مفكراً. وألقى نظرة إلى الطاولة باعتياد: لم تكن المائدة جاهزة. الطعام لم يوضع بعد.

- لماذا المائدة غير جاهزة؟

خرجت أمه من غرفتها:

- تأخرتْ اليوم قليلاً يا ابني. ليست سهلة أعمال البيت؟ سيُحضر الآن، اخلع ثيابك أولاً...

لم يجب مظهر، ولم يذهب لخلع ثيابه. ذهب إلى صدر الطاولة، وجلس.

كانت السيدة هاجر قد دخلت إلى المطبخ. قالت:

- لا تذكري الخاتم وما شابه لزوجك!

ناظان تصب الطعام في الصحن الزورقي الكبير. التفتت آملة:

- حقاً؟

- أي حق؟ لا علم لي بشيء. لا علم لي، ولكن لا تضايقي ابني ظهراً، وتفسدي شهيته!

مهما يكن فقد شعرت بشيء ما. قالت:

- حسنٌ.

تناول الطعام بصمت. كانت السيدة هاجر، تحاول الحفاظ على أعصابها باردة عندما تنظر إلى ابنها بطرف عينها.

أطرقت ناظان برأسها. أرادت أن لا تلتقي عيناها بعيني زوجها، فأشغلت نفسها بابنها الجالس بجانبها.

في إحدى اللحظات نظرت إلى زوجها متمعنة: كان يبدو مفكراً جداً، وحتى متضايقاً. المهم أنه نسي الليلة التي عانقته فيها. بما أنه لم يذكر هذا منذ ذلك اليوم...حين فكرت بذلك اليوم، خطر هذا ببالها: بدأ زوجها منذ تلك الليلة يأتي إلى البيت منتصف الليل!

لم تتوقف عند هذا: إنه رجل. يأتي متأخراً أو مبكراً. لن يُقدم حساباً لزوجته ياه!

ولكن ضيقه... ما الذي يضايقه؟

ظل مظهر يلوك لقمة لا يستطيع ابتلاعها. كان ساهماً. لو أنه لم يأتِ إلى البيت. سيلتقيان في الواحدة والنصف. يجلسان في قسم المطعم من المقهى- المقصف الذي ذهب إليه مع زوجته قبل فترة. كان هنالك واحد إلى الداخل غالباً... لو كثرت أمكنة كهذه في المدينة، وخف فضول الناس في النظر... سيحدث هذا كله على أية حال، ولكن مع الزمن. سيغدو مسناً عندما يحدث. سيرى ابنه أياما جميلة...

نظر إلى ابنه. رآه حزيناً. بدا له أنه مطأطأ الرأس. فكر بجالة بديلاً من زوجته. بعد ذلك حاول التخلص من هذا الخيال. لا، لا... لن يرمي ناظان، لن يرميها، ولكن إذا سُمعت هذه القضية، ووصلت إلى أذنها، وراحت تقول: "طلقني! أنا أكرهك. أريد الانفصال عنك!" فسيتغير الأمر. برغم هذا فإنه سيعطيها حقها وزيادة، حتى لو طلقها ثلاثاً. مهما أحب الأخرى فإن الأثر الذي تتركه الأولى لن يُمحى بسهولة. يعرف هذا. لا يشك بأنه كلما رأى ابنه سيتذكر أمه. هنالك روابط بين الرجل والمرأة غير العشق!

أهي الشفقة؟

هذا ليس أمراً جيداً. الشفقة شعور إزاء الناس العاجزين المساكين، وهو لا يريد أن تكون ناظان عاجزة. قال لنفسه: "حسنٌ أنني اشتريت لها ذلك الخاتم، وأهديتها إياه. فإذا تغيرت مشاعري نحوها يوماً ما وانفصلنا، فهو سلاح قوي بيدها. إذا تضايقت، تبيعه، وتتدبر أمورها لسنوات."

قالت السيدة هاجر: أنت غارق بالتفكير جداً اليوم يا ابني.

- هناك دعوى إخلاء اليوم بعد الظهر...

وغاص من جديد في أفكاره.

"... ولكن ماذا تقول جالة؟ تقول: ما ضرورة القران؟ إنها امرأة منطقية. كانت مصادفة اللقاء بها جيدة! أحبها كثيراً. كثيراً ماذا؟ غدوت كعاشق مدام كاميليا المفلس. أنا غني. ثم إنها أكثر شباباً مني غالباً..."

نهض من المائدة. غسل يديه وفمه. فرّش بعناية أكثر من أي وقت مضى. كانا سيذهبان في نزهة. لعل المرأة تقبِّله اليوم. قرر أن هذا سيحدث. امرأة رائعة جداً. لا يمكن لأمه إلا أن تحبها. جفف يديه وفمه، وتناول عكازه.

سألت السيدة هاجر:

- هل ستتأخر الليلة أيضاً يا صغيري؟

- ولله غير واضح. يرتبط هذا بوضع العمل...

- لن تكون في المحاكم حتى ذلك الوقت؟

غضب: وهل من عاداتي تقديم حساب حول مكان وجودي؟

نزل السلم، وذهب. صدها أمام كنتها، ولكنه أدهشها أكثر: فقد جاء إلى غرفتها صباحاً، وتحدث بكل لطف، فلماذا يصدها الآن؟

صحت مع صوت إغلاق باب الزقاق بقوة، ونهضت عن الطاولة غاضبة، ودخلت غرفتها، وأغلقت بابها.

"وهل من عاداتي تقديم حساب حول مكان وجودي؟"

وهل يُرد على الأم على هذا النحو؟ بينما تقدرها زوجات الموظفين الكبار وأمهاتهم وحمواتهم أصدق تقدير ويخاطبنها بـ: "السيدة الكبيرة، السيدة الكبيرة" كيف يحدث أن ابنها الذي حملته في بطنها تسعة أشهر يصدها أمام ابنة السليمانية العاطلة الفقيرة؟

وقفت أمام المرآة واضعة يديها على خصرها. كل طرف من أطرافها يرتجف غضباً، فلا ترى نفسها برغم أنها تنظر إلى المرآة.

ماذا يجب أن تفعل؟ ماذا يجب أن تفعل كي تنتقم؟

أدارت ظهرها للمرآة. يجب أن تفعل ما يجعله لا يكشر بسهولة أمام أمه، وخاصة ألا يصدها أمام كنتها. فجأة لمعت عيناها. وبقرار مفاجئ سحبت درج طاولة الزينة، وأخرجت علب المساحيق والكحل. لونت نفسها أكثر من أي وقت "بوقاحة" وهو ما يكرهه ابنها تماماً، وارتدت غطاءها الحريري الأسود.

كانت ستريه ماذا يعني الوقوف أمام المرآة!

خرجت من الغرفة، ومن الدار. محت من رأسها كنتها، والخاتم الماسي، ولسان الحمار، وذهابهم في نزهة وتركها في البيت، وكل شيء. قفزت إلى حنتور شاغر.

- انطلق إلى مكتب ابني السيد مظهر!

لم يفهم الحوذي بداية:

- أي سيد مظهر؟

- نعم سيد مظهر؟ كم سيد مظهر يوجد في المدينة؟ المحامي السيد مظهر!

- ها، حسنٌ...

خاف الحوذي. لسع الحيوانين بسوطه على كفليهما.

كان مظهر في مكتبه، يروح ويجيء بين الزاويتين منتظراً جالة. يجب أن تكون على وشك المجيء. يجب، ولكن إلى أين سيأخذها؟ علاقته بهذه المرأة ستنتشر في البلد كله، وتصل إلى البيت. وهو لا يريد ذلك، الأمر لن يخفى، إن لم يكن اليوم فغد.

هذه المرأة ممتعة. لجالة جاذبية وكبرياء وهندام ولسان، وخصوصاً اللسان الحلو الذي لا يهدأ، افتقد هذه المناقب طوال سنوات في زوجته. لم يعد يهتم لتهكم أصدقائه بقولهم: "مهما كانت فهي فتاة بار في النهاية!". كانت تلبي رغباته. ها هي المسألة كلها.

وقعت عيناه على كاتبه الجالس وراء الطاولة ناظراً إليه. لماذا لا يتذرع بعمل ويصرفه؟ قال:

- أنت. إذهب إلى قسم التنفيذ، وخذ صورة عن ملف الدكاكين المحجوزة!

نهض الكاتب الشاب عن الطاولة، وقال:

- من الصعب أن تنتهي حتى المساء...

- حتى المساء، حتى الصباح، حتى تنتهي. اجلبها لي غدا صباحاً!

دبت الحيوية في الكاتب. كان قد أخذ صورة لأكثر أوراق الملف.

والباقية يمكن أن يستخرجها في ساعة. بعد ذلك، سيذهب إلى مقهى الحي. قال:

- على راسي يا سيدي.

خرج من المكتب. بعد قليل، توقف حنتور أمام المكتب. ركض مظهر آملاً. اعتقد أنها جالة. ولكن... وجه أمه المصبوغ "بوقاحة" أكثر من كل مرة فاجأه. قابل عينيها نصف المغمضتين غاضباً. لماذا جاءت؟ دخلت المرأة إلى المكتب كقنبلة.

- ما كان تكبرك ذاك قبل قليل ولاه؟

أغمضت عينيها، وانهال فمها بأقذع الأوصاف.. إنه ديوث ومنقاد لزوجته. كانت تصرخ بأعلى صوتها مفرغة سم داخلها.

شحب مظهر مندهشاً، فاقد الحيلة. قال:

- كفى يا أمي العزيزة. كفى فقد ساءت سمعتنا!

- كفى ها؟ كفى! سأجعلك لا تستطيع الخروج بين الناس. أمام زوجتك الكناسة التي لا تساوي قرشين؟ ها؟ أجب؟ يا كلب! هل صرت رجلاً؟ حتى لو صرت رجلاً، فهل هذا ينطلي على أمك؟

- بهدوء حباً بالله يا أمي، إنهم من حولنا يسمعوننا!

- ليسمعوا! لهذا أصرخ أصلاً. ليسمعوا، وتصير مهزلة للمدينة!

أفرغت ما تراكم في داخلها منذ زمن طويل، ثم صبت همها الأساسي:

- ولاه، وقح... ما السوء الذي رأيته مني لتخفي عني الخاتم الذي اشتريته لزوجتك؟

اهتز مظهر كأنه تلقى لكمة قوية.

- رد علي، أي سوء رأيته مني؟ لماذا قلت لزوجتك لا تريه لأمي؟ لكي تتباهى قائلة لهذه وتلك: انظروا كم يحبني زوجي. فقد اشترى لي خاتماً ماسياً، وقال لي لا تريه لأمي؟ ها؟ رد علي لأرى!

لم يكن مظهر يسمع. أذناه تطنان، وعيناه مسودتان. هذا يعني أن زوجته برغم تنبيهه كله فعلت ما فعلت... وأكثر من هذا تباهت أمام أهل الحي؟

التفت نحو الباب، رأى جالة، فهرع إليها:

- تفضلي، تفضلي يا سيدتي!

كانت السيدة هاجر قد سكتت، ونظرت إلى المرأة الشابة بطقمها الرصاصي الأنيق. أعجبتها. كانت جميلة وظريفة جداً. من هي؟ ما شغلها؟ إنها امرأة جذابة ولتكن من تكون. امتلأ المكتب برائحة عطر مركز رائع.

عرّف مظهر إحداهما إلى الأخرى:

- أمي!

- السيدة ناريمان. عندها دعوى طلاق...

تصافحا. زال غضب السيدة هاجر كله. ولفضولها لمعرفة المرأة الجميلة، وسبب رغبتها بالانفصال عن زوجها، سحبت كرسياً، وجلست.

- أنت شابة وجميلة جداً يا ابنتي. هل تنفصلين عن زوجك؟

نظرت جالة إلى مظهر بطرف عينها. فهمت أن عليها تدبر الأمر. قالت:

- نعم يا خالتي العزيزة.

- لماذا؟

- لا نتوافق يا سيدتي. مزاجه لا يتوافق مع مزاجي، وهناك أسباب أخرى...

- ... أشفقت عليك حقيقة. أنا أيضا ترملت وأنا شابة...

لم ترد جالة لإدراكها أن المرأة الثرثارة ستطيل الكلام. ولكن لسان الأخرى كان قد انطلق:

- كنت جذابة أهتم بمظهري مثلك. ولكن ماذا أفاد؟ ضحينا بكل شيء في سبيل الولد. حسناً، كان جنوناً! لو كان عقلي كما الآن، لضحيت به. خشينا أن يرغم أنفه عند زوج الأب أو يهان وينطوي.. جعلت شعري مكنسة في سبيله..

بدأت تبكي.

- آه من قلب الأم، آه! من أجله جعلت شعري مكنسة، جعت وأطعمته، عطشت وسقيته، عريت وكسوته، في النهاية اتفق مع الكنة!

نهض مظهر على قدميه:

- يا أمي العزيزة، نحن سنذهب إلى المحكمة...

هي أيضاً نهضت:

- هل كانت لك حماة يا ابنتي؟

- كانت لي يا سيدتي.

- كيف كان الوضع بينكما؟

- الماء لا يخر من بيننا. إحدانا تحب الأخرى...

- أرأيت؟ أرأيت كيف الكنة! ليست من نسل التي لك، تقول زوجي لا يحب أمه أبداً، اشترى لي خاتماً ماسياً، وقال لا تريه لأمي. أنا أسمي مثل هذه كنة. تفو، تفو، تفو... ابنتي مثل اللواتي فيهن خميرة باشاوات. لم تأت بواحدة مثلها إلى بيتي...

خرجوا معاً من المكتب. انطلقت السيدة هاجر في طريق البيت، وهما قفزا إلى حنتور شاغر. قالت جالة في الطريق:

- لديكم أم صعبة المراس.

لم يسمع مظهر. تعلق الوجع برأسه، وفقد سعادته كلها. انحنت جالة، ونظرت إلى وجهه: ابتلت رموشه. ارتبكت:

- ماذا يحدث لك؟

تقطب وجه مظهر، وقال:

- أحياة هذه؟ أيمكن أن تحكي أم مع ابنها على هذا النحو؟ أي تربية هذه، وأي شرف؟ هل أعجبتك زينتها؟

- زائد بالنسبة لعمرها. أتوقع ما تعانون منها...

- أنا تعيس جداً. أمي نوع، وزوجتي نوع آخر.

- ذكرت خاتماً...

- أمر غير مهم أبداً. قلت للمرأة الغبية بأن لا تريه لأمي. لم يكن لي سوء نية أبداً. لأنني أعرف هواجسها فقط. تريد أن تتملكني وحدها. تغار من كنتها بشكل عجيب. نعم، أقر بأنها تعبت لأجلي كثيراً، وأنها لم تتزوج بسببي. أقر، ولكن...

- لكل شيء حد!

- أليس كذلك؟

- لا تحزن. لا يوجد ما يضايق. إنه تصادم حماة وكنة...

- شاهدتنا مطولاً عند باب المكتب، أليس كذلك؟

- لا يا روحي.

- وعرفت أي بضاعة نحن.

- كل منا همه مختلف، لا تضايق نفسك. أعتقد بأن زوجتكم جاهلة بالإدارة...

- كثيراً. إنها من النوع الذي ينظر إلى الأرض، ويحرق القلب. اسمعي ما قالته!

- ترى هل قالت؟

- من أين ستعرف أمي مسألة الخاتم لو لم تقل؟ هيا لنقل إنها رأت الخاتم، أو إنها سمعت ثرثرة الصائغ. من أين تعرف أنني قلت لا تريه لأمي؟

دارت العربة دورة كبيرة خارج المدينة، وعادت من جديد إلى المكتب. كانت الشمس تغيب خلف الجبال البنفسجية، خلف البحر الهادئ الكحلي. سألت جالة:

- أسنذهب إلى المكتب؟

- نعم.

تلفت إلى جانبيه، كان أصحاب الدكاكين يفتحون عيونهم يلتهمونهما، ذئاب!!

انتبه مظهر للأمر، فقال:

- لا تهتمي. افرضي أنك موكلتي...

- لا أدري...

دخلا.

- لماذا تترددين؟

- ليس من أجلي.

- من؟

- من أجلكم!

دفع مظهر الباب. سحب المرأة الشابة من معصمها، ووضعها بين ذراعيه. بعد وقت طويل، افترقا على أن يلتقيا ليلاً في البار.

لم يرد الذهاب إلى البيت. إنه مقتنع بعدم براءة زوجته تماماً برغم استعراض أمه. ماذا يجب أن يفعل؟ أيجب أن يضعها تحت قدمه، ويسحقها؟ أيدمي فمها وأنفها؟ أم يطلقها ثلاثاً وتسعاً، ويرميها إلى بيت خالتها؟

نزل من العربة أمام الدار. فتح الباب بمفتاحه، في أثناء صعوده الدرج بطيئاً، كان يفكر بهذا الأمر: كيف يجب أن يتصرف؟ أيضربها، أم يطلقها؟

صادف خلدوناً في البهو. هرب الولد متوجساً إلى جانب أمه في المطبخ. همس وهو يتمسك بثوب أمه:

- جاء أبي!

نظرت ناظان من باب المطبخ: كان داخلاً إلى غرفة النوم. أدركت أنه متوتر. شعرت بأمر ما من مغادرة حماتها البيت غاضبة، وعودتها فرحة. ولكنها لم تعرف القضية بدقة.

- ناظان!

كان صوته حاداً، وغليظاً. أجابت:

- سيدي!

- تعالي إلى هنا!

ركضت، وجاء خلدون من خلفها.

السيدة هاجر كانت تتابع كل هذا بتوتر بالغ من غرفتها وكلها آذان

صاغية. فتحت باب غرفتها، ومدت رأسها. وانتظرت الصراخ الذي ستطلقه الكنة وهي تضرب.

كان مظهر يروح ويجيء بين زاويتي الغرفة واضعاً يديه خلف ظهره. رغم أن زوجته دخلت إلى الغرفة، وعقدت يديها أمامها قائلة: "سيدي؟"، وانتظرت، فإنه لم يبدأ الكلام فوراً. بل راح يذرع المكان ويداه خلف ظهره، ووجهه مقطب، وقبعته على رأسه.

فجأة وقف أمام زوجته بالضبط:

- ألم أقل لك لا تبلغي أمي بمسألة الخاتم؟

اهتزت المرأة الشابة، ولم تستطع الإجابة.

- ها؟

تأتأت:

- أنا لم أبلغها...

- من أبلغها؟ من يمكنه أن يبلغها؟ ألم تكن هذه المسألة بيننا؟

- والله أنا لم أبلغها!

انفجر كمدفع:

- من أبلغها يا سافلة؟ كذابة! أتحاولين خداعي من دون خجل؟

فجأة حل بزوجته خوف رهيب جعله يتخلى عن فكرة ضربها. كان الأفضل أن يعيده. هدايا من هذا النوع لا تليق بامرأة كهذه.

- هاته!

الآن محقت ناظان. تأتأت قائلة:

- الخاتم؟

- الخاتم، نعم!

استمر بالرواح والمجيء بين الزاويتين ويداه خلف ظهره.

ذهبت ناظان إلى الصندوق وكأنها ضربت في مخها. جلست أمامه القرفصاء. فتحت غطاءه. لم يكن لديها أمل. أخرجت الصرر كلها، وفتشتها مرات. بدأت بإنزال الصرر مرة أخرى رغم أن الوضع على هذا النحو. الوقت يمر، والخاتم لا يوجد بأي شكل.

انتصب مظهر فوق رأسها:

- أنا طلبت منك الخاتم. وأنت تخرجين الصرر!

- أبحث عنه.

- عن ماذا تبحثين؟

- عن الخاتم!

طار صواب مظهر:

- أمجنونة أنت أم طائشة؟ وهل الخاتم إبرة ليسقط بين الصرر، ويضيع؟ ألم يكن بعلبته؟

- بها.

- حسن؟

تنهد.

- أجيبي. ماذا حدث؟

بدأت البكاء مشهشهة. في أثناء ذلك، قالت:

- غير موجود. ضاع فجأة مع علبته.

- هل ضاع؟ ضيعت ذلك الخاتم الماسي، خاتم روحي؟

لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه. صفعها، ركلها، لكمها... ناظان تتدحرج من مكان إلى آخر على الأرض. فمها وأنفها مغطيان

بالدم. خلدون يصرخ بأعلى صوته، ويبكي. في هذه الأثناء أراد أن يمسك أباه من رجله:

- لا تضربها، لا تضرب أمي!

بركلة تدحرج إلى وسط السرير. كان مظهراً قد طار صوابه، جعل الدار الضخمة تضج، وتعكس جدرانها صدى صوته.

فجأة فتح الباب. دخلت أمه إلى الغرفة. قالت وكأنها لا تعلم شيئاً:

- ماذا يوجد يا ابني؟ لماذا توترت؟

التفت إليها مظهر:

- الله يبعث لكم البلاء كلكم! كللت ومللت منكما، لا إله إلا الله!

خرج من الغرفة غاضباً. جُنت السيدة هاجر. التفتت إلى كنتها، وقالت:

- التوبة، استغفر الله. التوبة، استغفر الله ياربي... أنا هنا مشغولة بصلاتي، أدخلتموني بأموركما. أنت العليم يا الله... ما أساس هذا الصخب يا بنت؟

لم تجب ناظان. يبعث لها العمى ألا تعرف؟

- انهضي، انهضي، واغسلي الدم من يديك ووجهك، انهضي!

قرع الباب. لابد أنها ناجية. هرعت. سحبت خيط الباب. كانت ناجية فعلاً. صعدت السلم بفضول.

- ما تلك الضجة يا خالة؟

أجابت:

- ابني ضرب زوجته.

- لماذا؟

- ماذا سيكون؟ أضاعت الخاتم...

- أأضاعته؟ عجيب. كيف أضاعته؟

- أأعلم أنا يا ناجية؟ واحدة قذرة وفوضوية. من يعلم أين أضاعته. الولد محق بغضبه. دفع كل هذه النقود، واشتراه بتعبه.

- من أين عرف أنها ضيعته؟

- أأعرف أنا؟ جاء إلى البيت متوجساً، وناداها. فجأة قامت القيامة. كنت سأصلي المغرب. وبينما كنت أفرش السجادة، أصغيت، ماذا أفعل؟ فهمت، ركضت، وخلصتهما، وقلت يا ابني، هذا يصير، وهذا لا يصير. لا تفعلها إكراماً لي، هدأته بصعوبة، وخلصتها من بين يديه. كان سيقتلها لولاي!

اندست ناجية بالباب بفضول. صارت الغرفة وسط الظلال مع المساء الهابط. تبكي ناظان بصمت متمددة بين الصرر المتناثرة أمام الصندوق.

سحبت السيدة هاجر ناجية من ذراعها.

- دعيها، لا تقولي شيئاً. تعالي، نجلس نحن في غرفتي...

انتقلا إلى غرفة السيدة هاجر.

أدركت ناجية فوراً أن للحماة إصبعاً في الأمْر. قالت السيدة هاجر التي شعرت بهذا:

- الكلام بيننا. مشكلة الولد هي كرهه لهذه المرأة. هذا ما أعرفه أنا، وأقوله!

كانت ناجية مترددة بفتح موضوع جالة الذي سمعته بالأمس من زوجها. قال لها زوجها: "احذري من قول شيء، لئلا يصل إلى إذنه" ولكن هذا هو الوقت المناسب غالباً.

بادرت السيدة هاجر أولاً، قالت:

- أغلقي هذا الباب، وتعالي.

أغلقت ناجية الباب، وجاءت. جلست على المقعد بفضول:

- خير؟

- ذهبت اليوم إلى مكتب مظهر.

- لماذا؟ ماذا يوجد هناك؟

- لاشيء. أليس مكتب ابني؟ ذهبت لمجرد الذهاب. رأيت امرأة يا ناجية، جعلك الله تصدقين، مثل الغزال، بذرة باشاوات، راحة. تقول إنها ستنفصل عن زوجها، ولكن أي رائحة، وأي هندام، وأي جاذبية وحضور! أنا أسمي مثل هذه امرأة. إذا كان عند ابني عقل...

لم تستطع ناجية ضبط بنفسها:

- هل اسمها جالة؟

- لا، ناريمان!

- حسنٌ يا خالة. اسمها الأصلي ناريمان، وفي البار ينادونها جالة...

توسعت عينا السيدة هاجر:

- في البار؟

- حلفني زوجي أن لا أتحدث بالأمر. إنها فتاة بار. وهي تبادل ابنك الحب.

- قال لي إنها ستنفصل عن زوجها؟

- لابد أنه أخفى عنك هذا. يقولون إنها جذابة وحلوة اللسان جداً. وقد دخلت الفرن مع ابنك. والجميع يحكون...

مرت جالة بخاطر السيدة هاجر. في الحقيقة أنها امرأة جذابة وجميلة، ليست قذرة كناظان. تستحق أن تصطحبها في الزيارات، وتقول: "كنتي". ولكن ثمة مشكلة: امرأة بار؟ هل سيتزوجها ابنها؟ حكوا في بيت قاضي التحقيق أن لبنت البارات هذه خمسة أو ستة عشاق وأصدقاء وأحباب مبتلين، تنام كل ليلة مع واحد... ليس سيئاً النوم كل ليلة مع رجل، ولكن...

- لو أن ابني لا يتزوجها.

مطت ناجية شفتيها:

- لا يتزوجها يا روحي، وهل يتزوجها؟ يلهو معها، ويلهو...

- حسنٌ، ولكن لا يمكن الوثوق بالرجال يا هذه.

- صحيح. رجلي يقول... وجهاء المدينة وعقلاؤها ومتدينو المسلمين الأبرز فيها باتوا يترددون على البار!

انفعلت السيدة هاجر:

- إنهم يفعلون يا ناجية! على الإنسان معرفة أنه جاء إلى هذه الدنيا ليلهو قليلاً أيضاً. الرجل يجب أن يتوسخ بعض الشيء.

- والمرأة؟

ضحكت السيدة هاجر بشكل حلو:

- لا تدغدغي الإنسان يا ناجية...

نهضت، وأشعلت المصباح.

- لكل جميل طعم مختلف. وهذا ينسحب على المرأة والرجل. لِمَ أخفي عن العبد ما يعرفه الله؟ أرى رجلاً وسيماً، فيذوب قلبي!

كانت ناجية مندهشة. لم تسمع "العجوز" تتحدث بهذا الشكل أبداً. هل صارت المرأة محببة فجأة؟ إنها تغلي. ترى ما السبب؟

بعد قليل غادرت ناجية، وذهبت السيدة هاجر إلى غرفة كنتها بوضعها الفرح ذاك: مازالت المرأة هناك، تبكي صامتة.

- انهضي! انهضي، وأشعلي مصباحك، واصحي. إنه زوج، يقتل ويحب. وهل القيام بعمل الزوجة سهل؟ يا ما شبعنا ضرباً من أزواجنا! انتظري.. مهما كان فلكِ زوج جيد لا يفضل أخرى عليك!

أشعلت المصباح البطيخي. ظهرت ناظان بمسكنتها كلها مضرجة بالدم.

- أقول انهضي واغسلي يديك ووجهك.

نهضت ناظان من دون رغبة، وذهبت إلى المطبخ.

كان خلدون يلعب بالدحل. رسم بالطباشير دائرة صغيرة على الأرض، ووضع فيها ثلاث كرات. كان الدحل يتدحرج على السجادة الطويلة الوبر وينحرف يميناً ويساراً.

السيدة هاجر كانت مسرورة. ليس سيئاً أبداً أن يحب ابنها "فتاة بار". المعنى الذي استنتجته هو: ابنها لا يحب زوجته! هذا واضح أصلاً: لو أحبها فهل يضربها على هذا النحو من أجل خاتم؟

بعد أن غسلت ناظان يديها ووجهها فكرت بحذر بلين حماتها المفاجئ. إذا كان من المؤكد أنها شحنت ابنها ليضربها، فلماذا تلين؟ إنها تشحنه دائماً. ابنها يضرب، ويصرخ، ولكنها لم تكن تلين. أيمكن ألا يكون للمرأة إصبع في قضية الخاتم؟ سألتها:

- هل حكيتم شيئاً أنتم؟

- لمن؟ لمظهر؟

- نعم.

- حول ماذا؟

- حول ضياع الخاتم وما شابه...

تضايقت السيدة هاجر:

- ياه... يعني أنك تعتبرين الأمر مني؟ أحسنت! أحسنت يا ناظان! أما أنا فآتي لأهون عليك. الذنب ذنب المخبولين مثلي أساساً. ماذا سأقول أنا يا بنت؟ إذا كان هناك ضرورة لقول شيء، فلماذا لا أقوله أمامك؟ وهل أخاف منك؟

في هذه الأثناء بالضبط صرخ خلدون:

- آ... وجدت العلبة يا أمي، انظري!

خرج من تحت السرير وبيده علبة الخاتم الملبسة بالمخمل البنفسجي.

ركضت ناظان، وأخذت العلبة منه:

- أين وجدت هذه؟

- انزلق دحلي. ووجدتها وأنا أبحث عنه تحت السرير!

فرحت ناظان كالمجانين، وعانقت حماتها:

- سامحيني يا أمي، سامحيني. أرجوك سامحيني. أنا ارتكبت ذنباً باعتقادي أنك مزحت معي. سامحيني...

قالت السيدة هاجر:

- ليعفو عنك الله. أنا أفوض أمري إلى الله. لو كنت حماة سيئة، لشكوتك لابني لأنك اعتبرتني لصة.

انزوت ناظان في زاوية وبيدها علبة الخاتم تصب دموع الفرح مشهشهة. خرجت السيدة هاجر من الغرفة بهدوء.

٨

ركزت عينيها على الطريق الذي سيعود منه زوجها بالحنتور وهي جالسة على الأريكة أمام نافذة غرفة النوم طوال الليل، وبيدها علبة الخاتم لتبشر زوجها.

صارت الساعة الواحدة، الثانية، الثالثة... قرب الرابعة نعست، وهزمها النوم. سقط رأسها على حافة الأريكة، وصدرها يعلو ويهبط بهدوء، وتبتسم شفتاها الشاحبتان، كانت لازالت ممسكة بعلبة الخاتم بقوة. وجهها الذي لونه ضوء المصباح الخافت باللون الأصفر منتفخ في عدة أمكنة، ومغطى بالكدمات، ولكن ما الضرر؟ وُجد الخاتم!

رأت زوجها في حلمها: كان مخيفاً وفظاً كلحظة ضربه لها من أجل الخاتم الضائع.

"أجيبي. أين الخاتم؟"

علبة الخاتم في راحة يدها. وجدها ابنها تحت السرير نهاراً. كانت تمسكها بقوة، برغم هذا لم تستطع قول: "هاهو! وجدناه تحت السرير!".

استيقظت عندما بدأ زوجها بضربها بلكماته المريعة. جحظت عيناها. وعرق بارد تصبب من وسطها إلى أسفل.

نظرت إلى ما حولها مندهشة. كانت تحلم!

تثاءبت، وتمطت، ثم نهضت. نظرت إلى الساعة: كانت تقترب من الرابعة بعد منتصف الليل.

زوجها؟ لماذا لم يأتِ؟ ألأنه تضايق من ضياع الخاتم؟ هذا هو السبب على أي حال. ألم يصرخ: "كللت ومللت منكم، لا إله إلا الله!" لأمه؟

ذهبت إلى النافذة. كان ثمة ضوء خفيف يضيء بعيداً. مازالت تنظر إلى الطريق المظلم، وتراص البيوت. كان زوجها سيأتي من هناك.

صاح ديك في مكان ما. رد عليه ديك آخر. لم تكن منتبهة إلى أي منهما. كانت تفكر بزوجها الذي كلّ وملّ من بيته. ترى أبسبب الخاتم الضائع لم يأت إلى البيت، وبقي في الخارج، أم لأنه ملّ حقيقة، أم لا هذا ولا ذاك، ثمة سبب آخر. مثلاً ذهب إلى كشف، أو ما شابه، أم أنه اجتمع بأصدقائه كما في الأيام الأخيرة؟

تنهدت.

فجأة تذكرت حماتها. ما سبب ليونة تلك المرأة التي تغتنم أدنى فرصة لتكيل لها أقذع السباب؟ استلقت على الأريكة من جديد.

كيف غضبت عندما صدها ابنها على المائدة قائلاً: "وهل من عاداتي تقديم حساب حول مكان وجودي؟" وأغلقت الباب بعد ذهابه! أكانت عبارة "كللت ومللت منكم، لا إله إلا الله!" أخف من صده لها على المائدة؟ لا. لا، ولكنها لم تغضب هذه المرة، وانكسرت. لو أن الأمر تم على هذا النحو دائماً... كم ستحبها، وتحترمها لو كانت لينة دائماً، ولم تعيّرها بفقرها كل فترة بقولها: "بنت السليمانية العاطلة الفقيرة. جئت إلى بيتنا، وصرت إنسانة!"...

كانت ترى حموات الأخريات أيضاً. كن سيدات رائعات ومنيرات الوجوه. وبرغم شكوى كثيرات من كناتهن إلا أنهن يخاطبنهن "يا ابنتي" و"يا صغيرتي". لو أن حماتها أيضاً باتت مثلهن. قالت لنفسها: "أجوع وأطعمها، وأعرى وأكسوها! من لي غير زوجي وابني وحماتي؟ خالتي؟ من يعلم ما حدث لها؟ طالما لانت، لأحضر لها ماء الوضوء! آسفة عليها، فقد اعتقدت أنها أخذت الخاتم. ولكنه ظهر تحت السرير. هذا يعني أنه تدحرج مع إخراج الصرر"

كان آذان الفجر يرفع. نهضت. دسّت الخاتم بين أغطية السرير، وخرجت من الغرفة.مازال البهو شبه معتم. وكانت ستائر غرفة الحماة البيضاء المسدلة بإحكام منارة. هذا يعني أنها استيقظت. إنها على وشك الخروج للوضوء.

ذهبت إلى المطبخ، وملأت الإبريق. وبينما كانت تحضر الطست، خرجت حماتها من غرفتها وهي تقرأ الأدعية بصوت مرتفع.

حين وصلت السيدة هاجر إلى المطبخ، ورأت كنتها مقدمة على حركة غير معتادة عليها، قالت:

- ما هذا؟

ابتسمت ناظان بوجهها غير الواضح تماماً في شبه ظلمة المطبخ:

- حضرت لكم ماء الوضوء...

- عجيب: ما الذي أوجبه؟

كانت تريد أن تقول: "قلبي دفعني. سأحبك مثل أمي وأكثر اعتباراً من الآن. أرجوكم أحبوني أنتم أيضاً. أو تحدثوا معي كالحموات الأخريات من دون إهانة على الأقل. لا أحد لي غيركم..." ولكنها لم تستطع غير أن تخجل.

أما السيدة هاجر فقد عزت تصرف كنتها مكراً، وفسرت الأمر بشكل مختلف. قالت:

- مخبولة! ستخدعينني بعقلك الصغير، أليس كذلك؟

- ....؟

- وهل أنا من تلك الحموات المخبولات يا بنت؟ أدركتِ عظمة ذنبك، وهذا لأعفو عنك، أليس كذلك؟ هيا، هيا...عيشي بكرامتك!

شدت الإبريق من يدها، وأخذته.

كأن ماءً مثلجاً صُب على رأس ناظان. تجمدت واقفة. لماذا تصرفت على هذا النحو؟ ألا تعرف هواجسها؟ أقليل ما بذلته طيلة سنوات، وجعلت نفسها ممسحة تحت قدميها لملء عينها، واتقاء شرها؟

لم تعد السيدة هاجر مشغولة بكنتها. سحبت كرسياً خشبياً صغيراً، وجلست تتوضأ كالمعتاد وهي تقول "آمين" بصوت جهوري. متجاهلة كنتها المنتصبة بجانبها.

فكرت طوال الليلة أين قضى ابنها ليلته، ومع من. قررت أنه عند "فتاة البار". فلم يذهب إلى كشف أو مجلس أصدقاء. قضى ليلته عندها. أحسنت. إنه شاب ووسيم وجذاب ومباه. من المؤكد أنه محق بالاستمتاع مع صديقاته من النساء. ثم إنها المرأة التي رأتها في ذاك اليوم..."فتاة بار"، ما فتاة بار. لابد من صفة للقحبة. حقيقة إنها امرأة كاملة. سيدة..."

لا فرق عندها إن كانت ناظان في حضن ابنها أو جالة. يناسبها أكثر مضاجعته فتاة بار. إذا تعلق غداً بفتاة البار، وطرد ناظان... حقاً، يمكن أن يطردها أيضاً! نعم ياه، إذا لم يكن قد أخرج زوجته من عينه،

ومحاها من دفتره، فلماذا يضربها بوحشية متذرعاً بضياع الخاتم؟ ولماذا يقضي الليل في الخارج؟ ولماذا يقيم علاقة مع فتاة بار؟

بينما كانت تغسل قدميها، فكرت متوجسة باحتمال أن يجلب ابنها جالة مكان ناظان. ليستمتع مع مختلف النساء، وليس مع جالة فقط، شريطة ألا يجلب إلى البيت واحدة مكان ناظان!

أنهت وضوءها، ونهضت. أخذت المنشفة التي تمسكها كنتها، وجففت وجهها. وقالت لها وهي تعيدها لها:

- بتصرفاتك الباردة بردّت زوجك في النهاية!

غادرت المطبخ دون انتظار جواب. ذهبت إلى غرفتها، ومدت سجادتها، ووقفت للصلاة.

يجب أن تُسمِع كنتها بطريقة ما أن زوجها يضاجع فتاة بار. يمكن للمرأة أن تقول: "أنا لا أستطيع احتمال هذه الحياة، لننفصل!" ويوافق مظهر، وتنقلع الباردة "الخادمة" وتذهب إلى جهنم.

ركعت.

كأس من أماصيا، إذا لم يصلح واحد، فالآخر موجود.

نهضت.

لا يمكن أن تأخذ خلدون معها... لن تعطيها حفيدها الوحيد يضيع بين يديها الفوضوية الكسولة. ثم أن ابنها لا يمكن أن يعطيها إياه...

ركعت من جديد.

محام كبير ومشهور...

نهضت من الركوع.

خطرت ببالها "فتاة البار". كانت جذابة وذات حضور وطول وعرض،

كأن فيها بذرة باشاوات، ولكن...ماذا لو وضعت ابنها في كفها، وحاولت أخذ مكان ناظان؟ وماذا لو طالبت بعقد قران، وقبل ابنها المخبول؟ وماذا لو سكنت الدار وأقلقت راحتها؟

قدرت الوضع طيلة أربع ركعات. بعد ذلك جلست فوق السجادة على ركبتيها، ورفعت يديها بالدعاء:

- يا ربي لجأت إليك. هب قلب ابني رحمة لي. لا تجعله يصغي لكلام السيئين. أرسل كنتي الخادمة إلى قعر جهنم، ولا تجلب مكانها فتاة البار. أنت قادر على كل شيء. يا ربي هب لي ولحفيدي حياة إلى جوار ابني بعيداً عن ظل كنتي! أنا ألجأ إليك! أنت ملجأي. ليس عندي ما لا تعرفه. إذا كنت قد قصرت أحياناً بعبادتك، وفوت الصلوات الخمس، فاعف عني يا ربي....

فجأة صرخ خلدون:

- لا تضرب، لا تضرب أمي، لا تضرب!

نام الولد مساء إلى جوارها. قفز من الفراش صارخاً بأعلى صوت.

السيدة هاجر قالت: ما هذا؟ ماذا يجري لك؟

كان خلدون قد صحا، ولكنه مازال تحت تأثير الحلم المخيف.

- أرأيت حلماً؟

- نعم.

- ماذا رأيت؟

- كان السيد والدي يضرب أمي.

قفز من السرير بمنامته البيضاء.

- أين ذاهب في هذا الصباح الباكر؟

- أين أمي؟
وصل غضبها إلى ذروته:
- لتُقلع عين أمك. لست راعيتها!
بينما كان الولد خارجاً من الغرفة راكضاً، قالت غاضبة:
- غداً إذا طردها أبوك، ستبقى بين يدي، وسترى ما أفعله!
أغلقت الباب خلفه.

فسدت صلاتها، ولكن الله تعالى يعرف ما بداخلها. لن يؤاخذها. نهضت قائلة: "الرحمة، ماذا أفعل؟" وطوت السجادة، وألقتها فوق الخزانة.

مازالت متوترة. إنها لا تستطيع كسر التقارب بين الولد وأمه. برغم أنه ينام إلى جوارها ليلاً، فهو يجد ذريعة عندما يفتح عينيه مستيقظاً في الصباح الباكر ليقفز ذاهباً إلى أمه. همهمت قائلة:

- ماذا سيكون فرخ الأفعى؟...

بعد الإفطار تزينت بعناية، وذهبت إلى بيت ناجية.

النادل رضا نائم لأنه جاء الليلة الماضية متأخراً. قفز بعد أن هزته زوجته بشدة:

- هاه!
- انهض، جاءت العجوز.
- أي عجوز في هذا الصباح ياهوه؟ أنا نعسان!
- أم السيد مظهر يا روحي. انهض، هيا. ستنام في ما بعد!
- سأبدأ الآن فيها من فوق، ومن تحت... أي امرأة نجسة!

قفز من فراشه بالقميص والسروال الداخليين، وذهب إلى المطبخ،

وناجيـة فـتـحت البـاب. حين دخلت السـيـدة هـاجر، وجدت أن الفـراش لم يرفع بعد.

- يبدو أن رضا أفندي مازال نائماً؟

- لا يا روحي، نهض. تفضلي.

قالت وهي متجهة نحو صدر البيت:

- إذا كـان نـائمـاً فلينم يـا روحي. وهل أنا غـريبـة؟ تضـايقت عند الصبـاح، فقلت لأذهب قليـلاً. (نادت) يا رضا أفندي! تعـال يا صغـيري. أنا لست غريبة، خذ راحتك! لابد أنك نمت متأخراً الليلة...

كـان النـادل رضـا قد ارتدى بنطلونه. ودخل بوجـهـه الذي غـسله تواً وبعينيه النعسانتين.

- أهلاً بكم!

- أهلاً يا ابني. وهل أنا غريبة يا هذا؟ لو نمت...

- نـهـضت يـا سيـدتي. حسنـاً فعلتم. نشـرب قـهـوة الصبـاح معـاً.. حضري لنا قهوة يا ناجية!

تضايقت ناجية. قالت شبه مازحة:

- حسناً أنت قلت.

بعد أن ضحكت السيدة هاجر مقهقهة، قالت:

- يا إلهي منكما يا أولاد. ذكرتماني بشبابي. نحن أيضاً كنا نغتنم الفرصـة لنتناغم... آآآه، عندمـا أفكر بالأيام الماضـيـة أحزن كثـيـراً. وهل نسـاء هذه الأيـام هنّ نسوة؟ في أيامنا، إذا ارتدين شيئاً، فلن نرتديه مرة أخـرى. ولن أتحـدث عن الطعـام والمأكـولات. كنا تيـجـانـاً على رؤوس رجالنا... علم الله كانوا ينظرون إلى أحداقنا!

ناجية تطوي اللحاف. مازالت متوترة. قالت لزوجها:

- هل سمعت؟ اسمع، وخذ عبرة!

حمل رضا الأمر محمل الهزل أيضاً:

- كان هذا قديماً يا ابنتي! أشجار الصنوبر القديمة صارت كؤوساً الآن، والأمة تشرب فيها ماءً. راحت تلك المراحل، ولنحرق هذه المرحلة. أليس كذلك يا سيدة؟

تنهدت السيدة هاجر:

- يبدو أن اليوم الذي يسمونه الأسوأ قد حل.. هذه البارات، والعري، وسِعر الرجال...

قال رضا لنفسه: "ها قد فهم قصد العجوز. لابد أنها جاءت لتستدرجني بالكلام عن ابنها. جاءت، ولكنها ستقبض ريحاً. الرجل نبهني بشدة. فهل أقول أين هو؟".

قضى مظهر الليلة حتى ساعة متأخرة مع جالة في الخلوة! حتى أن بعض الزبائن المعتبرين غضبوا من هذا، وقالوا: "إذا كان يحبها إلى هذا الحد، فليخرجها من البار، ويعقد عليها!"

بعد منتصف الليل خرجا معاً. ولعلهما قضيا الليلة في بيت صاحب البار، لأن الشرطة تراقب البنسيون.

قلّبت السيدة هاجر الأمر قائلة:

- لم يأت مظهري هذه الليلة.

وكأن النادل رضا لم يكن موجوداً هناك قال:

- هل ذهب إلى كشف أو ما شابه؟

- كشف؟ كشف ماذا؟ وهل هنالك كشف ليلاً؟

- لا. يذهب نهاراً، ولا يستطيع إيجاد واسطة في وقت متأخر، فيضطر للبقاء!

ضحكت السيدة هاجر بصمت ساخرة:

- آه منك يا رضا... ماذا تظنني أنت بالله عليك؟

- لماذا يا سيدتي؟

- اذهب، وقل هذا للمخبولة كنتي! وهل أبتلعها؟ من أي جيل أنا؟

- ....؟

- دع الكشف، وما كشف، أكان في البار ليلاً، أخبرني عن هذا!

التفت رضا، ونظر إلى زوجته: هل هي التي ثرثرت، رغم تنبيهه لها بشدّة قائلاً: "احذري من فتح الموضوع لأحد!"؟

قالت السيدة هاجر:

- لم أسمع هذا من زوجتك يا ابني.

- ممن سمعتم إذاً؟

- هوووه...حتى السلطان الأطرش سمع بهذا. حتى إنني أعلم مع من ينام...

- مع من ينام؟

- أليس مع تلك المرأة؟ جالة، ناريمان، لتكن من تكون...

خفض النادل رضا عينيه إلى أمامه.

تابعت السيدة هاجر:

- أنا لا أعيب على الرجل أن يحنّي يديه. إذا وجد الرجل المزايا التي افتقدها في زوجته عند أخرى... فهذا قلب، ينساب كالماء، ويذهب! أنا لا أجد الذنب في الرجل. على جنس النساء أن يعرف كيف

يضبط رجاله في راحة يده! إذا لم يعرف، فلا يحق له الشكوى! لا أقول هذا لأنني حماة، الشهادة لله. لو كانت عندي زوجة كناظان فلن أدعها يوماً واحداً في بيتي. لماذا؟ خمولة، وساحلة الجورب، وعديمة الموهبة. زوجك حين يأتي يا هذه، اتركي العمل، وتزيني، واصبغي وجهك، واستقبليه عند الباب. لا! سيبحث عن ثقب يختبئ فيه.

ناجية لا تدعهما وحدهما لتعد القهوة. سألت:

- ماذا حدث بمسألة الخاتم؟

- ماذا سيحدث؟ بقيت عند الضرب الذي تحملته. مخبولة، كان قد سقط تحت السرير. قالت الساقطة أنني لصة! ادعت أننا مازحناها. انظري إلى نظافة قلبي، لم أفتح فمي بكلمة واحدة لابني. لو أنني قلت له إن زوجته أضاعت الخاتم، وأظهرتني لصة، كان هذا سينهي الأمر. ولكنني سكت. لديها ولد. أنا قلبي نظيف، وممتلئ خوفاً من الله. لست مفرقة مثل الحموات الأخريات. أصلي صلواتي الخمس، وأدعو الله كي يمنحنا القوة والطمأنينة، ويحفظنا من سوء الألسن....

نفخت الدخان الذي سحبته من سيجارتها نحو السقف. وقالت:

- لا أدري. ليلاقيا ما يلاقيان. بالنسبة إلي فالجو جميل. إذا سألت لماذا، فلأنني لست من سيدخل حضنه. ما يشغل بالي حقيقة هو خلدوني. أنا أشفق كثيراً على المسكين. لا أهتم بالآخرين. إذا انفصلت ناظان فماذا يحدث؟ لا شيء. تذهب إلى خالتها، وتجد واحداً على شاكلتها، وتتزوجه. أما بالنسبة لمظهر، ألا توجد امرأة مناسبة له؟ كان عليك أن ترين تلك الشابات السيدات في بيت رئيس محكمة الجزاء! ما إن نأتي على ذكر مظهري، حتى ينشط لعابهن!

قال النادل رضا:

- صحيح. السيد مظهر... الشهادة لله، رجل بكل معنى الكلمة!

تنهدت السيدة هاجر:

- أقليلة الدموع التي سكبتها لأوصله إلى هذا العمر؟ أقليل القهر الذي عانيته؟ ابني، الله يجعل التراب بيديه ذهباً، يدور من حولي كالمروحة قائلاً أمي العزيزة، أمي العزيزة. إذا مرضت، يقضي الليل بجانبي، ولا يأتي النوم إلى عينيه حتى الصباح. مازال هكذا حتى الآن. يقدرني حق تقدير، ويأتيني عندما يتضايق ليفضي بهمومه، ولا يخرج من دون طلب دعائي له بالخير!

قال النادل رضا:

- سأرجو منكم رجاء.

- مني؟ استغفر الله يا ابني؟

- لا تقولوا إنكم سمعتم مني أنه مواظب على الدوام في البار، ويضاجع جالة!

ضحكت.

- يا إلهي يا رضا أفندي... عشت!

- نبهني كثيراً جداً..

- يا هذا ليس عنده ما يخفيه عني. هو فاتحني بالأمر!

- ....؟

- لو قلت: إنها حناء يد الرجل يا صغيري. أنت لا تستحق امرأة خاملة كهذه، لا يجعلني أعيدها، ويرمي ناظان. ولكنني لا أتحدث. الله لا يرينا. عندها ولد. والقادمة؟.. ماذا عنها لو ظهر أنها ذات أنياب، وحاملة الراية؟

- أعرف جالة حديثاً. بدت لي مبذرة وصاحبة كيف ومسرفة جداً. وكريمة إلى حد...

أصغت ناجية: "حسن. لو تأتي إلى الدار، ونستفيد من كرمها. ماذا نرى من ناظان؟

- ...على مائدتها بيرة ونبيذ...هناك امرأة تدعى نسرين، لصيقتان كأنهما في لباس واحد. مريضة، ولكنها ذكية جداً. تتناولان معاً كل وجبة. النقود كثيرة مع جالة. الأمة تقول جالة ولا غيرها. وهي عشقت السيد مظهر. يدخلان إلى الخلوة، ويخرجان عند منتصف الليل. الناس يغضبون. لو أن المرأة تعبد النقود لكسبت آلاف الليرات في عدة شهور. ولكنها صاحبة كيف كما قلت. نسرين ليست كذلك. مريضة. تعمل يوماً، وتنام عشرة. والنفقات كلها برقبة جالة.

غضبت السيدة هاجر:

- لماذا؟ هل هي مجنونة؟ لماذا تنفق على بنت الناس المريضة؟

- نساء البار هكذا. يبحثن عن صحبة روح. في البار يتحدثن، ويضحكن، وحين يبقين وحدهن، يصمتن كبلابل أكلت توتاً، ويغرقن في التفكير...

ألقت السيدة هاجر عبارة مختلفة جداً:

- لن يُدخل ابني تلك المرأة إلى البيت، حتى لو طلق زوجته، وطردها...

قالت ناجية:

- لماذا؟

أجاب الاثنان معاً:

- لماذا؟ إنها تنام مع ثمانين رجلاً...

- ثم ماذا يقول الناس؟

- أنا امرأة تصلي. كيف أسمح بأمور كهذه؟ إذا كان قد كتب الله له هذا، فليخربه. وإذا حاول أن يفعل هذا، أحلف بالله لأجعل الحليب الذي رضعه مني يخرج من أنفه!

غضبت.

- إدخالها إلى البيت ها؟ أنا سئمت من واحدة. ثم إنك تقول مسرفة. فهل أدخلها إلى بيتي لتسلب مال ابني؟ وأضافت:

- المرأة التي رأيتها. كلها جاذبية وحضور. يا للباس والهندام والرائحة... أين ناظان منها! ناظان عبدة الله الخاملة. أخجل من الأصحاب والأحباب في الزيارات... الجميع لا يعرفون وجهنا الداخلي. يقولون: لماذا تجلبين السيدة الكنة! خذها، لا تعرف كيف تسأل عن الحال والخاطر. لا تأخذها، فلا يتوقف لسان الناس. ضعت. لهذا أسأل الله أن يتركني مع ابني وحدنا، وأعرف ما أفعله!

أطفأت سيجارتها، ونهضت، ولمجرد الكلام، قالت ناجية:

- آآ... لماذا تغادرون؟ كنت سأذهب لتحضير القهوة...

- كأنني شربتها يا ابنتي. وهل أنا غريبة؟ يا لله بالسلامة.

- مع السلامة يا خالة، مع السلامة، ولكن...

توقفت:

- خالة؟ ألن تلغي كلمة خالة هذه يا بنت؟

هرعت ناجية، وطوقت عنقها:

- أختي الكبيرة. مع السلامة يا أختي الكبيرة!

- ها، هكذا. يسلم لسانك...

تبادلت النظر مع رضا. غمزته دون أن تنتبه ناجية. قال رضا لنفسه: "أنهق كالحمار إذا لم يكن فيك ذاك الأمر!"

عادا إلى الغرفة. قال رضا:

- كدت انفجر. ابنها لا يخرج عن كلمتها... إذا أرادت جالة، فلن تبقيك لا أنت ولا ناظان!

- دع عنك هذا وذاك... بدأت أعجب كثيراً بجالة تلك!

- لماذا؟

- إنها ترعى المرأة المريضة، وكريمة... يخطر ببال الإنسان أن يقول: إن شاء الله يطلق السيد مظهر ناظان، ويجلب جالة!

- من أجل الاستفادة، أليس كذلك يا عديمة الشرف؟

- ماذا أفعل؟ ماذا وصل ليدي من ناظان؟ إنها لم تعطني حتى جوربها القديم.

خطرت ببالها النقود التي أخذتها لكتابة لسان حمار، وعمل حرز. عليها أن تأخذه لها عندما تذهب العجوز إلى الزيارة بعد الظهر. وهو وقته بالضبط. مهما يكن فهي حزينة لعدم مجيء زوجها إلى البيت.. تثاءب زوجها:

- عديمة الشرف! أخذتنا بالصخب، ولم تحضري القهوة؟

- لم أحضرها متعمدة!

- لماذا؟

- لتشرب حثالة الزقوم ومكثف الزفت!

- غرت عليّ من العجوز .. ها؟

- غرت طبعاً. أي عجوز هي؟ إنها أكثر حيوية وتغنجاً مني. لو حاصرتك في مكان خال..

قهقه النادل رضا:

- أنت امرأة غير مؤدبة ولا... لنفرض أن قلب المرأة وقع... ألست مسلمة؟

- مسلمة!

- إذا كنت مسلمة، أليس فرضاً في ديننا تفقد الأرملة والشيب وجبر خاطرهما ومساعدتهما؟

غضبت ناجية:

- أكسر هذا الإبريق على رأسك الآن...

- لا تفعليها!...

ذهب إلى جوار زوجته، واحتضنها من الخلف:

- أتكسرين الإبريق على رأسي حقاً؟

- أكسره طبعاً...

- ألا تشفقين علي؟

- دعني ياه!

تملصت، فاحتضنها مجدداً:

- عند العجوز نقود كثيرة، نسحب منها. فهل هذا سيء؟

- احك بشكل صحيح يا رضا، وتريدني ساكتة!

- بجد؟

- بجد طبعاً!

أدخل يديه تحت إبطيها، وجذبها إليه. أحبت هذا منه لكنها قالت:

- اتركني.

- لن أتركك!

أراد أن يمددها على ظهرها فوق المقعد. فتملصت.

- مجنون، ماذا تفعل؟

بدا الرجل مثاراً. قال:

- ما الذي يحدث؟

- نحن أمام النافذة... ماذا لو مر أحد؟

- أسدلي الستائر!

هزت المرأة كتفها. امتد الرجل إلى الستارة بيد مرتجفة.

....

تجولت السيدة هاجر حتى ظهر ذلك اليوم على بيوت المدعي العام، وقاضي التحقيق، ومدير المالية ورئيس محكمة الجزاء. تحدثت مع كل من أحبائها اللواتي تمر عليهن بحسب هواها. وذكرت "فتاة البار". ادعت أنها أُعلمت بأن ولدها يضاجع امرأة كهذه، وطار صوابها. وكانت تتألم على كنتها كثيراً. لديها ولد. لا أحد لها. إذا أرسلها غداً إلى خالتها، ماذا سيحل بالمسكينة؟

قالت لزوجة المدعي العام المتألمة كثيراً لهذا الأمر:

- ألا أتألم يا ابنتي؟ دم قلبي يجف، فماذا أفعل؟ إنه رجل. لا يسمع الكلام. حاولت استدراجه بالكلام، فغضب حتى مني. يقول: ماذا أفعل؟ أنا أجد في تلك المرأة ما بحثت عنه في زوجتي طوال سنوات. أفكر. لا أجده غير محق. هذا قلب، أيصغي لفرمان؟ إذا كنت امرأة، ولم تضعي زوجك في راحة يدك، فهل الذنب ذنبي؟ ولكنها عندما انفردت

بأم مدير المالية التي خرج زغب أبيض من ذقنها، والمتطابقتين عقلاً وهواجس، باحت بما باحت:

- سيعملها بالتأكيد! رجل سبع. لم لم يفعلها قبل أن يستهلك عمره مع المهملة القذرة ناظان؟ أليس صحيحاً يا أختي؟

كانت أم مدير المالية بنفس القناعة:

- بالتأكيد يا هاجر. يجب أن تفوح رائحة الرجولة من الرجل. بماذا تفيد رجولة الرجل إذا لم يدخن، ويشرب العرق، ويرى الجميلات من حوله؟ خذي ابني الحيوان مثالاً. يعبد زوجته، الله لا يعطيه. ماذا يجد في تلك المقرفة القبيحة، لا أعرف؟

قالت السيدة هاجر:

- لا. اسمعي، مظهري من هذه الجهة رجل! يشرب، ويدخن، ويميز الجميلة من القبيحة والسافلة. ولا يهتم بالزوجة. يبدو لي أن ناظان سترحل إلى عند خالتها!

- عقبى لي يا أختي...

- لا يحبها أبداً. ابني يفهم بالنساء. عمل جهالة، وتبع الشيطان، وعلق بهذه الخاملة، وهو الآن نادم.

- أممكن هذا يا هاجر؟ أين السيد مظهر الذي يشبه الأسد منها... يعني أنه ينوي ترك زوجته؟

- هذا ما يبدو، ولكنني لا أريد.

- لماذا؟

- لا أدري؟ عندها طفل...

- هيا، هيا يا مجنونة. مالك أنت إذا كان عندها طفل؟... لو كنت مكانك لحركته بهذا الاتجاه!

- حسنٌ، ولكن ماذا لو أتى بفتاة البار إلى البيت يا أختي؟
- أيأتي بها حقاً؟
- لا أعرف! وهل يوثق برجل؟ ماذا لو سيطرت على عقله وجلبها، فإذا بالجديدة تجعلنا نفتقد القديمة.
- وهذا صحيح أيضاً. يقول المثل: يذهب الصالح، فيأتي الطالح..
- ليترك الأولى، وأنا كفيلة بالثانية بإذن الله.
- آه.
- دين الإسلام واضح. لماذا أخفي عن العبد ما يعرفه المعبود؟ ماذا أريد أنا، أتعرفين؟
- ماذا تريدين؟
- أولاً أن يطرد ابني تلك القذرة. حسنٌ؟
- حسنٌ.
- بعد ذلك سهل!
- كيف سهل؟
- عادي... إذا جلب امرأة السوء تلك إلى البيت وأفتح فمي أفضحه أمام العالم. أنا امرأة مسلمة، كاملة الدين. كيف أدخل سيئة القدر إلى حيث أطأ بقدميَّ الموضأتين؟ عليم الله أجعلها كالأخرى في أسوأ حال. لتسكن وحدها، ليس شرطاً أن يجلبها إلى البيت!

فكرت أم مدير المالية، وفكرت، ثم قالت:
- لا يا هاجر، لا. هذا ليس تفكيراً سليماً...
- لماذا؟
- ماذا يفعل حينئذ؟ يستأجر للمرأة بيتاً آخر، ويفرشه، ويجهزه... أتريدين أن يسكن هو أيضاً معها؟

لم تحسب السيدة هاجر هذا. قالت:

- حقاً.. ياه.

- حينئذ ستفقدين هذا المستوى من الحياة...

- حسنٌ، ماذا أفعل؟ انصحيني أنت.

- دعي السكران حتى ينهار! انتظري انقلاع الكنة. وبعد أن تنقلع...

- أدع الأمور تسير في مجراها، هاه؟

- أليس كذلك ياه؟ أنت تحاولين إلقاء ابنك في حضن المرأة. ماذا لو ظهر أن للمرأة أسناناً، وسيطرت على ابنك؟

- لا تستطيع السيطرة عليه تماماً يا روحي، عنده ولد. لن أدع الولد يبتعد عن ركبتي. منذ الآن ينام خلدون معي ليلاً. أعرف أنه متعلق بأمه كثيراً، ولكن...

- ليكن. لا تدعيه...

- وهل أنا مجنونة؟

عادت إلى البيت قبل موعد وصول ابنها المعتاد بربع ساعة. كنتها في المطبخ تعمل، ولا علم لها بما يجري في الدنيا. سألتها بتكبر:

- هل هناك خبر من زوجك؟

كانت يدا ناظان ووجهها مسودان كالفحم. قالت:

- لا.

ذهبت إلى غرفتها، وهي تقول:

- حسنٌ، ألا تفكرين؟ أليس عندك فضول لمعرفة أين قضى الليلة؟ ماذا لو كانت قد وقعت له حادثة؟ إنه محام كبير، له أعداؤه، وأصدقاؤه. آه من نساء أيام زمان آه.

خلعت ثيابها، وجاءت مسرعة:

- أنت بهذا المسلك ستفقدين زوجك من يدك، اعرفي هذا!

انتقلت إلى البهو، وجلست أمام المائدة.

بدأت ناظان بالتفكير وبيدها قطعة المقوى التي تهوي بها الموقد: بعد أن ذهبت حماتها للنزهة صباحاً، جاءت ناجية، وقالت ما يشبه هذا. قالت: "افتحي عينيك. ستفقدين زوجك من يدك!" وذكرت "البارات". زوجها يعمل في أحد "البارات" التي بدأت تنتشر بالبلد. سادة المدينة المعروفين وأغنياؤها كلهم يذهبون إلى البار. ويوجد في البارات نساء جميلات. يرقصون متعانقين، ويشربون معاً، ويفعلون كل شيء... سمعت بهذا ذات مرة من حماتها في بيت المدعي العام، ولم تتوقف عنده.

لم تستطع السيدة هاجر أن ترتاح في مكانها، فجاءت إلى المطبخ. وقفت بالباب:

- ألا تفكرين يا بنت بأن يتعلق زوجك بسيئة، ويطردك؟

ارتفعت عينا ناظان الشهلاوان نحو حماتها:

- إذا فعل السيد مظهر هذا الأمر الذي من دون ضمير...

- إيه؟

- ماذا أفعل؟ أقول هذا قدري...

- تذهبين مثل النعجة، هاه؟

- ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا؟

أمسكت السيدة هاجر نفسها بصعوبة كيلا تقفز فرحاً، رغم هذا قالت:

- عندك ولد، ولدك. إذا لم تشفقي على نفسك، فاشفقي على ابنك! من يعلم كيف تعامله التي ستأتي مكانك غداً!

دخل خلدون إلى المطبخ. وقف بجانب أمه. وكإنسان كبير نظر إلى جدته مرة ثم إلى أمه. أدمعت عينا أمه من جديد. تلاقت عيونهما. بعد ذلك، انحنت ناظان، ووضعت ابنها بين ذراعيها، وقبلته من خديه...

قالت السيدة هاجر:

- لا تبكي كالمجانين طالما ليس هنالك شيء واضح. اذهبي، واغسلي وجهك الشبيه بوجه القرد!

تركت المرأة الشابة الولد، وذهبت إلى الصنبور. أخذت الصابون. ترى هل تعلق زوجها بواحدة؟ تُسمعها ناجية كلاماً من طرف، وحماتها من طرف. تذكرت ناجية من جديد. قالت: "خذي الحرز. خيطيه ببطانة سترته..."

خطرت حماتها ببالها. أشفقت عليها! أمر عجيب. لم تعتقد أنها ستشفق عليها. هذا يعني أنها مهما حدث، ورغم الكلمات المؤلمة والإساءات كلها تشفق على كنتها! كانت قد قالت: " ألا تفكرين يا بنت بأن يتعلق زوجك بسيئة، ويطردك؟" أهذا يعني أنها لا تريد أن تطرد؟ أهذا يعني أنها مسرورة من كنتها مهما حدث؟ تنهدت براحة.

ترى هل تذكر لها الحرز الذي جلبته لها ناجية صباحاً؟ قالت لها ناجية: "احذري أن تذكري أمره لأحد. وخاصة حماتك بالتحديد!" وجعلتها تقسم، ولكنها لن تقول: "أخذته من ناجية..."؟ تقول أخذته من أخرى. وهل ضروري ذكر ممن أخذته؟

غسلت يديها ووجها، وجففتهما. قالت باسمة:

- يعني أنكم لا تريدونني أن أطرد؟

قالت السيدة هاجر:

- مجنونة، وهل تظنين أنني من دون ضمير إلى هذا الحد؟

- استغفر الله...

- مهما حدث فهذا البيت بحاجة لكنة يا ابنتي. أنت أو غيرك!

"ابنتي؟ ابنتي؟ حقاً؟" هل قالت حماتها يا ابنتي؟

- لا يوجد في قلبي ذرة سوء. وهل أنا عدوتك؟

- لستم كذلك. انتم أمي، حتى أكثر من أمي!

- بالتأكيد يا ابنتي. لهذا السبب اسمعي ما أقوله: لا تتركي زوجك منفلتاً هكذا. الإنسان يرى يمينه ويساره، ويكتب حرز محبة أو ما شابه ذلك. هذه هي العادة يا ابنتي. أي منا لم تفعل هذا من أجل وضع أزواجنا في راحات كفوفنا؟

ثملت ناظان بكلمات "ابنتي"، "صغيرتي"... حين قالت السيدة هاجر: "سلامة البيت ضرورية لمستقبل الولد!" لم تحتمل. وعليها أن تثبت لحماتها بأنها ليست عمياء تماماً.

ذهبت إلى غرفتها، وجلبت الحرز الذي أخذته من ناجية صباحاً، وخبأته تحت الصندوق.

سألت السيدة هاجر:

- ماهذا؟

- حرز. من أجل المحبة!

- من أين أخذته؟

- كتَبتُه.

- هذا يعني أن أموراً كهذه يمكنك أن تفعليها أيضاً؟ أحسنت. ممن أخذته؟

ترددت بداية، ثم ألقت كلامها:

- بائعة صرة لا أعرفها...

حملقت السيدة هاجر. هذا يعني أن ناظان التي تعتقد في داخلها أنها مصلحية ومخبولة، هي من النوع الذي "ينظر إلى الأرض، ويحرق القلب" بالضبط؟ قالت مرة أخرى:

- أحسنت، أحسنت ياناظان! لماذا أخفي عن العبد ما يعرفه المعبود؟ كنت أعتقد أنك ملعونة، من نوع اضربه على مؤخرة رأسه، وخذ لقمته من فمه، وساحلة الجورب.

أثبتت ناظان أنها ليست مخبولة. انفعلت:

- أستطيع كتابة لسان حمار لو أردت!

- اكتبي يا ابنتي طالما سنحت لك الفرصة، لا تتوقفي!

- ماء مقروء عليه، تراب... أستطيع أخذ ما أريد. هذا يعني أنكم تجدون الأمر مناسباً؟

- أكيد يا صغيرتي. لديك ولد. إذا كنت لا تريدين خراب العش، وألا يكون زوجك عبد سيئة، عليك أن تقطعي حبل سرتك بنفسك!

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. غيرت السيدة هاجر الحديث:

- أحشائي تتضور من الجوع. قدمي لي ما ستقدمينه طالما أنني جالسة..

ذهبت ناظان إلى المطبخ فرحة. جلبت المحشي في صحن نظيف، ووضعته أمام حماتها.

- أتريدين بصلاً أيضاً يا أمي؟

- أريد يا صغيرتي.

قطعت رأس بصل إلى أربع قطع من الوسط، وجلبته.

رحماك يا ربي، كيف تغيرت المرأة فجأة! هذا يعني أن الناس من الداخل شكل ومن الخارج شكل آخر. بعد الآن ستجوع وتطعم حماتها، وتعطش وتسقيها. لتذهب، وتتجول طوال اليوم. ستقوم بكل عمل وأكثر بمحبة ورغبة وكأنه لعب. نظرت إلى حماتها بطرف عينها وهي تربط المنديل على رقبة ابنها: بعد الآن ستحبها، وتحبها إلى حد!...

تقابلت عيناهما.

ابتسمت السيدة هاجر بصعوبة كي لا تظهر ما تفكر فيه. بعد ذلك حولت نظرها إلى الطعام الذي أمامها: "يجب البحث عن وسيلة لطرد هذه المرأة فوراً! إذا بقيت في البيت، ستلخبطه بالحرز والسحر. يجب أن أذهب لإيجاد الولد بعد الظهر..."

غسلت يديها وفمها بعد الطعام، وبعد أن تزينت بشكل خفيف، قالت: "أنا ذاهبة إلى بيت مدير المالية قليلاً!" وغادرت البيت. وفوراً وجدت نَفَسها في مكتب ابنها.

كان الرجل الشاب وراء طاولته مشغولاً بأوراقه، بحالته المتوترة دائماً. حين وجد أمه أمامه، قال متوتراً:

- هل حدث شيء؟

جلست السيدة هاجر زعلانة في زاوية:

- يا أعمى العينين! أين كنت منذ المساء؟

- في قعر جهنم.

- كلب. بدأت تعض من جديد، أليس كذلك؟ قلقت طوال الليل.
- لماذا؟ ماذا يوجد؟
- هكذا ياه، لماذا؟ لا شيء. مزاج. ولاه، لم أضع في فمي لقمة واحدة بسببك!
- لو أنك وضعت!
- الجميع لسن كزوجتك يا ابني. طوال الليل تنام شاخرة، ولم تفكر قائلة: أين زوجي؟ لماذا لم يأت؟ لئلا تكون قد وقعت له مصيبة؟ انظر إلى حالي هذه، ذويت في ليلة واحدة، وتحولت إلى شبه ميتة. آآآه، آه! لو كنت حجر رصيف بدل أم...

بدأت تمسح عينيها بطرف ردائها رغم عدم ضرورة ذلك. في هذه الأثناء، نظرت إلى ابنها بطرف عينها. بدا غير مهتم. تابعت:
- احملي في بطنك تسعة أشهر، وضعي ولدك بالآلام والنوبات، واجعلي شعرك للتراب...

قال مظهر مبتسماً:
- بعد ذلك؟
- ماذا لو خبطت رأسك بشيء من هنا؟
- دعي عنك هذا الآن، وقولي لماذا جئت إلى هنا، وما هو قصدك!
- ما عندي قصد. لمَ العجلة؟ لماذا تريد صرفي؟ أم أنك تنتظر أحداً؟

نظر مظهر بشك. تقابلت عيونهما. غمزت السيدة هاجر:
- أم أن سيدة ذلك اليوم المحترمة ستشرّف من جديد؟

تظاهر مظهر بعدم الفهم:

- أي سيدة محترمة؟

- تلك التي ترتدي الرصاصي، وتضع رائحة اللوانتا... السيدة المحترمة جالة!

- أنا محامي يا أمي. كل يوم تأتي كثيرات مثلها...

- وكلهن يأتين من أجل الانفصال عن أزواجهن؟

- يأتين من أجل الانفصال عن أزواجهن، ومن أجل رفع دعاوى للحصول على حقوقهن...

- وهل يخفين أسمائهن الأصلية؟

رفع مظهر رأسه بحدة:

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء... أقول أيخفين أسمائهن الأصلية؟

- وهل أخفت جالة اسمها الأصلي؟

- أخفيتماه معاً يا ابني. أليس اسمها الأصلي ناريمان؟ وتعمل في البار؟ وتقضيان الليل معاً؟

امتعق وجهه بالحمرة. خطر بباله النادل رضا بسرعة: "سافل عديم التربية! ألم أقل لك لا تثرثر مع أمي؟"

- هل قال لك هذا ذلك الكلب رضا؟

قالت السيدة هاجر:

- لا! لا تخطئ بحق الفقير ابن الناس! أتظن أن الجميع عميان، والناس تائهون؟ على ألسنة الأمة لا تتحدث! كل من أصادفه يقول لي: "سمعنا أمراً ضايقنا جداً أيتها السيدة الكبيرة. هل يترك السيد مظهر السيدة ناظان من أجل فتاة بار؟" صعقت. قلت: من أين جئتم بهذا؟ لا علم لي بشيء أبداً. لمَ يترك زوجته شبه الوردة؟ ضحكوا مني!

كانت ألوان السيد مظهر تتقلب. قال:

- لا علاقة لأحد بحياتي الخاصة. أعمل ما يحلو لي!

- صحيح، ولكن أفواه الناس لا ترحم!

- لست منشغلاً بألسن الناس.

- احذر من عمل هذا، فهمت يا ابني؟

- ماذا؟

- محاولة طلاق زوجتك أو ما شابه!

- لا أفكر بهذا بعد، ولكن...

انفعلت السيدة هاجر:

- ماذا؟

- لا أدري!

نظرت السيدة هاجر إلى ابنها مطولاً... وبدأت تنوح فجأة.

دهش مظهر. اقترب من أمه. أخذها بين ذراعيه. هو يكرهها أيضاً، ولكنه مضطر لعمل هذا من أجل أن تهدأ، وتذهب. قد يأتي مراجع. قال:

- أمي يا روحي، لماذا تحزنك قضية ناظان؟ هل كنت تحبينها؟ لا أعتقد هذا أبداً. وهل يجدي البكاء؟ ولماذا هذا الهلع؟

نظرت السيدة هاجر إلى ابنها بعينين دامعتين، وقالت:

- لا أنت، ولا ناظان تهمانني. لتذهبا إلى جهنم. ألا توجد امرأة تناسبك، وزوج يناسبها؟ إذا تركتها غداً، تذهب إلى خالتها، وتجد خاملاً مثلها، تتزوجه. أما أنت، فحناء يدك. اليوم مع هذه، وغدا مع تلك، تعيش يومك. لن تأخذها، وتجلبها إلى البيت ياه!

- طبعاً.
- ليس هذا ما أفكر فيه!
- ماذا؟
- خلدون، أنا أفكر بخلدون!
- كيف تفكرين بخلدون؟
- كيف لا أفكر يا مظهر؟ ماذا لو انفصلتما غدا، وأخذت الخاملة ابنها؟

طار صواب مظهر:

- أتأخذه؟ إلى أين؟ لا توجد قوة تستطيع أخذ خلدون طالما أنا حي؟

ارتاحت السيدة هاجر، قالت:

- وإلا فإن الجميع يقولون: إن السيدة ناظان ليست مناسبة للسيد مظهر، ولا يمكنها أن تصب ماء على يديه. أما أنا فأقول مغطية الأمر: الرحمة، اشفقوا عليها، لا تقولوا هذا، لا أحد لها، عندها ولد. وإلا فإن لها من العيوب ما يجعل الإمساك بها من يدها، وإلقائها في الشارع اليوم، وهذا اليوم فوراً ليس جائزاً فقط، بل واجباً!

نط مظهر:

- ماذا تقترحين للأخرى؟

نهضت السيدة هاجر:

- لا يا صغيري، لا. اسمي حماة. من يسمع، يقول: وهل تكون الحماة جيدة؟ أليست حماة؟ يبعث لها العمى...

مشت نحو الباب. قطع مظهر طريقها:

- تشيعينني إن لم تخبريني!

نظرت إلى ابنها بانتباه.

- ما هذه العبارة يا مظهر؟ افتح فمك بالخير يا ابني!

- تحدثي إذاً!

- سأحكي، علماً أن من أخبرتني بهذا هي أم مدير المالية. جعلتني أقسم. سيبقى الكلام عندك. افتح عينيك!

- حسنٌ؟

بعد أن تأكدت من انتباهه إليها:

- كتبت زوجتك لسان حمار بواسطة بائعة صرة، وستخيطه لك في بطانة سترتك!

قطب مظهر وجهه بكره، وقال:

- أنت قلت هذا من فترة أيضاً.

- أنت ابني. قلبي يحترق. الأمومة ليست سهلة. ولكن هذا أمر عائد لك. اسمي حماة. لست من سيدخل حضنك. إذا لم تكن ناظان فهناك غيرها، وإذا لم تكن غيرها فهناك غيرها... لهذا، هذا كل ما عندي. عندك عقل وفكر، وأنت رجل قانون. تفهم كل شيء أكثر من الجميع. هيا، عن إذنك...

خرجت.

ظلت ناظان ببال مظهر، وهو يفكر بأمور سيئة، وسيئة جداً. خطر بباله أن يذهب إلى البيت فوراً، ويمسكها من ذراعها، ويطردها، بعد ذلك، "يطلّقها بالثلاثة". ضبط نفسه. كان عنده التزام بعد الظهر. دعوى قاتل في محكمة الجنايات.

انتقل إلى طاولته. تغير الجو بشكل سيء في الخارج؟ السماء ترعد.

٩

حين خرج من محكمة الجنايات كان المطر يهطل بغزارة. لم يكن منتبهاً لأي شيء. قفز إلى أحد الحنتورات الواقفة أمام باب العدلية. سأله الحوذي الملتف بالنايلون الأسود:

- ستذهبون إلى البيت، أليس كذلك يا سيدي؟

قال وكأنه نُخز بإبرة: لا.

لم يكن يعلم إلى أين سيذهب، أو أنه يعلم، ولكنه ينتظر الحوذي أن يفهم. قال لنفسه: "أنت أيضاً يا رجل. طالما أن الجميع يعرف، وصرنا فضيحة في هذا البلد؟"

- خذني إلى المكتب، بعد ذلك، اذهب، واجلب جالة!

تحت المطر الذي مازال يهطل بغزارة، هوى الحوذي بسوطه.

لم يكن يستطيع نسيان دعوى محكمة الجنايات.ليست هذه الجريمة الأولى المرتكبة في هذه المدينة بسبب خلاف حول أرض، ولن تكون الأخيرة. كان مدركاً أنه يتجه نحو كسب القضية، ولكنه لم ينس نظَرات الخصم ذي الخفين والسروال الأسود الحادّة. لقد همهم عندما مر من أمامه، ونظر بعينين حاقدتين!

أشعل سيجارة.

الذنب ليس ذنبه. كان القانون لصالح موكليه. الأدلة المثبتة بين أيديهم تجعلهم يكسبون الدعوى، وتفيدهم بتخليص حقلهم من وضع اليد... ولكن سيتسبب هذا بقاء عدد كبير من الناس عاطلين عن العمل وجائعين، ويؤجج مشاعر عدائهم نحو مستحقي الحقل!

إنه يعرف هذا، وهو يتألم من أجلهم أساساً. نفض رماد سيجارته متوتراً. أنجز اليوم أعمالاً كثيرة. رفع إشارة حجز في التنفيذ، ووضع إشارات أخرى، كتب مذكرة تمييز لدعوى إخلاء خسرها، وأرسلها، وانشغل بأمور في السجل العقاري. لهذا، فهو متعب جداً. كان بحاجة إلى الراحة. نزل من العربة أمام المكتب. كان المطر قد خفّ.

- هيا، اجلب جالة!

- على راسي يا سيدي!

حين قرع الحوذي باب البنسيون كانت جالة متمددة على بطنها، تحدث صديقتها نسرين وهي تدخن، بالأحرى كانت نسرين المريضة برئتيها تنصح جالة كأمها: "نحن مهما صار، أناس مسحوقين. على الأقل يجب ألا نكون سبباً بسحق آخرين!" كانت توصي جالة بأن تكون واثقة من علاقتها بمظهر، وتدعوها للاستماع إلى صوت ضميرها.

حين وقفت العربة أمام الباب، وقفت جالة بحرص، وسألتها:

- هل استمع الآخرون لصوت ضمائرهم كيلا أسحق يا نسرين؟

بعد أن سعلت نسرين طويلاً في منديل بيدها، وبصقت، أجابت:

- لا. لا، ولكن...

- علي ألا أتصرف مثل الآخرين، أليس كذلك؟ ماذا تعتقدينني بالله عليك؟ هل أنا نبية؟

- لا...

- حسنٌ، أليس لي قلب؟ ألا يمكنني أن أحب يوماً ما؟ ألا أريد أن أبقى مع الرجل الذي أحبه، ولا أنفصل عنه أبداً؟ وذاك الرجل متفق معي بالرأي. بعد ذلك، مل من القذرة زوجته. وجد فيّ ما لم يجده في زوجته. يمكنه أن يجد في أخرى ما وجده فيّ، ويمكن لتلك ألا تصغي لصوت ضميرها مثلي.

فُتح الباب. دخل النادل رضا القادم مع الحوذي ضاحكاً.

- هيا يا سيدة جالة، قرئ اسمك!

نظرت جالة متوترة على عكس كل مرة:

- ماذا؟

- جاء الحنتور.

فهمت. التفتت إلى نسرين:

- تفضلي. هل أنا من أغوى الرجل، أم هو الذي يخبلني؟

لم تجب نسرين. قفزت جالة عن السرير بحيوية. وذهبت لتغسل يديها ووجهها.

شعر النادل رضا بأمور ما، فاقترب من السرير.

- ماذا يوجد من جديد؟

نظرت نسرين حزينة، وقالت:

- لا شيء.

- إذاً هو سر عليّ...

- لا يا روحي. لماذا سيكون لدينا سراً؟ تلك المسألة...

- موجة المحامي؟ الرجل كالغيمة، لم يزر بيته منذ أيام. ولكنه محق. عنده أم سافلة... هي التي خلطت الأمور كلها!

جففت جالة يديها ووجهها بمنشفة زرقاء، ودخلت. رمت المنشفة جانباً. خلعت منامتها الحريرية دون أن تهتم بوجود رضا. انتقلت أمام المرآة لتزين نفسها.

- رضا!

- أمرك يا أختي.

- تعال واربط ربطتي صدارتي جيداً!

- الله يرضى عليك...

ركض. انزلقت صدارتها الحريرية الزهرية إلى أسفل ثدييها المكتنزين. وقف النادل رضا خلف المرأة الشابة. كان يرى كل شيء بالمرآة التي أمامه.

- لماذا تقف مشدوهاً!

- أين الخيطان؟

- رضا!...

- ماذا أفعل يا أختي، هل الذنب ذنبي؟

- يا كلب. شدها بقوة، واربطها!

كانت يداه ترتجفان. شدها، وربطها بقوة.

- قل للحوذي من النافذة أن ينتظر قليلاً. إنه يقرع الجرس باستمرار!

فتح رضا النافذة، ونادى:

- لماذا ترن ولاه؟ ها هي تحضر نفسها. وهل عندك شغل؟ آه منك يا ملعون. عنده عمل.

وأغلق النافذة بقوة.

سألت نسرين:

- هل هو حسن العربي؟

- كيف عرفت؟

- هو من يثرثر...

ودون أن تبالي بحضور، غيرت جالة سروالها وقميصها الداخليين، وارتدت غيرهما. وقبل أن تخرج بشفتيها المحمرتين بعناية، وشعرها المسرّح، وطقمها الرصاصي، وحذائها الرصاصي اللماع، قبلت نسرين. قال النادل رضا وهو يبتلع ريقه:

- لي؟ ألن تقبليني؟

- هيا من هنا، يا قرد!

حين بقيا وحدهما، قالت نسرين:

- أنا أشفق على زوجة هذا المحامي كثيراً يا رضا!

جلس رضا على حافة السرير من جديد، وأشعل سيجارة.

- لو رأيتها، إنها كالملاك. ولكنها فقيرة تعيسة. عندها حماة... لعلها تجاوزت الخمسين، ولكنها تغويني بشرفي. انتظري. سأعرف رأيك! امرأتنا كالكلب. أقول لها: لن أتركك، لكن لدى هؤلاء نقود كثيرة. لن أكون رضا إن لم أسحب من المرأة نقودَ الخمارة...

لم تكن نسرين تسمعه، لأنها غاصت في خيالاتها. امرأة المحامي في عقلها... كانت تتخيل ناظان ناعمة ونحيلة وذات حاجبين وعينين سوداوين. لابد أنها متعلقة بولدها كثيراً. لعلها تعيش في غرفة المؤن. سألت:

- هل هي متعلقة بابنها كثيراً؟

كان النادل رضا قد انشغل يفكر بالنقود التي سيسحبها إذا غضت زوجته الطرف، والخمارة الصغيرة التي سيؤسسها. قال:

- من؟

- زوجة المحامي!

- لو كنت أنت ألا تتعلقين بابنك؟

شردت عينا نسرين، ثم ابتلّت رموشها.

- حمداً ليس لي ولد. لو أن لي ولداً، وطردوني، كنت أقتل نفسي!

هز رضا كتفه:

- هذه واحدة مخبولة. دعي عنك هذا وذاك. لو أن معي قليلاً من النقود أفتح خمارة جيدة، وألعن أم النقود!

- كيف؟

- كيف؟ أعرف خماراً في أول السوق الصغير يسك النقود سكاً؟

- كيف؟

انفعل رضا:

- يشتري الخمر من القرويين بسعر رخيص. يضيفه ماءً. يلقي فوقه الكلس بالأفيون حفنات حفنات؟ يغدو الخمر باروداً. ويملأ أرباع الكؤوس...

أشعل سيجارة من سيجارته المنتهية بشهية. ورمى العقب على الأرض.

- لتكن عندي خمارة، ودعي كل شيء. لا خوف من الموت بعد ذلك. حينئذ أقول للمرأة: تعالي يا عدوة النعمة! قفي خلف الطاولة! قفي، أو أجد زوجة أخرى، أوقفها. ليسند كل منا الآخر، الله...ـه..

قالت نسرين:

- امرأتك غسالة، أليس كذلك؟

قال رضا:

- آ... أعيب؟ إنها تغسل على أفضل ما يرام!

- حسن. تحت سرير جالة غسيل وسخ. أخرجه، وعده. خذه لتغسله...

ترك رضا السيجارة التي بيده على حديد السرير، وانحنى تحت سرير جالة. أخرج الغسيل الوسخ. بدأ يعده قطعة قطعة:

- واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس. وسروالان داخليان، سبع. وهذه ثماني. تسع، عشرة، إحدى عشرة...

- هل تعد تلك الخرق بين القطع؟

- هذه؟ هذه تعد قطعاً أساسية يا أخت. انظري إنها ملوثة ببقع التوت الأسود!

- وقح!

- أنا؟ لا... لا أقبل بهذا أبداً!

- ثرثار. هيا خذها، واذهب. رأسي يؤلمني، سأنام...

جمع رضا الغسيل الوسخ. لفه في غطاء فراش قديم، وخرج من الغرفة.

كانت سيجارته التي نسيها على حديد السرير مازالت تدخن. في أثناء شد نسرين اللحاف فوقها لتضطجع، سقطت على اللهاف فنهضت من جديد، ورمتها على الأرض، واضطجعت. كان عقلها مشغولاً بناظان. لم يكن عندها شك بأن جالة ستربط المحامي بها كامرأة، وتضعه

في كفها. وتطلق زوجته، والحلول محلها. ألم تكن تعرف جالة؟ أقليلة تلك المغامرات التي مرت بها في بار اسطنبول قبل مجيئها إلى هنا؟ لم تكن معجبة بسلوك جالة هذه. عندها ضعف رهيب إزاء الرجل الوسيم. ولكنها لا تبقى مرتبطة بالرجل الذي تحب. فبعد مدة تتفق مع رجل آخر وضعت عينها عليه، وتترك الرجل الذي كانت حتى الأمس تقول إنها تحبه بجنون.

أخرجت رأسها من تحت اللحاف، ونظرت إلى النافذة المقابلة. كان المطر بدأ بالهطول بغزارة. في يوم كهذا تشاجرت مع سامي. كان سامي الطويل الضخم يشبه جالة بالضبط. يحب فجأة مثل جالة. ويتخذ قراره فوراً من دون تفكير. لم يكن وسيماً جداً. في وجهه أثر لحبة حلب كبيرة. أسمر، ومقطب الوجه. ولكن لدى سامي أمر غير موجود عند الجميع. كانت تحب اللامبالاة عند الرجل غالباً. لامبالاته أولاً، ووضعه السيجارة في طرف فمه، وغمزات عينه المستمرة مع تصاعد الدخان ثانياً. هل كان غنياً؟ لا تعرف حتى الآن ماذا كان يعمل. صيدلاني؟ لا. كيميائي؟ لا. ميكانيكي؟ لا أبداً. ولكنه يشبه واحداً من هؤلاء. إنها تعرف قليلاً عن حياته التي سبقت حياته الحالية في شقة بحي الماتشكا. هل سكن في آقسراي؟ ولكنه كان يرتدي ثياباً أنيقة جداً. بدت كحلية وبنية ورصاصية. تعرفا في البار. أحبت الرجل. لم يكن مباهياً وكانت أعماله متعثرة. كان حبيباً صادقاً. ووفياً. بعد ذلك صار غنياً فجأة. تغيرت تصرفاته فور غناه. صار أنانياً. لهذا السبب تشاجرا!

كانت تنتظر رداً على رسالة أرسلتها له قبل أسبوع. يمكن أن تصل في هذه الأيام. وإذا لم تأت في هذه الأيام، فلن تأتي أبداً.

في تلك اللحظة بالضبط فتح بابها، ودخلت صاحبة البنسيون:

- البشارة يا نسرين!

نهضت من الفراش:

- خير؟

- رسالة من اسطنبول!

التقطت الرسالة من يد المرأة، وفتحت الظرف، وقرأتها بنفس واحد. كانت من حبيبها في اسطنبول. كان حزيناً لتفاقم مرضها. وعليها ألا تشتكي مما كانت هي السبب فيه. ذهبت إلى تلك الأمكنة بلا سبب. كان سيقول لتتحملي العواقب، ولكن لسانه لم يطاوعه. لتأت فوراً إن انتهى عقدها...

بدأت نسرين تذرف دموع الفرح. فهمت صاحبة البنسيون الأمر. كانت تعرف أصلاً. إذا كانت المسكينة تعمل ثلاثة أيام، وتتعطل خمسة. ويتفاقم مرضها لأنها لا تعالج بشكل جيد.

- والله إذا سمعت مني يا ابنتي، اذهبي، اذهبي! اذهبي، وعالجي نفسك هناك بدل أن تبقين هنا، وتغدين معلولة. انظري إلى ما يقوله الرجل؟ تشاجرت معه للاشيء، وجئت إلى هنا...

مشطت المرأة الغرفة بعينيها:

- أين جالة؟

- خرجت.

- ذهبت إلى المحامي، أليس كذلك؟

- هي لم تذهب، المحامي أرسل عربة...

- انصحيها، لتضع عقلها في رأسها. حرام تخرب بيت الرجل!

قالت نسرين:

- قلت. جالة ليست فتاة سيئة. ليست كذلك، ولكن الرجل تعلق بها يا خالة، ماذا ستفعل؟

خرجت المرأة وهي تحدث نفسها:

- جذب الهم ليس مفيداً، لا أدري...

....

حين وصلت جالة إلى المكتب، كان الرجل يضع يديه خلف ظهره، ويمشي بين زاويتي المكتب. كانت الستائر الشفافة مسدلة كلها، وسحبت طاولة الكاتب إلى آخر المكتب، وجهزت عليها مائدة مشروب.

سألت جالة:

- ما هذا؟

بعد أن أقفل مظهر باب المكتب، قال:

- سنشرب وحدنا قليلاً!

حملقت جالة:

- ماذا لو جاء أحد؟ ماذا لو قبضوا علينا على هذا النحو؟

احمر بياض عيني مظهر لأنه شرب كثيراً. كانت تفوح من فمه رائحة العرق. أمسك جالة من ذراعها، وجذبها نحوه:

- طز!.

ارتعدت:

- هذه أول مرة أراكم فيها جريئين هكذا.

وضعها الرجل بين ذراعيه رداً عليها.

- سأبحث معك قرارات مهمة اليوم؟

- قرارات مهمة؟ مثل ماذا؟

- أريد أن أتزوجك.

تملصت المرأة الشابة من بين ذراعيه.

- أتتكلم بجد؟

- بجد جداً!

- كيف؟

- ماذا يعني كيف؟

- عندك زوجة وولد. وهل سأقبل بهذا...

ذهب مظهر إلى عند الطاولة. تناول كأسه وارتشف نصفه، ثم أكمل عليه وشرب حتى الثمالة. وألقى زيتونة سوداء في فمه، وعاد ببطء، قال:

- طبعاً إذا قبلت.

أمسكها من ذراعها، وسحبها إلى طرف الطاولة. وجلسا متقابلين. وبعد أن صب عرقاً في كأس المرأة الشابة، أشعل سيجارة، وقال:

- حتى أمي تعلم بعلاقتنا يا جالة. لم أذهب إلى البيت منذ أيام. أنت لست السبب، حتى إنك لا يمكن أن تكوني سبباً. اشتريت لزوجتي المخبولة خاتماً ماسياً. قلت لها: لا تريه لأمي، واحذري أن تعلم. وبهذا كنت على حق. لأنني أعلم أي بضاعة هي أمي. إذا رأته، ستغار، وتبدأ الملاسنة. ولا أستطيع شراء مثله لأمي. لا أستطيع، لأنها ليست شابة، ولم يكن لدي نقود تكفي لشراء مثله، ولا أستطيع حتى لو وجدت، لأنه لا يوجد مثله. قلت لها لا تريه لأمي انطلاقاً من هذه الأفكار.لم أقل لها. ضعي الخاتم بإصبعك، وتجولي على الجيران، وباهي بنفسك قائلة:

انظروا كم يحبني زوجي، اشترى لي خاتماً، وحذرني من أن أريه لأمه. هو لا يحب أمه أبداً، وما شابه، وما شابه. وهذا وصل إلى أذن أمي طبعاً. وقامت قيامتها. وأنا أعرف كم انها ماهرة بإيجاد الذرائع لتقوم القيامة...

- ممن سمعتم كل هذا؟

- من أمي.

ضحكت جالة متوترة. سأل مظهر:

- لماذا ضحكتم؟

تحولت إلى الجد:

- لا أريد أن أبدو مدافعة عن زوجتكم، ولكنكم يا سيد مظهر ساذجون جداً!

- أنا؟ لماذا؟

- لأنكم تصدقون فوراً كل ما يقال! ثم إنكم لم تستطيعوا فهم أمكم. أنا رأيتها مرة واحدة وفهمتها. يمكنني توقع ما تعانيه زوجتكم المسكينة منها.

صب مظهر عرقاً في كأسه، ورفعه. قرعا الكأسين، وشربا.

- أمكم امرأة ماكرة جداً يا سيد مظهر. لا تغضبوا من كلامي، ولكنها حماة مرعبة! تعبئكم بحيث لا تدركون ما أنتم فيه!

- أنا؟ المحامي الذي كسب كل هذه الدعاوى، ومشاكل الناس المتنوعة ها؟

- نعم، مع الأسف.

- حسن، تابعي...

- يفهم أن زوجتكم، كما يتحدث عنها النادل رضا أحياناً، امرأة مسكينة بحالها، فلا يمكنها أن تلبس الخاتم، رغم منعكم لها، وتتباهى به!

تنهد مظهر.

- أأقول لك شيئاً يا جالة؟ أنا لست مسروراً من سلوك زوجتي حتى لو كان ما تقولينه صحيحاً!

- هذا أمر مختلف. حينئذ أعطيكم الحق. أما إذا حاولتم تلفيق عيوب لزوجتكم، فلا، لست معك!

- معك حق. لعل السبب الأساسي ليس ما تبالغ فيه أمي، وتحكيه. حتى إنني أعترف أنه ليس هو. أنا لا أوافق على كلام أمي أساساً. أنا أعرف جيداً ما هي عليه. لست مسروراً من بيتي وزوجتي وأمي وحتيمن ابني يا جالة. حتى ابني ليس كما أريد يا جالة. أنا أريده حيوياً، وأن يتفتق الذكاء من عينيه. لعله ذكي، ولكنه ليس كما أريد. بيتي يضايقني. لا أريد الذهاب إليه. لا أجد رغبة. افهميني يا جالة! أنت امرأة ذكية متفهمة مجربة. أنت افهميني على الأقل. أما إذا أردت ألا تفهميني، وأن تقولي لا، لا أريد أن أعيش معك...

نهضت جالة من كرسيها، واقتربت من مظهر. سحبت كرسياً، وجلست:

- تابع!

- أقاطع قدري، وأستمر بتناول طعام بائت!

- هل أستطيع منحك الطمأنينة التي تريدها؟

- وأكثر مما أريد!

تعانقا كالمجانين، وتبادلا القبل.

بعد ذلك قالت جالة:

- ولكن انظر إلي! أنا لا أشبه زوجتك من أي زاوية!

- أعرف.

- أولاً أنا نطاطة. أريد أن أرتدي جيداً، وأن أتجول مع زوجي، ويتأبط أحدنا ذراع الآخر، وأن أعيش على هواي. ولا أضع في حسابي حماة أصلاً. لا مكان في بيتي لحماة!

لعب قلب مظهر: "ترى لن تقبل بأمه في البيت؟"

- إنك لا تجيب؟

- أستمع.

- لا،عليك أن تجيب: تُسكن أمك منفصلة! وإذا كنا سنسكن معاً، فلأخبرك سلفاً أنها إذا كانت خمسة، فأنا خمس عشرة! أُفقدها صوابها، وأجننها، وأصعدها الجبال. لا! إذا مشت كما أريد، فلها مكان على رأسي. لا أريد أن تتدخل بيني وبين زوجي، وتطرق الأبواب لتجرحني أمام الناس...

انتهى الحديث مع رفع الأنخاب، ودخلا في التفاصيل كأن كل شيء قد انتهى.

تذكرت جالة فجأة:

- ها، قف. نسيت النقطة الأهم...

- ما هي؟

- أنا فتاة بار، هذا معلوم. هكذا يسموننا الناس: فتاة بار. ولا ينظرون إلينا بعين الرضا. لا أدري إن كانوا على حق أم لا. ولا أريد أن

أتوقف عند هذا. مهما صار فنحن فتيات بار، وصمة عار. ألن يزعجك هذا؟

هز مظهر رأسه.

- لهذا أحبك كثيراً يا جالة!

- الغ جالة هذه بعد الآن.

- حسن ناريمان. لهذا أحبك ياه. أنت صريحة جداً، وقلبك مفتوح. أما بالنسبة إلي، فأنا أحبك لأنك كما أنت. لا أهتم بقيل الناس وقالهم!

خرجا من المكتب في ساعة متأخرة. ذهبت جالة إلى البنسيون لتجهز نفسها من أجل البار. هذا ما قرراه. ستستمر بعملها حالياً، وبعد أن ينتهي عقدها، ستنفصل، ويستأجر لها بيتاً، وتنسحب!

حين وصلت إلى البنسيون قابلت عيني نسرين البارقتين.

- خير!

تحدثت عن الرسالة التي تلقتها بفرح، مما جعل جالة تقول:

- أوه، أوه يا ربي. ثقي يا نسرين أنني فرحت لهذا الأمر أكثر من مسألتي!

توقفت نسرين.

- مسألتك؟ أم...

- أختي، روحي. ماذا أفعل؟ لا تحاولي تحميلي ذنباً. هو يريد، ويصر. لا يحب زوجته. قاومت كثيراً، وقلت لا أريد. ماذا بيدي؟

انفلتت نسرين. بدأت تبكي مشهشهة كأن ناظان أختها، أو صديقتها التي تعرفها عن قرب شديد. كانت هكذا يوما ما. طردت مثل السيدة ناظان تماماً. أحب زوجها واحدة أخرى... نظرت إلى جالة بعينين دامعتين محتدة:

- لا تفعلين صواباً، لا تفعلين صواباً أبداً يا جالة. خراب بيت ليس صحيحاً!

توترت جالة:

- لماذا يا نسرين لا تفهمين؟ شرحت لك ما حدث: لا ذنب لي. أنا لم أبحث عنه وأجده. الرجل لا يحب بيته، هو قلق من بيته. إذا لم أكن أنا ، ستكون أخرى!

- ليكن. لا تكوني أنت، ولتكن من تكون!

تمردت جالة بعد هذا:

- أنا أيضاً أحبه، لا أستطيع التحمل أكثر. سيصل الأمر إلى نهايته. ألم تحبيه أنت؟ ألم تحبي زوجك، وحتى سامي الآن؟ رغم أنه إنسان عنيد إلى هذا الحدٍّ، ألا تذهبين إلى الموت بكلمة واحدة من سامي الأسود ذاك؟

لم تجب نسرين.

- أنا أيضاً أحبه. وفوق هذا ، فهو رجل يعرف قيمتي، ويقدرني من كل جانب...

- صحيح، لا يمكنك أن ترفضيه.

- اهزئي. اهزئي أنت أيضاً.

مسحت نسرين عينيها بكفيها:

- لا أهزأ يا جالة. لعلك على حق. لعلني بالغت بالأمر أكثر من اللازم، ولكن ما العمل؟ أخشى من خراب بيوت الناس، لأن بيتي خُرِّب.

- لا أؤمن بأنني خربت بيت أحد. هنالك بيت مخرب أصلاً. أنا ، فقط...

خرجت وهي تدندن بأغنية.

١٠

الساعة الصغيرة المطعمة بالصدف المتكتكة على طاولة الزينة ذات المرآة تشير إلى التاسعة إلا خمساً ليلاً. جلست السيدة هاجر في زاوية المقعد وبيدها السبحة، تعبئ كنتها بمنهجية: يجب على المرأة التي تحب زوجها وتعرف كيف تضعه في راحة يدها. تلك ميزة لا تتوفر في كل امرأة. يجب على المرأة أن تعرف العديد من المهارات لتبدو مريحة لزوجها، وأن تتصرف بحسب هوى الزوج. لا يكفي حرز المحبة ولسان الحمار ورش التراب أو الماء المقروء. يجب أن تربط المرأة رجلها نسوياً!

مددت خلدوناً الذي نام على ركبتها فوق المقعد. غطته بسجادة الصلاة.

- انظري، لم يأت الرجل هذه الليلة أيضاً. لماذا؟ لأنه غير مهتم ببيته! لو كنت امرأة جذابة لربطته بشكل يجعله يسرع بالعودة إلى البيت فور انتهاء عمله!

نزلت من المقعد. مشت حتى طاولة الزينة لتحرك قدميها الخدرتين، وعادت.

- وهل بلغ زوجي حدَّ البقاء في الشوارع حتى منتصف الليالي؟

همست وكأنها تعطيها سراً:

- كيف تضمنين أنه ليس في البار يضاجع عاهرات قادمات من اسطنبول؟

لم تكن ناظان تسمع هذا أول مرة. أجابت كما في كل مرة:

- هذا أمر عائد للحليب الذي رضعه...

احتدت السيدة هاجر:

- مستحيل! لا يمكن الوثوق بحليب الرجل. غدا ينساب كالماء إلى إحداهن. ماذا ستفعلين حينئذ؟

نظرت مطولاً إلى كنتها. بحثت عن إشارات تشي بحرص أو توتر. وغضبت تماماً عندما لم تجد، فقالت:

- يا بنت، ماذا لو أحب زوجك إحدى النساء اللواتي هناك، وجلبها إلى البيت بالرغم منك؟

مازالت ناظان كالثلج. هزت كتفها:

- يجلب...

- ماذا لو طردك؟

- قلت إن هذا رهن بحليبه!

- ماذا لو لم يعطك ابنك؟

حينئذ، حينئذ سيكون الأمر سيئاً جداً. ولكنها لم تكن تعتقد أن مظهراً سيطردها، أو لا يعطيها ابنها. إذا فعل شيئاً كهذا... هل تقوم القيامة؟ لا يمكنها أن تفعل شيئاً، تتوكل على الله، وتذهب.

سألت السيدة هاجر بفضول متوتر مرة أخرى:

- هل تذهبين كالنعجة؟

قالت آخذة الأسوأ بالحسبان:

– ماذا أفعل يا أمي؟ وهل أستطيع مناكفة السيد مظهر العظيم؟ يده تطول. يعرف القانون أكثر من الجميع...

كانت تقول الحقيقة. ماذا يمكن للمسكينة أن تفعل إذا قرر مظهر أمراً كهذا، ورمى الكنة؟

ارتعدت.

تجلت حال ناظان تلك في عقلها. يطلقها مظهر، ويرميها في الشارع. وتذهب ناظان باكية بغطائها الأسود القديم. بعد ذلك؟ ماذا يحدث بعد ذلك؟ فجأة وجدت نفسها في مواجهة لصيقة مع "الأخرى" بلباسها الرصاصي وشفتيها المحمّرتين وقامتها الطويلة ورائحة العطر الزكي والفوّاح... لا يوجد أدنى شبه بين هذه وتلك. عيناها تنظران إلى الإنسان من علٍ، وزهوها يظهرها كأنها ستؤنب أحدهم. من تؤنب؟ السيدة هاجر؟ لا عظيم إلا الله، ولكنها ستتمكن منها بإذن الله! أولاً لا تدعها تعتّب البيت، وإذا عتّبت، فبشروطها مثلما قالت أم مدير المالية!

تحرك وجه جالة في داخلها. كانت خائفة من ذلك الوجه، والحاجبين، والعينين، وتلك النظرة... والبهاء والحضور غير الموجود أساساً عند ناظان... من غير الممكن أن تدخل تحت ضغط الحماة.

وابنها. ماذا لو أحبها، ودخل تحت حكمها؟ أو لم تقبل بوجود حماتها في بيتها؟ أو قرر ابنها إسكانها منفصلة؟ ستكون حينئذ كارثة. إنها منذ ذلك اليوم، أي يوم ملأت رائحة عطرها مكتب ابنها، سيطر عليها الخوف منها. شابة وجميلة وذات بهاء وحضور. تجذب ابنها، وتقلبه، وتضع في رقبته الرسن بحيث لا تستطيع هي أو أم مدير المالية أن تجد حلاً لها!

لا تستطيع التخلص من خوف "فتاة البار" مع الرغبة بانقلاع ناظان. هذا رجل. إنه أسوأ من الطفل حين يحل الوقت. إذا وقع تحت تأثير المرأة، وحاول الزواج منها... نعم، إنه محام، عنده شرف، يستحي من الناس، ولكن ماذا لو لم يستح؟ أو لم يبال للعالم، وقال: "لا أحد يتدخل في شؤوني!"؟

نظرت إلى الساعة التي على طاولة الزينة. قالت:

- التاسعة.

التفتت ناظان أيضاً، ونظرت. بعد ذلك، تقابلت عيونهما. شفتا الكنة غير المحمرتين ووجهها الشاحب لم يعجب السيدة هاجر. إذا وقفت بجوار فتاة البار، فمن الطبيعي أن تعجب الأخرى ابنها. ولا يُعد غير محق!

ذهبت إلى طاولة الزينة، وسحبت الدرج:

- تعالي إلي هنا!

نهضت ناظان بفضول، وذهبت.

كانت السيدة هاجر تتحدث وهي تخرج علبة المكياج:

- ألا تنظرين إلى المرآة أبداً؟ أيمكن الظهور للزوج بمظهر حسن بهذا الوجه؟ ما إهمالك هذا؟ لا أدري. اقتربي!

بللت الشاش الأحمر باللعاب بشكل خفيف، وصبغت وجه كنتها في عدة مواقع. دلكت بإصبعها الوجه ناشرة الصباغ. بعد ذلك، وضعت المسحوق. سحبت بالقلم على حاجبيها. دهنت شفتيها بالحمرة.

أدركت ناظان التي كانت تنظر إلى نفسها في المرآة بطرف عينها أنها زوقت على نحو مبالغ فيه، ولكنها لم تهتم. أليست حماتها التي

تبذل هذا الجهد تقدرها! كانت ستعتبر نفسها سعيدة لولا قلقها من عدم قدوم زوجها إلى البيت منذ أيام. أرادت أن تكون حماتها هكذا دائماً. لا تريد حتى مجرد التفكير بسبب تحول حماتها، ولم تخطر ببالها سفالة حماتها.

رجعت السيدة هاجر إلى الوراء قليلاً بعد أن زوقت وجه كنتها، ونظرت إلى وجهها نظرة كلية. لم يكن سيئاً أبداً. الحاجب، والعينان، والشفتان، والبشرة... ليست أقل من فتاة البار أبداً. ولكن حالها متوجسة بالتأكيد. وقفتها ونظرتها واندساسها بالرجل ليس فيه ما يكفي من التغنج.كأنها ارتكبت ذنباً كبيراً، سيظهر إلى العلن. قالت:

- أنت امرأة على ما يرام يا ابنتي. وهل الأخريات أجمل منك؟ لسن كذلك. لسن كذلك، ولكنهن ماكرات. يعرفن كيف يبعن أجسادهن قطعة قطعة!

تذكرت فجأة:

- لا تنسي وضع الخاتم بإصبعك!

احمرت ناظان حتى شحمتي أذنيها. إنها أخفته عن امرأة طيبة كهذه، ها؟ يا للعيب، يا للعيب. لو كانت من الحموات الأخريات لنقّت على رأسها على عدد الدقائق. مع أنها اعتبرتها لصة!

خرجت ناظان من غرفة حماتها فرحة. ما فات.. فات. كانت شرسة، وكلمتها على رأس لسانها. ولكنها تغيرت الآن. لعل الله أنزل على قلبها الرحمة.

تناولت العلبة المخملية البنفسجية من تحت فراش سريرها. وضعت الخاتم الماسي بإصبعها. كانت فرحة كطفل. وقفت أمام المرآة. حقيقة بدت

جميلة كثيراً. كان صباغها مبالغاً به. ترى أتمسح منه قليلاً؟ ماذا لو تعكر؟ ورأت حماتها أنها عكرته، فغضبت قائلة: "هذا يعني أنه لا يعجبك إذا ما وجدته أنا مناسباً لك؟"

تخلت عن تخفيفه.

ترى ألن يأتي زوجها هذه الليلة أيضاً؟ لم يأت رغم تأخر الوقت كثيراً. أين يبقى خارج البيت؟ إنه يعمل في الكشوف بالتأكيد. الأماكن التي يذهب إليها هي بعد الجبال. بلدات وقرى... لا يوجد قطار في كل مكان. كان يقول لها: "أذهب بالعربة، أو على الحصان، وحتى على الحمار، ومشياً أحياناً." صحيح بالتأكيد. لعله ذهب إلى أمكنة كهذه، ولم يعد لأنه لم يجد واسطة. فما يعمل في البار كما تدعي حماتها؟ يذهب إلى هذه الأمكنة العازبون، وعلى الأكثر الطائشون وغير المسؤولين. أما السيد مظهر العظيم...

وقفت جانبياً أمام المرآة، ونظرت إلى وجهها من جانب: كانت جميلة. حتى حماتها لا تنكر هذا، ولكنها تقول: "لا تستطيعين وضع الرجل في راحة يدك!" من الضروري معانقة الرجل، وتقبيله من خديه. من الضروري، ولكنها لا تستطيع. ماذا لو قال الرجل: "آآ... ما هذا؟ أنا لا أحب الحركات الوقحة هذه!"

لعله لا يقول شيئاً. من يعلم؟ لو جربت هذه الليلة... لو عانقته وقبلته عندما يأتي. بعد ذلك، تريه الخاتم، وتقول له: "انظر، انظر! وجدته."

شردت عيناها.

لعل الرجل ندم لأنه ضربها، ويعتذر! تخيلت نفسها بين ذراعيه، ويعتذر، ويقبلها، ويحبها. ستعفو عنه فوراً. حسناً، عفت عنه منذ الآن!

ذهبت إلى النافذة. فتحتها قليلاً، ونظرت: البيوت تفرق في ظلام حالك عدا الجدار الذي ينيره مصباح الزاوية الأصفر. إنها تمطر صاخبة.

أسدلت الستارة. في هذه الأثناء كانت حماتها بالباب:

- خطر ببالي هذا فجأة يا بنت! طالما أنك تزينت، لمَ لم تلبسين شيئاً نظيفاً!...

سألتها ببراءة:

- ماذا ألبس؟

- ها هو. وهل أنا أيضاً سأفكر بهذا؟ البسي ثوبك المخملي الأزرق. ثم إن غرفتك باردة. اجلبي منقلك، وخذي من منقلي شعلة!

- حسناً.

أخذت منقل النحاس المضغوط من أمام السرير، وذهبت إلى غرفة حماتها. كان الجو بارداً حقيقة.

- عندما يأتي زوجك، عانقيه، وقبلي وجهه. لا تقفي ا متجمدة خاملة. حببي بنفسك، واجعليه يعفو عن ذنبك!

- أي ذنب؟

- ضيعت خاتمك ياه!

طفحت رغبة.

- حسن، ولكن لئلا أفعل كل شيء. احكي معه كلاماً حلواً أنت أيضاً.

أخذت ناراً لمنقلها، وعادت إلى غرفتها. خلعت الثوب المزهر الكالح الذي كانت ترتديه، وارتدت الثوب المخملي الأزرق الذي اقترحته عليها حماتها. ستغدو هكذا دائماً بعد الآن. ستتزين، وترتدي أثوابها الجديدة،

وتستقبل زوجها عند الباب، وتقبله من رقبته. طالما أن العادة، والأصول على هذا النحو...

حسن، ولكن ماذا لو لم تعجب زوجها هذه الأمور؟ ماذا لو قال لها: "أنا لا أحب تصرفات سوقية مثل هذه!"؟

أرخت نفسها على الأريكة. ارتبكت. لم تستطع تحديد ما ستتصرف به. كانت تخاف أن تقلع عيناً وهي تكحلها. مهما كان فقد وجدت الخاتم ياه!

كانت نار المنقل تكسر برودة الغرفة تدريجياً.

ستعانق زوجها عندما يأتي، ولو على عجل، وتريه الخاتم. سيفرح لإيجادها الخاتم على كل حال. سيفرح من جهة، ويندم لضربها من جهة أخرى. فجأة خطر ببالها حرز المحبة الذي أخذته من ناجية. إنه وقته بالضبط. لابد أن حماتها قد نامت. لو لم تكن قد نامت، فهي تعلم به، وتعرفه. على المرأة أن تطرق كل وسيلة لوضع زوجها في قبضتها. أليست هي التي قالت هذا؟ ألم تقل هي أيضاً أنها فعلت أموراً كهذه من أجل وضع زوجها في قبضتها؟

نهضت بهدوء. أخرجت لباس زوجها الرصاصي من العلاقة على الجدار بجوار مؤخرة السرير. عادت إلى الأريكة، وجلست. دب خوف في داخلها: ماذا لو علم زوجها؟ ماذا لو انتبه حين يغير ملابسه؟ ماذا لو انتبه، وسأل عمن خاطه هناك؟

كانت ستتراجع لحظة. بعد ذلك، غضبت من جبنها وفشلها وخمولها. ألا تفعل هذا كل امرأة تحب زوجها؟ ألم تقل هذا حماتها؟ وناجية أيضاً. ألم تتحدث حتى ناجية عن مسكنتها وخمولها؟

أخرجت الحرز من عبها. قلبت السترة من أجل إيجاد مكان بين القماش والبطانة الأقل لفتاً للنظر. يجب أن يكون المكان الأنسب هو ما بين الكتف والرقبة. من أين سينتبه زوجها إذا خاطته وسط حشوة الكتف؟

فتقت عدة سنتيمترات من بطانة السترة بسكين صغيرة. وضعت الحرز في مكان غير لافت للنظر. وخيطت البطانة من جديد بسرعة. ها هو قد انتهى. وهو غير واضح أبداً. من أين سيعلم زوجها به؟ أ سيفكر به وسط أعماله كلها؟

فجأة خطر ببالها أمر آخر: فكرت بسبب لين حماتها على ذاك النحو تواً. لماذا لا يكون هذا ايضاً؟ بسبب الحرز! لماذا لم يخطر ببالها هذا؟ ففور دخول الحرز إلى البيت، منح حنيناً لقلب العجوز. هذا يعني أن زوجها أيضاً سيحن فور خطوه خطوة داخل البيت، خاصة إذا ارتدى سترته الرصاصية، فإن المحبة ستزداد تماماً.

نهضت فرحة. أخذت السترة، وعلقتها. صارت الساعة العاشرة، الحادية عشرة. اقتربت من الثانية عشرة، و ثقل جفناها. لابد أن زوجها لن يأتي هذه الليلة أيضاً...

سقط رأسها على كتفها، وغلبها النوم.

رأت زوجها في حلمها. جاء، وقابلته عند الباب. حين رآها مصبوغة هكذا امتن لها كثيراً، وأخذها بين ذراعيه، وقال: "أريد أن أراك هكذا دائماً!" بعد ذلك أرته الخاتم بإصبعها. فرح بشكل خاص لهذا، واعتذر من موقفه الفظ الذي اتخذه لضياع الخاتم.

....

عندما خرج مظهر من البار مع جالة في الواحدة ليلاً كان المطر قد هدأ. السماء المغسولة البراقة المليئة بالنجوم المتلألئة تدفعه للتجول في الشوارع الخاوية والنظيفة.

- ما قولك؟ الجو رائع، أليس كذلك؟

- جداً.

- أتعرفين ما يخطر لي؟

- ماذا ؟

- أن أتجول معك ممسكاً كل منا بيد الآخر، وأن نتجول حتى الصباح!

ضحكت جالة:

- هذا غير ممكن هنا. أجّل رغبتك هذه لاسطنبول. إذا ذهبنا ذات يوم...

تنهد مظهر:

- سنذهب، أليس كذلك؟ نذهب معاً ذات يوم في قاطرة إلى اسطنبول، أليس كذلك؟

- لِمَ لا يكون؟ وهل هذا أمر لا يمكن تحقيقه إلى هذا الحد؟

- لا، ولكن... أتمشي يا جالة؟

نظرت جالة مندهشة:

- هل جننت يا هذا؟

تلفتت فيما حولها. نظرات الغرباء الخارجين من البار تكاد تأكلهما... غضب مظهر، تفقد المسدس في حزام بنطلونه عند خصره.

- أتخاف من تعرضهم لنا؟

- من أجلك على الأكثر!

- أمن أجلي؟

سحب مسدسه. أمسكت جالة يده:

- لا تفهمني خطأ. أخاف من إطلاق النار عليك أكثر مما أخاف أن تطلق أنت. مع أن الحالتين سيئتان...

جاء صاحب البار إلى جانبهما.

- ليكن خيراً. لماذا تقفان؟

- الجو جميل جداً. قلت لنتجول قليلاً. إنها خائفة! دخل صاحب البار بينهما، وتأبط ذراعيهما.

- هيا لنمشي!

توقف بعد عدة خطوات، ثم التفت إلى الخلف. نادى أحد الحوذيين المنتظرين:

- عرب!

رد الحوذي النوري الأسود الضعيف المتناوم تحت قبعته:

- أمرك يا آغا!

- اتبعنا ببطء!

- كما تأمرون يا آغا...

أمسك بالرسن، وتبعتهما العربة.

أنزل صاحب البار طربوشه الأحمر إلى حاجبه الأيسر. كان ثملاً جداً. أراد أن يتحدث مع السيد مظهر بمايعتمل بداخله منذ فترة طويلة.

كانوا يسيرون ببطء باتجاه بنسيون جالة، ويتحدثون بأمور عامة. الطريق يسوء تدريجياً. إنهم معرضون للانزلاق والسقوط في المياه الطينية، والسقوط في حومات مياه المطر.

ومن أجل أن ينفرد صاحب البار بالمحامي في أقرب فرصة، قال:

- هذا غير ممكن يا سيد مظهر. لا تسمى هذه نزهة، بل سفاهة!

ووقف، وأوقفهما.

قال مظهر:

- ماذا يحدث؟

- غرقنا يا أخوان. لندع نزهة الليل ليوم أجف من هذا...

قال: "حسن " والتفت إلى الخلف:

- تعال يا أوسم حوذي!

انتفض شوبار. وضرب الحيوانين بالسوط. وقفت العربة بجانبهم. ركبوا.

قال شوبار متناوماً:

- إلى البنسيون؟

- نعم.

بعد عشر دقائق وصلوا إلى بنسيون جالة. نزلت. صافحتهما. تمنت لهما ليلة سعيدة، وولجت من باب سور البنسيون.

في الطريق، فتح صاحب البار فجأة موضوع جالة التي غدت مركز الشائعات الوحيد في الأيام الأخيرة.

بعد أن استمع مظهر صابراً، قال:

- إذا لزم الأمر، نعم!

لم يكن صاحب البار يريد أن تترك جالة العمل، فهي من النوع الذي لا يمكن تعويضها. ولكن من أمامه هو محامي المدينة المعروف الذي يحصل على ما يريد. فعندما ينتهي عقد المرأة إما أن تمدده، وإما

لا تمدده، عندها تترك العمل. إذا ساندها المحامي، وأرادها أن تخرج من البار، فإن المرأة لن تجدد عقدها بالتأكيد، ويتحدد موقفها بحسب ما يملي المحامي.

قال:

- الجميع يقولون إنك ستتزوجها، ولكنني لا أتوقع هذا. ما قولك؟

قال مظهر متوتراً:

- لماذا؟

- لماذا؟ هذا يعني أن الشائعات صحيحة؟

- ممكن.

صمت صاحب البار. كانت نية الرجل سيئة. حسن ولكن أمن الصواب أن يأخذ من يده أجمل نساء البار، وأكثرهن عملاً؟ في الحقيقة إنه إذا رحل إلى اسطنبول، فسيلتقي بنساء مثلها،. ولكن ما ضرورة العذاب؟ إنه محام كبير. إذا قرر أن يطلق زوجته، ويتزوج، ألا توجد بنات وجهاء في البلد؟

سأل مظهر:

- ماذا تعرف عن نسرين؟

فكر صاحب البار قليلاً، وقال:

- مثل ماذا؟

- إنها تنصح جالة دائماً. تقول لها: تخلي عن هذا الأمر، ولا تهدمي بيت الرجل. ماذا يجري لها؟

قال صاحب البار الذي فهم الأمر:

- إنها فتاة طيبة جداً. مريضة برئتيها. مرت بمغامرة قاسية. تعلق زوجها براقصة، وتركها...

- ممكن. كل شاة برجلها تناط.

- حتى إنها بكت، وقالت لي عدة مرات: احك مع جالة، إنها تجذب الرجل. حرام. عند الرجل ولد. إنها فتاة حساسة...

نظر صاحب البار إلى المحامي مظهر بطرف عينه. قال مظهر متوتراً:

- لا أريد للآخرين أن يتدخلوا بأموري. واضح أنك غير مؤيد لهذا أيضاً. ولكن معارضتك ليست غير محقة تماماً. لأنه...

- لا، لا... ليس كما تعتقد.

- كيف؟

- جالة تعمل جيداً. سأخسرها، أو ما شابه ذلك...

- حسن.

- لا. ليس من أجلك. إذا كان هنالك واحد آخر، وحاول أخذ إحدى فتيات البار، ولتكن الأهم، فإن الأمور تتغير. ولكن أنت؟

- بعد ذلك... يقولون فتاة بار في النهاية. يستهينون. أنا أغضب لهذا أصلاً.

هز صاحب البار رأسه:

- هذا صحيح.

- لماذا؟ لماذا يكون صحيحاً؟

- لأن...

- ستقول إنها ليست من مستواي؟

- لا.

أشعل مظهر سيجارة، وبدأ غاضباً:

- مررنا بثورة عظيمة. وكما ترون طارت الأصالة، والثورات تتتابع، وستأتي أخرى. غداً سنضع القبعات، ومن المحتمل أن يقبل القانون المدني. ستأتي كل هذه الأمور بسرعة البرق، وتتعاقب. سنشبه الغرب. لا يعني الغرب شكلاً، أو شكلاً خارجياً فقط. هذا يعني أن نشبه الغرب بمؤسساتنا كلها، وعقولنا، وأفكارنا ومفاهيمنا.

قطع صاحب البار كلامه فجأة:

- أنا مقتنع بهذا كله، ولكن أمر القبعة لا يدخل في عقلي يا سيدي!

- لماذا؟

- يبدو لي أن هذه الأمة لا يمكن أن تضع القبعة التي كانت حتى الأمس تعمل فيها لا أدري ماذا!

ضحك مظهر متوتراً:

- أين الذين كانوا يرون أنفسهم ظل الله في البلد؟ ماذا حدث؟ ألا تلعب الريح في مواقعهم الحصينة؟

- نعم، ولكن...

- ليس في هذا ولكن. الشعب لا يأبه لهذا. الشعب يطبق ما يقرره الذين في السلطة. ما يريده الشعب قبل كل شيء هو الخبز... الطربوش، والقلبق... هذه كانت من الأشياء القومية التي توضع على رؤوسنا؟

- ....؟

- ما تقرره السلطة، يلتزم به الشعب كالخراف. إذا كانت قد حدثت بعض التململات، فهي ليست من الشعب. جاءت من زمرة المخبولين. مع أن زمرة المخبولين، تلك تؤيد الثورة اليوم. لهذا...

- هذا يعني أننا سنضع القبعة، هاه؟

- لن يكون عندك شك في هذا أبداً؟

وصلت العربة إلى البيت قبل أن يشرح مظهر ما أراد شرحه حول جالة. نزل. صافح صاحب البار، وذهب.

لم يكن راغباً بالدخول إلى البيت الذي لم يدخله منذ أيام. لم يكن ثمة ما يربطه بالبيت أبداً تقريباً. لا أمه، ولا زوجته، ولا حتى ابنه.

رغم هذا أخرج المفتاح من جيبه، وأدخله في ثقب الباب. فتحه، ودخل، وأغلقه بهدوء.

عبر إلى البهو المظلم. أمه أيضاً نائمة. كان ثمة ضوء ينبعث من نافذة غرفته. تذكر عيني أمه: "ستخيط زوجتك في بطانة سترتك سحراً أمنته من بائعة صرة. ليكن عندك علم!"

قطب وجهه بكره. بقيت يده الممتدة إلى مقبض الباب ممدودة هكذا: ما العمل إزاء امرأة قذرة مهملة تسحل جوربيها ولا تمسك زوجها بأنوثتها، بل بأساليب نساء الحي العاديات اللواتي يكرههن؟ لماذا أتى؟ أمن أجل أن تحتضنه، وتقبله، وتحبه، وتداعبه؟

أيخرج كما أتى، ويذهب إلى جالة؟

تذكر نسرين هذه المرة. تردد. من يعلم، لعلها تنصح المرأة الآن وكأنها أمها. امتدت يده إلى المقبض من جديد. أداره بهدوء، وفتح الباب. عبر الباب الموارب، رأى زوجته النائمة على الأريكة المقابلة: متزينة ومهندمة،

دخل، وأغلق الباب بهدوء من جديد.

لماذا؟ ؟ ما قصدها؟ نظر إلى زوجته مطولاً بعينيه الثملتين. لم

تكن سيئة. حتى إنها جميلة. جميلة، ولكن ماذا يفيد؟ كان يريد لزوجته أن تكون أكثر من بطاقة بريدية، يريدها مختلفة، ومختلفة جداً. لم تكن هكذا. لم تتجاوز البطاقة البريدية.

تخيل جالة. أي فرق بين تلك، واهتمامها، وغنجها، و برودة هذه الشبيهة بجمود الشحم!

وقف أمام المرآة، وبدأ بخلع ثيابه. بينما كان يعلق سترته على الشماعة، تذكر كلمات أمه: "ستخيط زوجتك في بطانة سترتك سحراً أمنته من بائعة صرة. ليكن عندك علم!"

التفت، ونظر إلى زوجته التي مازالت نائمة بهدوء، ورأسها يتدلى على كتفها.

كان عليه أن يترك هذه الألبسة في البيت، ويرتدي الرصاصية غداً. إن لم يكن هذا كذب أمه، فإنها ستخيط السحر على هذه الثياب.

خطر بباله أمر آخر: يخشى أن تخيط أمه السحر على سترتها لتفتري على زوجته؟

ممكن. وهو ممكن مثل العسل. كان يعلم أن أمه امرأة نمامة، سليطة اللسان، على أصابعها العشرة عشرة خبائث. لعل ما فكر فيه صحيحاً. سيفهم... وإلا فإنه لا يعتقد أن المرأة المهملة المسكينة التي تخاف من ظلها تجرؤ على هذا.

لامس كمُّ منامته القطنية كأس الماء الموضوع على حافة الطاولة وهو يرتديها. تحطم الكأس على حديد المنقل الأصفر الموضوع أمام الطاولة محدثاً صخباً.

نطت ناظان. حين رأت زوجها بعينيها الناعستين. دهشت، وحتى

خـافت فـجـأة. ترى هل يغـضـب لتـزينـهـا ؟ أيقـول: "أنا لا أحب هذه الأمور!" ؟

لم تهـرع لعناقـه، ولا حـتـى خطر ببـالهـا أن تبـشـره بإيجـاد الخـاتم المفقود. إنها تنظر، تنظر فقط.

صرخ زوجها: لماذا تنظرين كالمخبولين؟

حـسن، ولكنهـا مـاذا يجب أن تفـعل؟ فـجأة عـملت شـيـئاً لم يكن بالحسبان أبداً: هرعت، وأرادت أن تعانق زوجها من رقبته. وكأن هذا هو الوقت المناسب بالضبط. غضب الرجل بشدة:

- ماذا يجري لك ؟ مخبولة! جاءت تعانقني بدلاً من أن تجمع حطام الكأس!

حزنت. حزنت بشكل سيئ جداً. كأن ماء مغلياً قد سكب عليـهـا. اسودت عيناها، طنّت أذناها. لماذا، لماذا تقع على رأسها أمور كبيرة؟ قرفصت. بدأت بجمع حطام زجاج الكأس على السجادة

انطلق لسان الرجل الثمل، فقال:

- قردة. ماذا يعني كل هذا الصباغ في هذه الساعة من الليل؟ أمن أجل أن يُغفر ذنبك؟ وهل أنا مخبول مثلك؟...

رغم أن الخاتم قد خطر ببالها، ولكنها لم تجد دافعـاً لذكره. مـاذا يفيد؟ مهما فعلت،لم يعيد يفيد.

- ألم تجمعيها بعد؟

أجابت بصوتها المرتجف:

- أجمعها...

نهضت وفي يدها حطام الكأس. خرجت. سحبت صفيحة الزبالة، وألقتها.

ماذا تفعل الآن؟ هل تعود إلى الغرفة؟ لابد من هذا. إذا لم تعد؟ إذا لم تعد، وتمضي ليلتها على المقعد العريض في غرفة الأغراض الزائدة؟ حتى لو نامت هناك دائماً بعد الآن؟

لعل الرجل في هذه الحال يغضب، ويمكن أن يضربها قائلاً: "اتحتجين عليّ؟"

خطر ببالها وجهها المصبوغ، وشفتيها وحاجبيها. ما ضرورتها بعد الآن؟ سخر منها قائلاً قردة... غسلتها جيداً تحت الصنبور، وجففتها.

حين عادت إلى الغرفة، وجدت أن زوجها قد دخل الفراش. ، وأدار ظهره. طالما أنه لا يريد، فلمَ تدخل معه الفراش نفسه؟

أطفأت المصباح، وأرخت نفسها على الأريكة أمام النافذة.

لم يكن مظهر الثمل منتبهاً. حتى إنه لا يعتبر هذا احتجاجاً. لتنم أينما شاءت. المهم أن ينام هو حتى الصباح، أو على الأقل أربع أو خمس ساعات. أغمض عينيه بقوة. غطاهما بيديه.لم ينم. كان ثمة تخبط في داخله. إنه يغدو هكذا كلما خلط بالمشروبات والمقبلات في البار. يبدأ رأسه بالقرع، وتشتعل أمور ما في داخله، وتتخبط معدته.

استدار من جهة إلى أخرى. نظر إلى زوجته من تحت اللحاف بهدوء: كانت تبكي.

هل تتكلم غدا بكل شيء مع زوجها بصراحة يا ترى؟ طالما أنه لا يحبها، وطالما أنها مهما فعلت فلا جدوى، ألا يمكن أن يحلا كل شيء بشكل هادئ؟ ليرسلوها إلى عند خالتها. إنها راضية بقدرها مع خلدون. تذهب، وتجلس هناك، وتعود متى أراد.

اقتنعت بهذا. جففت عينيها، وعدلت جسدها على الأريكة.

عندما نظر مظهر إلى زوجته بالشكل نفسه من جديد، انتبه إلى أن المرأة الشابة لم تعد تبكي. هذا يعني أن كلماته جرحتها؟ غريب! هل يوجد عندها أحاسيس كهذه؟ أقليل ما أهانها، وشتمها؟ لم يتذكر أنه أثر عليها هكذا. عندما نظر إليها في المرة الثالثة، وجد عندها إرادة وكأنها قررت شيئاً ما. ترى هل هو ذلك السحر؟

لمع البرق في عينيه. حسن. إنها تنتظر نوم زوجها من أجل أن تخيط السحر في بطانة سترته!

والحال إن ناظان وصلت إلى قناعة أن السحر لم يعد يفيد، ولسوف تنتظر من زوجها أن ينام ، لتخرج الحرز من السترة الرصاصية، وتعيدها إلى حالتها السابقة. طالما أنها قررت العودة إلى خالتها، فما ضرورته؟ يمكن للرجل أن يرتدي تلك الثياب وهي غير موجودة، ويكتشف السحر، ويسقط بلاء على رأسها. الأفضل أن تنزعه من هناك.

نهضت. وذهبت إلى الشماعة التي عند طرف السرير على رؤوس أصابعها بخفة. أخذت السترة الرصاصية بكل حيطة وحذر ، وخرجت بصمت القط.

على صوت إغلاق الباب بشكل خفيف نهض مظهر من سريره بعد أن أدرك أن زوجته خرجت. فتش الغرفة بعينيه. خرجت زوجته. نظر إلى سترته. كانت هناك حيث علقها. حسن؟ فجأة وقعت عيناه على مكان البزة الرصاصية: لم تكن السترة الرصاصية هناك!

قفز عن السرير. ذهب إلى النافذة. رفع الستارة قليلاً، ونظر. ثمة لهب ثقاب في نهاية البهو عند المطبخ، بعد ذلك أضاء الفانوس الأصفر.

كانت المرأة الشابة تقلب السترة الرصاصية بين يديها في ضوء

الفانوس الأصفر المرتجف. بعد ذلك سحبت الكرسي الخشبي الصغير وهي تعمل، وجلست عليه. وبدأت بفتق بطانة السترة من جديد.

شردت. صوت زوجها الغليظ حط في أذنها:

- ماذا تفعلين؟

كانت يدا مظهر خلفه. وكان ضوء الفانوس المرتجف ينير وجهه المشدود وحاجبيه المقطبين وعينيه الزائغتين حقداً.

أرعد صوته من جديد:

- ماذا تفعلين ولاه؟ سحر؟ هل تخيطين سحراً على سترتي؟أتحاولين بالسحر تحقيق ما لم تستطيعين تحقيقه بأنوثتك مثل نساء الحارات؟ ها؟

لف شعر زوجته، وجرها إلى أمام باب المطبخ،وانهال عليها صفعاً وركلاً ولكماً!

- يا ساقطة، وساحرة، وامرأة حارة سافلة!

تصاعد صراخ ناظان وبددت أصداؤه سكون الليل. بعد قليل نهضت السيدة هاجر من فراشها، ثم تبعها خلدون. ولكن أحداً لن يستطيع إنقاذ ناظان من بين يدي مظهر. كان يضربها بقساوة. زاغت عيناه. كان الزبد يخرج من فمه. فجأة بدا كأنه في حالة إغماء. خرجت من فمه كلمات مخيفة:

- أنت طالق! أنت طالق ثلاثاً، وكل طلقة ثلاث يا سافلة!

سمع صوت السيدة هاجر وهي تتمتم بدعاء بشكل جهوري. هربت نحو كنتها المتمددة على الأرض هامدة. أرادت أن تحميها من ركلات ابنها، إلا أنها تأخرت. كان الأمر قد انتهى. المرأة الشابة ممددة على

الأرض ملوثة بالدم. ثم إنها بحسب الشريعة صارت محرمة عليه. قالت لابنها:

- هيا، هيا اذهب إلى غرفتك!

بعد ذلك اقتربت من كنتها، وأمسكتها من ذراعها.

- انهضي، وتعالي إلى غرفتي! الله يجعل نهايتكما خيراً!

كان خلدون ينظر إلى أمه وصدره يصعد ويهبط منفعلاً، وشفتاه مزمومتان لكي لا يبكي، ولا يستطيع احتضان أمه لأنه خائف من جدته.

سألت السيدة هاجر عن سبب الشجار، ولكنها لم تتلق جواباً... ذهبت إلى ابنها.

ألقى مظهر بنفسه على الأريكة، يدخن سيجارة. كان يفكر بالكلمات التي صدرت عنه في حالة الغضب، ويصارع ضميره. فرح لدخول أمه.

سألت المرأة وهي حزينة:

- ماهذا الصراخ والصياح في هذه الساعة من الليل؟

قال مظهر:

- أمسكتها وهي تخيط سحراً في سترتي.

ارتعدت السيدة هاجر، وكأنها تؤجج النار:

- الله لا ترينا يا ربي... هذا يعني أن ما سمعته صحيح؟

- المرأة اللعينة عملت ما لم تعمله في أي وقت: في منتصف الليل صبغت وجهها مثل الساقطات. من يعلم، لعلها كانت تريد ربطي أنثوياً لتنيمني...

- من أين خطر ببالها أن تصبغ وجهها في منتصف الليل؟

- وهل أعرف؟

- العقل لا يدرك ما تفعله النساء الشابات الفتيات، والسلام.

تناولنا العشاء. لم يكن على وجهها صباغ أو أي شيء آخر؟

- واضح أنها لم تصبغ وجهها لك بل لي!

- حسنٌ، ماذا سيحدث لها الآن؟

- من؟

- ناظان!

- من أين أعرف أنا؟

- أمكن هذا الأمر، من أين أعرف أنا؟ أنت طلقت المسكينة. وهل صحيح الإبقاء على محرمة عليك في بيتك؟

سحب مظهر عدة سحبات دخان متلاحقة من سيجارته، وقال بعد ذلك:

- ثم إنني طلقتها ثلاثاً، وكل طلقة ثلاث.

- طلاق الثلاث. هذا أسوأ. (نظرت من النافذة) والمسكينة ناجية استيقظت فوراً. غدا تنشر الخبر في المدينة. احك، ماذا سنفعل بالمسكينة؟

- ماذا سنفعل؟ نرسلها لتذهب إلى خالتها!

- والولد؟ ماذا عن الولد؟

- سيبقى هنا!

كانت السيدة هاجر مسرورة، ولكنا تريد تثبيت الأمر:

- نم الآن، نم، وغدا تكلم معها أنت!

- ماذا؟

- موضوع الولد، وذهابها إلى خالتها... يجب إعطائها بضع قروش. ولكن إذا سمعت مني، لا تستعجل بإرسالها!

- لماذا؟

- مهما يكن فهي زوجتك. أم ابنك. لعل فكرك يتغير...

- لا، لا. فكري لن يتغير. انطلق السهم من القوس. لتنطلق، وتذهب إلى اسطنبول، وأتنفس براحة!

قبل أن تذهب السيدة هاجر إلى الغرفة الأخرى، أعادت عليه:

- هذا يعني أن الولد سيبقى هنا بالتأكيد؟

- نعم!

وجدت كنتها وحفيدها يتعانقان، ويبكيان. وجه ناظان ويداها ملوثة بالدم. شعرها متناثر. لم تعد زوجة ابنها، وهي امرأة غريبة مثل أي امرأة.

هي أيضاً بدأت بالبكاء. بكى الثلاثة طويلاً.

١١

صباح اليوم التالي باكراً، خرج مظهر من البيت. كان قد دخن سيجارة وراء أخرى ذارعاً الغرفة طوال الليل، ولم ينم. كانت معدته تتخبط، ورأسه يطن أكثر من المساء.

دست السيدة هاجر ثوبها في خصرها، ودارت في البيت في منتهى الفرح. قبل الله دعاءها، وعاد ابنها لها من جديد. كيفما كان فإن هذه العاصفة ستهدأ، وبما أنه طلقها ثلاثاً، وكل طلقة ثلاث، سيرسل ناظان إلى خالتها لولا أن خلدوناً في الوسط لكان هذا سهلاً، ولكن هناك خلدوناً. من يعلم أيضاً، لعلها تقول: "ابني، صغيري. لا أذهب من دون أن آخذ صغيري!" لن تهتم لهذا لولا أنها تعرف هواجس ابنها. عندما يغضب تزوغ عيناه، ولكنه يغدو كالحرير عندما يهدأ. تعرف أن لتأثير "فتاة البار" نصيب كبير بطلاق كنتها ثلاثاً، ولكن للغضب نصيب كبير أيضاً. لعله صار نادماً الآن.إذا ندم، وأشفق على ناظان، فإنه لن يحتمل قولها: "ابني، صغيري. أنا لا أذهب من دون أن آخذ صغيري!" أو توسلها، وسيرضى بإعطائها ابنها.

لم تكن لدى السيدة هاجر حتى إمكانية التفكير في هذا. تمتمت قائلة: "هذا شيء غير ممكن. لا أترك خلدوني!" كانت تعرف جيداً ما

ستفعل، وما ستدور من مناورات. التقطت المكنسة، وبدأت بكنس الغرفة بحيوية.

قالت ناظان المصغية لصوت المكنسة لنفسها: "مسكينة. وقع العمل عليها. لو استأجروا خادمة..."

خرجت إلى الباب محتضنة الولد، ثم تركته، وذهبت إلى حماتها:

- هاتوا عنكم لأكنس أنا!

نهضت السيدة هاجر. نظرت بحلاوة إلى وجه كنتها البائس جداً نتيجة البكاء:

- آه يا ابنتي الخيرة. أشفقت علي، أليس كذلك؟ من يعلم أي متاعب سأتحملها بعد هذا العمر؟

- هاتوا، هاتوا...

- مستحيل يا ابنتي. حرام. أنت محرمة على كل ما في هذا البيت. اقتلع الولد المجنون الأكمة من جذورها. لحظة طيش... من يعلم، لعله نادم الآن...

داعبت رأس خلدون الممسك بثوب أمه، وناظراً إلى جدته بحدة.

- صغيري المنحوس. أنا أشفق أكثر على هذا المسكين.

اندست ناظان بحماتها، ونظرت بعيون متوسلة ورموش رطبة:

- لن تفصلوا عني صغيري، أليس كذلك؟

أمسكت السيدة هاجر نفسها بصعوبة، وقالت:

- هذا أمر بينك وبين زوجك يا ابنتي. لا علاقة لي به. نعم، أنا أحب حفيدي كثيراً، وأنت أم، والآخر أب. أأقول لك شيئاً؟ أنت تعرفين طباع زوجك. إنه لا يريد أن يعانده أحد. تعرفين إذا عاندته، سيشتاط

غضباً. أنا سأذهب لأقابله بعد قليل. نعم، من غير الصحيح أن تبقى شابة محرمة عليه هنا. ليقرر ما يقرره بسرعة.

كانت ناظان تبكي.

- أرسلوني إلى خالتي يا أمي العزيزة!

تنهدت السيدة هاجر:

- بالتأكيد يا صغيرتي. أي مكان آخر لك؟ ستذهبين بالتأكيد. ولكنك لن تذهبي إلا بعد أن تلقي حفنة جمر في قلبي. سأفتقدك كثيراً يا ناظان. كنة محترمة وربة بيت وعاقلة مثلك...

احتضنت ناظان حماتها ودموعها في داخلها. وضعت رأسها على كتفها، وبدأت بالبكاء. كم هي امرأة طيبة يا رب! هذا يعني أن مشاكستها ، وتوجيه كلام حاد لها أحياناً ليس من سوئها؟ هذه طبيعتها. لسانها هكذا:

- اصمتي يا صغيرتي، اصمتي يا ابنتي. لا تبكي. ستبكينني...

- أرجوك توسلي للسيد مظهر باسمي كي لا يفصل ابني عني!

- لا تهتمي أبداً يا ابنتي. فصل خلدون عني يحزنني كثيراً، ولكنني ماذا أفعل؟ أنت أم. حقك أكبر. انتظري قليلاً. غضبُ مظهر مؤقت، كم سيتركك عند خالتك... تنظرين في أحد الأيام، فترين أن برقية جاءتك، تقول تعالي بسرعة. تركبين، وتأتين. تحدث بين الزوجين أمور كهذه. عشق أحدكما الآخر من أول نظرة. هو لن يستغني عنك، وأنت كذلك...

صدّقت ناظان. لن يعطوها خلدوناً لأنها ستأتي بعد عدة أشهر.

حماتها تحكي بشكل صحيح جداً. يحب أن لا تعارض زوجها، وأن لا تصر في موضوع خلدون خاصة. إذا أعطاه جميل، وإذا لم يعطه...

ذهبت إلى غرفة حماتها والولد في حضنها. جلست على المقعد. عانق خلدون أمه. قبلها من خديها، ومسح دموعها بيديه الصغيرتين. فجأة قال:

- أنا لا أحب السيد أبي أبداً.

طار صواب ناظان:

- لماذا؟

- يضربك دائماً، ويبكيك!

- إذا سمعتك تقول هذا بعد الآن...

- ماذا يحدث؟

- لن أكون أمك.

- هل ستصيرين أماً لأولاد آخرين؟

- طبعاً!

عانقها مجدداً:

- لن أقول يا أمي العزيزة. لا تصيري، لا تصيري أماً لأولاد آخرين!

في هذه الأثناء قرع الباب. ولأن ناظان أمسكت بنفسها. لأن كل ما في هذا البيت بات محرماً عليها، فقد ركضت السيدة هاجر، وشدت الخيط. كانت ناجية. بينما كانت تصعد الدرج بفضول، أشارت إليها السيدة هاجر أن تصمت. صمتت، ولكن فضولها وصل إلى آخر حد. كانت قد سمعت ضجيج السيد مظهر وصراخه ليلة الأمس، ولكنها لم

تعرف السبب. ناقشت الأمر مع زوجها من كل جانب، ولكنهما لم يتوصلا إلى نتيجة. زوجها في البيت ينتظر خبراً.

دخلتا إلى المطبخ. سألت ناجية بفضول:

- ما ذلك الصخب الذي كان ليلاً يا خالة؟

لم تنتبه السيدة هاجر مجرد الانتباه لكلمة "خالة". أعطتها البشارة فوراً.

- ابني طلق ناظان!

ناجية لاهثة:

- كرما لله؟

- بالثلاثة، وكل واحدة ثلاث!

- لماذا؟ ما السبب؟

- رآها تخيط حرزاً في سترته!

اهتزت ناجية. هل قالت ناظان من أين أخذت الحرز يا ترى؟ سألت خائفة:

- ممن أخذت السحر؟

- ممن أخذته؟ هوهووووه... يدها وذراعها طويلة يا ابنتي!

- ....؟

- قالت إنها أخذته من بائعة صرة.

ارتاحت ناجية. هذا يعني إنها لم تثرثر، وتقول إنها أخذته منها.

- مخبولة. انتظرت، وانتظرت، ووجدت الوقت الذي جاء فيه زوجها إلى البيت. طالما أن لديك لخبطة كهذه، فما للنهار، هل أكله الذئب.

- هذا يعني أنه طلقها ثلاثاً، وكل واحدة ثلاث؟
- وأي ضرب ضربها إياه، أي ضرب. لولاي لقتلها. لتدعو لي!
- حسن، ماذا سيحدث الآن.
- ماذا تقصدين بماذا سيحدث؟
- تعد محرمة عليه. لن تبقوا عليها في البيت؟
- سنرسلها إلى خالتها!
- ستأخذ ابنها طبعاً؟
- والله لا أعرف. هذا أمر بينهما. أحدهما أب، والأخرى أم. الجو بالنسبة لي جميل. نعم، إنه حفيدي، وأحبه، ولا أستطيع من دونه، ولكن...

سألت ناجية عن أمر آخر تماماً:

- سيتزوج السيد مظهر من جديد، أليس كذلك؟

غضبت السيدة هاجر:

- الرحمة، أنت أيضاً يا ناجية، افتحي فمك على الخير. ماذا سيفعل بالزواج!

ناجية مسرورة في داخلها، سكتت. إذا كانت لا تعرف جيداً لماذا طلق زوجته، فإنها تتوقع. زوجها يحكي لها كل يوم عن علاقته بفتاة البار.كان الرجل في راحة يد جالة.

قرع الباب من جديد. بينما كانت السيدة هاجر ذاهبة، نزلت ناجية أيضاً من السلم بهدوء.

- إلى أين يا بنت؟
- أنا ذاهبة إلى البيت يا خالة، رجلي على وشك الاستيقاظ.

لم يكن نائماً أساساً. كان في الفراش، يشعل سيجارة ويطفئ أخرى منتظراً خبر زوجته حول صخب الليلة. دخلت زوجته منفعلة:

- البشارة.

نهض الرجل من الفراش:

- هل طلقها؟

- وثلاثاً، وكل واحدة ثلاث!

- كرما لله؟

- والله. ضربها، وضربها بشكل...

- قولي إنه لن يستطيع أخذها من جديد من دون الرجوع إلى القانون والشريعة؟

- أنت أيضاً يا رجل. لو أنه سيعيدها لما طلقها!

- هذا أيضاً صحيح ياه. أنا سألبس الآن فوراً...

- واعط البشارة لفتاة البار!

- سليم.

رمى الرجل منامته. وراح يرتدي بنطلونه، وكانت ناجية تحكي:

- سيدة ناظان، سيدة ناظان. لم تعد كذلك.

سأل رضا:

- ما السبب؟

- لطلاقها؟ ضبطها عليها الرجل وهي تخيط سحراً على سترته!

اندهش رضا:

- انظري! قولي إنها تحرق القلب!

- طبعاً.

- لا يعرف ما في داخل الناس أبداً...

ارتدى ثيابه، وانطلق كأنه يركض في الشوارع. عَبَر السوق دون أن ينتبه إليه. كان مستعجلاً لكي يزف البشارة لجالة، ويحظى بمساعداتها. لن تكون فائدتها قليلة عندما تغدو زوجة السيد مظهر. لن يمضي كثيراً، سنة أو سنتين، ويجمع نقود خمارة صغيرة. وجد نفسه فجأة أمام بنسيون جالة، فدهش لسرعة وصوله. قرع الباب. بعد قليل، أطل رأس نسرين من النافذة:

- من هناك؟

أمسك النادل رضا بنفسه حين رأى نسرين صديقة جالة وناصحتها. عليه ألا يعلمها بأمر الطلاق.

- أنا، افتحي!

لم تشتبه نسرين بأي شيء. كانت جالة في السرير. سألت؟

- من جاء؟

قالت نسرين:

- الذي لك.

- الذي لي؟ من الذي لي؟

- السيد النادل رضا، أليس لك؟

غضبت جالة إلا أنها لم تعلق بشيء. ستذهب إلى اسطنبول قريباً. لم ترد أن تكسر قلبها. وبدأت نسرين بالسعال وهي تكاد تختنق. نهضت جالة من السرير. لبست ثوب الصباح على عجل، وخرجت:

- خير؟

كانت عينا الرجل تبرقان، قال:

- البشارة.

- ماذا يوجد؟

- رجلك طلق زوجته!

لم تفرح جالة كما أمل. حتى إنها قطبت جبينها.

- هل اعتقدت أنني سأفرح من خراب بيت يا رضا؟

لم يكن يتوقع رضا هذا أبداً. اندهش:

- لا!، ولكن...

- أنا لا أريد أن يخرب بيت أحد يا رضا. نعم، أنا أحب السيد مظهر. هذا كل شيء. الحب شيء، والارتماء لأكون زوجته بأي ثمن شيء آخر!

انفعلت، ورجعت إلى الغرفة. لم تسأل نسرين عن شيء أبداً. هي أيضاً لم تتحدث. دخلت السرير من جديد، وسحبت اللحاف فوق رأسها.

يا لغرابة هؤلاء الناس! خراب بيت، وانطفاء موقد يؤجج فرحهم، ويدفعهم لإعطاء البشارة. كانت تشفق على ناظان رغم أنها لا تعرفها. كانت مسكينة، ومنغلقة على نفسها. تخيلت الحماة التي رأتها ذلك اليوم في مكتب السيد مظهر. سبب كل ما حدث هي تلك المرأة! كانت تعرف هذا. سمعت من السيد مظهر أشياء مخيفة عنها أحياناً... إذا ذهبت كنة إلى ذاك البيت ذات يوم، واضطرت للعيش وجهاً لوجه مع تلك المرأة... لم تكن تريد هذا. ساومت مظهر على هذا سلفاً، ولكن إذا اضطرت للسكن معها فترة... قالت لنفسها: "إذا لم انتقم لناظان، فلن أكون جالة!"

زعل رضا وشعر بأنه كالساقط من الحمار. خرج من البهو، ومن البنسيون. صادف السيدة هاجر أمام البلدية.

- بالسلامة...

كانت السيدة هاجر منتشية جداً. ازدادت نشوتها أكثر عندما رأت رضا على نحو غير متوقع:

- يسلم لسانك يا رضا أفندي...

- إلى أين صباحاً؟

- أنا ذاهبة إلى مكتب ابني، من أجل تلك المسألة...

وغمزت مسرورة.

- يا!.. لو لم يحدث لكان جيداً، ولكن..

-يا ابني امسكها بالجرم المشهود أخذت السحر من بائعة الصرة، وخيطته في سترة زوجها وهو في البيت!

- هاجمها السيد مظهر، أليس كذلك؟

- هاجمها. استيقظتُ، وأي استيقاظ؟ قامت القيامة. نهضت من السرير، وفصلت بينهما. بصعوبة أنقذتها من بين يديه...

- وماذا سيحدث الآن؟

- ماذا سيحدث؟ لاشيء. سنرسلها إلى خالتها فوراً. إنها شابة ونضرة. أنا امرأة مصلية أخاف من الحرام يا رضا أفندي. الآن هي محرمة على مظهر. لا يمكننا وضعهما تحت سقف واحد. لهذا أذهب إلى عند ابني. سيرسلها إلى اسطنبول؟ ليعمل ما يجب. إنها شابة نضرة، لتؤمن نفسها في أقرب فرصة ممكنة. أليس كذلك؟

قال النادل رضا:

- انتظروا إذا كان الأمر على هذا النحو. نسريننا مسافرة اليوم أو غداً. ليذهبا معاً.

تقطب وجه السيدة هاجر:

- من نسرين؟

غمز رضا:

- أقرب صديقة لجالة التي لكم!

كأن عاصفة اجتاحت وجه السيدة هاجر.

- لماذا تكون لنا تلك الـ....؟

انزعج رضا.

- الله يسامحك! وصل بنا الحال لنكون أقرباء للساقطات؟ لا نية لابني بالزواج أبداً. يلهو مع جالة، ومع غيرها أيضاً. تزوج مرة، وذاق طعمه. المرأة مجرد لهو. ما الضرورة للزواج؟ اليوم مع هذه، وغدا مع تلك... ثم إنني امرأة مصلية. لا أدخل سافلة تضاجع مختلف الرجال إلى بيتي!

ابتعدت متوترة. صُدم رضا مرة أخرى. نظر مطولاً من خلف المرأة. قال: "ولا عجوز شمطاء، إذا لم يكن فيك ذلك الأمر فأنا لا أفهم شيئاً أبداً. سترين ما تخافين منه غدا، وسأنفجر أنا من الضحك!"

انعطفت السيدة هاجر من الزاوية بغطائها الأسود الحريري متمايلة. عندما وصلت إلى مكتب ابنها، وجدت الرجل يذرع المكتب ويداه خلف ظهره. كان شارداً إلى حد أنه لم ينتبه إلى دخول أمه. بعد فترة، رآها. وقف. تبادل الابن والأم النظر طويلاً. كانا يتفاهمان رغم عدم تفوههما بكلمة واحدة. أدركت الأم أن ابنها شبه نادم، فقالت:

- دهشت ولا أعرف ما سأفعل. إذا حكيت عما جرى، فلن تتحكم بأعصابك، فتذهب، وتضرب المرأة من جديد!

ارتعد مظهر:

- ماذا؟ ما جرى؟ ماذا جرى؟

فكت السيدة هاجر فوقانية غطائها الأسود. تعرقت. بينما كانت تجفف عنقها بمنديلها الأبيض، جلست على حافة الأريكة المخملية.

امتلأ مظهر فضولاً.

- ماذا حدث، احكي ياه!

- انتظر، غرقت بالعرق، وهل باستطاعتي بهذا العمر قطع كل هذا الطريق؟ لآخذ نفساً!

بدأ مظهر بذرع المكان من جديد. كانت يداه خلفه. لم يكن منتبهاً إلى أن أمه تختلس النظر إليه. ماذا حدث يا ترى؟ هل تركت البيت؟ أم أنها أخذت الولد وهربت؟

وقف مقابل أمه بالضبط:

-هل أخذت الولد وهربت؟

- هربت طبعاً. بينما كنت في المطبخ مشغولة، أمسكت الولد وذهبت إلى بيت ناجية!

- ماذا يعني؟ لماذا لم تنتبهي؟ لماذا أعطيتها الولد؟

- أنا أعطيتها لها؟ ما أدراني أنا؟ دخت، ودهشت بينكما. بعد ذلك الخاتم... المرأة المخبولة أسقطته تحت السرير!

- هل وجدته؟

- وجدته. هو في إصبعها.

- الخاتم غير مهم. ولكن أخذها الولد عمل محزن، وليس أمراً عادياً، ستقع حادثة بيدي. ماذا تقول؟ أتقول لا تعطيه؟

- لا تقول ذلك، ولكن...

- ماذا؟

- انتظر، أنا أحل كل شيء بحسب أصوله. أنت لا تتدخل وتفسد الأمر!

- خذي الولد. خذيه بالتأكيد. لا أضحي بابني بين يدي امرأة جاهلة!

- بالنسبة إلي فأنا أؤيد استرداد الخاتم أيضاً.

- لا تأخذي الخاتم. ليبق معها؟

- دفعت من أجله حفنة نقود. أليس حراماً؟

- أمي، اسمعي ما أقوله لك: يمكن أن تحتفظ بالخاتم شريطة أن يبقى الولد!

لم تستطع السيدة هاجر قبول بقاء الخاتم مع ناظان بأي شكل. لماذا تفلت من يدها الخاتم، ذاك الخاتم الظريف البراق الذي لم تمتلك مثله ولو مرة في حياتها؟

نهضت. ذهبت إلى البيت. سحبت ناظان المنتظرة الجواب جانباً، وقالت:

- اسمعيني جيداً يا صغيرتي. تحدثت مع مظهر. هو أيضاً نادم جداً، ولكنه يقول إن الأمر حدث. سنرسلك إلى خالتك. لا تقلقي أبداً. بعد ثلاثة أشهر من ذهابك، أي في الربيع، ستكونين هنا! أما بالنسبة إلى الولد... يقول إذا بقي خلدون هنا، فهذا أفضل للولد. هذا صحيح يا صغيرتي. أنت لا تجهلين مظهر. يغضب، ويصرخ، ولكنه بعد قليل يبرد. أما مسألة الخاتم... فقد سر كثيراً من العثور عليه. يقول إن أصل

غضبه هو إضاعتك لذكرى منه. ولكنه لا يصدق أنه وجد. اعطني إياه، لأريه له، ثم أعيده لك يا صغيرتي...

مرة أخرى عانقت ناظان حماتها. بكتا طويلاً. قالت السيدة هاجر:

- كان يجب ألا يحدث هذا. أنا أحبك أكثر من ابنتي. لأرى كيف سأحتمل هذه الأشهر الثلاثة. أنتما تفكران أحدكما بالآخر، ولكنني أنا؟ أنا عندي قلب كالماس... آه، آه!

سحبت كرسياً، وجلست.

أخرجت ناظان الخاتم من إصبعها، وفي أثناء تقديمه لها، قالت:

- لا تحزني يا أمي العزيزة. ما حدث أفضل. سيفهم أحدنا قيمة الآخر بشكل أفضل...

- صحيح يا ابنتي، صحيح. (أخذت الخاتم، وخبأته في منديلها) ها، نسيت أن أقول لك... معلوم ياه، أنت محرمة على بيتنا. قال مظهر، قولي لناظان، راجية إياها باسمي، أن تبقى في بيت النادل رضا حتى موعد سفرها. قلت: كيف يحدث هذا؟ لتبق عند بيت وكيل النيابة... صغيري فكر بكل شيء. قال مستحيل، أنا عندي كرامة. لئلا يسمع أحد أنني طلقتها. بعد ذلك، تقولون: ذهبت إلى اسطنبول عند خالتها لتغيير الجو. أنت لا تقلقي أبداً. خذي خلدوناً، واذهبي إلى بيت ناجية... أو انتظري، لأذهب أنا، وأعمل الضروري. لأنك لا تجهلين طبع ناجية. الله يسلمها، ثرثارة. أنا لن أخبر أحداً أنك طُلقت، وأنت احفظي لسانك، ممكن؟

لوت ناظان رقبتها:

- ممكن يا أمي العزيزة.

ذهبت السيدة هاجر إلى بيت ناجية. كان رضا أفندي هناك أيضاً. بعد أن أبلغته سلام ابنها، ورجاءه، قالت:

- ماذا نفعل؟ هذه هي القسمة والنصيب. ليركبها رضا أفندي في القطار، إن لم يكن هنالك تعب...

ودست مقداراً من النقود في يده.

حين أخذ رضا النقود، وصل سروره إلى الذروة.

- أي زحمة ستكون يا سيدتي، واجبي. أنا محسوبكم لا أمر على البيت طالما هي هنا. وكما قلت، نرسلها مع نسرين، تذهبان معاً...

حدث كما تقرر. ذهبت ناظان مع خلدون إلى بيت ناجية. غضب مظهر عندما جاء إلى البيت مساء، ولم يجد زوجته التي طلقها وابنه:

- هذا يعني أنها تصر على عدم إعطاء الولد؟

قالت السيدة هاجر:

- كانت تصر، ولكنني، راضيتها، وقبلت.

- حسن، لماذا لم تجلبيه؟

- ننتظر أن ينام. لينم أولاً...

- متى ستذهب؟

- هناك فتاة بار تدعى نسرين. ستذهب أيضاً إلى اسطنبول اليوم أو غداً. ستذهب معها...

تذكرمظهر نسرين، ثمة كثير مما سمعه عنها، حتى إنه سمع من جالة أنها ستذهب إلى عشيقها في اسطنبول قريباً. قال:

- حسن، ماذا تقول؟ هل هي غاضبة مني؟

- أممكن ألا تغضب؟

١٢

بقي خلدون مع أمه في بيت ناجية يومين. أثناء نومه معانقاً أمه بقوة. في الليلة الثالثة، نزعته جدته، وكأنها تقتطعه. كانت ناظان تجهش بالبكاء. خففت عنها الجدة:

- لا تقلقي يا ابنتي. الله ينولكما مرادكما بخير. مهما طال الأمر، فأنت هنا في الربيع.

في هذه الأثناء جاء النادل رضا بحنتور.

- هيا، هل نحن جاهزون؟

في أثناء ما كانت ناظان تجمع أغراضها، هرَّبت السيدة هاجر خلدونا بهدوء إلى الدار، ونيمته على سريرها، وغطته جيداً. كان مظهر ينظر إلى الزقاق من نافذة البهو. كان منفعلاً. لم يستطع السيطرة على انفعاله عندما رأى زوجته ملفوفة بالغطاء أمام الباب الذي ينيره الحنتور بلون أصفر، فبدأ يبكي. طار صواب السيدة هاجر. قالت:

- ماذا أيضاً؟ رجل بهذا القد، ولا يخجل!

لم يسمع مظهر. فجأة لان، وندم إلى حد... جاء ندمه من الظلم. خطر بباله أن يعتذر من تلك التي أصبحت غريبة تماماً، ولعله لن يراها أبداً، وأن يتمنى لها سفراً موفقاً. دفع أمه، ونزل إلى الأسفل. اقترب من العربة التي كانت على وشك أن تتحرك. قال بصوته المرتجف:

- الله يفتح عليك طريقك!

كانت ناظان أيضاً شديدة الانفعال. بعد أن شكرته قالت:

- تركت خلدوناً ذكرى عندكم، أنتم لم تتركوا لي حتى الخاتم الذي اشتريتموه لي ذكرى!...

سأل مظهر منفعلاً:

- لماذا؟

- أخذته أمكم من أجل أن تريه لكم، و...

- دقيقة!

دخل إلى الدار بسرعة البرق. صعد السلم على نفس واحد.

- أمي!

كانت عين السيدة هاجر اليسرى ترف منذ لحظات. من الممكن أن يحدث حدث ما لحظة الذهاب. وها هو!

- ماذا يوجد يا ابني؟

- ألم أقل لك ألا تأخذي الخاتم؟ لماذا أخذته؟

مدت السيدة هاجر الخاتم الذي أخرجته من إصبعها البنصر مرتبكة:

- أنا لم آخذه يا ابني. هي أعطتني إياه. قالت لعله لم يصدق أنه وجد، خذيه لتريه إياه، ثم أعيديه لي. وهل تركتم لي عقلاً؟ خذ! لم يقف مظهر عند هذا. التقط الخاتم، وانطلق كما جاء. وصل إلى جانب العربة:

- خذي! خبئيه ذكرى مني ومن ابني!

- أشكرك.

كان النادل رضا قد جلس بجانب الحوذي. سارت العربة ببطء، وانعطفت عند الزاوية، وضاعت في الظلام.

استجمع مظهر نفسه بسرعة، ودخل إلى البيت. صعد السلم مفكراً. لم يكن يفكر ببيته أو أمه، أو ابنه، وحتى جالة! لا يفكر حتى بها. حتى هي دُفعت إلى مستوى خلفي. أيد خفية لفت قلبه وعصرته بقوة.

دخل إلى غرفة النوم، وأغلق الباب. وقع نظره على صندوق ناظان المغطى بوبر الجمل. أثر عليه كثيراً عدم أخذها له. لماذا لم تأخذه؟ ما الذي جعلها لا تأخذه؟ هل عندها نقود ولم تجد ضرورة للصندوق؟ كان يعرف انها لا تمتلك نقوداً. ما لذي يمكن أن يكون لدى امرأة بتلك الشخصية لتخفيه عن زوجها... خطر بباله السحر. قطب وجهه. لماذا، لماذا فعلت هذا؟ أشعل سيجارة، وأرخى نفسه على الأريكة أمام النافذة.

انفلت السهم من القوس، وصار ما صار. من غير الممكن العودة، والقبض على الطائر الذي خرج من القفص. ثم ماذا يحدث لروحي؟ ألم تكن تغضب حتى بضعة أيام خلت على أنها "قذرة، سافلة، خاملة..."؟ ثم ألم يضبطها تخيط سحراً على سترته مثل نساء الأحياء؟

ظهرت جالة في داخله. كانت تنظر إليه بعينيها الواسعتين غاضبة منه. غاضبة، ولكن بأنوثة، وهي مدركة الأمر حتى نقي عظامها! محيت ناظان. فماذا بعد؟ لو نهض، وذهب إلى البار... نظر إلى ساعة معصمه: إنها الحادية عشرة ليلاً! إنه وقت البار بالضبط.

للحظة فقد جالة أيضاً، وذهب إلى ابنه. جلس على حافة سرير أمه. بدأ بمداعبة شعره الأصفر المتموج. كان الولد ينام نوماً عميقاً ملء جفونه غير عالم بما يجري في العالم. عندما ينهض صباحاً من نومه ولا يجد أمه، سيسأل عنها بالتأكيد.

تنهد، ونظر إلى أمه وهي تصلي صلاة العشاء. بماذا ستجيب هذه المرأة يا ترى؟

انحنت السيدة هاجر، ووقفت، ثم انحنت، ووقفت مسرعة. أنهت صلاتها. بعد أن سلمت، جلست على سجادة الصلاة تنظر إلى ابنها. كانت تعتقد أنه سيسأل عن قضية الخاتم، ويحقق بشأنه. لم يسأل لكنه قال:

- لم تأخذ حتى صندوقها.

كانت السيدة هاجر تعرف أنها لم تجد ضرورة لأخذه على أمل العودة قريباً. قالت:

- لم تتنازل. ألن تأخذه لولا ثقتها بأمر ما؟ ليست بنت مليونير ياه!

- ما الذي يمكن أن تثق به؟

- لا أعرف هذا.

- هل عرضت عليها أخذه؟

- بالتأكيد يا ابني.

- ماذا قالت؟

- ماذا ستقول؟ قالت: ليتكسر على رأسه.

- من. أنا؟

- هكذا.

فجأة تحول مظهر إلى بارود:

- لو أنك لم تعطها النقود أيضاً!

كانت هاجر أعطتها نصف النقود التي أعطاها إياها ابنها، قالت:

- كنت سأعطيها إياها. لكن كان عليك أن ترى تلك الخاملة التي لها فم وليس لها لسان. كنت أشفق عليها أول الأمر، ولكنني كرهتها في ما بعد. لهذا السبب لم أرد إعطاءها الخاتم، ولكنك لم تسمع مني. لن يكون سيئاً لو سمعت كلام أمك قليلاً...

نهض مظهر. قال:

- سيكون صعباً جداً تربية هذا الولد...

السيدة هاجر أيضاً نهضت، وقالت:

- أنت لا تتدخل، دع هذا الأمر لي...

ودعت ابنها حتى الباب.

- إلى أين تذهب في هذا الوقت من الليل؟

قال مظهر:

- سأذهب لأتجول هكذا.

- إلى البار، أليس كذلك؟ لا تنزل على رأسي فتاة بار أيضاً...

حتى إن مظهراً لم يسمع.

....

ثمة غضب من رفض دعوات جالة المتكررة. مزارعون أغنياء، وتجار، ومدراء مصارف، وموظفون. ولكنها لا تقبل أحداً منهم. تجلس على طاولة منزوية وحدها، تشرب بيرتها منتظرة المحامي مظهر. كانت قد تشاجرت جدياً مع نسرين بعد أن سمعت مسألة طلاقه، حتى إنها عندما ذهبت إلى اسطنبول هذه الليلة، انفصلت غاضبة منها. رغم عدم وجود أي دور لها بطلاق الرجل لزوجته، فقد حمّلتها الذنب، واتهمها كل من صاحب البار ونسرين بأقذع التهم، وحطما كرامتها. وهي انتقمت

لهذا الأمر من مظهر، وسألته عن سبب قيامه بهذا وهي تبكي بمرارة. نعم، لم يكن من اجل أن تحل محل زوجته بعد أن يطلقها إذا كانت تحبه! ثم هل لابد من الزواج من أجل ممارسة الحب؟

عندما دخل مظهر إلى البار، وجد جالة ترتشف بيرتها شاردة.

- مرحباً!

ارتعبت المرأة الشابة. كيف لم تنتبه له؟ قالت:

- مرحباً.

- أنت شاردة كثيراً!

- كثيراً.

- ما هذا، أما زلنا متخاصمين؟

هزت جالة كتفها:

- لا أعرف.

- إذا كانت نيتك سيئة فلا تعذبي نفسك، لأذهب فوراً!

كانت عيناها تبرقان بذكاء. قالت:

- اذهب!

نهض مظهر. كاد يعتقد بجدية الأمر، ويذهب. قالت هذه المرة:

- اذهب إلى الخلوة، أنا قادمة.

اعتبر مظهر الأمر الذي أمرت به المرأة الشابة هبة من السماء، فذهب إلى الخلوة، وبدأ الانتظار. ولأن النادل رضا ذهب إلى المحطة لإيصال نسرين وناظان، فقد جاء نادل آخر:

- أمركم يا سيدي؟

في هذه الأثناء جاءت جالة أيضاً. جلست على كرسي سحبه النادل باحترام.

سأل مظهر:

- ماذا نشرب؟

قالت جالة:

- أنا أشرب بيرة. (للنادل) اجلب لي بيرتي والكأس من الخارج. (التفتت إلى مظهر) ماذا تريد أنت...

- أنا أيضاً أشرب بيرة. هات لي بيرة.

انسحب النادل.

وضع مظهر يد جالة الصغيرة البيضاء الناعمة بين راحتيه الخشنتين:

- احك، أمازلنا متخاصمين؟

لم تجب جالة فوراً. ركزت عينيها على منفضة السجائر التي على الطاولة، ونظرت شاردة. بعد فترة طويلة قالت:

- كان يجب ألا تطلق زوجتك.

غضب مظهر فجأة. دفع يد المرأة الشابة.

- هذه النغمة من جديد. سئمت! أنا لم أطلق زوجتي من أجلك، أو بسببك، أو بتشجيع منك. كانت شخصية لم أرتح لها، ولن أحبها أبداً. ثم إنني لست نادماً. أتعرفين ماذا قالت لحظة ذهابها؟

اختصرت جالة:

- لا أعرف يا مظهر. ولا أريد أن أعرف. وهذا لا يهمني أساساً. هذه مسألة بينك وبين زوجتك. ما يوترني هو تدخل الآخرين بنا. وإلا...

قال مظهر شارداً:

- ذهبت وكأنها مسرورة. تقول أمي...

قاطعته جالة:

- الغ كلام أمك هذا إكراماً لله!

- لماذا؟

- لماذا؟ وتسأل أيضاً، أليس كذلك؟ قلت لك من قبل إن أمك حماة بكل معنى الكلمة!

لم يقف مظهر عند هذا. لن يتعلم للتو أي بضاعة هي أمه. في لحظة صمت، تردد صوت قطار من بعيد. قال مظهر:

- تحركت ناظان.

هزت جالة رأسها:

- تحركا...

....

كانت مع نسرين في قاطرة الدرجة الثانية. وعلى الرغم من عدم وجود أدنى شك لديها بأنها ستعود بعد ثلاثة أشهر على الأكثر، إلا أنها لم تستطع الإمساك بنفسها، فبكت. لم تستطع نسيان انتزاع ابنها منها. كأنه عرف، ما جعله لا ينام إلا بصعوبة بالغة، وقبل أن يغط في النوم، قال: "أمي العزيزة، احذري أن تتركيني وتذهبي؟ إذا ذهبت، أبكي!"

تنهدت.

من يعلم كم سيحزن عندما يستيقظ صباحا، وكم سيبكي. يا ما ستتحمله حماتها المسكينة من مصاعب من أجل إسكاته؟

بعد أن كحت نسرين في منديلها الزهري مطولاً، قالت:

- أيذهب الإنسان من دون أخذ أغراضه الخاصة؟

نسيت ناظان ابنها للحظة، فأجابت:

ما ضرورة الأغراض إذا لم أكن مع زوجي وابني؟ ثم إن أغراضي تذكر زوجي بي!

- إن شاء الله. المهم أنك تصرفت بحكمة بخاتمك في اللحظة الأخيرة...

- نعم، ذكرى من زوجي.

- هذه حال إنسان. إذا تضايقت، تبيعينه...

كأن ناظان تمردت:

- البيع؟ الله لا يرينا. أموت ولا أبيعه.

- هكذا يعتقد الإنسان.

قبلت الخاتم:

- إنه ذكرى زوجي وابني...

أسندت نسرين رأسها إلى خشب نافذة القاطرة. تنظر إلى المرأة المسكينة التي مازالت لا تعلم بحقيقة الأمر، وتلعب بطرف منديلها الزهري. بحسب ما سمعته عدة مرات من النادل رضا، فإنهم لحسوها لحسة عسل، وسفروها على أن لا تعود أبداً. ومن يعلم، لعل جالة تأخذ مكانها بعد عدة أسابيع، أو عدة أشهر.

- بما أنكم لم تتراسلوا مع خالتكم منذ فترة طويلة، ماذا لو لم تجدوها؟

ناظان مندهشة:

- لماذا لا أجدها؟

- من يعلم؟ الله لا يريك، ولكن ماذا لو غيرت بيتها، أو ماتت؟

لم تفكر بهذا أبداً. حقاً، ماذا لو كان الأمر على هذا النحو؟ التفتت بعينيها مرعوبة:

- أتقولين إن هذا ممكن؟

ضحكت نسرين:

- آه يا أختي، أنت بريئة كالأطفال. أيسافر الإنسان من دون أن يكتب رسالة، ويعرف الوضع؟

- ....؟

- إذا لم تجدي خالتك، فهل عندك مكان تلجئين إليه؟

- لا.

- إذاً؟

كانت تنظر بعينين خاويتين، خاويتين من كل معنى. ماذا ستفعل؟ إلى أين ستذهب؟

قالت نسرين:

- لأعطيك عنواني. تأتين إلي. ألا يمكن هذا؟

- كم أنت طيبة...

- وإلا ستبقين في الوسط، وترذلين. لا تنسي أنك تذهبين إلى اسطنبول!

أخرجت من حقيبة يدها ورقة، وكتبت عنوانها. وقدمته لها.

- أشكرك.

- أقول لك مرة أخرى: إذا تضايقت، لا بد أن تأتي إلي، ممكن؟

- ممكن.

وضعت عنوان نسرين في حقيبتها.

لم يتحادثا مدة. أسندتا رأسيهما إلى خشب إطار نافذة القطار، تستمعان إلى صوت عجلات القطار على السكة. بعد ذلك غطتا في النوم. رأت ناظان ابنها في منامها. عانقها بقوة: "أمي العزيزة، احذري أن تتركيني وتذهبي؟ إذا ذهبت، أبكي!"

انزلق رأسها. استجمعت نفسها لحظة سقوطها، واستوت. انمحى كل شيء من رأسها. ابنها فقط. تفكر برأسه ذي الشعر الأشقر، وكانت دمعات فاترة تسيل من عينيه. إذا لم تؤمن بأنها لن تعود بعد عدة شهور، فهي لن تحتمل غياب ابنها. ستعود. ماذا قالت حماتها: "أنا أحبك أكثر من ابنتي. كيف أحتمل فراقك ثلاثة أشهر؟" ثم زوجها...ألم يقل: إذا تركت الولد، سيكون خيراً لها؟

شردت من جديد. بعد فترة طويلة، استيقظت على صوت صافرة القطار الطويلة. وصلوا إلى محطة.

١٣

استيـقظ خلدون أبكر من وقـتـه المعتـاد. تلفت فـيـمـا حوله بعـينيـه الناعـستين. كـانت جدته تصلي. بداية لم يفـهم شيـئـاً. بعد ذلك، تذكر فـجأة: ألم ينم مسـاء في حضن أمه في بيت الخالة السـيدة ناجيـة؟ نهض من السرير بهدوء. كانت السـيـدة هاجر تجلس على سجادتهـا، وتتـمـتم بأدعـية. لفت انتباههـا نهوض حفيـدها ببطء. بدأت تتلو دعاءها بـصوت مـرتفع. كـان خلدون يعـرف مـعنى هذا. اضطجع من جديد: حـسن، أين أمـه؟ هل هي عند الخـالة السـيـدة نـاجيـة؟ إذا كـانت عند الخـالة السـيـدة ناجية... نهض من جديد. كانت جدته قد أنهت دعاءها. سألته:

- لماذا لا تنام يا ابني؟

- أين أمي؟

وجدت السيدة هاجر أنه من غير المناسب أن تجيبه فوراً:

- نم، هيا نم!

- هل هي في بيت الخالة السيدة ناجية؟

- أقول لك نم!

جـاءت، وغطتـه. حسـنٌ، ولكن أين أمـه؟ إذا كـانت في بيت الخـالة السـيدة ناجيـة، فلماذا لا تخبره جدتـه بذلك؟ أم أنهـا ليـست هناك؟ رفع حافة اللحاف بهدوء. كانت جدته تجمع سجادتها. تلاقت عيناهما.

- لماذا لا تنام ولاه؟

- لست نعساناً.

- لماذا؟

- ....؟

ذهبت إلى جانب حفيدها، وجلست على حافة السرير. بدأت بمداعبة رأسه.

- نم يا صغيري، نم. لا خير لك في أمك. يا لما سيشتريه لك أبوك!

لماذا سيشتري؟ منذ فترة طويلة لم يشتر له شيئاً أبداً... وأمه. لماذا لا خير له في أمه؟ لئلا يريدها. كان يريد أمه.

- ... سيشتري لك لعباً من سيارات وقطارات. سيشتري لك كرة. أما رأيناها في السوق في أحد الأيام، وقلت لي: أتشتريها لي يا جدتي إذا لم أشاغب.

- أريد أمي!

- تنقلع عين أمك، أقول لك انسها!

لماذا؟ لماذا تنقلع عينها؟ أليس حراماً؟ إذا انقلعت عين أمه، فكيف ترى بعد ذلك؟ تذكر متسولاً أعمى رآه في الزقاق مساء: كان يمشي بصعوبة متوكئاً على عكازه، وألبسته متهرئة، ويجد الأبواب لمساً، ويتسول خبزاً بصوته المؤلم. إذا عميت أمه، فهل تتسول مثله؟

- ... لو أحبتك لما تركتك، وذهبت!

ارتعد كأن إبرة وخزته: هل تركته، وذهبت؟ كأن عاصفة هبت في وجهه. زُمت شفتاه. انكب على المخدة. بدأ يبكي، وكتفاه يهتزان.

- اصمت يا صغيري. اصمت، لا تبك! عندما ذهبت، قلت لها خذي معك خلدوناً فهو لا يتحمل من دونك، ولكنني لم أستطع إقناعها. قلت لها: ماذا أفعل بخلدون؟ قالت عندي أولاد آخرون هناك، وأنا لا أحب خلدوناً أبداً. اسكت يا صغيري! يا لما سيشتريه لك السيد والدك! سيشتري لك قطاراً، وسيارة، وكرة..

مظهر في الغرفة الأخرى. سمع كلام أمه الفظ. عاد متأخراً جداً من البار، ولم يدخل النوم إلى عينيه. مهما يكن فقد فكر في ناظان طوال الليل، في ناظان وابنه. لم يكن يعرف كيف سيتصرف من أجل إلهاء ابنه. نهض من السرير بمنامته القطنية. ارتدى سترته، ودخل إلى غرفة أمه. كان خلدون يبكي في حضن جدته وهو ينشق.

- يا ابني خلدون... تعال، تعال إلي يا صغيري، تعال يا ابني!

لم يهتم الولد. كان يبكي ويداه تعانقان جدته. مع أنه كان يخاف منها.

- تعال يا صغيري، تعال إلي!

غضب فجأة:

- أقول لك تعال ولاه!

التفت خلدون مرعوباً، ونظر إلى أبيه بعينيه الدامعتين. انتقل إلى أبيه بمساعدة جدته. هذه المرة، عانق أبيه. ضغط عينيه الدامعتين على كتف أبيه. ويل له من أبيه، وويل له من جدته. عندما يغمض عينيه، يرى أمه.

- ستشتري لخلدون ألعاباً كثيرة، أليس كذلك يا أباه؟

- طبعاً سأشتري.

- يريد كرة رأيناها ذات يوم في السوق. قال لي: إذا بقيت عاقلاً، فهل ستشتريها لي يا جدتي أليس كذلك؟

- وماذا أيضاً؟

- قطار.

- قطار أيضاً.

- سيارة؟

- وسيارة أيضاً، وكل ما يريد.

- يا! انظر كم هذا جيد. لو أن لي أباً محبباً هكذا، واشترى لي.

لم يكن خلدون يسمع. يتخيل أن أمه صارت متسولة عمياء. ماذا تفعل إذا اختطف الأولاد عكازها من يدها وهي تتجول في الأحياء متسولة؟ ألا تسقط على الأرض؟ من ينهضها عندما تسقط؟ إذا جرحت ركبتها عند سقوطها على بلاط الأرض، فهل يدهنونها باليود؟ ألا تتألم إذا دهنوها باليود؟

قالت السيدة هاجر:

- صارت أمك امرأة سيئة يا صغيري!

غضب مظهر لهذا الكلام:

- انظري يا أمي، لا أريد عبارات كهذه بعد الآن!

غضبت السيدة هاجر. أرادت تصحيح هذا بمحاولة الضحك.

تذكر أموراً غير واضحة في عقله لمربٍ غربي شهير كان قد قرأها في زمن ما.

- تلقين الولد أموراً كهذه تجعله تعيساً. لا أريد هذا مرة أخرى!

خرج مع ابنه من غرفة أمه. ولم يتركه في البيت بعد هذا اليوم. كان

يأخذه معه إلى المكتب، ويقدم له الكعك والشاي، ويشتري له أنواعاً من الشوكولا، والألعاب. وعندما يذهب إلى المحكمة، يطلب من الكاتب أن يهتم بالولد، وينبهه لهذا بشدة.

ترك الكاتب الثلاثيني المدرسة المتوسطة في الصف الثاني، وهو متزوج حديثاً. لم يكن لديه أولاد. وسرعان ما صار صديقاً لخلدون لأنه يحب الأولاد كثيراً. بعد ذهاب السيد مظهر، يغلقان باب المكتب، وينطلق خلدون باللعب! في إحدى المرات كسر زجاج نافذة المكتب. خاف كثيراً. ولكن الكاتب لم يخبر أبيه بل ادعى أنه هو من كسره بينما كان يمسحه. إثر هذا ارتبط خلدون كلياً بالكاتب.

لم يكن يفتقد أمه كثيراً في النهار. أما في المساء، عندما يدخل الفراش ليلاً مع جدته، ويسحب اللحاف فوقه، يغدو مع أمه وجهاً لوجه، ويتخيلها متسولة: ألبستها ممزقة، وقدماها حافيتان، وعكازها... الأولاد يتحلقون حولها، ويختطفون عكازها. بعد ذلك تسقط على الأرض، وتدمي ركبتها، ويُدهن المكان المجروح باليود. ولكنه لم يعرف من يدهنه. ذات ليلة رأى أمه في منامه. سألها من دهنها باليود. قالت: "جدتك!"ازداد كرهه لجدته منذ ذلك اليوم. ينام معها ليلاً، ويوقظها عندما يستيقظ للتبول، ولكن هذا كل شيء. ينهض على نحو مثابر، ويذهب إلى المطبخ مع جدته، ولا ينبس بكلمة أثناء ما كانت تغسل له وجهه ويديه، ولا ينزعج من إيلام جدته لأذنيه خاصة وهي تجفف وجهه. أما هي فتعزو هدوء الولد، وعدم انزعاجه لنفسها ونجاحها بتربية الأولاد. كانت تقول لناجية:

- منذ ذهبت تغيرت طباع الولد. الولد الذي كان لا يسمح بغسل يديه ووجهه، صار اليوم كالحرير. حتى في الليل ينهض وحده!

بقي خبر طلاق ناظان "ثلاثاً، وكل واحدة ثلاث" يقوم في المدينة ولا يقعد لأسابيع. أشفق الجميع على ناظان عدا أم مدير المالية. أما أسرة المدعي العام فقد حزنت كثيراً. رغم قول السيدة هاجر: "غدا ستشهد علي يداي. ليس عندي أي علم. ابني ضبطها تخيط سحراً في سترته، فطلقها. ولولا أنني خلصتها من بين يديه لقتلها. الله لا يرينا!" في أحد الأيام فتح المدعي العام موضوع فتاة البار، فأجابه مظهر:

- أمسكتم عليَّ قضية فتاة البار! إذا اضطرني الأمر أتزوجها. ما دخلكم؟

دهش المدعي العام المخضوضب الشارب:

- هل تتزوجها؟

- أتزوجها بالتأكيد. ماذا في الأمر؟

انتشرت هذه الكلمات تدريجياً... وذهبت إلى أذن السيدة هاجر.

سألت أم مدير المالية السيدة هاجر ذات يوم:

- هل صحيح ما سمعته؟

ثارت السيدة هاجر، وأجابت:

- أي زواج؟ من يروّج هذه العبارات حباً بالله؟ أنا لا علم لي بشيء!

كانت تقول الحقيقة. حاولت استدراج مظهر بالحديث، صدها بإجابته.

همست أم مدير المالية بأذن صديقتها إزاء أي احتمال:

- إذا حدث شيء كهذا، علي أن أقول لك هذا قبل فوات الأوان: لا تدعيهما يسكنان منفصلين! أتعرفين الحذر؟ ليكن بعلمك أن ابنك والله سيمد فراءه في بيت زوجته!

دخل هذا في عقلها. إذا عزم ابنها على هذا العمل فلن تقف في وجهه، وستغض الطرف عن إقامته في البيت. بعد هذا الله كريم.

نقلت كل ما لناظان إلى غرفتها بما في ذلك صندوقها المغطى بوبر الجمل بحجة أنها ترتب غرفة ابنها. لم يكن مظهر حتى منتبهاً لهذا. عندما رأى الصندوق في غرفتها، وسأل عنه، قالت:

- لا أريدك أن تحزن، لهذا جلبته يا ابني! ثم إن هذا من أجل الولد... مهما كان فهذه أغراض أمه. للدنيا ألف مصيبة ومصيبة.

لم يتوقف مظهر عند الصندوق. هو أصلاً لا يهتم بأمور كهذه. كان مرتاحاً لنسيان ابنه أمه واعتياده على الحياة الجديدة، هذا ما اعتقده. أخرج جالة من البار، وكأنه حبسها في البنسيون بشرط واحد، وهو أنها يمكن أن تخرج معه فقط. كانت المرأة الشابة مسرورة، كانت قد أوذيت من زوجها الأول، ولكن الرجال ليسوا كلهم مثله. هاهو رجل بكل معنى الكلمة ظهر أمامها. وسيم وقلبه مملوء بحبها وكريم. حتى صاحب البار قال لها:

- افتحي عينيك. اعملي على عقد قران!

لم يكن ثمة ضرورة لفتح العين، والمكر. إذا قالت: "نعم"، فالرجل سيعقد عليها، ويأخذها إلى بيته. كانت رافضة وغير رافضة. بالأحرى كانت تنتظر مرور الوقت قليلاً. وإلا فإنها بدأت أيضاً تتوق للحياة الجديدة. ستكون زوجة محام، وتعيش مع زوجها كما يحلو لها. كانت تتخيل: "نعطي خلدوناً لجدته، ونسكنهما في بيت مستقل! ليستأجر لهما بيتاً، ويفرشه. وحتى بخادمة. بالتأكيد. أحدهما أمه والآخر ابنه. لهما حق بمظهر بقدر ما لي..."

عندما جاء صاحب البار بفتيات جديدات من اسطنبول، وغدا البار أكثر حيوية مما مضى، نسي مظهر وجالة. ولكن أصدقاءهم المقربون لا ينسون، وخاصة الذين يحبون ناظان من القلب مثل أسرة المدعي العام فهم ينتظرون النتيجة بفضول. أما أم مدير المالية فتقول إن أم مظهر لا تهتم لفتاة البار، وحتى إذا تزوجها ابنها فلن ترضى بأن تسكن وحدها، وأن السيدة هاجر في النهاية ستدبر له مقلباً. وعندما انتشر هذا الخبر أيضاً، لف الجو فضولاً: "لو يتزوج مظهر فتاة البار، لنر. هل تستطيع أن تفعل هذه المرأة بها ما فعلته بناظان؟"

بالنسبة إلى البعض فإن لفتاة البار أنياب. ولن تسمح لهاجر، بل لخمس مثلها أن يدوس لها على طرف. أما بالنسبة إلى البعض الآخر، فهي لم تكسب صيتها من لا شيء، ولن تتمكن من فتاة البار فقط، بل من المدينة كلها والله أعلم. مهما يكن، فقد نظر إلى فتاة البار بعين السوء، ولم يهضم زواج رجل "صاحب وضع اجتماعي" مثل مظهر من امرأة كهذه. أسرة المدعي العام، قطعت علاقتها منذ الآن مع أسرة السيد مظهر.

هذا ما كان يدفع جالة للتفكير. وإلا فإن إشارة منها تجعل مظهر يتحرك، ويعقد قرانها، وتذهب إلى الدار، وتسكن. ولكنها لا تريد، كانت تنتظر أن تبرد الأجواء.

سألت ذات يوم:

- ألا تستطيع نقل عملك إلى مدينة كبيرة؟

شك مظهر:

- لماذا تسألين؟

- لاشيء...

لم يجب مظهر. ما العائق إذا أراد؟ ليس ثمة ما لا يتحمله من أجل جالة مع أنه عُرف جيداً هنا، ووثُق به.

- أ هذه ضرورة لا بد منها؟

- ليست ضرورة.

- ماذا إذاً؟

- أعمالك هنا جيدة جداً، أليس كذلك؟

- جداً. تعرفين، إنها مدينة غنية. وكما في كل مدينة غنية، يحتاج أرباب العمل إلى محام. أما بالنسبة إلي...

- أعرف، محام جيد.

- ولكنك إذا رأيت أنه لابد من ذهابنا...

- ....؟

- نذهب. أنا أتفهم قلقك. أنت على حق. أنت على حق، ولكنك إذا لم تصغِ لقيل وقال، حتى إذا لم تحك مع أحد، ينتهي الأمر!

- أ هذا ممكن؟

- لم لا؟ على الأقل تتحدثين مع الذين يريدون الحديث معك وتلتقين بهم، ولا تبالين لمن لا يريدون. مع الزمن يذوب الجليد، وتحدث تغييرات في العلاقات. أليس كذلك؟

كانت تتفهم عدم رغبة مظهر بمغادرة هذه المدينة. بحسب ما سمعته من المحيط، وخصوصاً مما حكاه صاحب البار، فإنه محامي من الدرجة الأولى في المدينة. خاصة أنه ينتزع ما يوكل إليه في ميدان الحقوق. ومنذ فترة قريبة توكّل عن دعوى طالت كحكاية الأفعى. كانت دعوى

إرث شهيرة، الخصم فيها صناعي شهير جداً، عنده أراض تمتد على مدى البصر، ويلعب بالملايين، ولكنه إذا خسر الدعوى فسيضطر لتقديم أملاكه للخصم، وإذا لم تكن كلها، فثلاثة أرباعها. سيقسم الملك. ولولا سيطرته على المحامين قبل مظهر، وسرقته أوراقاً من ملفات الدعوى بدفع أموال طائلة لكتاب المحكمة، واستئجاره الشهود وإغرائهم بالنقود وتضليلهم، لانتهت الدعوى ضده منذ زمن! والآن ظهر أمامه مظهر. اعتقد أنه سيصطاده مثل الآخرين الذين سبقوه، فأدخل بينهما رجالاً، ولكن هذا لم ينفع، فمظهر أدار ظهره للمبالغ الكبيرة مما جعل الرجل يفكر بعمق.

كانت جالة تعرف هذا كله. سمعت به. وغدت معجبة باستقامة الرجل الذي أحبته. ولعل هذا الجزء ربطها بمظهر أيضاً. جاءت إلى المكتب ذات يوم فقابلت خلدوناً. كان مظهر في المحكمة. والكاتب ذهب من أجل عمل ما، وسيعود. نظر خلدون إلى هذه المرأة الأنيقة الجميلة بإعجاب. يا لجمال هذه الخالة! داعبت جالة خد الولد الخجول، وسألته:

- السيد والدك غير موجود يا ابني؟

لم يستغرب خلدون أبداً، وقال منطلقاً:

- غير موجود يا سيدتي.

- ترى أين ذهب ، هل تعرف؟

- أعرف. إلى المحكمة!

- كم أنت ذكي؟

أطرق خلدون برأسه محمراً حتى شحمتي أذنيه. سألته جالة عن اسمه متجاهلة. رفع خلدون عينيه عن الأرض، وقال مباهياً:

- خلدون!

- كم عمرك؟

- لا أعرف...

- لماذا؟

- أمي تعرف، أنا لا أعرف.

شعرت جالة بشفقة مفاجئة نحو الولد. سألته من أجل التدقيق بالأمر:

- اسأل أمك، واعرف. ألا يعرف الإنسان عمره؟

ارتفعت عينا خلدون الشهلاوان، وتقطب وجهه:

- ليس لي أم!

- لماذا؟

- أمي تركتني وذهبت. أمي صارت سيئة...

خطرت السيدة هاجر ببال جالة. لابد أنها هي التي لقنته هذا. أخذته إلى حضنها. كان الولد يبكي. ضمته إلى صدرها العامر وسألته:

- جدتك قالت لك هذا؟

خلدون مستغرباً:

- من أين تعرفين؟

لم تجب جالة. داعبت رأسه مطولاً.

فتحت موضوع خلدون مع مظهر في تلك الليلة، حتى إنها تشاجرت معه. وأضافت أنها ستتشاجر معها بقوة إذا سكنت معها تحت سقف واحد يوماً ما.

لم يتوقف مظهر عند الأمر. ضم المرأة الشابة بين ذراعيه، وقال لها:

- سنجد حلاً للأمر يا روحي.

١٤

بينما كانت صافرة السادسة والنصف صباحاً تنطلق في مصنع جبالي للتبغ من بعيد، كانت خالة ناظان الأم علية تجهز نفسها للعمل. نظرت العجوز البالغة الخامسة والستين من عمرها، والذي خرج من حنكها وبراً أبيض، ذات الوجه المجعد، إلى ابنة أختها النائمة على فراش مُدّد على الأرض. ذهبت عيناها إلى الخاتم الثمين في إصبعها. كان لائقاً جداً على يدها الصغيرة المكتنزة البيضاء، ولكن... كان زملاؤها في العمل ينادونها:

- تأخرنا أيتها الأم علية، أسرعي!

ارتدت معطفها ذي القبعة، وخرجت من الغرفة بهدوء. كانت قد اهترأت أخشاب الدار الخشبية المؤلفة من طابقين، واستؤجرت غرفها عاملات نسيج وجوارب وتريكو، وهي ثماني غرف، في كل طابق أربعة، وانحنى البناء إلى الأمام. ولأن البيت لم يشهد أي صيانة طوال سنوات، فكان آيلاً للسقوط. الأمر سينتهي بزلزال خفيف، أو عاصفة قوية. كان الذين في داخله يعرفون هذا، ولكنهم إلى أين سينتقلون؟ قالت فردوس عاملة القمصان الداخلية:

- بردت من العمل منذ أن جاءت ابنة أختك.

الأخريات كن بالقناعة ذاتها:

- بردت، والله!

- هل جلبت ابنة أختك نقوداً كثيرة؟

- إنها زوجة محام كبير، أيمكن ألا تجلب؟

- يا أم علية؟ لماذا لم تسأل عنك طوال هذه السنين؟

كان الجو داكناً جداً، وثمة برد حاد. لم تكن الأم علية منتبهة لشيء، ولا حتى للأسئلة المطروحة. كان عقلها وفكرها عند الخاتم الذي في إصبع ابنة أختها. إذا خابت آمالها، ولم يأخذها زوجها في الربيع، ستعمل كل ما بوسعها لتجعلها تبيعه. يدفعون فيه مال الدنيا. يجب أن يباع، ويعمل شيء بثمنه بدل عدم نفعه في إصبعها. أسيّء إذا اشترتا بثمنه عدة آلات لصنع الجوارب؟لم يبق في فمها سن واحدة من التمرغ على أبواب الناس. إنها أصلاً أقسمت ألا تجعلها تعتب بيتها لولا هذا الخاتم. الجيران الذين حفظوا هذا غيباً لكثرة ما كررته الأم علية دهشوا من ظهور ناظان فجأة ذات يوم، وانتظروا بفضول ما ستفعله. ولأنهم يعرفون أدعيتها ضد ابنة اختها، انتظروا أن تصدها المرأة بشدة، ولكنهم لم يجدوا ما أملوه. فرغم مقابلة العجوز لابنة أختها ببرود، إلا أن الجليد سرعان ما ذاب بينهما، وصفحت عنها. حسنٌ، ولكن ما سبب هذا؟

أعادت أم فردوس:

- لماذا لم تتصل بك طيلة هذه السنين أيتها الأم عليه؟

في عقل الأم علية بيع الخاتم الثمين، وشراء عدة آلات خياطة بثمنه، وكسب كثير من النقود، والانتقال إلى بيت أفضل... قالت:

- ماذا تفعل؟ المنحوسة بين أيدي الناس. ألا ترون؟ طلقوها، وطردوها، ولم يعطوها ولا إبرة غير حقيبتها.

قالت عاملة الجوارب زليخة:

- الله لا يشبعها من غبائها. أطلّق ثلاثاً، وكل طلقة ثلاث، وجاءت بفستانها؟

- لا أريد أن أحكي، الله كبير...

- لا تحكي بهذا الشكل. صوت الطبل البعيد يطرب.

- الله لا يجعل السيئين أقربائنا فقط، بل جيراننا أيضاً!

- صحيح!

كنَّ على وشك العبور من الرصيف المحاذي لجدار الجامعة الجانبي إلى البيازيد. توقفوا بسبب ريح عاصف، فقد تبعثرت أغطية رؤوسهن ومعاطفهن ذوات القبعات. كن معتادات على هذا. لملمن أنفسهن، وتابعن. عبرن ساحة البيازيد بسرعة، وانطلقن إلى الشارع الرئيس المؤدي إلى "باب السوق".

- يعني أن حماتها طيبة جداً؟

قالت الأم علية:

- بالنسبة إليها، فإنها حزنت كثيراً لهذا الأمر. ولكن ليس كذلك. المرأة ماكرة ابنة ماكرين، وواحدة تطير العقل. يبدو لي هذا. إذا أخذنا ما حكته بعين الاعتبار، فقد كانت تحفر لها من جهة، وتقول لها يا ابنتي، يا صغيرتي من جهة أخرى. وكان يجن جنونها عندما تقول لها يا أمي. ماذا يفهم من هذا؟ احتيال المرأة، أليس كذلك؟

- نعم، هذا واضح تماماً.

- قلت لها هذا، ولكنها أشفقت عليها، وتقول أن زوجها قال لها إذا تركت ابنك هنا، سيكون هذا خيراً له.

- لماذا؟

- قالوا إذا بقي الولد هناك، فسيفكر فيها، ولا يحتمل غيابها، ويعيده من جديد.

- آه، مازالت تأمل بذهابها؟

- كيف تذهب يا أختي؟ تقولون إن الرجل طلقها ثلاثاً، وكل واحدة ثلاث؟

- أمن الممكن أن يعقد عليها من دون الرجوع إلى ما تقوله الشريعة..؟

- أممكن؟

- ممكن، ممكن. وهل رجال هذه الأيام رجالاً إكراماً لله؟ أشباه رجال. بالنسبة لهم لتكن امرأة ولتكن مرت من تحت أربعين رجلاً.

- صحيح. يا أم علية، يخشى أن يكون زوج السيدة ناظان قد أحب واحدة أخرى؟

- ظهر كلام كهذا. يقولون إنه يعاشر فتاة بار، ولكنها لا تضع هذا الاحتمال. تقول إنه لا يتنازل لهذا. خطيئته برقبته. أليس رجلاً؟ يقولون الأفضل أبي، ولكنني رأيته مع أمي...

ارتفعت القهقهات. عبرن إلى باب السوق. قبل أن يصلن إلى "تشمبرلي طاش" انعطفن يساراً إلى زقاق ضيق. يتدفق الرجال والنساء والأولاد والعمال المبكرين على يمين الزقاق ويساره كنهر يفيض. في الساعة السابعة إلا خمس دقائق دخلن إلى ورشة الجوارب. كانت الأم علية وأم فردوس وعدة عجائز من الحي يخطن مقدمات الجوارب في غرفة صغيرة إلى يسار قسم آلات الجوارب. اتخذن أمكنتهن كما في كل يوم، وبدأن العمل.

كانت الأم علية تقضي وقتها إما بالدعاء على ابنة أختها وإما بالسخرية بشكل لا يخطر ببال من النساء هناك، والضحك، ولكنها شاردة من جديد، وهي تفكر. لم تكن ترى فيما حولها، ولا تريد أن تتحدث مع أحد. مع أنها كانت تهتم بكل من في ورشة الجوارب، وخاصة العشاق، تقوم بالوساطة أحياناً... قالت أم فردوس:

- ليقول من يقول ما يشاء، أنا غاضبة من ابنة أختك، والسلام!

الأم علية شاردة:

- لماذا؟

- وهل في هذا لماذا يا أختي؟ أليس لها دخل تأكل منه، ووقع عليك إطعامها؟

- لا يا روحي. في عبها بضعة قروش ولله الشكر.

- حسنٌ، بماذا تفكرين؟

تنهدت، وضحكت، بعد ذلك اتخذت موقف الجد!

- لِمَ أخفي عن العبد ما يعرفه المعبود؟ أفكر بالخاتم الذي بإصبعها!

بدأت عيون العجائز الأربع تبرق.

- كيف؟

- أقول: لنبعه، ونشتري آلة جوارب!

ازداد بريق عيونهن:

- حقاً!

- هذا يعني أنه خاتم ثمين جداً!

- إنه آيل من السلاطين... لو بعناه، واستأجرنا مكاناً في هذه الجوار، وألقينا عدة آلات، آآآه!

هذا ما تمناه الكل على مدى السنين. بدأ حديث ممتع فوراً.

- حسن، ماذا تنتظر؟ لماذا لا تبيعه؟

- تنتظر دعوة زوجها!

- لا أدري إن كنت محقة؟ قالت لها حماتها: لا تقلقي أبداً، مهما طال الأمر فهو للربيع، تأتين في الربيع.

- كذب، والله كذب...

- إنه ليس كذباً، إنه مكر. إنه ملعوب لسلبها ابنها، وطردها ببساطة!

- أنا أيضاً قلت لها. أقول إنه ملعوب لطردها بسهولة. كم سيكون هذا جيداً لو صدقتني، وباعت الخاتم.

- ألا تقولين لها؟

- ذكرت لها هذا مرة، فغضبت. تقول إنه ذكرى من زوجها، ويذكرها بابنها. مجنونة. مع أنني لو كنت مكانها...

- تبيعينه، وتشترين ثلاث أو أربع آلات...

- وأكسب نقوداً ترن رناً!

- والله كنت أطلع بغرفتين ومطبخ قبل مرور سنة!

- لو كنت مكانك، لما فعلت هذا. ماذا كنت سأعمل، أتعرفين؟

- ماذا كنت تعملين؟

- بداية أشتري مقسماً، وأبني ورشة لآلاتي، وأبني بيتي فوق مكان عملي!

- فعلاً يا، إنها فكرة جيدة.

- ثم لماذا أبني غرفتين ومطبخ؟ ثلاث غرف، ومطبخ، وحمام...

كانت الأم علية تستمع فقط. إذا لم توافق ابنة أختها على هذا العمل فستكون شريكة بأجرة البيت. وإذا لم يكن هذا، فلتشارك بالطعام والشراب! فجأة خطر ببالها أمر آخر: بما أنها لم تبع خاتمها، فهل لديها نقود؟ لعل لديها. إذا لم تكن موجودة فلماذا تنتظر؟ ثم إنها تذهب إلى صديقة لها اسمها نسرين كل عدة أيام، وتبقى عندها لتناول الطعام. من نسرين هذه؟ تقول إنها صديقة طيبة القلب، مريضة، ولكن ما أصل هذا الأمر، وفصله؟ دبٌّ أم ذئب؟ بما أنها غير متزوجة، فبماذا تعيش، وكيف؟

أصغت لما يحكى: انتقلت النساء إلى حديث تحديد من سيعمل على آلات الأم علية. سألوها:

- من ستشغلين على الآلات يا أم علية؟

قالت الأم علية بجدية:

- أنتم، كلكم. بما أنكم موجودون فلن أذهب لأجلب عاملات من الخارج!

- وستزيدين لنا أجورنا طبعاً؟

- طبعاً سأزيدها. ليرينا الله ذلك اليوم أولاً!

قالت النساء كلهن، ومن الأطراف كلها:

- افعلي ما تفعلين، وحلي هذا الأمر يا أم علية. أنقذينا، وأنقذي نفسك أيضاً!

خطرت ناظان ببال الأم علية. لكي يُعبر الجسر يجب أن يقال للدب يا خالي، وأن تسرح كل لحية بمشطها المناسب. ماذا سينقص منها إذا سلكت معها بالسياسة؟ لو اشترت نصف كيلوغرام لحم موزات أو حلاوة

بالفستق من عند الحاج بكر عند الانصراف... اقتنعت بهذا الأمر. كانت ناظان تحب حلاوة الحاج بكر بالفستق كثيراً. مدت يدها إلى جعبتها. لن تكفيها نقودها. التفتت إلى أم فردوس:

- اعطني ليرة ديناً حتى نهاية الأسبوع!

- ماذا ستفعلين؟

- تلزمني.

- لماذا تلزمك؟

- ناظاني تحب الحلاوة الطحينية بالفستق...

....

استيقظت ناظان على نقر النافذة المجاورة لها. نهضت من فراشها: كانت نسرين. هرعت، وفتحت الباب:

- تفضلي، لا تؤاخذيني. نمت متأخرة كثيراً مساء...

دخلت نسرين. بعد أن سعلت طويلاً بمنديلها الزهري، قالت:

- سيمحقني هذا السعال.

- ماذا حدث؟ أما كان السيد سامي سيأخذك إلى الطبيب؟

تنهدت نسرين:

- يبعث الله الخير الذي سيأتي من السيد سامي يا أختي. معه نقود في هذه الأيام، ونقود كثيرة. لهذا السبب فإن أنفه مرفوع! ماذا فعلت أنت؟

تنهدت ناظان، وشردت عيناها:

- ماذا أفعل يا أختي؟ إنهم لا يتركون الإنسان بحاله!

- أهي خالتك؟

- لا تقـول إلا إنهم طردوك بمكر، وحـاكـوا لـك ملعـوبـاً من أجل أن يأخــذوا طفلك منك. اقطعي أملك من ذاك الرجل، وانسي الولد ومـا ولد... (بدأت تنشج.) كيف أنسى صغـيري يا نسرين؟ أهذا ممكن؟ أهو بيدي؟ لا أفكر بغيره في الليل حتى الصباح. كيف أنساه؟ أهذا سهل؟ لا أسـتطيع نسـيـان أخـذه من حـضني تلك الليلة في بيت ناجيـة، لا أستطيع، كأنه شعر بهذا بقلبه، فقال: "لا تتركيني، وتذهبي يا أمي. إذا تركتني، فسأبكي!" من يعلم كيف بكى، وكيف حزن صغيري!

قالت نسرين بعد أن سعلت مطولاً:

- انهضي، وحضري نفسك لنذهب إلى الطبيب.

كان هذا دافعاً لسرور ناظان البـالغ المفاجئ. عندما تتنـزه، وتتجول، تتذكر ابنها أقل بكثير، وتسلي نفسها. حضرا نفسيهما بسرعة، وخرجا. السماء تطبق تدريجياً، والجو يزداد برودة. قالت نسرين:

- إذا لم يهطل الثلج اليوم، فسيهطل في الليل!

- سيهطل. أنا أحب الثلج، ليهطل، ولكن...

- ولكن ستهـب الرياح الجنوبيـة الشرقـيـة، ويتحول الوسط إلى بحر طين، أليس كذلك؟

ركبـتا الترامواي في البيـازيد. كانتـا ذاهبتـان إلى عيـادة أخصـائي بمرض السل. عـرضت ناظان فكرة النـزول في تبة باشي. لسبب مـا فـهي ترغب بالتجول اليوم. قالت نسرين:

- ارفعي منديل وجهك.

بعد تردد صـغـير، رفعـت ناظان منديلهـا. دبت الحمرة في خديهـا. كـانت تريد أن تنشـر مـعطفـهـا بسـرعـة تواقـة إلى نسـرين الماشيـة نطاً

بجانبها. ولقد سُمع بأن مصطفى كمال باشا أوصى بعض المعلمات بكشف رؤوسهن في إحدى الحفلات التنكرية. وإذا كان الأمر قد استُهجن تماماً في البداية، فقد سُمع بأن بعض المعلمات المتحررات فكرياً، وبعض الموظفات التزمن بالتوصية في ما بعد.

عندما خرجنا إلى شارع الاستقلال، قلت الأغطية كثيراً. قالت ناظان:

- انظري إلى هؤلاء يا نسرين. يا لجمالهن!

- طبعاً جميلات. طالما أنك معجبة بهن، فلماذا لا تفعلين مثلهن؟

- ماذا أفعل يا أختي؟ تعرفين أننا نسكن في السليمانية. الحي معروف. إنه متعصب أكثر من اللازم. بعد ذلك فإن الإنسان...

توقفت نسرين:

- أتعرفين بماذا كنت أفكر مساء أمس؟

- بماذا؟

- أريد أن أخرج من بيت حي الأقسراي. إنه بعيد عن البار. ثم إن الأقسراي لا تقل عن السليمانية في موضوع التعصب. أريد أن أستأجر بنسيوناً في طرلاباشي، وأنتقل إليه. فكرت بأن تأتي معي، ما قولك بهذا؟

لم تجب ناظان. وهذا لن يكون سيئاً ولكن... ماذا لو علم بهذا زوجها؟ لم يكن حي طرلاباشي يُعد جيداً. بما أنها ستعود في الربيع...

- وأكون قريبة من سامي. حسن، ولكن لا أمل لي به. إنه يسأل عني عندما يفلس. وإلا...

دخلنا إلى عيادة الطبيب. كان ثمة مرضى بالانتظار. بعد ربع ساعة، جاء سامي الطويل القامة، والعريض الكتفين، والأسمر إلى المكان

نفسه. كان مرتدياً معطفاً بنياً جميلاً، وفي قدميه حذاء لماعاً... أمال طربوشه إلى حاجبه الأيسر بشكل شبق... جاء إلى جانبهما. صافح ناظان وعينيه عليها. تفوح من أنفاسه رائحة كحول. وبعد أن تذرع بعدد من الذرائع لعدم تعريجه على نسرين، التفت إلى ناظان:

- كيف حالكم يا سيدتي؟

لم تُعجب ناظان بهذا الرجل منذ أن رأته في المحطة يوم وصولهما. بعد ذلك بدأت تشعر بنياته السيئة مع ازدياد تظاهره بمظهر التحبب، وصارت تخشاه.

- أشكركم يا سيدي.

- هل تتلقون رسائل من سيدكم؟

التفتت إليه نسرين بحدة:

- لا تبدأ الهراء. كم مرة سأقول لك إنهما انفصلا؟

- ها، عفواً. أنسى في كل مرة. ابنكم؟ ماذا عن ابنكم؟ مازلتم ترونه في أحلامكم؟

- أيمكن ألا أراه يا سيدي؟

غضبت نسرين مجدداً من سامي الذي لا يغيب عنها نظره الذي يكاد أن يلتهمها. لا ذنب لناظان. كانت تعرف أي بضاعة سامي هذا. إذا كان في جيبه نقود، وعلى ظهره ألبسة جميلة، فإن عروق تزلفه للنساء تنط، ويغدو بتلك الظرافة كلها أمام النساء الجميلات، أما بعد ذلك فيبدي شططاً.

عندما جاء دورها بالمعاينة، لكزت ناظان، ودخلتا معاً إلى غرفة معاينة الطبيب.

فهم سامي مناورة خليلته. فقد قطبت حاجبيها الرفيعين الأسودين الفاحمين. قال لنفسه وهو ينظر إليها من الخلف: "الله يبعث لك ما يبعثه يا مسلولة! لا أكون سامي إذا..." .

لفتت ناظان نظره منذ أن جاءت إلى اسطنبول مع نسرين، وتقابلا في محطة حيدر باشا للقطارات، ولكن... لم يستطع البقاء معها وحده في أي لحظة نتيجة حيطة نسرين. إذا بقي معها وحده سيجد طريقة يعرف بها أين تسكن المرأة الشابة، بعد ذلك سيضع يده عليها بسهولة.

خرجتا من عند الطبيب بعد عشرين دقيقة. كانت نسرين تتحدث منفعلة بشأن تشخيص الطبيب وهي تهز وصفته بيدها. كان سامي لا يسمع. صورة الأشعة، وتغيير الجو، وهذا وذاك... لا تعني له شيئاً. لتمت إن شاءت!

خرجوا إلى شارع الاستقلال. نظر سامي إلى ساعة معصمه:

- ماذا بنيتكم أن تفعلوا ؟

لكزت ناظان نسرينَ، وقالت:

- لو نعود إلى البيت!

عارض سامي:

- أممكن هذا ؟ وهل تعتقدين أنني سأترككما بسهولة؟

قالت نسرين:

- ماذا سيحدث؟

- لندخل إلى مطعم، ونتناول طعاماً!

كأن ناظان على شوك. لم تكن معتادة على أمور من هذا النوع أبداً. الذهاب إلى مطعم مع رجل غريب! ألا يعتبر هذا إهانة لزوجها ؟

ولكنهما في الحقيقة انفصلا، ولم يبق بينهما أي علاقة، ولكن ماذا لو التقيا من جديد، وتزوجا مرة أخرى، وبدأا بالعيش معاً مرة أخرى؟ انجرت مرة أخرى مع نسرين. دخلوا إلى أحد المطاعم في زقاق بورصة. لم يكن ثمة أحد لأن الوقت مازال مبكراً. انتقلوا إلى طاولة فارغة، وجلسوا.

كانت ناظان ترمق بعينيها المشاكستين الرجل الأسمر دائماً، وكلما رمقته تقابل نظراته، وتحمر حتى شحمتي أذنيها.

نسرين منتبهة إلى هذا. تعرف أن سامي ينظر إلى المرأة الشابة وكأنه سيأكلها، ولا تُظهر شيئاً. ستلتقي به في ما بعد، في البيت. حسن، ولكنه لا يمر على البيت أبداً. سألته:

- أريد أن أنتقل إلى طرلاباشي يا سامي، فما قولك؟

هز سامي كتفه. وإذا كانت نسرين قد فهمت هذا فلم تبد شيئاً.

جاء بالطعام وراحوا يأكلون. كان سامي يشرب عرقاً. ذات لحظة وجد الفرصة، وسأل ناظان:

- ألا ترغب السيدة المحترمة احتساء كأسٍ من البيرة؟

طار صواب ناظان.

- لا.

بعد خروجهما من المطعم، انفصل سامي عنهما بذريعة عمل. اختلط بالزحام بسرعة، وبدأ بملاحقتهما من بعيد. وصلت الامرأتان إلى موقف جامع الآغا وهما تستعرضان واجهات المحلات الكبيرة. وقف سامي إلى الأمام قليلاً متظاهراً بأنه يتفرج على واجهة أحد المحلات الكبيرة، وينظر بطرف عينه إلى المرأتين.

كانتا لا علم لهما بهذه المراقبة، تنتظران الترامواي، وعندما جاء ترامواي فاتح- حربية. ركبتا. كان سامي يعرف بأن ناظان تسكن في السليمانية، ولكنه لا يعرف عنوان بيتها. لم يركب الترامواي. كيفما كان فستنزلان في بيازيد. وسيعرف على الأقل المكان الذي تسكنه المرأة حتى لو كانت نسرين ستوصلها إلى بيتها. كان منتهياً. راح يعانق من الآن المرأة الشابة المطيعة مئة بالمئة، ويتخيل كنوزها الأنثوية، ويخطط للفوز بها مهما كلف الأمر.

سار نحو النفق بخطوات حثيثة.

كان واثقاً بنفسه. ليس ثمة سبب يحول دون استمالتها إليه. كان وسيماً معه نقود. أما هي فامرأة ليس إلا، بيد أنها امرأة شابة انفصلت عن زوجها حديثاً. لا مشكلة إذا جمعنا كل هذه الأمور إحداها مع الأخرى.

نزل من قاطرة النفق في قرة كوي. لم يكن يعطي أي احتمال لعبور الترامواي بسهولة من شارع "فويفودا". قفز إلى ترامواي خاو تماماً قادم من بشكطاش باتجاه آقسراي، ونزل في بيازيد. لا يمكن لهما أن تكونا قد وصلتا قبله، وذهبتا إلى البيت. بدأ ينتظر في الموقف.

نزلتا من ترامواي حربية- الفاتح القادم بعد عشرين دقيقة. انعطفتا نحو الزقاق المجاور للجامعة، وبدأتا بالتقدم بخطوات حثيثة. لو أنهما لم يصادفا سامي، ويعكر صفوهما، كانتا ستبقيان مدة أطول في بيه أوغلو، وتتنزهان جيداً. قالت نسرين:

- لا أحب طبعه هذا أبداً. ما أن يرى امرأة جميلة!

- حسنٌ، ولكن يا حلوتي هل ينظر الإنسان بسوء إلى صديقة حبيبته؟

- أنا أغضب من طبعه هذا أساساً!

كان سامي يلحق بهما من بعيد جداً. في هذه الأثناء زاد ارتباكه انعطاف الامرأتين من أحد الأزقة، وضياعهما عن عينيه. أطلق خطواته، وبدأ يركض. وقف عند أول الزقاق الذي انعطفتا إليه. لحق بهما في الوقت المناسب. لأن الامرأتين انعطفتا نحو زقاق آخر. وبعد أن انعطفتا من عدة أزقة عابرتان بيوتاً متصدعة، وبعض الأبنية الشبيهة بالمساجد، رآهما تدخلان بيتاً أخشابه خربة كلها، مائلاً إلى الأمام. سجّل اسم الزقاق، ورقم البيت في دفتر جيب.

خلعت ناظان غطاءها، وهي تلح على نسرين لتجلس.

- اجلسي ليشرب كل منا فنجان قهوة.

- لا يا حلوتي، أنا متضايقة.

- رحماك أنت أيضاً. وهل كل ما يقوله الأطباء صحيح؟

- صحيح يا أختي، صحيح. سألني عما إذا كانت ترتفع حرارتي مساء، وأتعرق؟ لماذا؟ لأنها أعراض السل. (أدمعت عيناها) هذا الأمر موجود لدي. بعد ذلك يقول تغيير الجو، والراحة المطلقة. أي تغيير للجو؟ وأي راحة مطلقة؟ إذا لم أعمل أسبوعاً، فأنا جائعة في الأسبوع التالي!

كاد قلب ناظان ينفطر، وترغب باحتضانها، وتقبيلها من خديها مطولاً، ولكنها لم تكن معتادة على هذا. لم تفعل هذا مع زوجها في الوقت المناسب، لهذا السبب منحت الرجل إحساساً "بالبرودة" نحوها.

بعد ذهاب نسرين، اضطجعت على جنبها على مقعد عريض أمام النافذة. أسندت جبهتها إلى الزجاج البارد، وبدأت تنظر إلى الزقاق

القفر عبر ثقوب قفص النافذة. الجو يظلم تدريجياً، والسماء تتدلى هابطة. ارتجفت فجأة، وبشكل متتال. نهضت، ووضعت عليها كنزة صوفية مفتوحة من الأمام. ترى هل يوجد فحم؟ نظرت، فلم تجد. هل تذهب إلى بائع الفحم الواقع عند أول الزقاق؟

عندما وضعت غطائها عليها، وخرجت من الباب، قابلت سامي. دهشت. كان الرجل زير النساء قد اندس قربها بطربوشه المائل إلى حاجبه الأيسر ضاحكاً. وبدأ الرجل قائلاً:

- عفوك يا سيدة ناظان، هل نسرين موجودة هنا؟

كان قد عرف أنها غير موجودة إذ رآها ذاهبة قبل قليل بخطوات حثيثة وهي شاردة. قالت ناظان منفعلة:

- ذهبت؟

كانت ترتجف وكأنها قد قبض عليها متلبسة بالذنب.

- كنت أريد معرفة التشخيص الذي وضعه الطبيب لها...

- لماذا لم تسألوها هي؟

ضحك سامي مدركاً أنه قبض عليه.

- لم أجد الرغبة بذلك.

ظهرت مجموعة ظلال ذوات أغطية تغذ السير في الزقاق القفر. كانت ناظان تعرف أن هؤلاء جيرانها النمامات. كن قد فتحن أعينهن عشرة على عشرة لجعل البرغوث جملاً، ومضاعفة الواحد ألفاً. كانت تعرف هذا.

- عن إذنكم كنت سأذهب لشراء الفحم...

- فحم؟ وأنتم؟ يا للأسف، أسفاه عليك!

لم تجبه ناظان.

- سيدة محترمة رائعة مثلك تذهب حاملة سلة لشراء فحم؟ بعد ذلك فإن هذا الحي الذي تسكنون فيه، وهذا البيت المهلهل...

ازداد ارتجاف ناظان. إنها لا تستطيع الذهاب، ولا تريد البقاء. في داخلها، وأعماق داخلها يوجد زوجها، وولدها، وعلى السطح أكثر، نسرين، وخالتها، وجيرانها... عدا نسرين! من يعلم كم ستحزن إذا وصل هذا إلى أذن المرأة المريضة المسكينة، وكيف ستعاني من القهر.

فجأة جعلها احتمال آخر تضطرب أكثر: ماذا لو وصل الأمر إلى أذن نسرين، وسألت سامي، وقال سامي: "ماذا أفعل؟ ناظان دعتني إلى بيتها!" ترنحت. أسندت ظهرها إلى الباب. قالت:

- يا سيد سامي، احذر من أن تسمع نسرين بمجيئك إلى هنا، وحديثك معي، أممكن هذا؟

فسّر سامي هذا بشكل آخر، وقال:

- أرجوك. وهل هناك إمكانية لمعرفة الآخرين العلاقة بيننا؟

تخبطت، وسألت:

- هل قلت علاقة؟ أي علاقة؟

- أي أنني أردت قول...

- لا، لا... لا يوجد بيننا أي علاقة، ولا أريد أن تكون!

لم يجب سامي. ولم يبق لديه وقت أيضاً. سارت المرأة الشابة المغطاة بالغطاء الأسود حاملة سلة الفحم على طول الزقاق، وذهبت. دخلت إلى محل بائع الفحم. كان بائع الفحم الداكن السواد، والكث الشاربين يعرف السلة. سألها:

- أهذه سلة أمنا علية. ما علاقتك بها أنت؟

قالت ناظان: أنا ابنة أختها.

- ها... إنك المطلقة من ذلك المحامي، والقادمة؟

الجميع يقولون هذا.

- نعم، ولكنني سأذهب في الربيع.

- سمعت بأنك تركت ابنك هناك أيضاً، صحيح هذا؟

- صحيح. إذا بقي هناك، فإن زوجي، وحماتي يتذكرانني أكثر.

تنهد بائع الفحم.

- آه يا صغيرتي، آه... الجميع يقولون إنهم طردوك بلعبة. وهل يترك الإنسان ولده، وأغراضه؟ كم تريدين من الفحم؟

- عبئوا السلة،...

أثناء ملء بائع الفحم السلة، ووزنها، نظرت ناظان إلى الخارج خائفة. لم يأت سامي إلى الدكان. ظهرت النساء الملتحفات بالأغطية، والبنات الفضوليات في الدكان لا للشراء، بل للفرجة على ناظان. حملت ناظان سلة الفحم، وخرجت.

وقفت النظرات الفضولية أمام الدكان مدفوعة لمعرفة ما إن كانت ناظان ستتحدث مع الرجل الذي كان قبل قليل أم لا. فجأة بدأ همس فرح:

- إنها تتكلم أيضاً.

- من يكون هذا الرجل يا ترى؟

- من يعلم؟

- هو غير معروف إنه خليلها.

مسد بائع الفحم شاربيه الكثين بقفا يده المسودة تماماً من الفحم، واندس بالباب. وتدخل بالحديث:

- من خليل من؟

نظر، ورآه. تبسم متفهما، وقال:

- هذه القضية. لماذا يطلقها محامي كبير إذا لم تكن هناك قضية قذارة؟

أخرج من جيبه علبة التبغ، ولف سيجارة غليظة. دقق بيديها أثناء دفعها ثمن الفحم، أي يدان بيضاوان، وأي امتلاء لهما! وماذا عن الخاتم الذي بإصبعها؟ بعد ذهاب النساء أيضاً لم يستطع بائع الفحم التخلص من خيال ناظان اللذيذ. لماذا لا يستفيد من المرأة طالما أنها مارة في طريقها إلى هنا؟ لديه من النقود التي يمكن أن يقدمها لها ذلك الخليل القادم إلى عند باب بيتها. من جهة أخرى، فهل مات الشباب في هذا الحي؟ أين الأخ الكبير إحسان، وجلال الكردي؟

استوقف صياد السمك الأخ الكبير إحسان الذي عرج على الدكان مساء أثناء ما نزل الثلج قطعاً كبيرة:

- لماذا لا تدخل إلى الداخل؟

للأخ الكبير إحسان الشاب الثلاثيني شاربان ناعمان أسودان، وكتفان عريضان. دس يداه بالجيبين الأماميين لبنطلونه العريض. لم يجب. قال بائع الفحم قاسم:

- قل إن قرنين قد نبتا لك، فلا تستطيع الدخول...

دهش الأخ الكبير إحسان:

- ماذا؟

- ادخل أولاً، ادخل، وبعد ذلك...

دخل إحسان. سحب أحد كراسي القش القصيرة القوائم ، وجلس. أشعل سيجارة من العلبة التي قدمها له قاسم الفحام. قال الأخير:

- صارت ابنة أخت الأم علية تأتي بخليلها إلى عند قدميها.

كان إحسان يعرف الأم علية جيداً، ولكنه لا يعرف أن لها ابنة أخت. قبل فترة سمع أموراً ما من جلال الكردي. زوجها محام، وطلقها أو شيء من هذا القبيل.

- للمرأة يدان مثل القطن الأبيض يا إحسان. رأيتهما مرة فطار صوابي والله. وخاصة الخاتم الذي بإصبعها؟

كان إحسان يدخن سيجارته بهدوء. رفع رأسه ذات لحظة، وسأل:

- هذا يعني أن خليلها جاء حتى البيت؟

- جاء.

- هل أدخلته؟

- لم تدخله. تحادثا طويلاً أمام الباب.

- كيف هو هذا الرجل؟

- أتقصد الخل؟ رجل أنيق. يرتدي معطفاً، إيه...

غضب إحسان وكأن عرضه قد شتم: ماذا يعني؟ هل ماتوا؟ إذا ذهبنا لصيد السمك وتركنا الحي ثلاثة أيام، فهل ستنقض الذئاب على الأغنام؟

- الأم علية أصلاً عينها على النقود. ينتظر منها كل شيء. كل عمل الأم علية في الحي أو ورشة صنع الجوارب هو السمسرة! إنها امرأة سمسارة! دع كل شيء جانباً، لماذا يدخلون العشيق إلى الحي؟

....

كانت الأم علية ملتفة بلفحتها جيداً، وتقف في موقف بهتشة قابِ منتظرة الترامواي حاملة بيدها ربع كيلوغرام من الحلاوة الطحينية بالفستق التي اشترتها من عند الحاج بكر، ونصف كيلوغرام من لحم الموزات. هبت العاصفة، وبدأ الثلج يندف. ملأ سكان بيازيد وفاتح ومالطا وإدرنة قابِ وعمال بالق بازارِ ومحمود باشا وأصما آلطِ وطهطا قلعة، نساء ورجالاً، ضخاماً وضئيلين، وأصحاب دكاكين، الموقف، يسند كتف الواحد منهم كتف الآخر. زحام صاخب ينتظر الترمواي نافد الصبر، ومع صفع الريح الباردة لهم تتعالى آهاتهم، وتلسع الجو أقذع الشتائم أحياناً.

لم تكن الأم علية منتبهة للثلج الذي تتلاعب به الريح، ولا الصخب الممزوج بالشتائم. مازالت مستمرة بخيالاتها بشأن ورشة صنع الجوارب.

إذا وافقت ناظان على هذا الأمر، واشترت عدة آلات جوارب، فسيكون إقامة تلك الآلات في الغرفة التي في السليمانية هو الأنسب. لم تكن خائفة من صاحب البيت. إذا دست بضعة قروش بيد العجوز، فإن ذيله سيلين كالشمع. إما بالنسبة إلى المستأجرين الآخرين الذين سيقلقون من صوت الآلات، فإنها ستؤنبهم قائلة: "وأنتم يا جماعة! عندما يكون القمر معي، فإنني أصفع النجوم من ذيولها! صاحب البيت لا يسكت عندما يرى النقود. ويقول للقلقين من الصوت اخرجوا من بيتي إذا كنتم غير راضين، وليحتمل من يريد البقاء."

عندما توقف ترامواي فارغ، تخلصت من خيالاتها، وركضت. كان الناس كالصراصير. سيل الشبان الوقحين دفع الأم علية جانباً. غضبت. بدأت بالصراخ:

- ماذا يجري لكم؟ ألم يبق أي احترام للكبار والعجائز؟

كان وجهها العابس وشعرها الأبيض النابت في ذقنها يرتجف. استطاعت الصعود بمساعدة قاطع التذاكر. امتلأ الترامواي حتى درجات الصعود.

استطاعت الأم علية بصعوبة بالغة النزول بعد التملص من الزحام في بيازيد وهي تتصبب عرقاً.. أخذت نفساً طويلاً، رتبت أطرافها المبعثرة هنا وهناك، ولفت اللفحة الصوفية من جديد. لولا خاطر ذلك الخاتم، لما مرّ ببالها ولو مجرد خاطر الذهاب إلى بهتشة قابِ لجلب الحلوى الطحينية بالفستق لابنة أختها. انطلقت في طريق البيت.

أثناء تناول ناظان الصرر من يدها عند الباب، قالت:

- تأخرتم اليوم يا خالتي.

نظرت الأم علية بوجهها المنار بشفق ضوء مصباح الكاز الأصفر المشتعل في الغرفة إلى ابنة أختها نظرة ملؤها التهكم:

- ماذا أفعل يا صغيرتي؟ كله بسببك!

دهشت ناظان:

- بسببي؟ لماذا؟

- ذهبت إلى الحاج بكر، واشتريت لك حلاوة بالفستق يا غالية!

فرحت ناظان كثيراً. خطر ببالها أن تعانق خالتها وتقبلها من خديها، ولكنها كالعادة كانت خجلة. إلا أنها قالت:

- أشكرك!

لم تتوقع المرأة العجوز العارفة طباع ابنة أختها أمراً كهذا منها، كانت معتادة على حركاتها الجامدة. وما ضرورة هذا أساساً؟ لتقبل ببيع الخاتم، وشراء الآلات، وبعدها.. قالت:

- أعطني سلة الفحم!

- هل ستشترين فحماً؟ أنا اشتريت.

- هل اشتريت؟ هل ذهبت وحدك، واشتريت؟

- نعم.

لم ترد المرأة العجوز. لم ترد، ولكنها لم تعترض عليه. كانت شابة، وجميلة، وجذابة. أما دكان قاسم الفحام فهو مليء بأمثال جلال الكردي، والأخ الكبير إحسان. دخلت، وأغلقت خلفها الباب.

كانت ناظان قد ملأت المنقل. الغرفة دافئة. مهما يكن، فإن مجيء ناظان هذا جيد جداً. وخاصة إذا باعت ذلك الخاتم، واشترت الآلات، وبدأت تكسب نقوداً كثيرة... قالت:

- وضعتِ فحماً كثيراً!

- الجو بارد جداً...

- بكم اشتريت فحماً؟

- لا أدري؟ ملأت السلة، لا أدري كم كيلو؟

- السلة الكبيرة تأخذ أكثر من عشرة كيلوغرامات يا ابنتي!

- ....

- كان علينا ديناً سابقاً أيضاً. إن ذلك السافل قاسم، يسحب الكحل من العين. بكم حسب الفحم؟

- لا أدري؟

غضبت الأم علية.

- لا أعرف، لا أدري. ترى ماذا تعرفين يا ابنتي؟

وضعت غطاءها عليها، وخرجت من البيت وهي تكلم نفسها.

وصلت إلى بائع الفحم قاسم. ثمة ضوء ينبعث من النافذة الزجاجية للباب المغلق بإحكام. لابد أن الكلاب والذئاب قد اجتمعت من جديد، وهي إما تشرب المشروب، وإما تلعب القمار.

طرقت الباب براحة يدها.

فُتح الباب. الريح المتدفقة من الخارج إلى الداخل أطفأت المصباح المحمول. ولكنها استطاعت أن ترى في لحظة ضوء وجهي جلال الكردي وإحسان. أثناء دخولها إلى الداخل، وإغلاقها الباب، أشعل قاسم الفحام المصباح المحمول من جديد.

قال الأخ الكبير إحسان:

- تعالي يا أم، تعالي.

كان من الواضح أنهم يشربون المشروب سراً. كان بياض عيني إحسان قد احمرا تماماً.

سألت الأم علية قاسماً:

- قالت ابنتنا إنها اشترت من عندك فحماً...

كان قاسم أيضاً شبه سكران. قال:

- اشترت. ثم إنها ملأت سلة تأخذ عشرة كيلوغرامات!

- بكم بعتها إياه؟

- بالسعر الرائج... ثم إنك لماذا تقلقين يا أم! فقد دفعت ثمن ما أخذته من فحم نقداً. ومسحت كل ما كان عليك من دين سابق. هل فعلت حسناً؟

سُرت الأم علية. قال قاسم الفحام:

- طالما عندك ابنة أخت كهذه فلن تُغلبي... لو كنت مكانك لجعلتها تبيع الخاتم الذي بإصبعها...

داعب هذا الأمر أضعف نقطة عند المرأة العجوز:

- واشتريت عدة آلات جوارب، أليس كذلك؟

قال قاسم:

- لا ياه. ماذا أفعل بآلات الجوارب؟ أستأجر مستودعاً في باب الطحين أو باب الزيت، أو أي باب آخر. وأجلب فحماً على حسابي من بلغاريا، وأبيع بالجملة!

كان الخاتم الذي بإصبع ناظان قد لفت اهتمام من في الدكان. لو كان صياد السمك إحسان لاشترى مركباً آلياً وعدة زوارق، وتخلص من سيطرة معلمي صيادي السمك. فرغم أنهم يقومون بالعمل الأساسي، فإن حصة الأسد يأخذها المعلمون. أما جلال الكردي، فإنه سينهي إعالة أمه له من عملها بالتبغ، ويتدبر دكاناً في يمش، ويبدأ ببيع الخضروات والفواكه، ويتزوج بعد سنة. قالت الأم علية:

- كل شخص يعرف عمله. أنوي شراء عدة آلات جوارب، وإلقائها في البيت!

قال قاسم الفحام غامزاً للأخ الكبير إحسان:

- صحيح. ولكن... احك يا إحسان!

نط الأكثر عجلة وغضباً بينهم جلال الكردي، وقال:

- بشرط ألا يُدخل الخلان إلى الحي.

لم تكن تتوقع الأم علية هذا. دهشت:

- ماذا يعني هذا؟

حكى لها قاسم الفحام كل شيء. رغم أن الأم علية لم تضع بحسبانها أي احتمال، ولكنها قالت:

- أنا أسأل، وأعرف حقيقة الأمر. هل يمكن أن يحدث أمر كهذا؟

بصق جلال الكردي على الأرض غاضباً، ومسحها برأس حذائه:

- لا أعرف. اسألي، وتحققي... إذا لزم الأمر رجلاً، فإننا نقول هنا يا الله طوال اليوم!

أطلق قاسم الفحام قهقهة. خرجت الأم علية من الدكان وهي تكاد تغور في الأرض من خجلها. مازال الثلج يندف. وصلت إلى البيت. سألت ناظان وهي غاضبة:

- من هو الرجل الذي تحدثت إليه اليوم؟

بدأ قلب ناظان بالخفقان. كان من الواضح أن أهل الحي بدأوا بالنميمة. حكت لها. قالت لها الأم علية المستمعة إليها بانتباه:

- لا أريد هنا أصدقاء صديقات وخلان بعد الآن يا ناظان! أتعرفين هذا الحي أنت؟ إنهم يلتقطون الإنسان من كتفيه، ويخطفونه!

كانت ناظان تقسم بمختلف أنواع القسم، وتحلف الأيمان، ولكنها لا تقنع خالتها مئة بالمئة. قالت في النهاية:

- سأترك بيتك إذا أردت يا خالتي.

طار عقل الأم علية:

- أممكن هذا يا ابنتي؟ أممكن شيء كهذا؟ هذه اسطنبول الكبيرة. من لك غيري، ومن لك أقرب مني؟

ترطبت رموش عيني ناظان. كانت تلعب برماد فحم المنقل بالملقط الذي تمسكه بيدها. تعرف أن اسطنبول كبيرة، وأن لا قريب لها غير خالتها. تعرف، ولكنها ماذا تفعل إذا لم تقنعها؟

- ... سنخرج من هنا، ونذهب إن شاء الله يا صغيرتي. إن الله حافظ.

ركزت عينيها على الخاتم الذي بإصبع ابنة أختها.

- ...عندنا هناك امرأة مسكينة مقطوعة مثلي. كنا نخيط رؤوس الجوارب معاً. وهي أيضاً ليس لها أحد مثلي. كانت عاجزة عن تأمين مصروفها. وفي زمن لم تكن تتوقعه أبداً قابلها الله تعالى بإحدى قريبات زوجها. مع أن المرأة كانت قد نسيت. ومن مكان إلى مكان، تعارفا، وأكثر من هذا ظهر أنهما أقرباء. كانت الفتاة المسكينة صبية شابة جداً، فباعت القرط الذي بأذنها. ذهبتا، واشتريتا آلتي جوارب، ووضعتاهما في بيتهما، وهوهووو...

قالت ناظان لنفسها: "إنه الكلام السابق مرة أخرى. كانت قد تحدثت عن بيع الخاتم، وتأسيس عمل. إنها تستدرجني بالكلام. إنها تستدرجني، ولكنني لا أبيعه لو زلزلت الأرض. إنه ذكرى زوجي، وطفلي. ليمحو الله هذا إن كان قد كتبه لي!"

- ...إنهما تكسبان نقوداً كوم كوم!

ركزت عينيها على ابنة أختها. استنتجت من عدم تفوهها بأنها موافقة على الفكرة، ففرحت. استمرت بالكلام:

- ...جعلتا الآن الآلتين أربعاً. تقولان إنهما ستبنيان بيتاً. غرفتان ومطبخ. ولكنني لو كنت مكانهما لبنيت ورشة جميلة أولاً، وصعدت بالطوابق فوق الورشة. كل طابق يجب أن يكون ثلاث غرف ومطبخ. وكل طابق يتطلب حماماً...

لم تكن ناظان تسمع. كانت ستحظى بزوجها وابنها في الربيع. خطر ببالها أنها لابد أن ترى ابنها!

خطرت ببالها حماتها: "... اسمعيني جيداً يا صغيرتي. تحدثت مع

مظهر. هو أيضاً نادم جداً، ويقول بأن هذا حدث. سنرسلك إلى عند خالتك. لا تقلقي أبداً. أنت هنا بعد ثلاثة أشهر، أي عندما يدخل الربيع! أما بالنسبة إلى الولد، فإن مظهراً يقول إذا تركته هنا، فإن هذا خير له. هذا صحيح يا صغيرتي. أنت لا تجهلين مظهراً. إنه يغضب، ويصرخ، ولكنه يبرد بعد لحظة. ثم هناك قضية الخاتم. سُرَّ كثيراً لأنك وجدته. يقول إن ما أغضبني أصلاً هو عدم محافظتها على ذكراي، وإضاعتها!"

- أنت شردت كثيراً مرة أخرى يا ابنتي. بماذا تفكرين. بابنك؟

لم تجب.

- انهضي، واطبخي موزات اللحم.

-لم تكن جائعة، ولكنها نهضت برغم هذا.

١٥

جالة، باسمها الحقيقي ناريمان، وضعت مظهراً في راحة كفها بكل معنى الكلمة، ولم تكن تتركه يذهب إلى بيته حتى في الليل. خلدون أيضاً تغير حاله، فقد كان كاتب مظهر يأخذه من البيت كل صباح إلى "أمه الظريفة". اشترت له ألعابَ سيارات ودببة وحلقات أجراس وحتى قطارات لم ير مثلها حتى الآن، وحاكت له كنزات وسترات من خيوط التفتيك. وكانا طوال اليوم متجاورين كأنهما بالعمر نفسه. يلعبان الاستغماية، والجيران، وعندما يتعبان تحكي له أمه الظريفة حكايات مليئة بالأشباح، والأمراء، والسلاطين، والزنوج الذين شفاههم واحدة في الأرض والأخرى في السماء. فضلاً عن ذلك لا تأتي بذكر أمه بسوء: "صارت امرأة سيئة" كما تقول له جدته، بل تذكر له أنها ستعود يوماً ما.

كان ما أن يفتح عينيه صباحاً حتى يقول: "سأذهب إلى أمي الظريفة" وكان هذا يُفقد السيدة هاجر صوابها. لو كان الأمر بيدها لعصرت رقبته، ولكن ما الفائدة من هذا. كان خلدون ضرورياً جداً لها في هذه الأثناء. ولعله الرابط الوحيد الذي يربط مظهر بها. وفي الحقيقة لولا خلدون لقال لها مظهر الذي يعبد كل ما تقوله فتاة البار: "إيه... استأجري لنفسك غرفة، واسكني وحدك!"

ناجيـة من جـهـة، وزوجة مـدير الماليـة من جهـة أخرى تنصحانـها: "احذري من إزعـاج الولد. بعـد ذلك ستـقع الـواقـعـة على رأسك. المرأة تسيطر على ابنك وحفيدك في آن واحد.!"

لم يمض على ذهاب ناظان شهران بعد، ولكنها بدأت تفتقدها منذ الآن. كانت تفهم الخطأ الذي ارتكبته بزحلقة المرأة المظلومة. ولكن السهم انطلق من القوس، وطار ابنها من قفصه. ومن أجل إدخاله إلى القفص مرة أخرى يجب أن تستخدم طعماً مثل "فتاة البار".

ذات يوم عـضت على روحـهـا، وذهبت إلى المكتب. كـان مظهـر في المحكمـة. رجت الكاتب أن يأخذها إلى بيت "فتـاة البـار". كـانت ناريمان تلعب مع خلدون لعبة المحطة. تنطلق المقطورات المحملة بالحمص المحمّص من محطة خلدون ذاهبة إلى محطة أمه الظريفة، وتأخذ من محطة أمه الظريفة فاصوليـاء يابسة لتجلبها إلى محطته.

قُرِع الباب. نظرا من النافذة. كانت الجدة. تقطّب وجه خلدون. سألته أمه الظريفة عن السبب. قال الولد:

- احذري أن ترسليني معها!

- لن أرسلك، لا تخف!

ذهبت، وفـتـحت البـاب. كـانت تـتـوقع سبب مجـيـئـهـا إلى حد مـا. بحسب ما سمعته من مظهر فإنها مصرة على وجودها في البيت. ولكنها تعرف ذلك الحساب. فستقدم نفسها بثقل بقدر ما تستطيع، وستحاول أن تشرح "للحيزبون" الفرق بينهـا وبين ناظان. عندما صعدت السيدة هاجـر إلى الأعلى، قـابلت وجـه المرأة الشـابة الجـدي بحـال لا تعـيـرها الاهتـمـام أبداً، وحاولت إبداء اللامبـالاة. قوبلت كضيـفـة غريبة تماماً،

وأدخلت إلى غرفة الضيوف، وسئلت عن الحال والخاطر، ولكنهما لم يتقاربا ككنة وحماة. كانت السيدة هاجر قلقة جداً، واضطرت للجلوس برسمية شديدة. وأرادت ذات لحظة التزلف لها:

- متى ستبهجين بيتنا المتواضع يا ابنتي؟

تصرفت ناريمان وكأنها لم تفهم:

- ولله إن أعمالي تغمرني إلى فوق رأسي يا سيدة خانم. أريد أن أرد لك الزيارة ذات يوم إن كان ثمة نصيب.

- رد زيارة؟ أنا أنتظرك للمجيء بشكل دائم يا صغيرتي!

- بشكل دائم؟ كيف يعني؟

- يا هذه، ألا تعيشين مع السيد مظهر؟ ما الضرورة للعيش بشكل منفصل؟

- ولله يا سيدتي المحترمة، أنا امرأة لدي هموم كثيرة. وأخبرت السيد مظهر بهذا. طباعي غريبة قليلاً. أريد أن أنظم بيتي على هواي، وأن أعيش مع زوجي كما أشتهي، وكما يمليه عقلي...

- أحسنت، عيشي يا ابنتي.

- أحسنت، ولكن لا أدري، لعل هذا سيقلق راحتك!

- ما لي أنا يا ابنتي. أنا امرأة مصلية وعابدة. لدي فم، ولكن ليس فيه لسان. إنه بيتك. ستعيشين كما تشائين بالتأكيد!

- الأهم من هذا: وكما تعرفين، أنني حتى الأمس كنت أعمل في بار. لم أحتمل إلحاح السيد مظهر، فخرجت. والمدينة متعصبة جداً. كيف أوفق بين الماضي وهذا التعصب؟

- لم أفهم؟

- لأقول لك هذا بوضوح أشد: أنا فتاة بار. وبالنسبة للكثيرين امرأة سيئة. ما قولك؟

كانت السيدة هاجر مندهشة. قالت:

- استغفر الله يا ابنتي، استغفر الله يا صغيرتي. لم يخطر هذا حتى بطرف عقلي. أنا لا أراك بتلك النظرة!...

- ليس مهماً أن تري أنت أم لا يا سيدتي. أنا أريد أن أشير إلى استهجان المحيط. وهذا بحسب حساباتي أنا. بالنسبة إلى حسابكم...

لم تجب السيدة هاجر. شعرت بالسوء كثيراً لعبارة: "ليس مهماً أن تري أنت أم لا يا سيدتي". ماذا يعني هذا. يعني أنها لن تحسب لها حساباً أبداً في البيت؟ فقدت بهجتها كلها. كأن حجراً وضع على قلبها. يا لأنفها المرفوع! وهي ليست ممتنة أيضاً. كما أنها لا تهتم بكونها خرجت من البار، ويقال عنها امرأة سيئة،. حسنٌ، كيف نثق بها؟ ألا تضع مظهراً في راحة يدها؟ نهضت. ولم يقل لها: "لو تجلسين؟" مثلما لم تضيِّف بسيجارة ولا حتى قهوة. التفتت إلى خلدون:

- هيا يا ابني، لنذهب!

نظر الولد إلى أمه الظريفة. قالت ناريمان:

- أنتم اذهبوا. يأتي الكاتب مساء، ويأخذه.

نزلت السيدة هاجر الدرج مسرعة، وخرجت صافعة باب الزقاق. غضبت كثيراً. أي امرأة وقحة وغير مؤدبة وسافلة هذه المرأة! ماذا تعتقد بنفسها؟ ليست غير ساقطة وفضلة ثمانين شخصاً خرجت من بار. لو أن ابنها رجل لما أعطى وجهاً لحثالة شوارع كهذه. ما الفائدة. ليس رجلاً، بل هو كلب!

قفزت إلى حنتور. ذهبت إلى عند أم مدير المالية. كان ثمة ضيوف. كانت هنالك زوجة المدعي العام، ورئيس محكمة الأحكام المشددة، ومدير التنفيذ وبناته، وزوجة كاتب العدل... عندما وجدوا أن صواب السيدة هاجر قد طار اهتممن بالموضوع. تكاد تبكي. أفرغت احتقانها. أجهشت بالبكاء. دهش الجميع. لم يعهدوها على هذا النحو أبداً. سألوها. حكت لهن وهي تفقد وعيها بين فترة وأخرى، وحكت، وحكت. كن مسرورات داخلياً، وعلى رأسهن أسرة المدعي العام عدا أم مدير المالية. آه ناظان المسكينة التي لعب عليها؟ ليت لله إصبعاً لكي يفقأ به عين الظالم. ولكن الله رد على ظلمها القديم! رغم هذا فقد حاولن سلوانها.

- ماذا ستفعلين يا سيدة هاجر. وقع هذا على الرأس، ولا بد من احتماله!

- يااااه... الله يحمينا مما هو أسوأ.

- هناك أسوأ من السيء يا خالة.

أخبرتها أم مدير المالية برأيها في ما بعد، عندما ذهب الضيوف، وبقيتا وحدهما:

- أخطأت بالذهاب إلى هذه السافلة يا هاجر!

- لماذا؟

- وهل ثمة لماذا يا أمة الله؟ بذهابك إليها رفعتِ من قدرها.

- صحيح.

- لماذا فتحت هذا الموضوع أمام الجميع؟

خطر ببال السيدة هاجر أسرة المدعي العام. إنهن يؤيدن ناظان، ويشفقن عليها دائماً. من المؤكد أنهن سيقلن "أوف ما أجمل هذا" عندما يسمعن بتصرف الكنة الجديدة؟

- معك حق يا أختي، معك حق بهذا. لم أستطع ضبط نفسي وأنا في ذلك الألم.

- ألا تعرفين أنهن ماكرات من الداخل، ولا يضحكن بوجه أحد في آن؟

تعرف، كانت تعرف كل شيء، ولكن السهم انفلت من القوس.

- حسنُ، ماذا أفعل الآن؟

- هل تعرفين ماذا ستفعلين؟ امسكي لسانك أولاً، ولا تتكلمي حول المرأة طالعة نازلة، تصرفي كأن شيئاً لم يكن، وجدي طريقة لجلب المرأة إلى البيت!

أثناء ذهابها إلى البيت اقتنعت بأن لا سبيل لها غير هذا. لا جدوى من البكاء، والشكوى أمام هذه وتلك، والثرثرة عن الهموم. إما أن تقطع لسانها، وتجد طريقة لجلب المرأة إلى البيت، وإما أن تلجأ إلى غرفة تستأجرها في قبو تحت بيت هذا أو ذاك.

أقلقها الاحتمال الثاني فهي حتى اليوم أم المحامي السيد مظهر. هل ستأتي تلك التي في الجبل، وتطرد التي في الكرم؟ ستندر زيارات الأصحاب والأحباب والأصدقاء، ويمرون عليها لمجرد رفع العتب. في الحقيقة إنها لن تستطيع احتمال هذا. ياما عانت منه حتى أوصلت هذا الولد إلى هذا العمر. وفي اللحظة التي كانت ستحصل على الراحة، وتفرض سلطانها... الله يمحوه إذا كان قد كتبه.

وناجية من جهة أخرى تؤجها: "لماذا ستسكنين منفصلة يا خالة؟ وهل ذرفت قليلاً من الدموع حتى أوصلت ذلك الولد إلى هذا العمر؟ وهل ستتركين ابنك شبيه الأسد لساقطة لا تساوي خمسة قروش؟"

ومظهر لم يعد يعرج كثيراً على البيت. وإذا عرج ففي النهار، ومن الباب، ويسأل إذا كان الكاتب قد أتى أم لا، وإذا اشترى ما قد أوصي به من السوق أم لا، ثم يذهب.

كانت السيدة هاجر تسمع من هنا وهناك أن ابنها يترافع بدعوى كبيرة جداً وبنجاح. وبحسب تعبيره فإنه يغرز أسنانه في خصومه. وهؤلاء كانوا يُحيدون ما لم يستطيعوا الحصول عليه بفعل النقود بطرق أخرى. ولم يعرضوا على مظهر الآلاف وعشرات الآلاف، بل مئات الآلاف، ولكن مظهراً رفض هذا. قالت له ذات يوم:

- وهل ترفض نقوداً بهذا القدر يا ابني؟ هل فقدت صوابك؟

غضب مظهر:

- لا تتدخلي فيما لا يعنيك يا أمي!

- حسنٌ، ولكن يا ابني... يقولون مئات الآلاف من الليرات!

- ألم أقل لك لا تتدخلي فيما لا يعنيك؟ هل أنت جائعة؟ عطشانة؟ عريانة؟

- لست كذلك ولله الشكر، ولكن أنت أب لولد صغير.

- أنا المسؤول عن التفكير بمستقبل ابني!

خرج من البيت. ها هو يرتبط بهؤلاء الناس البسطاء وعلى رأسهم أمه. النقود كل شيء تقريباً بنظرهم. أما تحمّل أعباء النضال من أجل الناموس، والشرف، والاعتبار، فيعتبرونه موازياً للخبل. ما الضرورة لهذا؟ من سينتبه لتظاهره بالثورية، وتدبر أموره بشكل سري؟ أما مظهر فلم يكن يفهم هذا، ولا يستطيع فهمه. إما أن يكون ثورياً وإما لا. إذا

كان ثورياً فعليه أن يحارب بأشد ما يمكن ضد البقايا التي قررت الثورة محاربتها، وأن يدير ظهره للمصالح الشخصية حتى ولو كانت بالملايين.

كانت الدعوى مستمرة برغم معوقات الطرف الآخر التي لا تخطر ببال. وسيسير بها حتى لو كان الموت في نهاية المطاف، وأقسم على هذا. ولم تُدهش أمه، ويُدهش الناس السُّذج، وطرف الخصم فقط من هذه الاستقامة، بل حتى الورثة الذين يتوكل بدعواهم أيضاً. أي استقامة تلك، وأي عناد، وأي إرادة إزاء هذه النقود كلها، التي تقدر بالملايين!

ناريمان أيضاً كانت منتبهة للأمر. ورغم إعجابها باستقامة الرجل الذي أحبته، فقد كانت خائفة. ماذا لو سحبوه ذات يوم، وأطلقوا عليه النار؟ كان مظهر يضحك حزيناً؟

- لا تخافي يا حبيبتي. لن يستطيعوا فعل أي شيء. أما إذا رحت على أيديهم، فإن قبضة الثورة التي أؤمن وأثق بها ستفجر أدمغتهم. ثم إنك لا تنسي، لكي تتعاظم ثورتنا فهي تحتاج إلى شهداء. ويمكن أن أكون أنا الشهيد، ماذا يوجد في هذا؟

فكرت ناريمان أياماً بشكل عميق، ورأت ليلاً أحلاماً سيئة. في أحد الأحلام رأت رجال الطرف الآخر وقد زاغت عيونهم، وغدت وجوههم مرعبة، وحاصروا مظهراً في مكان قفر، ومزقوه. استيقظت وهي تصرخ. كانت تتصبب عرقاً. مظهر استيقظ أيضاً. اندست به كالمجانين. روت له الحلم منفعلة. توسلت له أن يتراجع عن هذا الأمر إذا كان ممكناً. كان مظهر صلباً كالصخر. عاهد نفسه على انتزاع ما يقبض عليه بيده. مع تقدم الدعوى يزداد خوف ناريمان، وتدهمها الكوابيس حتى في النهار.

قررت الزواج به لكي تكون قريبة تماماً منه. عقدوا قراناً صامتاً، وتزوجا من دون عرس.

كان خلدون أكثر الفرحين لمجيء الأم الظريفة إلى الدار الكبيرة. أما السيدة هاجر، فلم تكن مسرورة رغم وصية أم مدير المالية. لا تستطيع بأي شكل نسيان ذهابها إليها بقدميها، وعدم الاكتراث بها. كانت ترى المرأة الشابة عدوة تماماً. وكانت تغضب غضباً آخر إزاء دوران خلدون حولها قائلاً: "أمي الظريفة، أمي الظريفة"، ولكنها تحاول ألا تبدي هذا.

في أحد الأيام، سحبت الولد من ذراعه إلى غرفتها:

- ماذا يحدث لك ولاه؟ ما سبب فرحك هذا؟

قال خلدون متردداً:

- أنا أحب أمي الظريفة كثيراً.

عندما بدرت من لسان السيدة هاجر شتيمة غير مؤدبة، قال خلدون:

- آ... كم هذا عيب؟ إذا أخبرت أمي الظريفة...

- أمك الظريفة؟ أنت خنزير ابن خنزير!

قرصته. وأطلق خلدون صيحة كأن ناراً لسعت لحمه. هرعت ناريمان راكضة:

- ماذا حدث يا خلدون؟ ماذا حدث يا صغيري؟

- جدتي قرصتني!

كانت السيدة هاجر منتصبة أمام غرفتها مصفرة بشدة.

- أهكذا أيتها السيدة الكبيرة؟

قالت بحرص:

- نعم!

كانت تغضب من عبارة "السيدة الكبيرة" بشكل كبير. سألتها ناريمان محتدة: لماذا قرصتموه؟

- أتقولين لماذا؟ عجيب...
- العجيب أساساً هو حركاتكم!
- أنا جدته!
- كوني من تكوني، فإن الولد لا يربى بالضرب وقرص الأذن. أرجوك ألا تنشغلي بعد الآن بتربية خلدون!

دهشت السيدة هاجر. نظرت إلى مظهر الذي يدخن سيجارة بهدوء جانباً، غير مهتم. التقت عيناها بعينيه. امتعقت، وكانت تريد أن تقول له: "لماذا لا تدافع عني؟ لماذا تقف؟ أم أنك ستجعل بنت البار تسحق أمك؟"

كان مظهر مسروراً. وجد إمكانية المقارنة بين ناظان وناريمان. يتخيل كيف ستستشيط أمه غضباً لو كانت ناظان مكان ناريمان، ولم ترد على هذا النحو، بل بالألف واحد من هذا الرد.

عدم دعم ابنها كسر جرأة السيدة هاجر. انزوت في غرفتها بعينين ممتلئتين، وأغلقت الباب، وألقت بنفسها على المقعد العريض. كانت تبكي بألم هازة بكتفيها، ولكن ابنها لا يأتي كما كان يفعل في السابق. نهضت عن المقعد ممتقعة. مسحت عينيها. بعد أن وقفت أمام المرآة، ودققت بوجهها، نظرت من خلال النافذة إلى البهو من خلف الستارة المواربة: "الزوجة" تضع يديها على خصرها، وتصدر الأوامر لمظهر، وبيد مظهر خرقة يمسح غبار الأرائك.انسحبت من النافذة. لم يعد داخلها يتسع لها من الغضب، كانت مسعورة من شدة الحرص. هذا يعني أن المحامي

الكبير مظهر غدا لعبة بيد "فتاة البار". تطلعت مرة أخرى من النافذة، فرأت من فتحة الستارة، المرأة وقد أشعلت سيجارة، وبعد ذلك التفتت إلى مظهر، ورأت ان الاثنين توجها نحو غرفتها. انسحبت من النافذة منهمكة.

فتح الباب من دون قرع. ولجت ناريمان إلى الغرفة. والتفتت إلى مظهر القادم من خلفها:

- هذه الغرفة أجمل غرفة في الدار. أريد أن أعدها غرفة ضيوف!

وأشارت برأسها إلى السيدة هاجر، وتابعت:

- ولتنتقل السيدة الكبيرة إلى تلك الغرفة الصغيرة!

ارتعبت:

- إلى أي غرفة صغيرة؟

- إلى غرفة الصندوق.

- غرفة الصندوق؟ ماذا سأفعل أنا هناك؟

- ما تفعلينه هنا. أنت بمفردك. وهل يصح إشغالك غرفة كبيرة؟

التفتت إلى زوجها من دون انتظار أن تجيبها السيدة هاجر:

- أنت ناد لي زوجة النادل رضا تلك!

- حسن يا زوجتي العزيزة، الآن...

نزل الدرج راكضاً.

تحولت السيدة هاجر إلى صنم. ماذا حدث لهذا الولد؟ صار لعبة بيد الزوجة. أما الزوجة فتمتلئ وتنفخ وتتباهى... إلى أي أيام أوصلتني يا ربي! تنهدت. من يعلم إلى أين ستصل، إذا استمر هذا الولد لعبة بيد الزوجة. أهكذا يجب أن يكون الرجل؟ هي أيضاً كانت امرأة، ولها

زوجها... زوجها؟ أي زوج؟ هل هو الكاتب الأعمى أم الآخر؟ ألم يكن الكاتب الأعمى، والآخر، أي الضابط، وحتى خليلها مرشح الملازم لعبة بيدها؟ ألم تلّعب الثلاثة في راحة كفها؟ وخاصة أم والد مظهر ضابط المدفعية المسكينة، ألم تخرجها من بيتها، وتشردها؟ أم أنها ستنال عقاب ما اقترفت؟ هل هذا ما كتبه الله تعالى على جبينها؟ خافت. يبدو أن الأصوب هو عدم مجابهة المرأة، ومسايرتها إذا ما غضبت، وطالبت: "إما أمك، وإما أنا!" فمن سيختار ابنها؟ هي؟ لم تكن تعتقد هذا. لو كان سيدعمها، لما وقف قبل قليل إلى جانبها.

جاء مظهر وزوجة النادل رضا ناجية. أصغت السيدة هاجر للحديث.

سألتها ناريمان بعظمة:

- ما اسمك أنت؟

نظرت ناجية بطرف عينها إلى السيدة هاجر.

- ناجية.

- ألست زوجة النادل رضا؟

- نعم يا سيدتي.

- كان زوجك يتوسل بشكل مستمر من أجلك، لنرى ماذا تستطيعين عمله؟

- أعمل كل شيء.

- هل تمسحين الخشب، وتغسلين...وهل تستطيعين أن تطبخي؟

تدلعت ناجية:

- إيه، إلى حد لا أترككم فيه جائعين...

التفتت ناريمان إلى زوجها:

- هذا مستحيل، يجب أن نجد طباخة جيدة من أجل تحضير الطعام. كما تعلم سيكون لنا أصحابنا وأحبابنا وأصدقاؤنا. مقبلات إفرنجية، وما شابه...

- صحيح يازوجتي العزيزة.

- إذا كان ممكناً فلنجلب طباخة روسية بيضاء من اسطنبول. مهما يكن، سنفكر بهذا في ما بعد، وليكن مفهوماً عندك. (التفتت إلى ناجية) عدا الطعام، هناك مسح الخشب، والغسيل، وكنس الأرض. هل عندك ابن؟

- لا يا سيدتي.

- تحدثي مع السيد حول الأجرة التي تطلبينها!

ذهبت إلى الطاولة المقابلة لنفض رماد السيجارة التي بيدها، أطفأت عقب السيجارة في المنفضة، وعادت.

- أأقول لك شيئاً يا مظهر؟

- قولي يا حلوتي.

- لندهن داخل الدار الكبيرة وخارجها كلها بالدهان الزيتي. ما قولك؟

قال مظهر من دون تفكير:

- على الرحب والسعة.

- الفصل الآن شتاء. ليبق الخارج على حاله إلى الصيف. احك مع معلم، وساومه، ليبدأ.

- غدا، فوراً.

- مجموعة الأرائك، وما شابه ذلك نشتريها في ما بعد.

كانت ناجية مندهشة. تنظر إلى السيدة هاجر بطرف عينها، وتندهش للتغيير الذي طرأ على المرأة العجوز. إنه جزاء الله لما فعلته بناظان غالباً. التقت عيونهما ذات مرة. كانت تنظر مضطربة. غمزت لها. ذهبت ناجية رافعة الكلفة. انزويا في الغرفة، وأغلقا عليهما الباب. التفتت ناريمان إلى زوجها:

- ما هذا؟

- لا شيء. إنها صديقة أمي.

- صديقة؟ وهل ستستمر هذه الصداقة؟

- كيف؟

- وهل ثمة كيف في هذا يا مظهر؟ ناجية خادمة هذا البيت. هل ستستمر أمكم بصداقتها؟

لم يرد مظهر. استمرت المرأة الشابة:

- يجب إيقاف هذا الأمر. نعم إنهم أناس، ولكنني لا أجد معنى لرفع الكلفة. بعد ذلك لن نستطيع مواجهتها!

- معك حق.

انتظرت ناجية في تلك الليلة عودة زوجها من البار. عندما عاد في ساعة متأخرة من عمله، وجد زوجته مازالت مستيقظة، فدهش. تكون في مثل هذا الوقت دائماً في نوم عميق لا تستيقظ منه حتى لو سحبتها من رجلها. سألها عن سبب استيقاظها حتى ذلك الوقت. حكت المرأة كل شيء منفعلة، وبقليل من القهر:

- وضعتني المرأة موضع الخادمة. ما قولك؟

بالنسبة إلى رضا الناضج فإن هذا من الأعمال العادية. ما هو وضعه في البار؟ ألم يكن خادماً على أبواب الناس؟ قال:

- لا تهتمي. أنت في الدار الكبيرة، وأنا في البار، لنضغط على أنفسنا قليلاً، ونجمع قليلاً من النقود، ستكون الأمور سهلة. إذا فتحنا خمارتنا، سنكون سادة، وباشاوات أيضاً!

لم ترتح ناجية بأي شكل، وإلى جانب أن عملها خادمة يؤلمها، فهي لا تنسى وضع هاجر الشبيه بالقط الذي سكب الحليب.

- ألم ناظان المسكينة وجد ثأره بسرعة. لو رأيت تلك الحيزبون. إنها تشبه القط الذي سكب الحليب من خوفها. وماذا عن السيد مظهر؟ زوجتي العزيزة، يا زوجتي العزيزة، يا حلوتي، ويا روحي... وآخ من ابن الإنسان آخ!

كان رضا قد خلع ثيابه، وبقي بسرواله الداخلي الطويل وقميصه. قال في أثناء دخوله الفراش:

- لا تهتمي. لننظر بأمورنا!

اندست بجانب زوجها، ولكن سيدة الدار الجديدة لم تخرج من عقلها. كانت ستبدأ العمل في اليوم التالي. فجأة خطر هذا ببالها:

- كم سنطلب شهرياً؟

كان رضا متعباً إلى حد أنه تحدث وكأنه يهذي:

- من أين لي أن أعرف أنا؟

- خمس عشرة ليرة في الشهر جيدة؟

- خمس عشرة ليرة؟ اطلبي ثلاثين، اطلبي أكثر، ولا تخافي! المرأة ليست من النوع الذي تعرفينه، إنها كريمة جداً. أما بالنسبة إلى مظهر

فهو أشهر محامي في المدينة. إنه يلعن نفس النقود. الثلاثين ليرة، والخمسين ليست نقوداً بالنسبة إليهم!

مازالت الفوضى في البيت. أفرغت السيدة هاجر غرفتها، وانتقلت إلى الغرفة الصغيرة التي كانت تستعمل في زمن ناظان غرفة صندوق. وفي الصباح الباكر، وضعت عليها ملاءتها، ورمت بنفسها خارج البيت بصعوبة، وتسكعت طوال اليوم عند أصدقائها وأحبابها، وبقت أطول فترة عند أم مدير المالية، وبكت مهمومة، وسألت كيف ستتخلص من هذا "البلاء المذل"؟ وبحسب ما حكي فإن المرأة ليست من النوع الذي يمكن أن يذهب بسهولة. حتى إن أم مدير المالية دهشت من هذا الأمر.

قالت السيدة هاجر ذات يوم:

- منذ فترة وهذا تعلّق بعقلي!

سألتها أم مدير المالية بفضول:

- ما هو؟

- لا تبوحين بأي كلام. أتعرفين ما يخطر ببالي؟ أقول لنفسي، لو أجعل من علاقتهما باردة!

- كيف؟ هل تنوين عمل حرز؟

- ناجية تعرف واحداً. إنه شيخ لا تقع له واقعة...

- لا تتوقفي أبداً!

لم تفتح السيدة هاجر مع ناجية موضوع "حرز البرودة" فوراً. وإذا كانت المرأة تعامل المسكينة معاملة الخادمة، وتؤنبها كل يوم، ولكنها تجد طريقة لربطها بها، لأنها كريمة جداً، وتعطيها ألبسة داخلية وسترات وجوارب قديمة. لنرى ما إذا كانت ناجية سترضى بالتحرك ضد سيدتها

الجديدة؟ قبل مرور زمن طويل بدأت ناجية بالاعتياد على عدم استهجان موقعها الجديد في الدار الكبيرة. فغير البقشيش الذي تأخذه، كانت تأخذ جوارب حريرية، وسراويل وألبسة داخلية جورسية، وألبسة داخلية تحتاج ألف شاهد لإثبات أنها قديمة. كانت مسرورة. الأشياء التي لم ترها أبداً في زمن ناظان، تراها الآن، وبوفرة.

كأنها نسيت السيدة هاجر. حتى إذا تقابلا، فإن "السيدة المحترمة" لا تستطيع التوقف للحديث معها من خوفها. كانت "السيدة المحترمة" حادة جداً. لا تحتمل التأخير. في أثناء طلاء غرف الدار الواسعة، وبهوها الكبير، وممراتها، وجدران التواليت فيها بالطلاء الزيتي من أولها إلى آخرها، لم تفارق المعلمين لحظة، وصرخت بهم، وأنبتهم عند الضرورة.

في ما بعد انتهى طلاء الدار الكبيرة، وبعد أن حُولت الغرفة التي فرغت من السيدة هاجر إلى غرفة ضيوف، وفرشت بمفروشات جديدة لامعة، وصل الدور إليها. صارت تستطيع التزين كما تشاء، وتتجول في الدار الكبيرة مرتدية ألبسة ظريفة كأغنية فرحة.

تستيقظ باكراً في الصباح، وتصدر أوامرها للطباخة حول ما ستطبخه في ذلك اليوم، بعد ذلك تنتقل إلى أمام المرآة. كانت تتزين قبل أن يستيقظ زوجها. إذا فتح مظهر عينيه، يغدو مسروراً بمتعة وجود زوجته الرائعة، ويعيش أمتع لحظات حياته.

وجد أكثر مما كان يرغب، ويأمل. كان يجد كل شيء جاهزاً قبل أن يفكر فيه. كأن ما يخطر بباله يُقرأ في عينيه. أما خلدون فهو أيضاً كان

مسروراً من حياته. عندما يفتح عينيه صباحاً، يجد أمه الظريفة بجوار سريره المزين، تعانقه، وتقبله من خديه. بعد ذلك يذهبان معاً إلى غرفة الطعام، ويجلسان حول طاولة الإفطار. حليب، وزبدة رائعة، وجبنة ممتازة، وخبز محمر، لو كانت جدته بعيدة لكان خلدون ممتناً جداً من حياته، ولكن... جدته المقطبة الوجه منذ أن جاءت "الأم الظريفة" إلى البيت، كانت تنظر نظرات مؤنبة بين الحين والحين إليه، وتخيفه. لهذا السبب كان خلدون لا يرفع عينيه، وينكمش أثناء الطعام بقدر ما يستطيع.

حال الولد هذه لا تغيب عن عين "الأم الظريفة" أو عين مظهر. كانا يعرفان أنها امتلأت أكثر من اللازم، وتنتظر القطرة الأخيرة لتطفح بها. كان الزوجان يخشيان هذه القطرة، ويخافان من جعل هذه المرأة العجوز تطفح بالكيل.

في أحد الأيام ضبطت ناريمان حماتها بالقرب من ناجية، تتحدث معها همساً. لم تقبض عليهما، ولكنها صادفتهما في الممر شبه المظلم المؤدي إلى التواليت. وإذا كانت قد انتبهت، فإنها ستمر من دون أن تهتم لهما. ولكنهما ارتبكتا كما لو أنهما قبض عليهما بالجرم المشهود. لماذا ارتبكتا؟

- هيا إلى عملك!

انسحبت ناجية منكمشة. أما الحماة فقد كانت كقط سفح حليبه لا تستطيع رفع عينيها عن الأرض.

- أيتها السيدة الكبيرة، أنا لا أفهم شيئاً من الجلوس بقرب الخادمة، وتبادل الحديث. لماذا تنسون أنكم والدة المحامي السيد مظهر؟

فكري بأن نساء كتلك يتحدثن بحقك كما يشأن لانتزاع حصة شرف لهن، ويطورن الصداقة معكم!

استجمعت السيدة هاجر نفسها:

- هم عباد الله يا ابنتي!

- أعرف. لا أدس أنفي في هذا، ولكنكم مجبرون على التفكير بكرامتكم!

- ....

- أو كرامة ابنكم على الأقل!

تركتها متوترة. حين وصلت إلى غرفتها، وجدت ناجية تنتظرها بعينين تبرقان بشكل شيطاني.

- ماذا يوجد؟

كانت المرأة تبتسم.

- لدي ما أحكيه لكم أيتها السيدة المحترمة...

توترت من جديد:

- هل هي نميمة يا ناجية؟ هل هو بحق حماتي؟

- نعم.

قطعت الأمر بحزم:

- لا أريد أن أستمع لأي شيء، اذهبي إلى عملك فوراً!

ولكن المرأة لم تتحرك حركة واحدة. كانت تريد أن تحكي بالتأكيد.

قالت ناريمان:

- عودتك السيدة ناظان بشكل سيئ. أنا لست ناظان يا ناجية. أنا أكره النميمة!

- لا ضرر من هذا يا سيدتي العزيزة. لأحكي لك، وانظري بالأمر. إذا لم تعطني حقاً، فقولي ما تقولينه!

اضطرت أن ترضخ: احكي لنرى!

حكت ناجية على نفس واحد:

- تريد السيدة الكبيرة أن تعمل لكم سحراً لكي يبرد ما بينك وبين السيد المحترم!

خطر هذا ببالها! كانت قد اعتقدت أن لهاتين الامرأتين علاقة قريبة بقضية حرز ناظان، وأخبرت مظهراً بهذا. هذا يعني أن السيدة هاجر قد بدأت من جديد؟

- لماذا تفتح لك أموراً كهذه؟

ارتبكت ناجية:

- لا أعرف يا سيدتي العزيزة؟

- كيف لا تعرفين؟ لماذا تعطيك سراً لولا وجود قرابة شديدة بينكما؟

- والله لا أعرف يا سيدتي العزيزة، لتعمى عيناي...

- دعي القسم. أنا أكره الكذابين. قولي الحقيقة: لأنها تعرف أن لك علاقة بهذه الأمور، أليس كذلك؟

ارتبكت ناجية تماماً. خطر ببالها زوجها: "مشطي كل لحية بالمشط المناسب. لنر مصالحنا. علينا أن نبذل الجهد مع العجوز بوجه خاص، وفتاة البار، احذري التدخل بين العجوز وفتاة البار!" تأتأت:

- أنا لا علاقة لي أبداً بهذا الأمر، ولكن...

- نعم؟

- أعرف شيخاً...

- أرأيت؟ وتقولين لا علاقة لي بهذا أبداً.
- لأنني أحبك...
- ميرسي. ولكنك يجب ألا تنسي أن إفشاء سر إنسان ما منحه إياه لآخرين هو أكبر دناءة أخلاقية!

ناجية نادمة ألف مرة لما قالته، وستقوله، وهي تذوب، خجلاً.

اختصرت الأمر ناريمان:

- لنغدُ كأننا لم نتكلم بشيء في هذا الموضوع. اذهبي إلى عملك!

خرجت ناجية كأنها ستنهار. لم تأمل بهذا أبداً. اعتقدت أنها ستشكرها عندما تتلقى الخبر، وستبدأ علاقة قرابة تُرفع فيها الكلفة بينهما كما كان الأمر مع ناظان، وتضع المرأة في راحة يدها! منذ ذلك اليوم دب في قلبها خوف ينهشه. ماذا لو أخبرت المرأة زوجها؟ وماذا لو أنب زوجها أمه؟ وماذا لو حقدت أمه عليها؟ وماذا لو أنهوا عملها؟

ولكنه لم يحدث ما كانت تخشى منه. فلا "السيدة الخانم" رفعت غطاء الموضوع، ولا السيدة هاجر علمت بالموضوع، ولا طردت من عملها. لم يحدث شيئاً من هذا. ولكن السيدة هاجر التي تهرب منها مسافات طويلة لا تدعها وشأنها، وتسألها بإلحاح عن سبب تأخر السحر. وليس لديها جواب تعطيها إياه. أجلتها فترة بين "اليوم، وغد"، ولكنها في النهاية قالت لها: "قال الشيخ بأنه تخلى عن أمور كهذه. إنه يخاف من المداهمة، ورميه في السجن..." وتملصت من هذا العمل.

السيدة هاجر أيضاً أدركت أن هذه المرأة لن تفعل شيئاً. ، لها مصلحة. إنها تعطيها أغراض جديدة. ستتزلف لها بالطبع، ولن ترغب بفقدان طعم فمها. حكت هذه الأمور كلها لأم مدير المالية وهي منهارة. وقالت لها أم مدير المالية:

- لا تقلقي. لدي من أعرفه. أستطيع أن أؤمن احتياجاتك منه!
- الله لا يحرمني منك يا أختي.
- آه.. طبعاً، إحدانا ضرورية للأخرى من أجل أيام كهذه.
- صحيح.
- هل بدأت تكلف الكثير من النفقات؟
- وأي نفقات. أمرت بدهان الدار الكبيرة بالدهان الزيتي، وشراء مفروشات وسجاد وبسط جديدة، وجلبت طباخة، وثمة خادمة تقوم بأعمال البيت... إنها امرأة، يبعث لها العمى. تدور كالمروحة من حول الكنة الجديدة. يا سيدتي العزيزة، يا سيدتي العزيزة... أنا أشفق أساساً على ابني. يكسب، ويجلب، والمرأة المبذرة تنفق بدون حساب.
- حسنٌ، ألا تقرصين إذن ابنك؟
- لا يُقال له كلام يا أختي. ما أن يقول ناريمان، حتى تخرج من فمه عدة مرات ناريمان. أه من ناظاني العزيزة، آه!
دمعت عيناها. جففتها بمنديلها الأبيض.
- كان للمسكينة فم، وليس لها لسان. اضربيها على رقبتها، وخذي لقمتها من فمها. إنه تقدير الله تعالى. أنا لا ألقي اللوم على أحد، ألقيه على نفسي. هذه بلية الله. حتى أثناء دهان الدار الكبيرة كانت تصرخ بالمعلمين. إنها كالمحامين يا أختي، فقد جذبت خلدوناً، وأخذته من بين يدي. لم يعد الولد يسأل عن أمه، ولا عن جدته!
- لم يعد يسأل عن أمه أيضاً؟
- حتى لو سأل عنها، فلمجرد السؤال. إنه طفل. يعرف أين يُحب. المرأة حلوة اللسان. تغدو طفلة مع الطفل. إنها تلعب معه ، الله لا يريك!

سألت أم مدير المالية عما شغل بالها:

- لئلا تكون ناجية لحاسة الخزينة قد فتحت موضوع السحر للكنة؟

نظرت السيدة هاجر بخوف، بعد ذلك قالت:

- لا أعتقد. لو كانت قد حكت، لافتضح الأمر حتى الآن!

- كيف؟

- كيف سيكون؟ ستضع المرأة السافلة الأمر في أذن ابني فوراً، وهو سيقول لي على الأقل بأن الأمر الذي قمت به معيب جداً. وأنا أغضب منه إلى أبعد حد!

كانت ناريمان قد فتحت الموضوع لمظهر. فتحته، ولكنها عرفت كيف تُهدئ زوجها الغاضب جداً، والمزمع على الذهاب إلى أمه فوراً، والطلب منها السكن بشكل مستقل.

قالت له:

- أنت لا تتدخل أبداً بهذا الأمر. ولا تظهر شيئاً. الأصح ألا ننشغل بها أبداً. استمر أياماً كأنه مقاطع أمه. كان يهرب بعينيه منها في البهو. ويكلم زوجته، أو خلدوناً.

قالت له زوجته المنتبهة إلى حاله هذه ذات ليلة:

- لا تعجبني حالك هذه أبداً يا مظهر. أنا أعرف أنك رجل راجح العقل. إنك تتصرف مع أمك بشكل بارد جداً!

- ماذا أفعل يا زوجتي العزيزة، الأمر ليس بيدي.

- لماذا؟

- انشغال أمي بأمور من هذا النوع يوتر أعصابي. ثم إنك ألم تطرحي احتمالاً حول سحر ناظان ياه؟

- نعم. قلت بأن لأمك وناجية هذه إصبعاً في هذا الأمر، ولكنك قلت لا.

- قلت هذا، ولكنني أعطيك الحق الآن!

قد سمعا صوت حنتور يقترب في عمق الليل، فلم يعيراه انتباهاً. بعد قليل وقفت العربة أمام بيتهم. ذهب مظهر إلى النافذة، وأزاح الستارة، ونظر: وقف الحنتور أمام بيتهم حقيقة. وفي ضوء العربة الأصفر رأى رجلاً يضع طربوشاً، ومعه امرأة ترتدي معطفاً. التفت. كانت ناريمان تنظر من فوق كتفه أيضاً.

- هل هما قادمان إلينا ؟

- غالباً.

- من يمكن أن يكونا ؟

- وجهاهما غير واضحين. آ... إنهما قادمان إلينا حقيقة.

مد الرجل يده إلى دقاقة الباب الحديدية، وقرعها بقوة. تماوج الصوت في عمق سكون الليل. فُتح الباب. سأل الرجل المرتدي معطفاً الطباخةَ التي فتحت الباب:

- هل المدعو مظهر في البيت غير الكريم؟

أدركت الطباخة الإسطنبولية الأصل أن القادم هو صديق مظهر الذي يرفع معه الكلفة.

- إنه في البيت، لأعطيه خبراً.

- أعطيه لنرى.

- من نقول له يا سيدي؟

- تقولين نهاد اليانيالي.

مظهر على رأس الدرج، يقف ملتفاً بالمعطف البيتي وبفضول. عندما سمع عبارة: "نهاد اليانيالي" هرع قائلاً:

- واخ. أنت ها؟ يا روحي صديقي. ما هذه المفاجأة يا هذا؟ لماذا لم ترسل لي برقية طالما أنك ستأتي؟

احتضن أحدهما الآخر، وتعانقا تحت نظر زوجتيهما الدهشة.

- ما هذه الحال ولاه نهاد؟

- ماذا يوجد ؟

- إنك تقدمت بالسن ولاه!

- طبعاً سأتقدم بالسن يا ابني. أنا لست مثلك أكسر جوزاً في بلد متحضر!

- ماذا؟

- أنا كنت في الشرق يا عزيزي، في الشرق!

- مدعي عام؟

- قاضي. قاضي محكمة الصلح...

- حسنٌ؟

- تركت. قررت أن أعمل بالمحاماة. سأعمل محامياً هنا. كيف؟

عبر تعبير امتنان على وجه مظهر... وقال:

- رائع، والله رائع يا نهاد!

- رائع، ولكنك خبلت كثيراً يا مظهر.

- لماذا؟

- وهل في هذا الأمر لماذا؟ هل يتكلم الإنسان مع ضيفه عند الباب؟

أطلق مظهر قهقهة:

- معك حق. انتظر قليلاً ياه... لنعرف زوجتينا إحداهما على الأخرى. زوجتي ناريمان!

مد نهاد يده شاكاً ومتردداً. التي يعرفها هي ناظان. الفتاة الجارة الجميلة ذات الشعر الأشقر الطويل التي كانا يتفرجان عليها من بنسيون السليمانية. بعد ذلك رتب مظهر الأمر، ومارس معها الجنس، وهذه ليست تلك.

- ألم يكن أسمكم أصلاً ناظان؟

ضحكت ناريمان... نظرت إلى مظهر. قال مظهر:

- لنصعد أولاً، ونتكلم...

صعدوا. فهم نهاد من رفاهية البيت أن مظهراً يكسب كثيراً. بعد الترحيب، وفي أثناء خروج ناريمان ذات لحظة، حكى له مظهر باختصار عن سبب انفصاله عن زوجته. وإذا كان نهاد قد حزن، فلم يقل عن الأمر شيئاً عندما وجد أن صديقه سعيداً.

- القضية كلها هي إيجاد السعادة يا عزيزي.. طالما أنك سعيد...

- وأي سعادة!

- أمك أيضاً عندك؟

قال مظهر من دون رغبة:

- عندي.

- لماذا؟ ألست ممنوناً منها؟

كانت قد دخلت ناريمان، فقطعا الكلام.

بدأ نهاد اليانيالي بالحديث عما عاناه في الشرق. سلطنة الفوضى

مستمرة رغم الثورة. الموظفون كلهم مجرد ألعوبة بأيدي سلاطين الفوضى، أو نوعاً من "عبيد مأمورين" مكلفين بتسيير الأمور بحسب مصالحهم. لا يهتمون أبداً لقانون... يقطعون، ويذبحون. وليس ثمة خيار إلا أن تسايرهم على هواهم، وتملأ الجيوب بالنقود، أو تضطر للاستقالة. لا فائدة من الصراع. ضحك مظهر متألماً:

- أنا لا أجده عديم الفائدة!

- أنت مثالي، وهذا هو السبب.

- إذا كنا نؤمن بالثورة، فنحن مضطرون لأن نكون مثاليين!

- أنت محق، ولكن يجب أن يكون للنضال أيضاً حدود، وتناسب ما، أليس كذلك؟

فتح مظهر حديث الدعوى المليونية التي بين يديه، والصعوبات التي يتعرض لها. كان نهاد اليانيالي يستمع بانتباه. تخيل "أجرة الوكالة" التي سيتقاضاها صديقه إذا كسب الدعوى. هذه تعني ثروة. يا لحسن ما فعله بمجيئه إلى هنا. يقول مظهر:

- أيدي الرجل وأذرعه طويلة وقوية مثل الإخطبوط... ورغم معرفته في البلد أنه عدو الثورة، فهو يسير سفينته بثروته الكبيرة، حتى لدى عدد من الثوريين. حاول شرائي بالنقود. وعندما لم يفلح بهذا، حول الأمر إلى التهديد. وعندما لم يفلح هذا، انشغل الآن بحرف الدعوى عن مسارها. وإلا يجب أن تكون هذه الدعوى قد انتهت منذ زمن طويل. إنها لا تنتهي، لا تنتهي، ولن تنتهي على الأغلب!

كانت ناريمان تستمع بقلق. التقت عيناها بعيني نهاد في هذه الأثناء. كأنه فهم ما أرادته المرأة الشابة، فقال:

- أنا أرى أنك يجب أن تترك هذه الدعوى المحفوفة بالمخاطر.

فرحت ناريمان وقالت:

- أنا أيضاً مقتنعة بالأمر ذاته يا سيدي. أقول له تخلى عن هذه الدعوى، ولكنه لا يصغي إلي. جعل مظهر هذه القضية كلمة شرف. نعم أنا أفهمه، هذا صحيح، ولكن... أنتم مثلاً، لماذا لم تستمروا بالنضال وحدكم في الشرق؟

- يحدث صراع غير متناسب يا سيدة.

- صحيح جداً. الأمر نفسه ينطبق على مظهر اليوم. وهو بنفسه يقول إن للرجل أذرعاً كالإخطبوط يمدها إلى كل مكان، ويعمل ما بوسعه لكي لا تنتهي الدعوى، وهو ينجح في هذا أيضاً.

توترت أعصاب مظهر. نهض. خرج من الغرفة. تقابل مع أمه فجأة. كانت تراقب الداخل من نافذة البهو في الظلام. ارتبكت عندما رأت ابنها.

- من هؤلاء يا ابني؟

عنفها مظهر:

- طالما عندك فضول، فادخلي، واعرفي!

أمسك أمه من ذراعها، وجلبها إلى باب غرفة الضيوف:

- انظر يا نهاد، إنها أمي!

اقترب نهاد اليانيالي مع زوجته باحترام منها، وقبلا يدها. وقدمتها ناريمان إلى صدارة البيت، وكأن شيئاً لم يكن بينهما:

- تفضلي إلى هنا يا أمي العزيزة!

جلسوا إلى ساعة متأخرة، شربوا شاياً وقهوة، وأكلوا بسكويتاً.

ودُورت الأسطوانات على الحاكي الذي اشتراه مظهر قبل عدة أيام. تجلس السيدة هاجر في صدارة البيت بعبوس لافت للانتباه، ولا تتدخل بالحديث إلا عندما تضطر لهذا. لم يغب هذا عن أعين الضيفين. عندما انزويا في غرف نومهم بعد منتصف الليل بساعتين، تحدثا عن وجه الحماة العبوس.

قالت السيدة حكمت التي تذكّر بطبعها الناعم ورموش عينيها بناظان:

- تبدو حالتها صعبة جداً.

وبعد أن شرح لها زوجها قضية ناظان التي في السليمانية، وبالتفاصيل، قال:

- إنها ليست صعبة، بل مخيفة. لم تهضم زواج ابنها من ناظان بأي شكل. عاكست الفتاة المسكينة كثيراً. امرأة مسكينة. لو رأيتها بأي حال حلوة ومسكينة.

- يبدو أن ناريمان على عكس الأخرى تماماً؟

- هكذا تبدو. ألم تنتبهي للحماة؟ كيف كانت تنظر محتدة وهي تتكلم؟

- إنها غير مهتمة، أليس كذلك؟

- غير مهتمة.

- مهما يكن، لننظر نحن بأمورنا. في أثناء هدرنا الوقت في الشرق، صار هو غنياً جداً، الله يعطيه!

- هل يساعدنا باعتقادك؟

- يساعدنا. مظهر ولد جيد. ولكنه عنيد كمعزى في قضايا

المبادئ. مثلاً، تلك الدعوى ضد الصناعي... نعم، صحيح. علينا نحن المتنورين التمسك بروح الثورة، ونحافظ عليها إلى أبعد الحدود، ولكن كما قلت من قبل، يجب البحث عن تناسب معقول في النضال. وفي الحال المعاكسة، فإنهم يأكلون الإنسان وعلى نحو غير متوقع أبداً!

وجد نهاد اليانيالي بيتاً خلال أسبوع، وسكن. لم يكن عنده أثاثاً فاخرة كثيراً، ولكن الأمور كلها ستوضع في نصابها مع الزمن. سيستفيد من مكتب مظهر حتى يجد مكتباً.

امتزجت العائلتان جيداً خلال زمن قصير. أحبت ناريمان زوجة السيد نهاد التي تذكّر كثيراً بناظان. إما أن تكون عندها، أو الأخرى تكون عند الأولى يومياً. وكانت السيدة حكمت محبوبة خلدون الجديدة: الخالة الظريفة!

تنشغل الخالة الظريفة بخلدون كما تنشغل به الأم الظريفة، فتقول له:

- يا صهري.

فتعلق عليها ناريمان:

- قضية الصهر لا تتحقق هكذا يا سيدة حكمت! عليك أن تلدي فتاة لخلدون!

لندع المزاح جانباً، فالمرأة الشابة أرادت هذا كثيراً خلال خمسة أعوام من الزواج، وطرقت كل وسيلة ليكون عندها ولد، وجربت أنواع العقاقير النسائية كلها. لم يحدث. لو صار عندها ابنة... ستغدو كأنها تمتلك الدنيا، هذا إذا لم تجن. تُسرح شعر خلدون كالبنات، وتربطه ضفائر، وتصبغ شفتيه.

وإذا كانت السيدة هاجر تغضب من كل هذا، فإنها لا تستطيع أن تعلق. وإذاما علقت فهي تعرف كيف أن ناريمان ستتكلم مطولاً مثل "محامي" وتخرجها على غير حق. كان أملها الوحيد عند أم مدير المالية. كم سيكون جيداً إذا حضرت لها حرز البرودة، وأعطتها إياه، ونالت رغبتها، وإذا لم يحدث، فلن يبقى أمامها غير مغادرة الدار الكبيرة تحت هذه الشروط.

في إحدى الليالي رأت ناظان في حلمها. كانت رقبتها ملتوية، وتنظر بعينين دامعتين. كانت ألبستها مقطعة. وفي اللحظة التي كانت ستتحدث إليها، ظهر عدد من السادة الأنيقين لا تدري من أين، واحتضنوا المرأة الشابة، واختطفوها وهي تصرخ. ركضت من خلفهم، وركضت، ولكن من دون جدوى.

استيقظت وهي تتصبب عرقاً. كان قلبها يخفق. لم تستطع التخلص من الكابوس. على ماذا كان يدل ذلك الحلم؟ هل ناظان وقعت بالهموم؟

هرعت إلى أم مدير المالية منذ الصباح الباكر. سردت عليها الحلم الذي رأته منفعلة. هزت المرأة المستمعة للحلم بانتباه رأسها هزة العارفة، وقالت:

– يجب أن تكون مهمومة... الله يساعد المسكينة!

١٦

ما زالت ناظان مختفية رغم انقضاء عشرة أيام على انتقال نسرين إلى بنسيون طرلاباشي. لماذا؟ ترى هل هي مريضة؟ ليست مريضة. جلست خلف شبك النافذة، تنظر إلى الثلج النادف قطعاً كبيرة، وتبكي: ترى ماذا يفعل خلدون؟ ترى هل اعتاد على غياب الأم أم أنه يرصد الطريق منتظراً أمه؟ لعل جدته تسليه بقولها "أمك ستأتي في الربيع!". لو ينقضي هذا الشتاء، وخاصة لياليه المخيفة أكثر، ويأتي الربيع، ويدفأ الجو.. لو أنها تتلقى برقية ذات يوم، يوم مشمس على كل حال، يقال فيها: "أرسلت لك حوالة برقية بهذا المبلغ. تعالي بسرعة. ابنك ينتظرك!" أو ما شابه ذلك. ولو تودِّع خالتها فور تلقيها النقود، وتنطلق في الطريق...

عندما تخطر خالتها ببالها، يدب في قلبها الضيق. علقت على الخاتم. "بيعي الخاتم، ولنشتري بضع آلات. لا خير في زوجك. دعي الجنون. لو كان سيجلبك، لماذا يطلقك، ويرسلك..." تنهدت. شبعت من خالتها المتقدمة كثيراً بالسن، والثرثارة إلى أبعد الحدود، إلى حد أنها إذا تمكنت من العودة إلى بيتها وزوجها وابنها، فلن تسأل عن اسطنبول ولا عن خالتها. ستحتضن بيتها ومكانها بكل ما أوتيت من قوة،

وتعرف قيمة حماتها، حماتها الحبيبة، ولن تهتم حتى لو وجهت لها أقذع الإهانات. ولماذا ستوبخها؟ لو كانت ستفعل هذا، فهل كانت تكدح من أجل أن تأتي بابنها إلى الطريق الصواب؟

مسحت دموعها براحة يديها. كلت وملت من هذه الأزقة الضيقة، والجيران النمامين، والسادة المائعين ذوي الشوارب الكثة والبنطلونات العريضة، والأكثر من سامي!

قفز قلبها من مكانه عندما تذكرت سامي. أي رجل دبق، وملحاح هذا يا ربي!... لا يفهم إذا ما قيل له قف، وإذا ما قيل له اجلس. رغم قولها: "أنا لست من النساء اللواتي تعرفهن. أنا جئت إلى هنا مؤقتاً. وسأعود في الربيع إلى بيتي وزوجي. بعد ذلك فكروا أنكم حبيب نسرين. كم ستحزن عندما يصل الأمر إلى أذنها!" يقول إنه لا يحب نسرين ولو مقدار ذرة، ولن يقطع رجله عن الحي.

أما في الحي فقد تأججت النميمة. وقرصت أذن خالتها مع تهديد بقول: "قولي لخليلكم أن يقطع رجله عن الحي، وإلا فإننا سنكسرها له."

كانت ترى أحياناً النافخين أنفسهم في الحي كيف ينظرون محتدين إلى شبك النافذة، فيرتجف قلبها. تقول خالتها: "لا أستطيع أن أدخل رأسي تحت البلاء بسببك، ويسوء وضعي مع الحي". إما أن تسمعي كلامي، وتشتري الآلات، وإما..."

لم تقل بعد "تنقلعين من بيتي!"، ولكنها ستقولها ذات يوم بالتأكيد. وعلى مدى أيام وليال تفكر بما يمكن لها أن تفعله حينئذ. عرضت عليها نسرين السكن معها عندما تنتقل إلى البنسيون، ولكن هذا لا يناسبها. ستنتظر إلى الربيع، وستتجرعه ولو كان سماً زعافاً.

لا تخرج من البيت أبداً لكي لا تساعد على حدوث أي ضجة في الحي. ولا ترد إذا جاء سامي، ونقر على النافذة. ولكن رؤية نسرين قد حل. لو كانت تعرف عنوانها الجديد، لكتبت لها، ودعتها. وهذا يمكن أن يكون خطيراً. ماذا لو ظهر سامي عندما تأتي؟ كيف ستشرح لها الوضع حينئذ؟ قال لها سامي: "أنت فكري. إذا أغضبتني، فسأقول لها: نعم إننا نمارس الحب، وأتملص من الموضوع."

ذات يوم انتبهت إلى نسرين التي ظهرت أمام شبك النافذة.. كانت هي حقاً! صغر حجمها وسط معطفها الرصاصي، وازرقت يديها ووجهها من البرد. قالت غاضبة منها:

- لم تتصلي بي كل هذه المدة، وتسألي عني. بيننا صداقة يا هذه. لا أستطيع فتح عيني من المرض. يأتي الإنسان ليسأل ما إن كنت قد مت أم بقيت على قيد الحياة!

كانت على حق.

- أنت على حق يا صديقتي، أنت على حق من الأرض إلى السماء، ولكن لو تعرفين ما أعاني منه!

- ماذا حدث؟ هل هو شيء جديد؟

- لا، ما تعرفينه، ولكنني كللت ومللت من نقيق خالتي. هيا لندخل إلى الغرفة. انظري إنك مزرقّة من البرد.

انتابت نسرين نوبة سعال أخرى. دخلت إلى الغرفة وهي تسعل في منديلها الزهري حتى تكاد تختنق. أرخت نفسها على المقعد العريض. كانت ناظان تنظر إليها قلقة، وينفطر قلبها من أجلها. ارتاحت نسرين بعد أن بصقت في منديلها البلغم الممزوج بالدم. كانت تذوي. تعرق صدغيها عرقاً بارداً. تابعت قائلة:

- أنا طريحة الفراش منذ أيام. لم أستطع الذهاب إلى العمل أيضاً. وسامي السافل لم يتصل بي. يبدو لي أنه مشغول بألاعيب سرية ما!

سألت ناظان بفضول:

- يعني كيف؟

- لا أدري. لا أعرف ماذا يعمل، ومن أين يكسب نقوداً. تنظرين فتجدين أنفه في جبل قاف، وتنظرين مرة أخرى، فتجدينه ذليلاً. عندما يتحول إلى ذليل، يأتي، ويجدني. طبعاً فإن النقود هي همه، وما يريده. أقول لنفسي عندما يهرب مني أياماً طويلة: لن أبدو مرحبة به إذا ما جاء من أجل النقود. ليفهم الأمر على حقيقته. ولكنني لا أفي بوعدي هذا في أي وقت. هل يوجد في وجهه شعرة من الشيطان، أم ماذا؟ ما إن أراه حتى ألين.

شردت عيناها. كأن ناظان على إبر تخاف من مجيء سامي. ماذا لو أتى في هذه الأثناء، ونقر على النافذة؟

تابعت نسرين:

- كيف أنت مازلت مرتبطة بزوجك؟ أنا هكذا. العالم في واد، وهو في واد. تسلم لي روحه، ليبق من دون نقود، ويأتي، ويسأل عني. ماذا أفعل؟ هو الذي يربطني بالحياة. من لي غيره في هذه الدنيا؟

اغرورقت عيناها. ناظان أيضاً تفكر بزوجها بالطريقة نفسها. عيناها اغرورقتا بالدموع كذلك. كانت ستتكلم عن زوجها وابنها وحتى حماتها، وتقول: "ليضربونني ثلاث مرات في اليوم، فلن أحتج. وخاصة حماتي، فإنني لن أبدي أي امتعاض في وجهها..."، ولكنها لم تقل.

عرضت عليها نسرين:

- انهضي، وارتدي ثيابك، لنخرج.

نظرت ورموش عينيها رطبة:

- إلى أين سنذهب؟

- شاهدي بنسيوني الجديد، وفكري!

- كم غرفة؟

- اثنتان. ولكنهما كالعلب. وهو لطيف جداً. كما ترتب علي دين كبير أخذته سلفة من البار. إذا منحني الله الصحة، فسأدفعه بسرعة. هيا جهزي نفسك!

مازالت ناظان قلقة من مجيء سامي. رغم هذا حضرت نفسها بسرعة. خرجتا. حين خطت خطوتها الأولى إلى الزقاق، كانت تدعو دعاء وراء دعاء، وتقرأ نافخة من حولها.

عبرتا الزقاق من دون حادث أو بلية. خف ندف الثلج. حين انعطفتا من عند زقاق الجامعة صادفتا جلال الكردي، والأخ الكبير إحسان. ترنحت ناظان. ماذا لو أسمعاها كلاماً؟ وماذا لو قطعا طريقهما، وقالا: "قولي لخليك أن ينقطع عن هذا الحي، وإلا فسيكون الأمر سيئاً!" أو ما شابه ذلك؟ كانت رجلاها تصدمان الواحدة بالأخرى.

لم يُسمعها الشابان أي عبارة. اكتفيا بالنظر بحدة فقط. لحظة انعطافهما عند الزاوية تماماً، قال جلال الكردي:

- هل عرفت التي بجانبها؟

لم يكن الأخ الكبير إحسان يعرف نسريناً.

- من؟

- إنها تعمل في البار.

- صحيح؟

- أكون عديم الشرف إذا لم يكن صحيحاً.

- قل إن ناظان على ما يرام؟

- طبعاً يا هذا. وهل يأتي ذلك الخليل إلى الحي من دون شيء؟

تقطب وجه إحسان الغليظين. أخرج يديه من جيبي بنطلونه العريض، وعقدهما وراء ظهره. قال جلال الكردي الشاب الضخم المرفوعة ياقة سترته إلى الأعلى:

- لن يكون سيئاً إذا عرفنا المكان الذي تذهبان إليه.

- أنا أيضاً كنت أفكر بهذا.

- هل نلحق بهما؟ ليس عندنا الآن عمل نقوم به.

- حسن.

وجدا المرأتين على موقف تراموای بيازيد. بدأا "بمراقبتهما" من دون لفت الانتباه، ومن دون علمهما بأنهما مراقبتان، ركبتا الترامواي القادمة بعد قليل، ونزلتا في غلاطاسراي. كان الثلج يتوقف أحياناً، وينهمر بغزارة في أحيان أخرى. عبرا من سوق السمك، ونزلتا إلى طرلاباشي، ودخلا إلى أحد الأبنية العالية. بدخولهما إلى البناية فتح جلال الكردي والأخ الكبير إحسان أعينهم عشرة على عشرة. قال إحسان:

- وآخ من أمها. قل إن المرأة تذهب في الطريق بحالها!

- في الطريق طبعاً. لا بد أن امرأة البار تجلبها لتبيعها.

- على كل حال. ولكنها لا تعيرنا اهتماماً!

- ستعيرنا طبعاً. خليلها أفندي، إنه من مجموعة السادة يا ابني!

شتم إحسان السيد والأفندي.

- النقود التي يعطيها إياها صحيحة، والتي سنعطيها إياها فرط؟

- ليس كذلك، نحن أبناء الأحياء المتطرفة الفظين يا ابني...

ولأن المرحوم والد إحسان مفتش شرطة سابق، فهو يعد نفسه ابن شرطي. عبارته "أبناء الأحياء المتطرفة الفظين" طيرت صوابه، فقال:

- سيكون لك ما يكون. لن أكون إحساناً إذا...

- عرفنا سرها ياه، لننتقل إلى الحساب. إذا قبضنا عليها وهي مع بضاعتها، نربطها بالأتاوة، وينتهي الأمر. تناول طعام النساء اللواتي يواعدن الرجال لذيذ. أليس كذلك؟

أشعل إحسان سيجارة وهو غاضب. كان قد نسي جلالاً الكردي، وما حوله. ناظان في رأسه. كانت تتعرى. بجانبها سيد بطربوش أحمر. هو أيضاً يتعرى. أسدلت الستائر. ضوء الشمس المتدفق من فتحة الستائر السميكة يلمع على السرير البني اللون. تنهد.

سأله جلال الكردي بفضول:

- ما هذا؟ لماذا تنهدت؟

قال إحسان:

- لا لشيء.

- تبدو مهموماً؟

- لست مهموماً... أقول ماذا يفعلون في الداخل يا ترى؟

جلست ناظان على حافة السرير الذي يلمع معدنه الأصفر. كانت نسرين واقفة على قدميها. سألتها ما إن كانت ستشرب كونياكاً من

أجل أن تدفئ داخلها. كانت ناظان مترددة على ما هي عليه في حالتها الخجولة تلك. أضافت نسرين:

- كأس كونياك صغير يا ناظان، ماذا سيحدث؟

- ماذا لو سكرت؟

ضحكت نسرين مقهقهة.

- لا تغضبي يا ناظان، ولكنك غشيمة جداً. ماذا سيحدث من شرب كأس كونياك؟ الأفضل، انتظري. لأضع إبريق الشاي على الموقد، ولنشرب كونياكاً بالشاي!

- وهذا ماذا يعني؟

- شاي مع الكونياك يا هذه. يشرب الكونياك مع الشاي براحة أكبر...

خرجت من دون أن تنتظر جواباً.

نهضت ناظان عن السرير، ذهبت إلى النافذة. كان يُسمع ضجيج شارع بيه أوغلو بشكل عميق. هدأ تساقط الثلج مرة أخرى. فجأة وقعت عيناها على إحدى نوافذ الطوابق العليل للبناء المقابل. رأت عبر الستارة المنفرجة قليلاً منظراً جانبياً لامرأة شبه عارية، ثم لرجل أشقر بجانبها، بعد ذلك رأتهما يتبادلان القبل من الشفاه. خافت وكأنها ارتكبت ذنباً. تلفتت إلى جانبيها. بعد ذلك انزوت خلف الستارة السميكة، واستمرت تتفرج:

كأن اللذين وراء النافذة غابا عن الوعي، راحا يمارسان الحب غير مباليين ما إن كانا يُريان من الجوار أم لا. لم يكن ممكناً رؤية الكثير، ولكن هذا القدر الضئيل جعل دم ناظان يغلي. كم أرادت أن تكون الآن بين يدي زوجها في هذه اللحظة.

تنهدت. يمكنها أن تحظى بزوجها وابنها بعد شهرين على الأكثر. لو يأتي ذلك الوقت، آه لو يأتي!.. ستكون تلك المرأة المغناج التي يريدها زوجها.

طرح الرجل الذي وراء النافذة المقابلة المرأة على ظهرها. لم يعودا يظهران. يرتفع رأس الرجل الأشقر، وينزل أحياناً فقط. لولا خشيتها من مجيء نسرين، لسحبت أحدِ الكراسي، وصعدت عليه آملة بأن ترى بشكل أفضل، أوِ لو لم يكونا في أحد الطوابق العليا للبناء!

في تلك اللحظة بالضبط ظهر الجزء الذي يعلو خصر الرجل مرة أخرى. كان قلب ناظان يخفق بسرعة. تصدر موجات حارة من عينيها، وترتجف يداها. سحبت الكرسي، وصعدت عليه. ما توقعته صحيحاً. لم يكن يُرى كل شيء براحة، ولكنه يكفي لغليان دمها. شردت.

فجأة صوت نسرين:

- الله يسهل عليك!

نزلت ناظان إلى الأسفل وكأنها ضربت في مخها. اصفرت تماماً عندما قابلت وجه نسرين الساخر والضاحك.

- هل عندك فضول للفرجة على أمور من هذا النوع؟

تأتأت:لا يا روحي.

- هيا، هيا... تقول لا يا روحي. أنا أدوخ بها. المكان هنا فيه بركة كثيرة. تعالي لنصعد إلى الطابق الأعلى عند المدام!

سحبتها من يدها. كانت المدام صاحبة البنسيون تسكن في الطابق الأعلى. تبدو مرهقة كثيراً بشعرها الأشعث، ويديها النحيلتين. فتحت الباب. كانت صديقة جداً لنسرين. قالت:

- تفضلوا. ماذا يوجد؟

- لا شيء. سنتفرج على السينما!

كانت المدام معتادة على أشياء كهذه. أفسحت الطريق وهي تضحك مرجفة لحم تحت ذقنها المتهدل.

مازالت يد نسرين تمسك يد ناظان، وهي تنجر ورائها كأنها ارتكبت ذنباً كبيراً. نظرت نسرين إلى صاحبة اليد الغادية بيدها كالثلج:

- ما هذا؟ أم أنك تخجلين؟

احمرت ناظان حتى شحمتي أذنيها.

- ليس ثمة ما يخجل يا ابنتي. هذه أمور عادية...

دخلتا إلى غرفة يظهر منها كل ما يجري وراء النافذة المقابلة بوضوح تام! لم تكن ناظان تستطيع النظر. خفضت عينيها. ولكنها اعتادت. لأن نسرين قد نسيتها. بحلقت من خلال النافذة تتفرج على خلف الستائر السميكة وهي لاهثة.

مازالت يد ناظان بيد نسرين. لم تكن المرأة الشابة منتبهة إلى أن اليد التي بيدها صارت تشتعل لهباً. بعد ذلك ابتعدا عن النافذة. كانت تلك الأمور ليست من النوع الذي يمكن أن يُبالغ فيه. فهمت ناظان. قالت نسرين:

- إنها حاجة. ألا تشعرين أنت بها؟

أيمكن ألا تشعر بها. خاصة أثناء الفرجة! ولكنها رغم هذا هزت كتفها مبتسمة. نزلتا إلى الأسفل. كان إبريق الشاي يغلي. ألقت فيه نسرين الشاي، وأنزلته. قالت:

- ليس ثمة ما يفوق سامي بألاعيب العشق. هل كنت أحتمل قهره على مدى تلك السنوات كلها لولا أنه كذلك؟

ألاعيب العشق! أعجبت ناظان بهذه العبارة كثيراً. لم تسمعها أبداً حتى الآن. حتى إنها لم تشعر طوال حياتها الزوجية بما شعرت به قبل قليل وهي تتفرج من النافذة.

أثناء شرب الشاي بالكونياك، بدأت نسرين تشرح حياة البار. ناظان تنتقل من دهشة إلى دهشة، وتسمع وكلها آذان صاغية. قالت في هذه الأثناء:

- أتوق كثيراً لمعرفة باركم هذا. هذا يعني أن أموراً أخرى تجري غير الرقص هناك؟ '

- هل تسألين؟ وهل يترك الرجال حفنات من المال هناك للاشيء؟

كانتا تشربان الشاي بالكونياك مع الشيكولا وسكاكر اللوز.

- ولكن لا يُستمتع مع كل من يأتي أمامك. بعد ذلك فإننا لا نستمتع بسهولة. لا أدري لماذا يبدو لي الزبون بارداً جداً. المتعة الحقيقية يأخذها الإنسان ممن يحب. الزبون، ماذا؟ سينتف بمهارة أولاً. خاصة إذا كان ممتلئاً!

ضحكت ناظان مقهقهة. تلون خداها بالحمرة. كان رأسها يدور بسكر لذيذ. انتشت بشكل لم تشعر به في حياتها كلها. لم تعد تهتم لنسرين وهي تضع الكونياك في كأسها دائماً، تضحك على الطالع والنازل كأنها تتدغدغ. هذه الأثناء فُتح الباب، ودخل سامي. تردد عندما رأى ناظان هناك. بعد ذلك هرع بعينيه السوداوين البارقتين، وتناول يدها، وقبلها.

- كيف حالكم يا سيدتي؟

فقدت ناظان الضغط الذي بداخلها. لم يعد الرجل المقابل لها خطراً بالنسبة إليها، فقالت:

- شكراً.

- هل ستقدمون لي الكونياك أيضاً؟

قالت نسرين غاضبة:

- لا.

- لماذا؟

- وتسأل أيضاً، أليس كذلك؟

تدخلت ناظان بالحديث:

- لقد أهملتم نسرين، وبعد ذلك...

ضحك سامي مسروراً:

- معكم حق. كلاكما معكما حق من الأرض إلى السماء. نعم، أهملت نسرين في الأيام الأخيرة، أعترف بهذا. ولكنني كنت على حق!

نسرين:

- لماذا.

- كنت أتابع بعض الأعمال. إذا قدمتما لي كونياكاً فسأشرح لكما!

قدمت نسرين كأسها المليء. أخذه سامي. كرعه بجرعة واحدة وعيناه على ناظان. أعاد الكأس الفارغة. أخذ الشوكولا التي قدمتها له ناظان بسرور.

- ميرسي كثير.

- استغفر الله.

كانت الامرأتان تنتظران بفضول ما سيحكيه سامي وهو لا يستعجل أبداً. أخرج من جيب بنطلونه الخلفي علبة السجائر الظريفة

المطلية بالذهب. أراد أن يضيّف الامرأتين أولاً... لم تأخذ ناظان. خجلت. لم تدخن بحياتها أبداً. حثتها نسرين فأخذت وأشعلت من عود الثقاب الذي أشعله سامي. بعد ذلك فعلت نسرين الأمر نفسه.

- نعم، نحن نستمع إليك!

بدأ سامي يشرح ببطء مبدياً التعقل دائماً. قال إنه دخل عملاً تجارياً كبير، وأن رأس المال أمنه له صديق قريب، ولم يضع سوى جهده، وأعماله ستدخل في نصابها، ويكسبان جيداً...

نظرت نسرين إلى حبيبها بعينين حمراوين تحول بياضهما إلى احمرار:

- طالما أنك تكسب كل هذا القدر لماذا لم تتصل بي، وتسأل عني، وجعلتني أتوسل لصاحب البار للحصول على أجرة البيت لثلاثة أشهر؟

قال سامي متعجباً:

- هل كان يلزمك نقود؟

أخرج الرجل من محفظة لامعة سحبها من جيبه الداخلي مئة ليرة جديدة جداً، وقدمها:

- خذي! هل يلزمك أكثر؟

نسرين مندهشة.

- أيمكن أن لا يلزمني؟ يلزمني بالتأكيد!

- خذي!

قدم لها ورقتين من فئة المئة ليرة تطقطقان. كانت النقود جديدة إلى حد أن نسرين وناظان بدأتا تدققان بها إعجاباً.

- كأنها خرجت من مسننات المطبعة للتو!

- هل يستطيع الإنسان التضحية بصرفها ؟
- لا يستطيع التضحية والله.

وضعت نسرين النقود بين ثدييها. بعد ذلك رفعت عينيها إلى حبيبها ممتنة.

- يا روحي! هل تريد أن تشرب عرقاً؟
- إيه، طبعاً.

قامت لإعداد كأس.

بقيا وحدهما. نظر سامي إلى المرأة وكأنه سيلتهمها. لم تكن المرأة الشابة متوجسة كما في كل مرة حتى وهي تُسحق تحت نظرة الرجل القادرة، وتذكرت كلمات نسرين: "ليس ثمة من يفوق سامي بألاعيب العشق. هل أحتمل قهره على مدى تلك السنوات كلها لولا أنه كذلك؟"

عادت إلى ذهنها مشاهد النافذة، والرجل الأشقر الذي كان قبل قليل يمارس الحب. ترك الأشقر مكانه لسامي. وتغيرت المرأة التي كانت بين يديه. صارت نسرين. رفعت عينيها بخجل شديد. مازالت عينا الرجل السوداوين اللامعتين تلتهمانها. أخذ قدح المرأة الشابة بيده الكبيرة المشعرة، وملأه إلى النصف كونياكاً:

- هل تريدين خلطه بالشاي؟
- إذا لم يكن متعباً لكم...
- أرجوك...

صبَّ شاياً، وقدمه.

لم تعد ناظان تستهجن شيئاً. لم يعد زوجها أو ابنها في ذهنها. حتى إنها قد لا تذهب في الربيع. نعم، قد لا تذهب. ماذا سيحدث؟ارتشفت الشاي بالكونياك. قال سامي:

- لأوصلك إلى البيت مساء، هل هذا ممكن ، أم أنكم ستبقون هنا ؟
- لا، لا، ولكن، قد يتعبكم هذا ؟
- بالعكس. فيه شرف. لدي قول مهم جداً أريد أن أقوله لكم منذ فترة طويلة. أنت تخافين مني كثيراً. لا تخافي. اعرفي أنني أقرب من أقرب قريب لكم!
- نسرين قادمة غالباً!
- لتأتِ نسرين، وليأت من يأتِ يا ناظان! ليست نسرين بل العالم كله لا يساوي شيئاً بجانبك!

كانت المرأة الشابة في حالة غريبة جداً. إنها تستمع للرجل الذي لا تشعر عندما تراه براحة، والغريب في الأمر أنها تستمتع. أهذا ما تفعله الخمرة؟ قالت:
- ولكن بشرط.
- مروني!
- بشرط أن تتركوني عند موقف بيازيد، وتغادرون!
- أمركم...
- لأن الحي يكشر عن أسنانه لكم ولي. أنا أخاف. كان احتمال مجيئكم عندما جاءت نسرين عندنا اليوم جعل قلبي يقفز إلى حلقي من الرعب!
- معكم حق.

عندما دخلت نسرين بالصينية الكبيرة نسبياً التي حضرت فيها العرق والمقبلات، غيَّر سامي الموضوع، وبدأ يتحدث عن التجارة التي يمارسها مؤخراً.

تحدثوا بشكل حلو، وشربوا حتى أشعلت أضواء نوافذ البناء المقابل. ناظان أيضاً شربت عرقاً. إنهما كأسان، ولكن امتزاج هذين الكأسين مع الكونياك حولا نشوتها إلى انفعال غير معتاد. نهضت. سألتها نسرين مستغربة عن المكان الذي ستذهب إليه. ستذهب ناظان إلى البيت خالطة بين الحي وخالتها وغير ذلك. أعادت عليها نسرين ما كانت تكرره مرات عديدة منذ فترة، وللمرة الأخيرة، وبشكل مختصر، وأكثر حدة:

- دعي عنك ذلك الحي، وخالتك يا ناظان! لا أعرف لماذا لا تتركين تلك المرأة المقرفة؟ يمكننا أن نعيش هنا كأختين، ونستمر على هذا النحو!

تحت تأثير المشروب أعطت ناظان الحق لنسرين أكثر من أي وقت مضى.

- أذهب اليوم أيضاً. ولكنها إذا ما ضغطت علي بالكلام...

- اذهبي في هذه الحال عند منتصف الليل تقريباً ولتغضب. واجلبي حقيبتك، وتعالي عائدة!

- منتصف الليل؟

- هل تخافين من الذهاب ليلاً؟

- لا أخاف، ولكن...

- سامي يأخذك!

أدارت ناظان عينيها نحو الرجل الأسمر، والذي يبدو أكثر وسامة مما كان عليه دائماً:

- سيسبب له التعب هذا.

- أرجوك.

نهضا نحو الساعة العاشرة. لم يستطيعا الوصول بالتراموي حتى الحادية عشرة.

أثناء وداعها عند الباب، قالت نسرين:

- لا تنظري إلى نقيق العجوز. اجلبي حقيبتك، واسرعي قادمة.

لم تجب. نزلا الدرج المظلم متجاورين. مازالت في سكر لذيذ، وانفعال إلى حد أنها تقهقه. تمسكت بذراع الرجل المجاور لها. اعتبر الرجل هذا منّة، فتأبط ذراع المرأة المكتنزة بقوة. لم يستطيع تصديق نفسه. ما هذا اللطف غير المتوقع يا ربي! نزلا من الترامواي في البيازيد. قالت ناظان:

- انتظروني هنا.

- طريقكم متعرج كثيراً، ومظلم جداً!

- لا ضرر، لا ضرر...

كان الثلج قد هدأ. ابتعدت بسرعة وهي تسحق الثلج الذي كان يصدر صوتاً تحت قدميها.

لحق جلال الكردي، والأخ الكبير إحسان بالمرأة الشابة من دون أن يظهرا لسامي. يعرفان جيداً جداً أين سيهاجمانها من الطريق، ومتى، وكيف. كانا في خمارة الرومي المقابلة للبناء يفرغان النبيذ زجاجة وراء أخرى بعد أن زادوا انفعالاً في بنسيون "فتاة البار".

انعطفت ناظان عبر الظلام الدامس من جوار المسجد المتصدع الجدران. كانت مندهشة. لماذا لم تشرب هذا الكونياك حتى الآن؟ يا لإزالته الحواجز من أمام الإنسان! وماذا عن دفئه؟

صوت مخنوق من خلفها:

- ناظان!

وقفت. انتظرت، ظلان يقتربان بسرعة. من غير الممكن تحديد من يكون القادمان لعدم وضوح وجهيهما وملامحهما. كان قلبها يخفق بسرعة، ولكنها ليست خائفة.

أخذ الظلان مكانيهما على جانبيها:

- من أين تأتين؟

قالت ناظان:

- ما علاقتك أنت؟

- ما علاقتي أنا؟ نحن نعرف من أين تأتين!

- من أين آتي؟

- من بيت الدعارة في طرلاباشي!

ترنحت. لم تكن الأصوات غريبة. كانا من أبناء الحي على كل حال. انتفضت من بين الرجلين،وأرادت الهرب، فلم يتركاها.

- اتركاني. أقول لكما اتركاني، اتركاني!

لم يتركاها.

- تسمحين للجميع بقدر ما يشاؤون، وعندما نأتي نحن، تقولين الشكر لك يا ربِ؟

- نحن أيضاً عباد الله.

بدأت بالصراخ عندما احتُضنت، وقبلت. لم تعد قادرة على الصراخ حين وضع الرجل الآخر يده على فمها بقوة. لكن الصرخة المخنوقة كانت سمعت على أية حال من قبل إلى الحارس الغافي عند الجدار المتصدع وأيقظته.

ركض الحارس الملتف بسترته بسرعة نحو الحظيرة المهجورة في الزقاق الآخر. ظل الأخ الكبير إحساناً يكمم فم المرأة بقوة. أما المرأة الممددة على كوم روث الحيوانات على ظهرها فتتلوى كالسمكة. حتى لو رُفعت اليد عن فمها فلن تصرخ أو تنادي، بل ستتوسل، وستشرح لهما أن المكان الذي ذهبت إليه ليس بيت دعارة، بل مكان شريف، وتقول لهما إنها ستذهب في الربيع إلى زوجها وابنها. ولكن كانت الأيدي الفظة على فمها تضغط بقوة وفظاظة. لم تستطع التحرك. بدأت تجهش بالبكاء. اعتقدت أن كل شيء قد انتهى، وابتعدت بشكل مخيف عن زوجها وابنها، ولم يبق لها وجه تراهما فيه. في تلك الأثناء بالضبط، أي لحظة نهوض الرجل الأول من فوقها، أنارت صفارة الحارس القوية جدران الحظيرة المهجورة المتصدعة، والمرأة المتمددة على الأرض المكشوفة من الخصر إلى الأسفل.

كان الأخ الكبير إحسان وجلال الكردي قد هربا من فوق جداران الحظيرة المتصدعة.

لم يحاول الحارس المسن الركض خلفهما. كانت المذنبة متمددة على الأرض. لم يكن الآخرون مذنبين. اقترب الحارس المسن الحاقد على النساء، وخاصة الشابات الجميلات منذ أن فقد اعتباره، من المرأة المتمددة على الأرض المجهشة بالبكاء، ورفسها على بطنها:

- انهضي يا هذه...! وتبكي أيضاً. امشي إلى المخفر!

يمكن لناظان أن تذهب إلى أي مكان يطلب منها الذهاب إليه. أصبحت تعد نفسها من النساء المضطرات للذهاب إلى المكان الذي يسحبن إليه. لن تنبس حتى إذا أراد الحارس أن "يوسخ يدها ووجهها"

كالشاب الهارب. بعد المرة الأولى، الثانية، والثالثة، والخامسة، أو المئة..نهضت، وسارت أمام الحارس. ذهبا إلى المخفر.

كانت كأنها في عالم الأحلام. قال المفتش الذي شم فمها:

- إنها سكرانة. سكرانة الكلبة!

سألها:

- من أنت، ومن تكونين؟

شرح الحارس:

- إنها من الأم علية التي تعمل بالجوارب؟

فهم مفتش الشرطة. منذ فترة وتطن أذنه، وهو ينتظر أساساً.

- فهمت، فهمت... اعطها كرسياً لتجلس!

لم تجلس على الكرسي، بل انهارت وسقطت أرضاً. أغمضت عينيها، هي ساكتة. وشعرت بدفء الشاب الذي بدأ يقترب منها. لم تعد تفكر بخالتها، أو زوجها، أو حماتها... فجأة تخيلت ابنها: رأسه الأشقر الشعر تماماً!

نشجت. قال مفتش الشرطة من خلف طاولته:

- ما هذا؟ لا تتعقلون إلا عندما تأتون إلى المخفر! أما كان ممكناً أن تكوني متعقلة لكي لا تصلي إلى هذه الحالة المزرية؟

لم تسمع حتى.

....

نظر سامي إلى ساعة معصمه. كانت تقترب من الثانية عشرة. تجمد من البرد، وتحول إلى ما يشبه المسمار. فكر بعدم فائدة انتظاره، فعبر الساحة القفر نحو باب الجامعة. ترى أيذهب إلى الحي، ويسأل عنها في البيت؟ لعلها تمددت تحت تأثير السكر، ونامت.

دخل إلى الحي متردداً. وقف أمام شباك النافذة. أصغى: شخير مستمر! من يعلم من تكون هذه. لم يتوقف عند هذا كثيراً. لعلها ناظان، لأنها سكرانة جداً، نسيت كل شيء عندما جاءت إلى البيت، فأرخت رأسها، ونامت. مهما كان فقد فوتها. فوت فرصة جيدة. الأفضل أن يعود إلى نسرين في طرلاباشي. وعكس هذا يجعل المرأة تشك به، وتعتقد أنه أمضى الليل مع ناظان. لن يكون مهما فيما لو قضاه معها بجد، لتعتقد ما تعتقد به. ولكن الوقوع بالشبهة من دون سبب! ثم إنه فوت الفرصة اليوم، ولكنه محتاج لنسرين من أجل المستقبل. إذا دب الشقاق بينهما، فستسحب ناظان قدمها، ويصعب إيجادها، والالتقاء بها، ولعله يغدو مستحيلاً. قفز إلى سيارة متثاقلة، مصابيحها مطفأة تقف على موقف بيازيد:

- إلى طرلاباشي!

انطلقت السيارة في طريق طرلاباشي المختصر.

مازالت نسرين تشرب. يجب ألا يتأخرا إلى هذا الحد. تجاوزت الساعة الثانية عشرة. أم أن شيئاً ما حدث لهما؟ هل تشاجرت ناظان مع خالتها، وتدخل سامي؟ هل وقعا في المخفر؟

قلبت كأساً أخرى من دون ماء. كان العرق يدفئ صدرها ويشعرها بالتحسن. كانت تريد سامي هذه الليلة. إنها تريد سامي مهما حدث، ولو قامت القيامة. إنها تحتاجه. ستنتظر سامي حتى لو لم يأت إلى الصباح.

فجأة خطر ببالها احتمال مختلف تماماً، لم تفكر فيه أبداً: أم أنهما، نعم، هل هما... معاً؟ خطر ببالها وجه ناظان. هل هذا ممكن؟ حتى إذا طلب هذا سامي، فهل ترضى ناظان، صديقتها؟

كأس جديدة. لِمَ لا؟ امرأة جميلة، وخاصة سكرانة، أمام رجل مثل سامي... عادت بذاكرتها إلى سنوات طويلة سابقة: زوجها وابن عمه في إزمير. بعد منتصف الليل بكثير. إنها الليلة الأولى التي شربت فيها عرقاً، أو على الأصح شُرِّبت فيها عرقاً بالإكراه. كان ابن العم يدبق عليها منذ فترة. زوجها مخبول. شرّبها أمامه. لم تكن تحب زوجها إلى حد كبير، ولكن لم يخطر ببالها خيانته. عندما سكرت، لم تستطع تحمل رفض الرجل الذي رفضته دائماً. بعد ذلك توطدت العلاقة بينهما، وفي أحد الأيام...

خطرت ناظان ببالها من جديد. لابد من وجود شيء، لابد من هذا. إذا كان هنالك شيء كهذا...

عصرت قبضتيها. كانت ترتجف. افترضت أن سامي وناظان في فراش واحد.

تشنج وجهها بالحرص. وكانت عيناها تبرقان بالحقد. لحظة همت بملء كأس جديدة، تراجعت. نهضت. ذهبت إلى النافذة. كانت ستائر البناء المقابل مظلمة. ولكن ثمة ضوء في نوافذ الطابق الأعلى،الله يبعث له البلاء. عادت إلى مكانها. ماذا ستفعل؟ ماذا يجب أن تفعل؟ ما لذي كان عليها أن تفعله؟ فجأة شعرت بضيق كاد يخنقها. خطر ببالها أن تحطم كل ما في الغرفة، تفتح النافذة بعد ذلك، وتلقي بنفسها على رجل. ذهبت إلى النافذة من جديد.تعرت ناظان في عقلها فجأة كما ولدتها أمها. كانت أكثر شباباً منها، وأجمل. لم تنهك أبداً. هل يمكن لكلب ابن كلب كسامي أن يفوت امرأة كهذه؟ لماذا يفوتها؟ ما السبب؟ صرخت قائلة:

- أووف يا الله، أف!

بعد ذلك انبطحت على السرير، وبدأت تجهش بالبكاء. عندما دخل سامي، وجد نسرين منبطحة على السرير. ذهب إلى جانبها. هزها من كتفها. نظرت المرأة بعينين سكرانتينوقد احمر بياضهما تماماً. بعد ذلك قفزت فوق الرجل بحركة سريعة:

- أين كنت؟

دهش الرجل:

- أوصلت ناظان ياه!

- أين ناظان؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟

- تركتني عند موقف بيازيد وذهبت. كانت ستأتي، ولكنها لم تأتِ. وأنا أيضاً...

صرخت نسرين بقدر ما استطاعت:

- أنت تكذب!

- أنا؟

- نعم. أنت تكذب. كنت مع المرأة! أخذتها إلى بيتك! اعترف، أخذتها، أليس كذلك؟

توترت أعصاب سامي، فقال:

- لا تحكي هراء.

- أخذتها إلى بيتك يا سامي، أعرف هذا. ستعيش معها من بعدي، وتنساني. أنت لا تحبني. هي أكثر شباباً مني، وأجمل. اعترف،

اعترف إكراماً لله! قل إنك أخذت المرأة إلى بيتك. كن جريئاً. هكذا، أليس كذلك؟

كان سامي ينظر إلى المرأة السكرانة كرجل ناجح امتلك اختصاصاً في أمور من هذا النوع. إنه يعرف ماذا تعني امرأة عاشقة، وعاشقة غيورة بجنون وطيش، وغير هذا سكرانة. ثم انها لم تكن على غير حق تماماً. هواجسها قريبة من الحقيقة. لو أن ناظان قبلت، لكان ما يحدث ببال نسرين قريب من الحقيقة.

مازالت نسرين تتماوج كبحر هائج. انكبت على قدمي سامي، وبدأت تقبلهما، طالبة منه ألا يتركها، قائلة إنها ستموت إذا تركها، وستنتحر. ولكن من دون جدوى. لا يشفق عليها ولو بمقدار ذرة. نعم، لا يشفق عليها. لا يشفق عليها لأنها تمارس أموراً دنيئة كهذه. لا يحبها. ليس بيده. كان ينظر بعينين خاويتي ليس إلا.

ذات لحظة، انحنى من دون رغبة، وأمسكها من معصمها، ورفعها. أخذها بين ذراعيه.بدت المرأة سعيدة...

- قل يا سامي، قل يا روح روحي، قل يا صغيري!
- ماذا أقول؟
- كنت معها، أليس كذلك؟
- لم أكن معها.
- كنت معها يا سامي، كنت معها. لماذا تخفي هذا عني؟
- والله لم أكن معها يا نسرين. انتظرتها في موقف البيازيد. لم تأت.
- أنا أعتقد أنها في بنسيونك.

- خطأ.

- أنذهب، ونرى؟ هل تراهن؟

قال سامي بجرأة:

- أراهن. هيا!

ارتديا ثيابهما، وخرجا. كان سامي يسكن في زقاق (آ..) في بيه أوغلو. ندمت نسرين على كلامها عندما لم تجد أحداً في بنسيونه.

- اغفر لي يا سامي، اغفر لي يا عزيزي سامي!

- دعي الولدنة...

احتضنته:

- غفرت لي، أليس كذلك؟

- غفرت.

- ماذا أفعل يا سامي، أنا أحبك، أحبك كثيراً!

- ....؟

- هيا لنذهب إلى البار، ونلهو قليلاً!

سيسر كثيراً للخروج بدل البقاء مع نسرين. خرجا.

في اليوم التالي علم سامي بالقضية. كانت خالتها تطلق الدعاء المخيف على ناظان وتقول إنها لن تدعها تعتب بيتها.

راجع سامي المخفر، وعلم بالموضوع بكل تفاصيله: تم القبض عليها وهي تمارس الدعارة سراً رغم إنكارها، وأرسلت إلى المعاينة. هرع إلى "مستشفى الأمراض التناسلية" وهو في غاية الدهشة. سأل، وعرف حقيقة الأمر من الكاتب. قال الكاتب إنها ستبقى طريحة الفراش لإصابتها "بالسيلان"، وأضاف:

- الأمر باختصار، ليس مرضاً مستعصياً. أصيبت به منذ فترة قصيرة. من المؤكد أنها أصيبت به من الرجل الذي مارست معه مساء أمس!

شعر سامي بالضيق.

عاد إلى طرلاباشي. كانت نسرين تنام فاقدة قوتها. دهشت عندما عرفت بمغامرة ناظان:

- ولكن كيف حدث هذا؟ ناظان التي أعرفها لم تعرف رجلاً غير زوجها، وهي امرأة مسكينة!

غضب سامي:

- أقول إن الرجال هاجموها أثناء انتظاري في الموقف، وعملوا ما عملوه، وأنت حتى الآن...

- لنذهب هذا الأسبوع، ونراها على الأقل...

- طبعاً سنذهب.

ولكن نسرين لم تستطع الذهاب. كانت مريضة. تنام وحرارتها مرتفعة إلى حد أنها راحت تهذي.

ذهب سامي بمجموعة من الهدايا. اصفرت المرأة الشابة، وشحب لونها، وازرق ما تحت عينيها من شدة البكاء. وإذا كان سامي قد حاول أن يسليها، فلم يجد هذا نفعاً. كانت تقول:

- ليس ثمة ما أفعله غير الانتحار. زوجي وابني... أه يا ربي، كيف سأنظر إلى وجهيهما؟

قالت المرأة المصابة بالإفرنجي الخاضعة للعلاج وتسلي ناظان:

- مجنون هذا السيد الأفندي. كل ما هو سيلان. ماذا لو كانت

مصابة بالإفرنجي مثلي؟ انظري، عندك رجل مثل السبع. لماذا تخافين؟ ثم إن الكلاب أولاد الكلاب هجموا عليك. لم تفعلي هذا بإرادتك يا هذه!

لم يكن الكلام يدخل إلى أذن ناظان. عندما علمت بأن نسرين طريحة فراش المرض نسيت نفسها فوراً:

- ماذا أصابها؟

- إنها مريضة أصلاً كما تعلمين. الأفضل أن تُدخل إلى مستشفى السل. قبل فترة سأل عنها رب عملها. أخذت سلفة... ودفعت دينها. يقول الطبيب إننا يجب أن ندخلها مستشفى السل بالتأكيد. سأقوم بالإجراءات اللازمة...

لم يكن اهتمام سامي بإدخال نسرين إلى مستشفى السل حباً بها. عندما تدخل إلى مستشفى السل، يمكن له أن يعيش مع ناظان التي ستخرج من المستشفى قريباً.

هذا ما حدث. بعد ثلاثة أيام من دخول نسرين مستشفى السل دامعة العينين، حُضر ملفٌ لناظان، وخرجت من المستشفى، وذهبت بسهولة إلى بنسيون سامي في زقاق (آ..)، وسكنت فيه. لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه أصلاً.

قال سامي:

- لنذهب إلى خالتك، وخذي حقيبتك!

لا تريد ناظان رؤية وجه خالتها، بل لا تريد ذكر اسمها. لهذا لم يعد هناك خالة، ولا حتى زوج وابن. ستعيش حياة يقودها "القدر"، وتتحملها. زوجها وابنها بقيا في "ذاكرة" مقدسة من الماضي البعيد.

يجب ألا يكون وجودها القذر مدنساً لوجودهما النظيف. ليس لها حق بهذا.

خلال عدة أيام حصل سامي على ما هو مهووس به، وبدأ بنسيانها في ظلمة البنسيون الرطبة في زقاق (آ..). يتناول طعامه في الخارج، ويشرب في الخارج، ويلهو في الخارج، ويمضي أكثر الليالي في الخارج. أهذه هي المرأة التي نسي كل شيء من أجلها؟ هذه هي بالتأكيد، ولكنها الآن "خادمة" على الأغلب. عندما يأتي إلى البيت يجد طعامه وفراشه مهيأ، ولا يفكر بأنها تغسل ألبسته الداخلية، وتكوي قمصانه. وناظان كما كانت في بيت زوجها ليست سيدة البيت، بل خادمته. وهي لا تشتكي من حالها، ولا تتعلق بسامي طالبة منه الذهاب إلى هنا وهناك أو الانشغال بها، ولا تطلب اهتماماً بغيرة هستيرية كنسرين تسأله عن اللواتي قضى معهن الليل، وأين قضاه عندما لا يأتي إلى البيت أبداً.

ذات يوم جاء سامي بحقيبتين جلديتين. أمرها بإفراغ الغرفة المجاورة للمطبخ. شمرت ناظان عن ساعديها، وأفرغت الغرفة من دون أن تسأل عن السبب. وحُملت الحقيبتان إلى الغرفة المفرغة. كانتا ثقيلتين جداً. ماذا كان بداخلهما؟ لم تسأل. لم تبق عند عدم السؤال، بل لم يكن عندها الفضول لمعرفة ما بداخلهما. إذا سألت أساساً، فلن تحصل على جواب صحيح. كما ليس من الممكن أن تفتشهما. أغلق سامي باب الغرفة، وأقفلها، وأخذ المفتاح.

- سيأتي صديق بعد منتصف الليل. تدخلينه إلى الداخل. وترينه الغرفة. سيكون معه المفتاح. سيفتح الباب، ويدخل. إنه يحب القهوة. لا تنقصي عليه القهوة أبداً!

جاء الرجل بعد منتصف الليل. كان أجنبياً ضئيلاً، نظراته كالجان، وأشيب الشعر قليلاً. يتكلم اللغة التركية بشكل سيء. لديه حال متوجس. كأنه ملاحق، وخائف. عندما عرف أي غرفة هي غرفته، أخرج مفتاحه، وفتح الباب، ودخل. سألته:

- هل تريد قهوة؟

هز الرجل رأسه ضاحكاً. حضرت ناظان للرجل القهوة، وحملتها له حتى الصباح. ولكنها لم تتق لمعرفة ما يفعله في الداخل، وما يفعله بآلة الطبع الصغيرة.

بعد ذلك اليوم صار يتردد إلى البيت مجموعة من المشبوهين، ويجلبون مجموعة صرر، ويأخذون أخرى. حتى إن ناظان بدأت تحمل تلك الصرر فيما بعد. يعرفون لها المكان الذي ستأخذها إليه، وتذهب حاملة تحت إبطها صرة أو مجموعة من الصرر، وتسلمها، ثم تعود. ماذا كان يوجد في تلك الصرر؟ لماذا تأخذها؟ من هم أولئك الناس الذين تسلمهم إياها؟

عندما يحين موعدها المحدد، تذهب إلى "المعاينة"، وتعود. عولج السيلان بسرعة، وسهولة. مع الزمن صارت منغلقة على نفسها قاطعة علاقتها بالعالم الخارجي، مطأطئة الرأس، مسكينة. كما أنها لا تعتني بلباسها وهندامها. تبدو بمعطفها الرصاصي مهملة، مستسلمة للقدر. أثناء دخولها إلى البناء، وخروجها يسمعها البقال وأجيره، وبائع الخمر، وغيرهم كلاماً، ويعلقون عليها، ولكنها لم تكن حتى تلتفت، وتنظر. انطوت على نفسها جيداً. لكن في داخلها، وفي أعماق داخلها يوجد رأس متموج الشعر، أشقر، إنه رأس ابنها... هو فقط. ثمة توق يكبر

أكثر قليلاً، وينمو مع كل يوم يمضي، ويحرق قلبها أكثر قليلاً، ويكويه: إنه التوق لابنها!

عندما تنكمش في زاوية بعيدة عن الناس، وتبدأ التفكير بابنها، يتأجج بريق عينيها، متحولاً إلى قطرات دمع. لن تلتقي به بعد الآن أبداً. لم يعد من الممكن أن تفكر بالسيد مظهر فيما إذا جاء إلى اسطنبول يوماً ما (لم تعد تفكر فيه قائلة زوجي). لن تذهب. لن تستطيع الذهاب. ليس لها وجه تقابله. ارتكبت ذنباً معيباً، ومعيباً جداً، وصارت امرأة سيئة. مذنبة أم لا. هذا لا يعني شيئاً. مهما كان السبب، فقد "خُتمت"!

لولا ابنها الذي يربطها بالحياة، وتوقها له، لانتحرت. ولكنها لم تستطع فعل هذا. كان ثمة بنسيون تلجأ إليه، وأعمال تقوم بها هناك. ورجل يصدر أوامره، يصرخ أحياناً، يشتمها، ويسحبها من معصمها أحياناً إلى السرير، ويضعها في حضنه... كان يمكن أن يكون ذلك الرجل غير سامي أيضاً. ماذا في الأمر؟ واحد، أو خمسة، أو مئة!

شاع اسم "ساحلة الجورب" عليها. تلوي شفتيها للقائلين لها: "ما حالك هذه يا بنت؟ رتبي نفسك قليلاً!" تطأطئ رأسها. مهما كانت "ساحلة الجورب" فإن فيها ما يثير الرجال. كانت ساحلة الجورب، لكنها لم تكن قذرة، ووسخة. وعلى الأصح لم تكن ساحلة الجورب أساساً. كان سبب إطلاق هذا الاسم ناجم من صمتها، وإهمالها العناية بنفسها، وعدم تزيين نفسها، وتسريح شعرها. ولكنها كانت نظيفة. لم تفح من البنسيون المقيمة فيه رائحة بول كما في أبنية بيه أوغلو الأخرى. كل طرف نظيف تماماً، ولامع.

تمكن الربيع في تلك السنة من الحلول في أواخر شهر أيار. تفتحت اسطنبول. بدأ الجميع ينطلقون إلى الحقول للحصول على حصة من الشمس. أما ناظان فقد كانت تكتفي برؤية شمس الربيع الحلوة على الشرفة أثناء نشرها الغسيل. قال لها سامي ذات يوم:

- يسلم رأسك.

ارتبكت كأوراق علقت بالعاصفة. هل حصل شيء لخلدونها؟

- ماتت نسرين مساء البارحة!

شعرت بالارتياح بداية. عبرت وجهها موجة فرح، بعد ذلك موجه حزن. شردت عيناها. تسللت من بين رموشها الطويلة دمعتان، وتدحرجتا.

- مسكينة نسرين العزيزة...

بعد أن أشعل سامي سيجارة، قال:

- مسكينة؟ أنت أكثر مسكنة منها. إنها أنقذت!...

انكمشت على نفسها كحلزون أخرج رأسه من قوقعته، وعندما اصطدم قرناه بشيء ما، انزوى في قوقعته من جديد. أدركت أنها يجب ألا تري دموعها لآخرين. بدا لها أنها إذا عرضتها، فسيقال لها: "مسكينة؟ أنت أكثر مسكنة منها..."

إنها تفكر حزينة جداً بنسرين وهي منكبة على ماء الجلي في المطبخ شبه المظلم، وتذرف من أجلها دموعاً حارة. كيف شاركتها عذابها أول ليلة تعارفا فيها في القطار، وكيف بكت معها، وكيف حمتها فيما بعد! وهي لم تقدم مقابلاً لتضحيتها. مهما كان السبب، أما بدأت تعيش مع سامي! ألا تعيش معه حتى الآن؟ ألم يستغلا مرض المرأة المسكينة؟

فيما بعد بدأت ناظان تتوارى بشكل بطيء. ما كان ينمو تدريجياً في داخلها، وفي أعماق داخلها ضارباً أغصاناً وفروعاً هو التوق لابنها! هو الذي وجد الخاتم الذي بإصبعها تحت السرير، وأخرجه! هذا الخاتم هو ذكراه أكثر مما هو ذكرى زوجها. ذكرى ابنها. كيف يمكن أن تبيعه، أو تفقده؟

ذات يوم ذهبت إلى الصائغ، وكتبت داخل الخاتم: "ناظان، مظهر، خلدون". كأن الخاتم صار أكبر قيمة بتلك الكتابة. أحياناً تخرج الخاتم، وتمسح وجهها وعينيها به، وتقبله. مع هذا فإن الخاتم ظل يلفت الأنظار إليه. الرجال الذين ينامون معها يسألون "ساحلة الجورب" من أين حصلت على هذا الخاتم الثمين، وكيف، ويدهشون من الجواب الذي يأخذونه.

- يعني أن السلاطين باعوه عندما ذهبوا، ها؟

لم تكن تجيب. إذا أجابت، وقالت: "نعم، اشتراه زوجي بهذا المبلغ من النقود. أهداه لي.." سيسألونها: "أي زوج؟" هل هو سامي؟ يعرفون أن سامي ليس من هذا النوع.

أي زوج في هذه الحال؟ تفكر بأن الأمر سيطول، وسينقبون بالأمر، وينقبون، وفي النهاية يصلون إلى السيد مظهر، مع أنها لا تعطي الحق "لامرأة سيئة" بتشويه سمعة "الزوج الشريف".

لم يكن يؤمن أحد أساساً بأن حجره من الماس.

حمل البنسيون في تلك الليلة حملاً أثقل من أي ليلة أخرى. أغلق كثيرون وعلى رأسهم سامي والأجنبي المتكلم تركية متعثرة على أنفسهم باب الغرفة. كانت ناظان تحمل لهم قهوة بشكل دائم، وصينيات تلو أخرى. وسحبها سامي جانباً، ونبهها قائلاً:

- احذري أن تفتحي الباب إذا طرق!

في ساعة متأخرة جداً من الليل، دخل أحد أصدقاء سامي، وكان طويلاً، إلى التواليت بداية، وخرج، ثم اتجه إلى باب الزقاق. كان يسحب المزلاج ليفتح الباب. هرعت ناظان وكأن إبرة غرزت في جسمها، ولم ترد تركه يفتح الباب، ولكن الرجل لم يصغ لها، عارضها قائلاً:

- سأشتري سجائر، وأعود!

وقبل إغلاقه الباب، جاءت الشرطة! ثلاثة، خمسة، ثمانية، عشرة... ولعلهم أكثر. هاجموا الغرفة حاملين المسدسات. كان في الداخل كثيرون، ومعهم مسدسات أيضاً. بدأ تبادل إطلاق النار، وناظان التي لا تعرف ماذا تفعل وسط أزيز الرصاص، انكمشت في مكانها.

كأن القيامة قد قامت. طلقات المسدسات في منتصف الليل أيقظت سكان الحي. ولكن بعد مدة قصيرة، حدث كل شيء كما أراد رجال الشرطة. وتحت تهديد المسدسات، وضعوا أيديهم على آلة الطباعة، والأوراق النقدية الجديدة المطقطقة. اصطف المذنبون صفاً.

كانت كأنها في حلم وسط المذنبين. حسنٌ، لماذا داهمهم رجال الشرطة؟ ما ذنبهم؟ من جلب تلك الأوراق النقدية الجديدة المطقطقة إلى هناك؟

وضعوا في سيارات. أنزلوا في مديرية الأمن بعد ذهابهم بسرعة من طرق مختصرة. خطر ببال ناظان الغسيل المنشور على الشرفة. غسلته في النهار، ونشرته. ألبسة سامي والآخرين وقمصانهم وجواربهم الباهظة الثمن... كانت تشك بالمرأة التي تأتي إلى الغسيل في البناء المجاور. تعتقد أنها سرقت قميص سامي الباهظ الثمن. إذا لم تذهب صباحاً، وتجمعه، فستسرقه المرأة مرة أخرى.

أعطت إفادة وراء إفادة حتى الصباح، وحكت كل ما تعرفه بشكل صحيح، وبالضبط كما حدث. وتذكرت الغسيل في كل مرة ذهبت فيها إلى زنزانتها. إذا لم تذهب حتى الظهر، وتجمعه، فلابد لتلك المرأة أن تسرقه.

سألت الشرطي ذا الشوارب الطويلة السوداء الذي ظهر أمام نافذتها:

- سيطلقون سراحي عند الظهر، أليس كذلك؟

نظر إليها الشرطي كأنه يقول لنفسه: "هل هذه مجنونة؟". وقال لمجرد الكلام:

- يتركونك.

التفت إلى صديقه الذي بجانبه، وهمس له:

- مخبولة حمقاء.

- من؟

- تلك المرأة.

وسارا ببطء على طول الممر.

- لماذا؟

- تقول سيطلقون سراحي عند الظهر، أليس كذلك؟

- لو قلت لها كذلك...

- هذا ما قلته. ولكن...

- أليست هي أساس هذا الأمر؟

- طبعاً يا هذا. إنها المأوى!

- بدأت السافلة تلعب لعبة!

- من أجل التخلص من المسؤولية الجزائية...
- لعلها تريد أن تجعل الأمر سذاجة أو جنوناً!
- انظر ما كتب في الجريدة!
أخرج من جيبه جريدة صباح مطوية ثماني طيات، وفتحها.

١٧

دخل مظهر وبيده العدد من جريدة الصباح إلى البيت شاحباً، وصعد الدرج مهدود الحال تحت نظرات ناريمان المندهشة. عبر إلى غرفة النوم من دون أن يعير انتباهاً لابنه أو أمه التي صادفها في البهو. تمدد على السرير منكباً على وجهه. بدأ يجهش بالبكاء وكتفاه يهتزان.

إنها المرة الأولى في حياته التي يبكي فيها معانياً كالأولاد. دخلت ناريمان إلى الغرفة بفضول، وطار صوابها حين وجدت زوجها على هذه الحال. ماذا يوجد؟ ماذا يحدث؟ خرج قبل ساعة من البيت إلى المكتب ضاحكاً متحدثاً!

وقعت عيناها على الجريدة الملقاة على الأرض. تناولتها. عنوان بالمانشيت العريض على صفحتين: وقع المزورون!

بداية لم تفهم ناريمان شيئاً. لحظة أرادت ترك الجريدة جانباً، وسؤال مظهر: "لماذا تبكي؟" لفتت نظرها صورة امرأة بين المزورين المقبوض عليهم. قرأت، ومع قراءتها اهتمت بالموضوع. جلست على كرسي هناك، وقرأت المقالة بكاملها كأنها تلتهمها أو تبتلعها. عندما رفعت عينيها كانت رموشها تلمع بالدموع. تبادلت النظر مع مظهر. لم يتكلما كلمة واحدة. بعد ذلك نهض الرجل بكتفين متهدلين. بدأ يذرع الغرفة من

زاوية إلى أخرى. كانت ناريمان تتبعه بعينيها. وجه الرجل شديد الصفرة. ازرقت شفتاه من العصبية. جاء في هذه الأثناء، ووقف أمامها. كانت يداه خلفه:

- أنا سبب كل هذه الأمور، أليس كذلك؟

تمتمت ناريمان المرعوبة من وجه زوجها الممتعق فجأة بالحمرة:

- تقدير إلهي.

كان مظهر ينظر بعينين خاويتين تماماً. لم يكن التقدير الإلهي يهمه، ولا زوجته الحالية ناريمان التي يحبها كروحه. كان مؤمناً بأنه السبب الوحيد لدفع ناظان إلى الكارثة وهو الذي يعرفها كما يعرف راحة يده. كان مذنباً. وهو لا يهتم بالله، وما الله. إنه هو من طلق المرأة وأرسلها من دون أي تحضير... من يعلم لعلها لم تجد خالتها، وسقطت في الوسط.

استمر يذرع المكان من زاوية إلى أخرى.

لعلها لم تستطع إيجاد خالتها أو وجدتها، وهذه دفعتها إلى طرق سيئة. نعم، إنها عاملة تريكو عادية. لديها صداقات مع مختلف أنواع الناس. ولابد من وجود كلب وسافل بين هؤلاء الناس. أما ناظان فهي امرأة باردة أصلاً، وتنجر إلى حيث تُسحب. من يعلم، لعلها علقت بشخص كهذا بأمل الزواج، وجُرت إليه. مهما يكن فإن المذنب هو نفسه.

خطرت بباله ناظان بنت الجيران التي تكنس باحة البيت الخلفية بينما هو يختلس النظر إليها من دون علمها من غرفة بنسيون خرب سكنه مع نهاد اليانيالي في السليمانية الواطئة الأسقف والضيقة الأزقة قبل سنوات طويلة. كانت فتاة على حالها صامتة ومطيعة. لماذا أغواها

ثم رماها؟ لو لم يأخذها كانت ستتزوج من بقال أو صاحب مهنة فلا تسقط بهذه الأحوال.

أجهش بالبكاء، ثم خجل. ولكنه يريد أن يبكي مهما حدث. قال لزوجته:

- لطفاً، هل تتركيني وحدي؟

رفضت المرأة الشابة طلب زوجها الحساس، ولعل هذا ناجم عن تفكيرها باحتمال التضحية بها:

- لا.

- لماذا؟

- هكذا فقط...

غضب مظهر مرتين من زوجته.

- لماذا، ومن أجل ماذا؟ أنت لماذا لا تريدين فهمي أبداً يا ناريمان؟

- أنا أفهمك تماماً يا مظهر. تعال إلى هنا!

سحبت زوجها من يده إلى السرير.

- اجلس. ابك. ابك كما تريد، وبقدر ما تشاء. لا تخجل مني!

جلسا متجاورين. دست رأسه المصاب بنوبات الألم، والمتصبب عرقاً بصدرها العارم. كانت تعرف أن "السلوان" وأكبر سلوان في أوقات كهذه هو الصمت. أما البكاء، والبكاء كثيراً فهو ضروري لتفريج الكرب. كان الرأس المتعرق المستند إلى الثديين العارمين يبكي، يجهش بالبكاء كطفل، ويهتز.

فجأة وقعت عينها على النافذة المقابلة. ثمة من يحاول مراقبة الداخل من فتحة ستارة مفتوحة قليلاً. إما أن تكون الخادمة ناجية وإما

حماتها. إنها حماتها بالتأكيد. لا يمكن أن تكون ناجية، فلا تجرؤ. تعرف أنها ستُطرد إذا قبض عليها. كانت حماتها. لأنها بالأمس فقط وجدت السحر الثاني في الحمام، ورأتها وهي ترش سائلاً ما في هذا المكان وذاك من البيت، فلم تواجهها، ولم تخبر زوجها.

غير ذلك كانت حماتها تراقبها عندما تجلس مع السيدة حكمت زوجة المحامي نهاد اليانيالي، وتدوران الحاكي، وترقصان، وكانت السيدة حكمت تتعلم الرقص تواً، وكأنهما يقومان بأمور معيبة... هذه الأمور كلها لفتت نظر السيدة حكمت، وحتى ناجية أيضاً. وكانت تؤنب ناجية في كل فرصة. مهما يكن فإن المرأة التي ستنم عليها هي أم زوجها. لن تعقد حلفاً مع الخادمة ضد أم زوجها. من جهة أخرى من تكون الحماة؟ إذا أرادت، وفي اللحظة التي تريد يمكن أن تقلعها من البيت، خاصة بعدأن كشفت أمور السحر!

مازالت السيدة هاجر أمام النافذة تحاول مراقبة الداخل من دون أن تعلم. لماذا جاء ابنها باكراً، ولماذا هو عابس، ولماذا لم ينظر حتى إلى وجه زوجته؟ هل وقع تأثير السحر؟ لابد من ذلك. في الحقيقة إن أم مدير المالية امرأة فالحة. هي التي أعطتها السحر، والماء المقروء عليه. ماذا كانت تقول؟ "إنه شيخ يوقف حتى الماء الجاري يا أختي. قال إن واحداً منها يكفي لتوسيع الشرخ بينهما، ولكنني سأعمل ثلاثة. حلال عليه النقود التي أخذها!"

انحنت أكثر قليلاً. ولكنها لم تستطع الرؤية من جديد. لم تكن تظهر سوى أرجلهما حتى الركب. كانا جالسين متجاورين على حافة السرير. لماذا لم يخلع ابنها حتى حذائه. مع أنه كان نظامياً، فهو فور

مجيئه إلى البيت يخلع ثيابه، ويرتدي منامته، ويضع عليه المعطف البيتي.

صدرت سعلة فجأة. التفتت: ناجية! وقفت بباب المطبخ وهي تنظر غاضبة. ابتعدت السيدة هاجر عن النافذة غاضبة. ذهبت إلى جوار ناجية. كانت تحاول أن تضحك. ناجية كالجليد. تنظر بلؤم. قالت السيدة هاجر:

- ترى لماذا جاء مظهر اليوم في غير موعده؟

ردت عليها ناجية بحدة:

- من أين لي معرفة هذا أنا؟

- دفعني الفضول...

- إذا كان الفضول دفعك، فادخلي، واسألي!

فهمت أنها تريد أن تقول لها: "ألا تخجلين من النظر عبر النافذة كاللصوص؟" غضبت. كانت قد رأتها تكلم زوجها في الزقاق، وطار صوابها منها. ورغم وقوفها أمام الكنة كأنها قط، فهي تهينها بكل معنى الكلمة. قالت:

- انظري إلي يا ناجية. إنه ابني. حملته في بطني تسعة أشهر، هل فهمت؟

- الأمهات الأخريات لا يحملن ثمانية أشهر ياه!

- ولكنك تجاوزت حدودك كثيراً...

- أنا؟ ماذا فعلت؟ بأي ذنب قبضت علي حتى الآن؟

- لا أعرف، ولكن انتبهي لنفسك، أنا حتى اليوم أم المحامي السيد مظهر!

- أعرف.

- أنت مضطرة لإبداء الاحترام لي كما تبديه لزوجته!

ضحكت ناجية متوترة:

- زوجته لا تطلب مني إبداء الاحترام أساساً.

- أنا أطلب!

- كوني لائقة به حتى أبديه...

دخلت إلى المطبخ عند الطباخة.

تحولت السيدة هاجر إلى جليد. خطر ببالها أن تصرخ، وتقوم القيامة، وتقلب كل شيء، وتكسره، ولكنها ضبطت نفسها، لأن أمورها ستتعقد تماماً، وتنقلب رأساً على عقب. طبعاً فإن هذه "المرأة القذرة" ستكشف قضية السحر تلك، ويمكن لها أن تقول: "عرضت علي الأمر، ولم أوافق، وفعلت هذا من لؤمها" وما شابه ذلك. الأفضل هو السكوت، والأصح ابتلاع الأمر. في أثناء دخولها إلى غرفتها وهي تقول: "حسبنا الله ونعم الوكيل!" وقع بصرها على خلدون. كان يجلس على سجادة غرفة الضيوف الطويلة الوبر، ويلعب وحده. ذهبت إلى عنده. كان الولد شارداً:

- خلدون، يا صغيري!

التفت الولد الشارد، ونظر. وإذا كان الولد لم يخف من رؤية وجه جدته العاقد الحاجبين والمقطب كما هو دائماً، فقد عبر داخله توجس.

- سيدتي؟

- تعال قليلاً، واسمع ما سأقوله لك!

ترك ألعابه، ونهض. ذهب من خلف جدته إلى غرفتها. أغلقت المرأة العجوز الباب.

- انظر إلي يا صغيري... هل تعرف لماذا أبوك متضايق؟
- لا أعرف.
- إعرف لماذا أغلقا على نفسيهما الغرفة!
- كيف؟
- اذهب إلى غرفتهما!
- آ... أليس عيباً؟
- لماذا سيكون عيباً يا ابني؟ أليس أباك؟
- ليكن يا جدتي، عيب.
- ولكنني سأشتري لك قطعة شوكولا كبيرة!
- لم أعد أحب الشوكولا. قال العم الطبيب، إذا أكلت شوكولا كثيراً فإن بطنك تؤلمك، وتصاب بالإسهال.
- أشتري لك لعبة.
- أمي الظريفة، وخالتي الظريفة تشتريان لي!

أظلمت عينا السيدة هاجر، وصعد الدم إلى رأسها غضباً. خطر ببالها أن تضرب الولد بالأرض، وأن تعصر رقبته. صرخت به فقط قائلة:

- انقلع، انقلع! يا أفعى!

خرج الولد بهدوء.

كانت السيدة هاجر تريد أن تغلق الباب خلفه، ولكنها لم تفعل. انتقلت إلى الأريكة العريضة، وعبست. تحولت إلى لاجئة في بيتها. هل توقعت هذا؟ إنها ترى وجوهاً مختلفة من أصغرهم إلى أكبرهم. حتى الولد الذي بطول شبر لا يسمع كلامها. لو كان ابنها ولداً باراً، فستعرف حينئذ ما ستفعله. لا يخرج عن كلام زوجته، وكأنه يعبدها. لم يكن

عنده هذا الطبع في زمن ناظان على الأقل. يبحث عن أمه، ويستشيرها حتى عندما يكون مع زوجته، والأمتع من هذا كله أنه كان يغضب من زوجته بين فينة وأخرى، ولا يُريها وجها حلواً.

تناولت سبحتها ذات التسع وتسعين حبة من المقعد، وبدأت تسبح بعصبية.

أملها كله أودعته بذلك السحر، والماء المقروء. إذا لم ينتج منه شيء أيضاً...

طار صوابها.

ماذا ستفعل إذا لم ينفع السحر؟ لم تكن فتاة البار تبال بها. صارت صاحبة البيت إلى حد... ومع زوجة المحامي نهاد أو لا تدري من هو، الباردة حكمت، أوووه! يُدور الحاكي، وتسمع الأغاني، ويُقام الرقص. وماذا عن الضيوف الراقين الذين يملؤون البيت مرة أو مرتين أسبوعياً على الأقل؟ تُقام حفلات، ويُستمتع على حساب ابنها. حتى إن نهاداً بط البلبول قد تشبث في المدينة كالأشنيات. ولكن الذنب ذنب ابنها. ضعه مع الموظف الكاتب الذي لا يساوي ثلاثة قروش، وقاسمه خبزك، واجعل قمله يمص دمك. هكذا تكون النهاية.

رمت سبحتها بلؤم. إذا لم يحدث تأثير للسحر، فهي تعرف ما ستفعله. تستأجر غرفة، وتنزوي فيها، وينتهي كل شيء. تقول أم مدير المالية: "احذري من هذا!" لكنها لا تعرف ماذا تعني هي. حسنٌ، ولكنها إذا استأجرت غرفة خاصة، وانزوت فيها فمن سيهتم؟ ابنها؟ كنتها؟ لا تعتقد هذا. لن يهتم، كما لن يهتم الآخرون. وخاصة الكنة فستكون ممتنة، وتزيد التبذير إلى أبعد الحدود. بعد ذلك، الأصدقاء والأحباب...

لا تعرف حقيقة كل شخص. ألا يقولون: "أحسنت الكنة. ظهر أن لها أنياب... طردت الحماة!"

"الطرد" يؤلمها كثيراً. كانت أم المحامي الكبير السيد، بل السيد المحترم مظهر، السيدة المحترمة هاجر. لا أحد أبداً، ولا أحد يستطيع طردها. الله كبير. لابد للماء المقروء الذي رششته في كل طرف من أطراف البيت، والحرز الثلاثة، حرز البرودة العظيمة الثلاثة، أن تحدث مفعولها، وتبرِّد العلاقة فيما بينهما. كيف طردت ناظان؟ لله لن يترك أماً مسكينة، ويضع موضعها "مبالغة بالزينة" شريرة، مسرفة، وقحة... خارجة من بار، مشطبة اليدين والوجه بفعل زجاج مكسور! لماذا يساعد الله مشروخي الشرف طالما أن هناك أصحاب شرف؟ إنه الله ولي الطيبين!

فجأة صدر صوت ابنها الغاضب... كان يصرخ بشدة!

قفزت عن المقعد. هرعت إلى الباب. أسندت أذنها على الباب، وبدأت تصغي. كانت عيناها تلمعان بأمل، وتعتقد بأن وقت وساعة البرودة التي انتظرت دخولها بينهما قد حلت.

أغلقت الباب عندما ظهرت ناجية في البهو.

لماذا كان ابنها يصرخ يا ترى؟

الأمر في غاية البساطة: وجد حرزاً ملفوفاً بعقدة من النايلون بين المخدة والفراش. الحرز بيده، دفع زوجته، ويريد الذهاب إلى أمه، ولكن ناريمان تمنعه.وقفت المرأة الشابة أمامه كستارة مشدودة:

- لا تفعلها، اكراما لله لا تفعلها. سيكون هذا معيباً جداً. سنصير قصة على الألسن.

لم يكن مظهر يستمع لها:

- دعيني!

- انتظر دقيقة يا روحي، لننظر ما إذا كانت أمك قد وضعته؟

- لا أحد غيرها يضعه. هي تعمل بأمور من هذا النوع. دعيني أذهب إليها، وأوقفها عند حدها!

لم تتركه ناريمان. أخذت الحرز من يد الرجل، وجرته بالقوة إلى السرير. كان مظهر حزيناً أساساً من قضية ناظان. وهذا أضاف ملحاً وفلفلاً على الأمر.

- من ينهض غاضباً، يجلس متضرراً. إهدأ. إذا جلست بهدوء، فلدي أمور أخرى سأحكيها لك.

أسبلت يدا مظهر، ولكنه لا يستطيع أن يكون هادئاً، وهو يرتجف بشدة. جلس على السرير. يدفعه الفضول لمعرفة الأمور التي ستحكيها.

ذهبت ناريمان، وأخرجت حرزين آخرين.

حملقت عينا مظهر إلى آخر حد.

- ما هذه؟

- حرزان!

- أين وجدتهما؟

- أحدهما في صندوقي، والآخر في الحمام!

رأس مظهر يدور. تسوء حالته مع شرح زوجته له، ويأسف لكونه ابن امرأة كهذه.

- هذا يعني أنها عرضت على ناجية؟

- نعم. جاءت المرأة، وحكت لي. صددتها. كيف لا أصدها يا

مظهر؟ إنها أمك. أمام العالم والناس... بعد ذلك رأيتها بعيني ترش ماء مقروءاً ، ولم أواجهها!

- لماذا؟

- كيف أعرف أنا؟ تقول السيدة حكمت إنه ماء مقروء. من أجل البرودة...

- قولي بأن حكمت أيضاً عندها علم بهذه الأمور كلها؟

- مع الأسف. لأنها كما تعرف لا تحب نهاداً ولا زوجته. على الأصح لا تحب أحداً يبدي قرباً مني. ألا ترى؟ كيف هي مع خلدون؟

- ولي؟ ولي أيضاً؟ إنها تغضب مني لأنني لا أؤنبك كما كنت أؤنب ناظان. أأقول لك شيئاً يا ناريمان؟ أريد أن أضع حداً لهذه السفالة!

- كيف؟

- اعطني هذا السحر. سأذهب، وأصفع به وجهها. بعد ذلك، لتذهب إلى جهنم، وتغادر بيتي!

- آ... كم سيكون هذا معيباً!

- لماذا سيكون معيباً؟

- إنها أمك يا هذا. من لها غيرك؟

- لتجد غرفة، وتنتقل إليها. أعطها مقداراً معيناً من النقود كل شهر، وينتهي الأمر!

- طالما أنك أخذت هذا بعين الاعتبار، فاترك الأمر لي!

- لك؟ كيف ستجعلينها تقبل؟

- لا تتدخل أنت. لدي ما أفعله. ولكن تظاهر بأنك لا تعرف شيئاً.

وسترى أنها رضيت إذا ذهبت إليك، وقالت لك إنها تريد أن تسكن وحدها!

- حسنٌ.

لم تتسرع ناريمان أبداً. وإذا كانت لم تفشى ما حل بناظان لأحد، فإن الخبر انتشر في المدينة كالبرق. هكذا، مظهر ليس الوحيد الذي يقرأ الجريدة في البلد!

تخبطت المدينة على مدى أيام بالحادث. وحدث هذا بشكل جعل مظهر يتمنى أن يغور في الأرض، وانطوى على نفسه، ولم يعد يخرج من البيت. ولأنه يعتبر أن الذنب ذنبه، كان يظن أن الآخرين جميعهم يعتبرون الأمر على هذا النحو.لم يعد يذهب إلى المكتب، ولا يتردد على المحكمة. أجلَّ دعاويه كلها لشهر ونصف أو شهرين بواسطة صديقه نهاد، وهو يفكر متشائماً، ويشحب لونه.

الجميع إلا خلدوناً!

لا علم لهذا الولد بالعالم من حوله الآن، وهو سعيد بألعابه، ولكنه لابد أن يكبر، وينضج، ويدفعه الفضول لمعرفة مغامرة أمه، وسيعرفها طبعاً. ماذا سيحدث حينئذ؟ ألن تتعكر حياته لخجله من كونه "ابن المرأة السيئة" برغم أنه ليس مذنباً. بما أنه لن يستطيع التخلص طوال عمره من كونه "ابن المرأة السيئة"، ألن يتولد عنده عقدة الدونية؟

يمرر كل الاحتمالات بعقله، وفي النهاية يعتبر نفسه، ونفسه فقط مذنباً. شعر بالتخبط ذات يوم:

- نعم أنا مذنب. أفهم هذا...

قال له المحامي نهاد الذي لم يتركه وحده أبداً تقريباً:

- لست مذنباً.

نظر مظهر متفهماً

- هل تريد أن تقول إنه المكتوب على الجبين؟

- بالتأكيد!

- هذه التفسيرات كلها تبدو لي تافهة. أنا لم أستطع الخروج من هذا الأمر بمنطق الفكر القدري الإسلامي!

ضحك نهاد:

- وأنا؟ هل استطعت الخروج أنا؟

- إذا كان هنالك ما هو مكتوب على الجبين، فما الضرورة للجنة وجهنم، والمحاكم والمحاكمات؟ ألا تعتبر محاكمة مجرم، وزجه في السجن أو إعدامه عصياناً لذي الجلال؟

- بما أن القاضي أيضاً عبد من عباد الله، وله أيضاً كتابة على جبينه، سيكون هو أيضاً ملبياً لأمر ذي الجلال المدون في اللوح المحفوظ...

- أنت أيضاً على حق!

- وأنت؟

- وأنا أيضاً. والله؟

- الله أيضاً، وماذا عن القاتل؟

- والقاتل أيضاً. والمقتول؟

- والمقتول أيضاً! في هذه الحال لا يوجد "ذنب" ولا "مذنب"...

- أنا أرى بأن طريقة شرحنا خاطئة. يبدو لي أنه لا يوجد كتابة على الجبين، ولا كاتب، ولا مكتوب، ولا شيء مكتوب عليه. ما هو

موجود تكوين يغير شكله باستمرار، ويسير من دون توقف، لا أول له ولا آخر. وداخل هذا التكوين توجد سعادة الإنسان أو كدره...

- ستقول إن الأمر نسبي وشخصي...

- نعم!

- ولكن أسلوب التفكير هذا يجعل الإنسان...

- أعرف، أعرف، ولكنني لا أجد أسلوباً آخر للتفسير. لا الرب، ولا العباد...

- ....؟

استمرت تلك المناقشات أياماً طويلة. ولكن عندما لا يكون نهاد موجوداً فلا يسلي مظهر أحداً حتى ناريمان. كان قلبه قد غطي بطبقة سميكة من القطران، ولا يدخل النوم إلى عينيه طوال الليل، وإذا غط بالنوم قليلاً، فسرعان ما يستيقظ مرعوباً وكأنه يهوي من مكان ما.

فجأة صمتت الدار الكبيرة وكأنها التفت بالحزن، وتعيش مأتماً. فلا الحاكي يعمل، ولا الضيوف الأنيقون يملؤون البيت، ويفيض بهم. حتى إنه لم تعد تُشترى ألعاب جديدة لخلدون. ولم تعد أمه الظريفة، وخالته الظريفة تحبانه كالسابق غالباً. كان يتضايق. يرى أمه في حلمه كل ليلة. يفكر كثيراً في الصباح، وحتى المساء. في الليل يراها مرة أخرى. يزاد تفكيره. حقيقة، لماذا لم تأت أمه؟

سأل أمه الظريفة:

- لماذا لم تأت أمي حتى الآن يا أمي الظريفة؟

إنها امرأة ذكية، فهمت أن الولد قد أهمل. قالت:

- ستأتي يا صغيري. لم تنه أعمالها بعد...

في ذلك اليوم، تركت أعمالها، وأخذت الولد، وذهبت إلى السوق. عادا إلى البيت بألعاب جديدة. تقابلا بناجية عند الباب. كانت منفعلة. وحكت فوراً من دون أن تولي اهتماماً لغضب سيدتها. استغلت السيدة الكبيرة الفرصة، ورشت ماء مقروءاً هنا وهناك في البيت. والطباخة أخبرتها بهذا. وإذا ماأسرعت، يمكن أن تقبض عليها متلبسة في الأعلى.

إنه الوقت المناسب. ومظهر مازال يضغط عليها، قائلاً: "ألم تفتحي معها الموضوع؟" خلعت حذائها، وصعدت الدرج بخفة الريش. لم تظهر. في أثناء تلفتها فيما حولها أشارت الطباخة إلى غرفة النوم. انزلقت نحو ذلك الطرف. وقفت أمام النافذة. لم تر شيئاً لأن الستارة البيضاء أسدلت بإحكام. ذهبت إلى الباب. كان مفتوحاً: السيدة هاجر ترش الماء الذي تصبه على يدها من طاس على أرض الغرفة، وفي زواياها. كانت مديرة ظهرها. لم تكن منتبهة إلى أن الكنة تتفرج عليها من الباب. كانت تستمر بعملها وهي تقرأ دعاء بشكل مستمر.

قالت ناريمان غاضبة:

- الله يعطيك العافية أيتها السيدة الكبيرة!

التفتت. عندما وجدت الكنة أمامها، سقط الطاس من يدها. اصفرت بشدة. بعد ذلك تلون وجهها بالحمرة حتى شحمتي أذنيها، ثم اصفرت من جديد.

- ماذا تفعلون؟

إنها تنظر فقط. لا تستطيع أن تجيب. ذهبت ناريمان إلى جوارها.

- أقول لكم ماذا تفعلون!

- أنا؟

- أنتم، نعم.

مسحت العرق المتجمع على جبينها. بلعت ريقها. نظرت أمامها، وتأتأت خائفة:

- هل ستخبرين مظهراً بهذا ؟

مهما يكن فإن ناريمان أشفقت عليها، ولكنها حاولت ألا تفقد قسوتها، فقالت:

- لا أعرف.

ارتمت السيدة هاجر على يدي كنتها:

- لا تخبريه، أتوسل إليك. إنه خطأ ارتكبته. ارتكبت حماقة. أرجوك لا تخبري ابني. أنت تعرفين طبعه، سيجرح قلبي. لا تكسري قلبي في عمري هذا العجوز يا صغيرتي!

- حسنٌ، ولكن ماذا سنفعل بالحُرز؟

ارتعدت.

- أي حُرز؟

- الحُرز الثلاثة التي استخدمتموها من أجل أن يبرد ما بيني وبين مظهر؟

كانت الضربة الأخيرة قاتلة! لم تستطع ساقاها حمل جسمها، فانهارت. غطت وجهها بيديها، وبدأت تجهش بالبكاء.

تألم قلب ناريمان. ساءت حالتها عندما رأت امرأة عجوزاً كبيرة تبكي كالأطفال. أمسكتها من ذراعها، وأجلستها على كرسي. قالت:

- اصمتوا، لا تبكوا. كان عليكم ألا تنسوا أنكم أم المحامي الكبير

السيد مظهر، ولكنني ماذا أقول، حدث ما حدث. أنتم بمقام أمي. ماذا يمكنني أن أقول لكم؟

رفعت السيدة هاجر رأسها، ونظرت باكية مسكينة، ولوت رقبتها:

- لن تخبري ابني، أليس كذلك؟

- هل أخبرته أنني وجدت الحُرز؟

- الله يرضى عليك، الله يعزك دنيا وآخرة. أنا أساساً لست من الباقين. يجب أن أجد حلاً لنفسي، أنا فاهمة...

- ماذا تنوون أن تفعلوا؟

- أستأجر غرفة في مكان ما، وأدس فيها رأسي، وينتهي الأمر. لم يبق لي هنا سوى عمر عدة أيام؟

اختصرت ناريمان:

- الآن اسمعيني جيداً: أنا لن أخبر ابنكم بأي شيء. وأنتم أيضاً لا تخبروه. اذهبوا، وقابلوه. قولوا له بأنكم تريدون أن تجلسوا معه على انفراد. ولنر ما سيقوله...

بعد أن استمع مظهر العائد مساء من عند بيت المحامي نهاد لأمه بهدوء، قال:

- حسنٌ. طالما أنك تريد أن تسكني منفصلة، فأنت تختارين.

- ماذا أفعل يا صغيري. أنا أرى، إنك تتضايق كثيراً. أعرف أنك ستتضايق إذا سألتك عن السبب، أو حاولت تسليتك. الأفضل ألا ترى العين، وأن يتحمل القلب...

- حسنٌ، حسنٌ... جدي غرفة، وانتقلي!

لم يتوقف عند الأمر. هذه اللامبالاة أضافت لضيقها ضيقاً جديداً،

ولكنها ابتلعتها. في صباح اليوم التالي باكراً، هرعت إلى "أختها في الآخرة" أم مدير المالية. وكانت حمرتها حمرة، وزرقتها زرقة.

لم تعد تستطيع التحمل. لم تعد تريد رؤية وجه ابنها الذي وضعته "فتاة البار" في راحة يدها. ابنها المشوش بخبر ناظان العزيزة صار ألعوبة بيد "الزوجة". وزوجة السافل المدعوة حكمت! أليست ماكرة، ومصلحية، وسافلة تعلقت عينها على لقمتي؟ الجميع إلا هي. أي واحدة تنظر إلى الأرض، وتحرق القلب كانت! الجميع هاجموا مظهراً من الجهات كلها كالذئاب الجائعة. يتناولون اللوز والسكر والشوكولا سراً، ويتزقمون المشروبات بينما هو يتخبط بهم وبالصغيرة المسكينة ناظان. أي أم ترضى باستغلال ابنها؟

بعد أن استمعت أم مدير المالية إليها طويلاً وهي تداعب الشعر الأبيض المتدفق من ذقنها، سألتها:

- هذا يعني أن ابنك وافق فوراً على سكناك منفصلة؟

- قال أيضاً: "حسنٌ، حسنٌ. جدي غرفة، وانتقلي!" أي كما لو أنه يرميني عن رأسه.:

- بهذه السهولة كلها،.وكما لو أنه يرميك عن رأسه... وأنت من يوم يومك أمه. كيف يرضى أن تسكني بشكل منفصل؟ لماذا لا يقول بأن جرجرتك في بيوت الإيجار لا تليق بسمعته؟

- من يعلم؟

- ولكن لماذا؟

- لابد أن لديه ما يفكر فيه. لعله سئم مني.

- لا يا هاجر، لا. هذه ليست مسألة سأم!

- ماذا إذاً؟

- يجب أن يكون في المسألة ملعوب ما...

- مثل ماذا؟

- لا أعرف مثل ماذا، ولكن هذا العمل يجب ألا يكون بهذه السهولة. هل زاغت عيناه إلى هذا الحد؟ هل مُحيت أمه من عقله إلى هذا الحد؟ هل انجرف بحب فتاة البار إلى هذا الحد ليعامل أمه معاملة كهذه؟... إيه... من تكون الكنة؟ هل شعرت معي بآلام المخاض وأنا ألده أتلوى من الألم بعد حملي له تسعة أشهر؟ أم أنها شاركتني معاناتي حتى أوصلته إلى هذا الطول؟ ستأتي التي في الجبل، وتطرد التي في الكرم ها!

نظرت السيدة هاجر بطرف عينها. كانت ترتجف بشدة. هي أيضاً تفكر على هذا النحو...

سألتها الأخرى:

- حسنٌ، ماذا ستفعلين الآن؟

هزت كتفيها:

- ماذا سأفعل، لا شيء... سأجد غرفة، وأدس فيها رأسي!

- أين؟ هل بحثت؟

- لم أبحث بعد. سهلة. عندنا النادل رضا أفندي زوج الخادمة الساقطة ناجية. سأجد واحدة بواسطته...

في اليوم التالي راقبت النادل رضا. خرجت من البيت بعيد ذهابه إلى عمله بعد العصر، ووجدته في المقهى المجاور للبار يلعب الورق. كان عنده علم بالأمر. حكت له زوجته كل شيء مساء. ولكنه بعد أن استمع للمرأة العجوز مطولاً من دون أن يبدي شيئاً، قال:

- واخ، واخ، واخ. يعني أنه يوجد لزوجتي إصبعاً بهذا الأمر أيضاً؟

- يوجد يا رضا أفندي. أأقول لك شيئاً؟ ولكن لا تغضب من كلامي، زوجتك لا تليق بك أبداً. أين هي منك. يوجد بينكما فرق شاسع جداً. لو أنني رجل ولدي امرأة مثلها، لا اعتراض على حكم الله، لا أعيش معها يوماً واحداً!

- صحيح أيتها السيدة الكبيرة، معك حق من الأرض إلى السماء!

- ما الذي يعجبك فيها يا هذا؟ أم أنه لا يوجد نساء لرجل مثلك؟

- الله لا يحرمنا منك.

- من الله، ولكن لا يأتيها أولاد.

- لا ترفعي ذلك الغطاء أبداً. إنها امرأة عاقر. يا ما صرفت من النقود من أجل أن تلد لي ولداً، يا ما صرفت؟ بعد ذلك يجب أن تكون ما نسميه امرأة وهي؟ مثل العكاز، جافة تماماً. هل أقول لك شيئاً يا أختي الكبيرة هاجر؟

دللت نفسها السيدة هاجر:

- أخت كبيرة؟

- عفوك، زل لساني. زل، لكنني لا أعرف ما سأقوله لك؟ لا أستطيع قول هاجر هكذا من دون شيء إضافي معه!

- قلها، ما بها؟ كأن هنالك فرق كبير بالعمر؟ وإن وجد، فانظر إلى القلب أنت. قلبي أنا شاب. فأنا لا أقبل لقب الأخت الكبيرة، والخالة، والسيدة الكبيرة...

- ....؟

- كلامك حول المرأة ويجب أن يكون فيها قليل من اللحم والأفخاذ، صحيح. بعد ذلك يجب ألايظهر عليها عمرها، أليس كذلك؟

- يجب ألا يظر طبعاً...

- أنا مثلاً، لا يبدي عمري أبداً. لماذا؟ لأنني اعتنيت بنفسي جيداً. لم أنهك نفسي. لهذا السبب لا أحد يقدر عمري أكثر من خمسة وأربعين!

قال النادل رضا لنفسه "هيش". ولكنه رغم هذا قال:

- لا أهمية أبداً للعمر. المسألة كلها أن تكون المرأة امرأة حتى نقي عظامها.

- يسلم لسانك. يا ما أتاني خاطبون بعد أن ترملت من زوجي، ولكنني لم أقبل. لماذا أتحمل قهر الزوج، أليس كذلك؟ وحتى الآن. قهر الولد، وقهر الكنة، وقهر الحفيد... ليخرا الكلب على أصابعهم. الإنسان يأتي إلى الدنيا مرة واحدة. بعد أن يقضي الإنسان عمراً قصيراً بالآه، والواخ... والآن لي عندك رجاء...

كان النادل رضا ككلب ينتظر مستعداً:

- استغفر الله، تأمرين!

- ستجد لي بيتاً، ولكن في مكان ناء، بعيد عن ابني. غرفة ومطبخ، ويمكن أن يكون غرفتين ومطبخ. وإذا كان له حمام...

اندهش رضا كذباً:

- أمن أجلكم؟

- من أجلي.

- هل ستسكنون بشكل مستقل؟

أعادت السيدة هاجر ما حكته لأم مدير المالية. وأثناء استماع رضا بمكر، كان يخطر بباله عدة حسابات: كان يعرف في الطرف الآخر من

المدينة بيتاً مرتباً كما تريد "العجوز" تماماً بغرفتين ومطبخ. ويقال إن صاحبه موظف محلي نُقل إلى مكان آخر. ترك خبراً عند صاحب المقهى عند ذهابه بأن لا يفوت مستأجراً إذا جاء. البيت في الداخل قليل المساحة، ولكنه قريب من البار الذي يعمل فيه رضا. ثم إن للبيت باباً خلفياً أيضاً. جيرانه مجموعة فقراء على قدر حالهم. عندما تشير الساعة إلى السابعة أو الثامنة ينامون كالدجاج. إذا لم يؤجر البيت...

رفع عينيه اللامعتين إلى السيدة هاجر:

- يوجد بيت كهذا، ولكن لا أدري إن كان قد أُجر أم لا. أستعلم اليوم، وأجلب لك الخبر.

- كم غرفة؟

- اثنتان.

- هل يوجد له مطبخ؟

- له مطبخ، وماء، وكل شيء.

- جاهز؟

- هذا ما لا أعرفه. نستعلم، هذا سهل. لنذهب، ونر إن أردت؟

يجب أن يطرق الحديد وهو حامي. سألت قائلة:

- هل هو بعيد؟

- كثيراً. لنركب عربة...

وهكذا فعلا.

البيت حقيقة مرتب، وهو مفصل تفصيلاً على مقاس السيدة هاجر. وخاصة بابه الخلفي... ضحكت:

- يؤدي إلى زقاق مسدود... واضح أن صاحبه رجل ذكي جداً. هذه حال الإنسان. أليس كذلك يا رضا؟

فهم رضا. قال:

- صـحـيح. يمكن للإنســان أن يأتي ويذهب بعـيـداً عن أعين الآخرين...

- يا إلهي يا رضا، عشت، حسنٌ؟

- أأكذب؟ إنه يأتي ويذهب؟

- نعم؟

- مكان القادم من الباب الأمامي غير مكان القادم من الباب الخلفي، أليس كذلك؟

أثناء ما هي تضحك مقهقهة رفعت سبابتها، وهزتها:

- أه منك يا ملعًب،آه!

- هذا هو الصحيح. هذا يعني أنه أعجبكم؟ حسنٌ، ماذا تقولون حول الإيجار؟ أي إلى أي حد ممكن أن تدفعي؟

- لا أهمية للإيجار. ليكن بقدر ما يكون. ثم إنني سأرضيك.

- بماذا؟

- تركت عملك، وجئت معي يا ابني.

- لا أريد كلاماً كهذا مرة أخرى. إنه جهد ساعة أو ساعتين. حتى إنه ليس جهداً. جئت بسرور بالغ. عندما تنتقلين غداً، وتسكنين، آتي إلى عندك أحياناً، وأشرب فنجان قهوة مرة، ونكون قد تحاسبنا.

غضبت السيدة هاجر:

- أحياناً؟

- ماذا إذاً؟

- الله يبعث لك الحب. اعتقدت بأن رضا لن يتركني وحدي، ويأتي من دون أن يُشغله نهار أو ليل!

بدأت تهب على قلب رضا منذ الآن ريح عجيبة. نظر بعين المشتري. لم تكن سيئة أبداً. إنها ذات لحم وأفخاذ، ومغناج بشكل خاص. وهكذا سيضع "المرأة العجوز" في القفص، ولسوف يتدبر أمر نقود الخمارة.:

- هذا يعني أنكم تريدونني أن آتي كثيراً؟
- قل تريدينني يا رضا!
- يعني تريدينني يا هاجر؟
- نعم، أريد...
- من أي باب، الأمامي أم الخلفي؟
- الأسهل عليك. ولكن بشرط!
- ما هو؟
- لن يعرف أحد بهذا غيرك وغيري وغير الله؟

قال بصوته المرتجف:

- لا أحد أبداً.

أمسك يد المرأة العجوز، ووضعها بين راحتي يديه الجافتين، وبدأ يداعبها. جالت على جسد السيدة هاجر كله موجة لهب حاد. أغمضت عينيها بسرعة. كادت أن ترخي نفسها بين ذراعي رضا.

- هيا لنذهب يا رضا. لننتقل بالخير...

لم يسمع رضا الكلام. قبل يدها التي بين يديه الجافتين بعناية. كان سيسحب المرأة إليه، ولكن المرأة قاومت:

- عديم الصبر. أقول لننتقل، وبعدها!

١٨

كان مظهر يقف وراء نافذة البهو شارداً أثناء ابتعاد العربة المحملة بأغراض السيدة هاجر. مهما يكن فإن الأغراض الذاهبة هي أغراض أمه، وهي تنفصل عنه. من يعلم، لعلهما لا يلتقيان بعد الآن أبداً. ما أغرب هذه الدنيا! تأتي الأشياء من مجاهيل لا تعرف سابقاً رغم معرفة بعض أسبابها المادية، تولد، تكبر، تتداخل في زمن ما، ويُعتاد على بعضها، بعد ذلك تنحل ببطء. كيف تحدث كل هذه الأمور ببطء واعتياد. إنه سَفَرٌ من الأزل ولا ينتهي إلى الأبد، ولا يعرف له بداية أو نهاية! يد ناعمة تداعب شعره... التفت: زوجته.

- بماذا تفكر؟

إنه غير منتبه إلى ما يفكر فيه. بعد ذلك تذكر. قال:

- أفكر بهذه الحياة. أحد المفكرين الغربيين قال إن الحياة تجعلنا نعتاد الموت ببطء. رأي صحيح جداً. جئنا، ونذهب!

- صحيح. هل تريد كأساً أو شيئاً؟

- كونياك...

غط زوجها في الهم من جديد. ولم يكن غير محق. إنها أمه في النهاية. ابتعادها عن الدار الكبيرة خطؤها هي، ولكن الولد الطيب

القلب يتألم على أمه مهما أرادت أن تكون سيئة. خاصة إذا كان مثل مظهر كله إحساس من رأسه إلى قدميه.

قابلت ناجية عند البوفيه. بيدها خرقة تمسح غبار البوفيه. قالت متزلفة:

- اعتقدت أن جبالاً رُفعت عن ظهري يا سيدة خانم.

رغم فهم ناريمان، سألتها:

- لماذا.

- ذهبت العجوز ياه...

قطبت ناريمان وجهها بحدة:

- العجوز؟ لا ضرورة لقلة التربية. إنها أم المحامي السيد المحترم مظهر، وليست العجوز!

حزنت ناجية مرة أخرى. في أثناء ابتعادها حاملة الخرق كانت تفكر قائلة لنفسها بأنه لا يمكن التقرب من هذه المرأة بأي شكل. جاءت ناريمان بكأس مع الكونياك والشكولا. وقدمته له، وأثناء نزع الشوكولا من غلافها، قالت:

- سأجد طريقة وآتي بعديمة التربية هذه إلى الطريق الصواب يا مظهر.

كانت ناظان أيضاً في رأس مظهر الآن.

- أي امرأة؟

- ناجية.

- لماذا؟

شرحت له كيف تقول عن أمه "العجوز"، وكيف كانت تتدخل بالمرأة المسكينة في الفترة الأخيرة. لم يتوقف مظهر عند هذا. قال:

- إنه ذنبها. لم تعرف كرامتها، ولا تعرف. ما ذنب ناجية؟
- صحيح. ولكنها رغم هذا يجب أن تعرف حدودها!

ارتشف مظهر كأس الكونياك كله رشفة واحدة، وأعاد الفارغ، ووضع شوكولا في فمه. بعد ذلك، في أثناء عبوره البهو واضعاً يديه في جيبي بنطلونه، وعودته، عبر خلدون من إحدى الغرف إلى الأخرى كالبرق. مع الكارثة التي حلت برأس ناظان صار يشفق كثيراً على خلدون. ينظر إليه نظرة "ابن المرأة السيئة"، ويفكر بالآلام التي سيعاني منها طوال حياته نتيجة هذه الدمغة التي سيدمغ بها. ومع هذا التفكير تتجسد الروايات سيئة الترجمة التي كان يقرؤها بفضول حتى الصباح أمام عينيه، ويحرق قلبه احتمال أن يكون ابنه بطل إحدى المغامرات المشابهة ذات يوم.

سيبدأ المدرسة ذات يوم. وسينظر إليه زملاؤه في المدرسة بتأثير تلقين الكبار نظرة "ابن المرأة السيئة"، وعندما يغضبون منه، لن يترددوا بالقول له: "إنه ابن ...". ما الذي يجب أن يعمله للحيلولة دون هذا؟ هل ثمة حل غير تغيير المدينة؟ تحدث بهذه القضية مع نهاد. قال نهاد: "أنت أيضاً يا رجل.. انظر بما تفكر فيه. هنالك سنتان على الأقل ليبدأ خلدون المدرسة. سينسى كل شيء حتى ذلك الوقت!"

لعله ينسى، ولكن مظهراً لا يستطيع التخلص من عذاب هذه الفكرة التي تؤلم قلبه. هو الذي حضّر لكارثة ناظان، وسيكون السبب الذي يجعل ابنه يُنادى "ابن ..."

حين يغمض عينيه ليلاً، يظهر خيال ناظان مطأطئة الرأس، ولا يغيب حتى يغط في النوم. وفي أغلب الأحيان، لا يغيب حتى بعد النوم. يتحول إلى حلم عندئذ.

يا لفظاعة الأحلام التي يراها أحياناً! تغدو ناظان أفعى في أحداها، واخطبوطاً في آخر، وتمسك مظهر بقوة شديدة بأذرعها الطويلة والقوية. يكاد يخنق. يريد أن يصرخ، فلا يستطيع الصراخ، فيئن أنيناً عميقاً. وباحتضان زوجته له بقوة يصحو، ويستيقظ.

في تلك الليلة أيضاً استيقظ بهز ناريمان له. كان يغط بالعرق. حملقت عيناه، وانتصب شعره. قال:

- ماء. قليل من الماء. أنا أحترق!

قفزت ناريمان عن السرير. ملأت الكأس من الإبريق الموضوع على الطاولة:

- شرب الماء ليلاً مضر، اشرب قليلاً!

لم يسمع مظهر. شرب الكأس إلى آخره حتى آخر قطرة. مازال يحترق. كان تحت تأثير الحلم الذي رآه. عندما دخلت ناريمان إلى السرير، اندست به بقوة، أنامته على ذراعها، ودست يدها من تحت منامته، داعبت ظهره المتعرق، وصدره المشعر طويلاً. أدركت أن زوجها رأى حلماً مرعباً من جديد. لاشك أن الحلم متعلق بناظان، ولكنها لم تسأله. لابد أن يحكيه لها عندما يتخلص من تأثيره. عموماً لا يخفى عليها شعوره بالتردد. ثمة شيء عالق في رأسه. إذا كانت لا تعرف ما هو بالتحديد، فهي تحدد ما يمكن أن يكون. إنه يخطط لمساعدة ناظان على كل حال. يخطط، ولكنه لا يعلن هذا خجلاً من زوجته الجديدة. هذا كان مجرد شعور فقط. علماً إنه إذا كان صحيحاً فلن تغضب أبداً، وسيكون هذا برضاها من كل قلبها. مدُ يد لامرأة سقطت، والأخذ بيدها من المكان الذي سقطت فيه، وإنقاذها... إنقاذها فقط. لأنه لا يستطيع عمل أكثر

من هذا حتى لو أراد، لا يمكنه، وحتى إنه غير ممكن، ولكنها لن تعترض حتى إذا أعادها إلى البيت من جديد، بيد أنها ستفعل شيئاً واحداً: ستنفصل عنه، وتذهب. إلى أين؟ لا تعرف، ولكن إلى اسطنبول على كل حال، إلى أخيها الأكبر، أو إلى البار لتبدأ من جديد!

صحا مظهر بعد فترة طويلة. قال:

- آخ.

ناريمان وجدت أن ما فكرت فيه كان طفولياً. إنها تعرف أنه يحبها كالمجانين. سألته:

- ماذا ؟

- رأيت حلماً مريعاً مرة أخرى.

- هل هو من أحلام الأفاعي والإخطبوطات؟

- لا. هذه المرة رأيتها مباشرة. كانت متمسكة بقضبان السجن، وتناديني. أتعرفين ماذا كانت تقول؟ .

- ماذا كانت تقول؟

- أنت سبب كل هذا. أنقذني. إذا لم تنقذني سأغدو بقعة سوداء على جبين ابننا. كانت تصرخ بأنهم سينادونه غداً: "ابن المرأة السيئة"، "ابن ...". كم صارت مخيفة يا ربي! جفت يديها، وذبلت عينيها، وغدا لونها ما بين الأخضر والبنفسجي...

تستمع ناريمان، وتستمع فقط. كانت محقة بإحساسها الأولي. إذا لم تكن تلك الأحلام كلها حقيقة، فإنها دليل على أن الرجل يفكر بها، أي بأم ابنه، ويخطط بإمكانية إنقاذها.

- ترى هل كانت تقدم المأوى حقيقة كما كتبت الجرائد؟

- من يعلم؟

- هل لديها محام أم لا؟ حسنٌ، من أين سيكون لها ذلك؟

ذكرته ناريمان:

- لعلها باعت خاتمها!

كان مظهر قد نسي هذا. فقال:

- حقاً. لو تبيعه. لو تبيعه، وتوكل محامياً...

- المرأة التي تدخل أموراً كهذه لا يمكن أن تكون مخبولة كما يقال!

- أتمنى هذا من كل قلبي، ولكنني لا أعرف...

- بعد ذلك فإن هؤلاء عصابة. أصدقاؤها لن يهملوها على كل حال!

فكر مظهر طويلاً. قضيا معاً خمسة أو ستة أعوام. كان يعرفها جيداً جداً. ولم يعرف غير سذاجتها المخيفة ولا يتذكر أي مكر لها. قضية السحر فقط. وفي هذا يعتقد بأن لأمه إصبعاً.

- إذا لم يكن عندها محام، ولم تتمكن من الدفاع عن نفسها...

- ستنال عقوبة كبيرة؟

- تنال. تقولين أصدقاؤها. من يعلم إي أناس ماكرين أصدقاؤها. أتريدين أن يحملوا المرأة المسكينة الذنب كله؟

تشعر ناريمان جيداً بأن مظهراً يريد أن يهتم بها. مهما حصل فإن زوجها يجب أن يتخلص من عذاب الضمير. قالت:

- اركب، واذهب، واهتم بالأمر عن قرب إن أردت.

لم يكن مظهر يتوقع كل هذا. لم يكن ينتظر، ولكن هذا، هل هو صادق يا ترى؟

- أأذهب إلى اسطنبول؟

- نعم!

- أتتكلمين بجد؟

- آ... طبعاً. إنها أم ابنك يا هذا. وقد أجلت أعمالك المستعجلة. تغير الجو من جهة، وتتابع أمور المسكينة من جهة أخرى!

نظر إليها مظهر فرحاً. إنها المرة الأولى التي يضحك فيها منذ أيام. بعد ذلك، احتضن زوجته. أسند رأسه إلى ثدييها المكتنزين:

- كم أنت امرأة طيبة يا ناريمان!

برغم فهم ناريمان كل شيء، بيد أنها قالت:

- لماذا؟

- لأن... دعي هذا حباً لله، لا تدعيني أحكي. إنك طيبة إلى حد...

- ممكن، ولكن هذا على الأغلب نابع من كوني أحبك!

مهما كان منبعه فقد تعانقا بقوة. انزلق اللحاف، وانزلق، وتدلى إلى الأرض، وتكور أمام السرير. صارت الظلال إحداها فوق الأخرى على الجدار. فيما بعد، تمددا متجاورين، وبقيا على هذا النحو. صار كلاهما مرتاحاً. لا يشعران برغبة في الكلام. يد ناريمان في هذه الأثناء نزلت إلى الأسفل، وأمسكت اللحاف، وسحبته.

مازال مظهر لا يستطيع النوم. ذات لحظة، استدار على جنبه، واحتضن زوجته:

- أتعرفين ماذا نفعل، هذا إن أردت؟

- ماذا نفعل؟

- لنأخذ خلدوناً، ونذهب معاً إلى اسطنبول!

هذا ما لم تفكر فيه ناريمان. لم تفكر فيه، ولكنه لن يكون سيئاً. حتى إنه سيكون جيداً جداً. ويمكن أن تتصالح مع أخيها الأكبر الذي أشاح وجهه عنها عندما عملت في البار. من يعلم كم سيفرح أخوها الذي يعمل بالتريكو في السوق المسقف "لتوبة" أخته!

- سيكون جيداً، ولكن لهذا معوقين اثنين.

- ما هما؟

- أحدهما نفقات إضافية!

- مري على هذا. الآخر؟

- الآخر... هل ستقابل خلدوناً بأمه؟

أجاب مظهر بسرعة:

- لا.

- لا مشكلة في هذه الحال إذن. رؤية الولد أمه هناك، خلف القضبان الحديدية...

- لن يكون صحيحاً. أعرف.

في ليلة واحدة عاد إلى حالته السابقة. دهش صديقه نهاد عندما تقابلا في المكتب في اليوم التالي. سأله عن سبب هذا التغيير. عندما علم أنه سيذهب إلى اسطنبول لمتابعة أمور ناظان، فرح الآخر أيضاً بما لا يقل عنه. قال:

- أحسنت، أحسنت يا مظهر. كنت أتوقع منك هذا أصلاً. البارحة فقط كنت أتحدث مع زوجتي، وقلت لها إن مظهراً الذي أعرفه سيتصل بناظان. وحدث ما قلته. وقد أجلنا الدعاوى القائمة. وأنا أتابع أمورك الصغيرة. ماذا ستفعل بأمك؟

- لا شيء. ستبقى هنا. لن آخذها معي ياه!

- صحيح.

- انفصلت عنا أساساً كما تعرف.

- معلوم. أأقول لك شيئاً؟ ولكن لا تحزن، لا تريد حكمت أن تلتقي بها. والسبب...

- مهما يكن. الصداقة تأتي بمشاعر متبادلة. هذا يعني أن إحداهما لا تحب الأخرى...

- وتعرف أنها لا تحبني أبداً.

في هذه الأثناء دخل كاتب عرائض مدمن على الكحول. كان رجلاً ضئيلاً، وجافاً، اعتاد أن يأخذ من مظهر ثمن العرق، وإذا لم يعطه، يشتم. هذا طبعه. يتكلم حتى مع محافظ المدينة بهذا الشكل، ولا يغضب منه أحد. على العكس، فإن وجهاء المدينة يجعلونه يشتم بشكل خاص، ويضحكون مطلقين القهقهة. اعتقد مظهر أنه جاء ليسحب نقوداً مرة أخرى، فدس يده إلى جيب صدريته، ولكن توفيق المجنون قال:

- دس نقودك في جيبك يا ....! هل طلب منك أحد نقوداً؟

- لماذا جئت إذاً؟

توفيق اليوم جديٌ جداً. مع أن جواب: "لماذا جئت؟" كان جاهزاً. يمكنه أن يقول: "جئت لآخذ أمك".

- تعال إلى هنا!

نهض مظهر من وراء طاولته، وذهب إلى جواره. قال المجنون توفيق بحالته الجدية تلك:

- لا تغضب لأنني ناديتك لتأتي إلى عند قدمي. أنا لم أحب هذا الديوث، لذلك لم أرده أن يسمع أكثر.

- نهاد ؟

- ليكن أي خراء كان. اسمعني، إذا لم تبحث في الأمر طويلاً، فلدي لك خبر سيء!

- خبر سيئ؟

- الخبر السيئ انتبه إلى نفسك!

- لماذا ؟

- سيقتلونك!

- من؟

- أما قلت لك لا تبحث في الأمر ياه.

- هل هذا حقيقي يا توفيق؟

- هل سمعت بأن توفيقاً كذب يا ديوث؟ سيقتلونك. انتبه لنفسك. هيا هات الآن نقودي ثمن العرق!

تضايق مظهر، ولكنه لم يبد هذا. بعد أن أخذ توفيق ثمن العرق، ذهب إلى جانب نهاد اليانيالي. بعد أن نظر طويلاً إلى وجهه، قال:

- مرحبا!

- مرحبا يا سيد توفيق!

- لا تخرب لسانك ولاه، سيد تقال لأمثالكم من أصحاب القرون!

خرج ذاهباً. إذا كان نهاد مازال حديثاً في المدينة، فهو يعرف توفيق المجنون. لم يهتم. التفت إلى مظهر. كان قد وضع رأسه بين يديه، ويفكر بشكل سيئ.

- خير إن شاء الله؟

تنهد مظهر. بعد ذلك نظر إلى وجه صديقه حزيناً. سأله نهاد:

- ماذا قال المجنون؟
- قال: إنهم سيقتلوني.
أطلق قهقهة:
- وأنت صدقت أيضاً، أليس كذلك؟
لم يكن تصديق مظهر مصادفة. فهو يعرف أن توفيقاً المجنون يتردد على كل مكان، وفي هذه الأثناء يدخل على الصناعي الموكل بدعوى ضده من دون أي تردد. من يعلم، لعل المجنون أراد أن يفتح موضوع مؤامرة يعدونها. لم يفتح هذا الأمر لنهاد.
- أنا لا أؤمن بالفأل والسحر وما شابه ذلك من قضايا ما وراء الطبيعة، ولكن الإنسان ينغرز أحياناً في طريق مسدود...
- هاه، ما وراء الطبيعة يبدأ بعد ذلك الطريق المسدود مباشرة ياه!
- لعل الأمر كله هنا، أي أنني أعرف سبب مآزقي جيداً في أغلب الأحيان، ولكنني آتي إلى مواجهة الجوانب التي ليس بيدي حلها، وحتى التي لا يمكن لأي منا كفرد أن يخرج منها. إنه مصنع. وكل منا آلة في ذلك المصنع. كقطرة في نهر. ما هو تأثير قطرة على نهر؟
- أو دور مسمار في مصنع!
- هذا مختلف. دور المسمار كبير جداً أحياناً.
- مختصر الكلام يا عزيزي أن الأمور تأتي على هذا النحو، وتذهب بالطريقة نفسها. ونحن، نحن التافهون...
- نعم، ولكن مصطفى كمال باشا هو واحد منا نحن التافهون.
- لا تأخذه مقياساً.
- هذا يعني أنه حتى المسمار يمكن أن يقلب أمور المصنع رأساً على عقب!

- مصادفة.

- مصادفة وما مصادفة. فكر بتاريخ العالم، ألم يتغير بالمصادفة، ورُسم مسار حضارات وتحدد قدرها وفق رغبات المصادفات؟

نهض نهاد على قدميه:

- أف، أف، أف... من أرى مقابلي يا سيد؟

استمر مظهر:

- ليس قدراً. ليس كذلك، ولكنه ماذا؟ القضية كلها هنا!

- متى ستذهب؟

- إلى أين؟

- إلى اسطنبول يا روحي.

- في أقرب فرصة ممكنة. في نهاية هذا الأسبوع أو قربه. ما قولك؟

- هناك خمسة أيام لنهاية الأسبوع. من الأفضل ألا تضيع أي وقت. بعد غد مثلاً. اتركوا الولد عندنا إن أردتم.

- حقاً، إذا بقي فلن يكون سيئاً.

- إذا بقي؟ إنه يدوخ إعجاباً بحكمت قائلاً عنها الخالة الظريفة. ثم إنه صهري. قبل فترة سألته حكمت، قالت له إذا ولدت فتاة فهل تأخذها؟ أجابها بأنه يأخذها. لهذا السبب، اترك الولد. واذهبا كلاكما. لا يعرقل حركتكما على الأقل...

قبلت نريمان، وقبل خلدون أيضاً بهذا. كانا سينطلقان في اليوم التالي. ذهب مظهر بعد العصر لزيارة أمه. قرع الباب مطولاً. لم يتلق جواباً. هل هي غير موجودة في البيت يا ترى؟ فُتح الباب لحظة أراد المغادرة. شوهدت أمه بالباب بشعرها الأشعث. دهشت لأنها لم تتوقع مجيء ابنها في وقت كهذا.

- هل كنت تغتسلين يا أمي؟

قالت بداية: "لا"، ثم قالت: "غسلت رأسي"، وبعد ذلك أضافت قائلة:

- كنت نائمة.

لم يتوقف مظهر عند الأمر رغم انتباهه للغرابة في وضعها.

مازالت السيدة هاجر قلقة، أو مرتبكة كأنها قبض عليها متلبسة بالذنب. تحاول ألا تبدي ارتباكاً، ولكنه يظهر مهما احترست. فجأة وقعت تحت بصرها فردة جورب رضا: كانت تحت السرير الذي يجلس عليه ابنها، ويظهر منها الجزء المطاطي الذي يعلق على طرف عظم القدم. طار صوابها. ماذا لو انحنى ابنها، ورآها؟

- هنالك شيء يمشي على الجدار يا مظهر، برغوث على ما يبدو!...

استفادت من التفات ابنها، وقفزت من مكانها، ودفعت الجورب بقدمها.

وإذا كان مظهر قد قال: "أين؟ أين هو؟" فقد أجابت السيدة هاجر:

- ليس كذلك غالباً، اعتقدت أنه برغوث.

لم يتوقف مظهر عند هذا، ولكنه قال:

- أصبحت عجوزاً يا أمي. مفهوم...

تنهدت السيدة هاجر غاضبة:

- إيه، ماذا أفعل؟ لا بد أن هذا بسبب هم الولد!

نظرت بطرف عينها إلى الباب المفتوح على الغرفة الثانية. ماذا لو أراد ابنها التفرج على الغرفة الأخرى، حتى التجول في البيت كله؟

لم يحدث شيء من هذا والحمد لله. بعد أن شرح لها مظهر باختصار عزمه على السفر إلى اسطنبول. أخرج أجرة البيت للشهر التالي، ونفقات المطبخ، وأعطاها إياها، ونهض.

- ما هذه السرعة يا ابني؟ لو أعد لك فنجانَ قهوة...

- لا أريد...

- هذا يعني أنك ستذهب غداً؟

- سنذهب.

- قل إن شاء الله يا عديم الإيمان! هل ستبقون كثيراً؟

- لا يا روحي. أسبوع أو عشرة أيام، وعلى الأكثر خمسة عشر يوماً.

- خير إن شاء الله...

ارتاحت بعد أن صرفت ابنها. مازال النادل رضا ينتظر بالقميص والسروال الداخليين في الغرفة الأخرى. تغلغل البرد حتى نقي عظامه. حين انتقل إلى الغرفة الأخرى المدفأة بالمنقل:

- أوه. توجد هنا حياة ياه!

عاد إلى السرير مرة أخرى، ودخل تحت اللحاف. قالت السيدة هاجر:

- إنهم ذاهبون إلى اسطنبول.شرحت له.

كان رضا على علم، فقد سمع بهذا. ما يهمه النقود التي أخذتها "المرأة العجوز".

- كم أعطاك من النقود؟

- شهريتي وأجرة البيت للشهر القادم.

- أجرة البيت؟ أما دفعنا أجرة ثلاثة أشهر؟

السيدة هاجر أيضاً نسيت هذا. دهشت عندما تذكرت. قالت:

- إنه ابن على هذا النحو. مبذر. مهما يكن، نتقاسمها أنت وأنا، حسنٌ؟

لم يجب رضا. سألته السيدة هاجر معتقدة أنه غضب:

- هل حزنت؟ لا تحزن، لتكن كلها لك يا عزيزي رضا!

خلعت ما عليها، وارتمت في حضن رضا.

....

كان الباب الخلفي مهماً جداً في الحقيقة. انطلق رضا في طريق البار واضعاً نقود أجرة الشهر القادم التي أخذها من السيدة هاجر في جيبه. كانت قد أنيرت مصابيح الزقاق، ولكن الدكاكين في السوق لم تُغلق بعد. ترى هل يشتري لزوجته ثوباً يسكت به فمها الذي ردد دائماً بأنه ساعد السيدة هاجر أثناء انتقالها؟ هذا ما فعله. اشترى قماشاً ثوب من البازين الأحمر المزهر بالأزرق، ونعلين بيتيين أحمرين عاليي الكعبين.

عندما استيقظت ناجية صباح اليوم التالي، ووجدت الهدية إلى جانب رأسها لم تصدق عينيها بداية. من جلب هذه؟ رضا؟ هل هذا ممكن؟ هل غير طباعه زوجها الذي تعيش معه طيلة تلك السنوات؟ فوق هذا يشتري هدية لزوجته العاقر من دون مناسبة... نظرت إلى زوجها. هزل تماماً. ينام كميت بوجه متعب. انتبهت إلى أنه هزل كثيراً في الأيام الأخيرة. مع أنه لم يكن يتعب أبداً. ولم يقربها منذ أسابيع. أم أنه ثمة ما يجري بينه وبين نساء البار؟ ممكن. إنهن نساء شابات، وجميلات... حسنٌ، ولكن طالما أن أعين تلك النساء على النقود، فأي علاقة يمكن أن

تكون لهن مع زوجها؟ وليس عنده حصة من الشباب أو الوسامة. وإذا قلنا النقود فهي قليلة جداً. لا، لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو. إذا كان الأمر لا يتعلق بالنساء، فهو يتعب كثيراً. نهضت، وذهبت إلى المطبخ لتعد القهوة.

استيقظ رضا على رائحة قهوة زكية. قامت زوجته بما نسيت أن تقوم به منذ سنوات طويلة: حضرت القهوة، وجلبتها إلى فراشه!

- عشت يا زوجتي. والله إنك امرأة، والله امرأة!

قالت ناجية غاضبة:

- بالطبع امرأة. إذا عرفت رجولتك، سأعرف أنني امرأة بالطبع.

- هل أعجبك قماش الثوب؟

- جميل. بكم اشتريته؟

- لا تعيري انتباها لقيمته. والنعلان؟

- جميلان، ولكن... لئلا يكون السؤال عيباً...

- من أين وجدت النقود؟

- من أين؟

- من القمار؟

- هل بدأت من جديد؟

شرح لها رضا مستمتعاً وهو يرتشف القهوة محدثاً صوتاً:

- أنا لا ألعب بنقودي، أحد زملائي النادلين يضع رأس المال. وألعب. إذا كسبت فنحن شريكان، وإذا خسرت، فلا يذهب شيئ من كيسي.

ناسب هذا ناجية.

- قل هذا! لا تلعب بنقودك...

- وهل أنا مجنون؟

سأل وكأنه لا يعلم:

- ماذا حدث بذاك الأمر؟

- أي أمر؟

- هل يذهبون إلى اسطنبول؟

- سيذهبون هذا المساء. سيغلقون البيت. أعطوني لي وللطباخة خمسة عشر يوماً إجازة. وسيبقى خلدون عند بيت السيدة حكمت.

- أنا أشفق على ذلك الولد أكثر من الجميع. مسكين. ماذا يخطر ببالي، أتعرفين؟ يبدو لي أنهم سيفقدون هذا الولد. سيكبر غدا، وسيعلم بما فعلته أمه... حسنٌ، ما ذنب أمه؟ حسنٌ، لماذا لم يتركاه عند جدته؟

عندما خطر ببال ناجية مساعدة رضا لها أثناء انتقالها، قطبت وجهها:

- لتنقلع عينيها!

لم يجب رضا. مع أنه كان يخطط له منذ وقت طويل، ويحسب كم سيستفيد إذا جعل زوجته تقبل. سألها:

- هل يوجد مع الحيزبون نقود كثيرة؟

- طبعاً

- بماذا أفكر، أتعلمين؟

احتدت نظرات ناجية فوراً:

- لأرى بماذا تفكر؟

- لا تأخذي الأمر على محمل السوء فوراً يا روحي. أقول لو

تصلحي ما بينكما، ونضع المرأة في القفص بتعاوننا معاً، ونسحب منها نقود الخمارة!

تحولت ناجية إلى عفريت:

- لتضرب بنقودها على رأسها، لا أريد. في ذلك اليوم الذي خدمتها كأنك خادم أبيها. كم دفعت لك؟

- أي دفع؟ أنا من أجل خاطر السيد مظهر فقط.. ما لي أنا بالعجوز!

- ولكنها كانت تحبك كثيراً...

- هل بقيتُ لامرأة بعمر أمي يا ناجية؟

انشرحت ناجية. زوجها أساساً يمكن عد عظامه. إنه لا يهتم برغم أنها شابة وفتية...

- هل ستتناول إفطارك؟

- ليس عندي رغبة.

- أنا ذاهبة إلى الدار الكبيرة. ليذهبا إلى جهنم، سأنام غداً على راحتي حتى الساعة الثانية عشرة!

انطلقا مساء. كانت ناريمان تنظر إلى زوجها الجالس مفكراً منكمشاً في الزاوية قبالتها تماماً عند نافذة المقطورة. إنها تستغرب حزنه إلى هذا الحد برغم تفهمها له جيداً، وإعطائه الحق. كان هذا زائداً عن الحد حتى لو كان عذاب ضمير. ولكنها أعطت قرارها: ستضغط على نفسها إلى النهاية. من يعلم لعل ندمه يزداد عندما يرى وجه المرأة، ويشعر بالندم إزاء أم ابنه...

كأنها ارتبكت. إذا شعر بالندم، وأراد أن يجلبها إلى بيته من

جديد، فإن المرأة مذنبة. لا يمكن أن تخرج من هناك عندما يراد هذا!
تلاقت عيونهما، سألته: - هل تنال ناظان عقوبة كبيرة؟

كان مظهر يفكر بشيء آخر تماماً: كان يعرف تقريباً طاعة ناظان، وذهابها إلى أي مكان تسحب إليه، وأن ما حل بها حل لهذا السبب.

- ماذا قلت؟

- أقول ناظان، هل تنال عقوبة كبيرة؟

- لا يمكن الجزم من دون رؤية ملفها.

- تقريباً...

- تنال من ثلاث إلى خمس سنوات على كل حال.

- حرام.

تنهد بشكل مهموم:

- حرام، نعم، وحرام جداً. المذنب الحقيقي...

صمت. خاف أن يُحزن زوجته إذا قال لها ما يفكر فيه.

قالت المرأة الشابة: نعم؟

- كانت نافدة الصبر، وحتى متوترة. فهم هذا مظهر. شرح لها خشية أن تفسر زوجته الأمر بشكل آخر.

- أفكر بخلدون.

- ما الذي تفكر فيه لخلدون؟

- مستقبله.

- لم أفهم؟

- أفكر بمستقبله. أي إذا كبر يوماً ما، وعرف أن أمه امرأة سيئة...

كأن موجة غم عبرت وجه ناريمان. تضايقت و قالت:

- لهذا الأمر حل سهل.

- حل سهل؟ كيف؟

- إنقاذه من أن تكون أمه امرأة سيئة!

- لم أستطع الفهم...

- الأصح هو تخليص أمه من كونها امرأة سيئة، وجعلها تحصل عليه!

كاد يبكي بحساسية.

أدرك مظهر الصنم الذي كسره. أضافت ناريمان لحظة أراد أن يجيب:

- أليس هذا دورك في هذه الدنيا؟

- ....؟

- ألا تخلّص الناس من السوء الذي هم فيه؟

ارتخى. كان يبكي. انتقل إلى جانبها، وأخذها بين ذراعيه، وعصرها إلى صدره، وقبّل شعرها...

- فهمتِ الأمر خطأ يا زوجتي العزيزة، والله فهمته خطأ. ثقي بأن قصدي مختلف. لماذا تدخلين نفسك في الأمر؟ أما كنت صاحبة فكرة الذهاب إلى اسطنبول لمساعدتها؟ لنعد فوراً إن شئت. أو لنذهب إلى اسطنبول، ولا نمر عليها. هي في نظري امرأة منتهية. قلقي بسبب ابني. ارفعي رأسك، ارفعيه. هه، هكذا. اضحكي قليلاً، اضحكي لأرى!

رفعت ناريمان رأسها عن صدر زوجها، وابتسمت بعينيها الواسعتين ذات الرموش الرطبة. يا للغرابة، لم يبق أي أثر من غضب اللحظة. كأنها عاصفة هبت، وذهبت.

- هذا يعني أن ناريمان الذكيـة إلى هذا الحد، والقوية إلى هذا الحد، والمسيطرة على نقاط ضعفها إلى هذا الحد تغيرت أيضاً ها؟

تراجعت بقوة:

- ألست إنسانـة؟ وفوق هذا امرأة. نعم إنها أم ابنك، وسقطت في طريق الرذيلة بعد تركك لها. لهذا السبب تعاني من عذاب الضمير، أعرف هذا، ولكن ليس بيدي.

- أفهمك. أنت على حق. لن أمر على السجن طالما أنك تريدين هذا. نذهب إلى عند أخيك الكبيـر، ونقابله، ونتنزه عدة أيام، ونذهب إلى بورصة وإلى قابليجالر، بعد ذلك نعود إلى مكاننا. موافقة؟

هزت ناريمان إصبعها:

- أبداً. ليس ثمة أي تغيير في القرار الذي اتخذناه: بداية نذهب إلى أخي الكبير. بعد ذلك تنشغل بناظان.

- كما تشائين.

- إذا كانت مشيئتي فهي هكذا.

كانا وحدهما في المقطورة. الظلام الدامس خلف الزجاج ذي الهلال والنجمة. نهض مظهر بهدوء. صارت زوجته أجمل في حالتها الباكية. الشيء الذي نسيه منذ قضية ناظان بدأ يجذب روحه بشكل مخيف. إنها رغبة قوية إلى حد أنها أدهشته. يعتقد أنه لم يكن هكذا أبداً. بدأ يتجول في المقطورة واضعاً يديه في جيبي بنطلونه. لا يستطيع الحيلولة دون أن يتدفق ما في داخله برغم إدراكه عدم فائدة التفكير بهذه الأمور في أوقات غير مناسبة كهذه. نظر إلى المصباح المضاء فوقهم، بعد ذلك إلى الستائر. إذا أسدل الستائر جيداً، وأطفأ المصباح... سيكون ذلك جيداً، ولكن موظف قطار نشيط ممكن أن يقلق عليهما، فيدس أنفه...

- بماذا تفكر؟

جلس بجانب زوجته وهو يضحك.

- أتعرفين بماذا أفكر؟

- بماذا تفكر؟

- إذا أسدلنا هذه الستائر...

- إيه؟

- والمصباح أيضاً...

- أطفأناه. بعد ذلك؟

انحنى على أذن زوجته، وهمس. ضحكت ناريمان مقهقهة:

- مجنون!

- نعم، ولكن هذا سيكون رائعاً...

- أجّل شهيتك.

ألقى نظرة إلى ساعته، ونظر إلى الظلام المخيف خلف الزجاج ذي الهلال والنجمة، ثم نظر إلى ساعته من جديد. بعد ذلك أشعل سيجارة.

- هل نام خلدون يا ترى؟

- كم الساعة؟

- تقترب من العاشرة.

- ينام في هذا الوقت يومياً، ولعله لم ينم اليوم. من يعلم ما تشرحه له السيدة حكمت!

تقطب وجه مظهر.

- لو كنت قد نبهتها بألا تتحدث له عن أمه!

- نبهتها. وهل تتحدث له حتى لو لم أكن قد نبهتها؟

- يعني تخاطبه يا صهري؟ صهر من دون مخالفة في مباراة أو جزاء، لو تلد ابنة!

ضحكت ناريمان:

- وهل هذا بيدها يا هذا؟ لو كان بيدها...

- العذر عند من يا ترى؟

- لابد أنه عند السيد نهاد...

- من أين تعرفين؟

- من أين أعرف؟ يا ماكر!

ضحك مظهر مقهقهاً. كانت تريد ناريمان أن تراه هكذا دائماً. فرحت. يكفي ألا يفكر حزيناً، وأن يضحك مقهقهاً.

- كيف هو السيد نهاد كمحام؟

- إيه، إنه محامي. من أي ناحية تسألين؟

- من ناحية علمه، ودرجة نجاحه في المحكمة...

- معلوماته ليست سيئة. ونجاحه بالعمل أيضاً كذلك، ولكنه مازال جديداً. إذا عتق قليلاً، وعُرف بشكل خاص... ومن أجل أن يُعرف، ويأخذ دعاوى كبيرة، يجب أن يعمل دفاعات مبهرة تؤمن له انتشار الشهرة في المحيط، مثل دعواي في قضية ورثة شاكر باشا!

خطر بباله كاتب العرائض المجنون. انتبهت ناريمان لهذا التغيير المفاجئ، فسألته: ماذا يوجد أيضاً؟

تنهد:

- لا شيء... أنا لا أؤمن بضاربي الرمل والفأل، ولكن لسبب ما شعرت بقشعريرة غريبة في داخلي هذه المرة.

- السبب؟

حكى لها بأن كاتب العرائض المجنون قال له: "سيقتلونك!"

انتشرت موجة من القشعريرة في داخل ناريمان أيضاً.

- هراء!

- ممكن. ممكن ولكن ذلك الرجل ليس فارغاً. أي لا تأخذي كلامي بمعنى أنه ملهم. يدخل إلى كل مكان، ويخرج منه. لابد أنه في هذه الأثناء عرّج على الصناعي خصمنا، ويمكن أن يكون قد سمع شيئاً ما...

تعاظمت هموم ناريمان:

- آه يا مظهر، لن يكون سيئاً أن تستمع لكلامي مرة بالعمر، ولكن...

- يا زوجتي العزيزة، معك حق. أنا أيضاً كللت ومللت، ولكن القضية قضية اعتبار. لا أستطيع تركها!

- لو كان السيد نهاد...

- أنا لست نهاداً، أنا صاحب مبادئ. لا أستطيع أن أعتقد بشيء، وأعمل شيئاً آخر. بقي أن الأمر صار أمر عناد. كما تعرفين فإن الرجل يحاول بالتهديد الحصول على ما لم يستطع الحصول عليه بالنقود، شرحت لك هذا. لولا أنني رجل الحزب، لكان قد وجد منذ زمن طويل طريقة يجعلني ألف فيها دفتري، وإذا لم يجد، فإنه يعمل على إيجاد تلك الطريقة. كوني رجل الحزب استطعت كبحه، إلا أنه لن يتركني. من يعلم لعله في زمن غير متوقع، ومن دون أن يترك أثراً...

قاطعت ناريمان كلامه:

- لا يستطيع عمل شيء، افتح فمك على الخير!

رمى مظهر عقب سيجارته على أرضية القطار، وسحقه.

- أنا أتكلم عن نيته. لم أدعِ أنه سينجح بالتأكيد. القضية كلها...

- عدم التقصير باتخاذ التدابير الاحتياطية!

- هذا كل شيء.

- لننتقل إلى موضوع آخر. ماذا تفعل أمك الآن يا ترى؟

حرك مظهر يده، وأراد أن يقول: "وأنت أيضاً".

- أنا أفكر بناظان أساساً. إنها مسكينة جداً يا ناريمان، لا يمكنك أن تتصوري هذا. كانت بيد أمي لعبة بكل معنى الكلمة. والآن هي في السجن وسط تلك النسوة المسعورات..

شرد. لم يزر حتى الآن ليس سجن النساء، بل حتى سجن الرجال برغم أنه محامي طيلة هذه السنوات، وليس لديه فكرة عنه. ولكنه سمع أموراً كثيرة. وسجن النساء كسجن الرجال مليء بالمحكومات بالأحكام الخفيفة والمشددة. ولأن ناظان ستكون من المحكومات بالأحكام المشددة، ستوضع مع السجينات الأكثر شغباً. ماذا ستفعل؟ مما لاشك فيه أنها ستستمر كظل لإحدى النساء المسعورات، ولعلها تعتاد على الحشيش، والأفيون، والمورفين، والكوكائين... نهايتها!

يقفز من غصن خيالي إلى آخر، ويستمر هكذا. تخرج ناظان بعد ثلاث أو خمس، ولعلها عشر سنوات حشاشة بكل معنى الكلمة. وتختلط بعد خروجها من السجن بأناس من النوع نفسه. وبسبب طبعها الذي يجعلها تنجر إلى الجهة التي تسحب إليها بسهولة، تدخل إلى السجن من جديد، وتخرج، وتدخل...

صفارة القطار العالية بددت خيالاته.

- إلى أين وصلنا ؟

- لا أدري. محطة صغيرة غالباً...

نهض، ونظر إلى الظلام من النافذة. ثمة مجموعة من الأضواء إلى الأمام قليلاً، وأناس يتراكضون يميناً ويساراً... جلس مكانه. رأى في حلمه الليلي ناظان مرة أخرى. صارت مدمنة كحول مثل أي امرأة مشردة في روايات هيغو أو دمابير. تستند إلى الباب، وتصرخ بكل قوتها. "أريد ابني! افتحوا الباب! أنتم من أوصلني إلى هذه الحال، وأخذتم ابني من يدي. جئت أحاسبكم، افتحوا الباب."

استيقظ قافزاً. كان يتصبب عرقاً. أخلى الظلام الدامس مكانه لصباح جديد. ثمة سهول مستوية على مد النظر، وتشرق شمس مثل كرة حمراء قانية من خلف جبال عجوز.

. . . .

١٩

صرخت حارسة السجن القصيرة القامة والمعوجة الساقين:

- يا مزورة!

كانت ناظان في الطرف الآخر من الباحة، تنشر على الحبل غسيل ندية الغجرية. التفتت:

- سيدتي؟

- تعالي إلى هنا!

صوت من خلف الحارسة مباشرة سألها بحدة:

- ماذا ستفعلين بالمزورة؟

نظرت الحارسة إلى ندية الأربعينية التي رفعت حاجبيها السوداوين. كانت نحيلة وطويلة.

- جاء محاميها!

اندهشت ندية:

- محاميها؟ أي محام لها هذا؟ وهل لهذه المسكينة أحد غير الله، وغيري؟

جاءت ناظان إلى جانبهما واضعة يديها بجيبي ثوبها المفتوح من الأمام.

سألتها نديمة:

- جاء محاميك. أي محام يا بنت؟

ناظان المتجمدة تماماً منذ أن حاولت نديمة الداخلة السجن بسبب تهريب الحشيش تعويدها على شرب السجائر بالحشيش نظرت بخبل.

- خبلك علق مرة أخرى. أجيبي!

ليس ثمة ما تعرفه ناظان. "شركاؤها بالجريمة" يعملون على تحميلها الذنب كله، فلا يمكن أن يكونوا قد أرسلوا محامياً، أما بالنسبة إلى خالتها... غضبت نديمة، فقالت:

- اذهبي، هيا اذهبي يا مخبولة! التزوير أين، وأنت أين. يا لعقل ذلك القاضي الذي سجنك اعصر على عقله فجلاً. أنت لا تفلحين لا للتزوير ولا لشيء.

أطلقت السجينات اللواتي هناك قهقهاتهن.

مشت ناظان وراء الحارسة المعوجة الساقين. اعتادت على كلمات نديمة الغجرية التي تخدمها بأنواع الخدمات منذ دخولها السجن، اعتادت على لكزها ونهرها، حتى صفعها. طأطأة الرأس هذه كلها ناجمة عن الفقر قليلاً. حسنٌ، إذا لم يكن فقراً، ستكون ظلاً للأخت الكبرى نديمة - هكذا يناديها الجميع في قسم النساء- وستموت عندما تقول لها موتي. لأن نديمة تذكر بالرجال أكثر من النساء. الرجال الذين جروها خلفهم قبل ذلك. فهي تصرخ مثلهم تماماً، وتضرب مثلهم، وتريد طعامها في وقته بالضبط مثلهم، وتنتظر منها أن تقوم بأعمال البيت من دون تقصير مثلهم. كانت نديمة حقيقة مثلهم: بعد هذه الأعمال كلها، وعندما تنام النساء وينقطع الصخب، تدخل نديمة في حضن الأخت. استهجنت هذا

بداية بشكل سيئ جداً، وبكت، وكادت أن تتقيأ، ولكن نظرات الأخت الكبرى الحادة كسكين، وصفعتها على الوجه التي تخرج النار من العينين جعلها تعتاد على هذا أيضاً.

ماذا سيحدث؟ ضاجعت كل هذا العدد من الرجال، فهل سيتغير الوضع بمداعبة امرأة مثلها؟ غير هذا فهي مضطرة للعيش مع الأخت نديمة صديقة. مقابل قيامها بكل أعمالها، كانت تأكل، وتشرب، وتشعر بضغط الزوج المعتادة عليه!

عبرت عدة دهاليز وراء الحارسة المعوجة الساقين، وخرجت إلى "المديرية". كان قلبها يخفق بقوة. المحامي محامي ماذا؟ من أرسله؟ لماذا أرسلوه؟

طرقت الحارسة الباب باحترام، وانتظرت.

صوت المدير الغليظ:

- ادخل!

عند فتح الباب، ودخولها قالت لناظان:

- انتظري!

دخلت، وأخبرتهم. كان المدير المتوسط العمر قد نهض من وراء طاولته. غضب من شدة الالتزام الوظيفي للحارسة، فقال:

- اجلبيها إلى هنا.

دخلت ناظان مترددة، وعندما رأت زوجها السابق جالساً على كرسي في الزاوية اليمنى، بدأت الغرفة تدور في رأسها. لم تكن خطت سوى خطوتين من الباب. تمسكت بالجدار لكي لا تسقط. لم تستطع ساقاها حمل جسدها، انهارت هناك. بدأت تجهش بالبكاء. اختفى كل

شيء. ذرفت دموعها التي تجمعت في الداخل منذ سنوات طويلة بسخاء.

كان مظهر يرتجف مصفراً حيث يقف. يتخبط في ألم لا حدود له ناجم عن اعتقاده بأنه سبب كل هذا. فجأة استجمع قوته، أمسك زوجته السابقة من ذراعها، وأراد أن يُنهضها. لم يحدث. كانت ثقيلة إلى حد... قال:

- اصمتي. اصمتي يا ناظان. انظري أنا جئت. لا تقلقي، يحدث للإنسان كل شيء. دققت ملفك. علاقتك بالجريمة هي أنك أداة فقط. لن تنالين عقوبة كبيرة. اصمتي!

لم تكن تهتم. غطت وجهها بذراعيها، ولم تنظر. استجمعت نفسها على صوت مدير السجن الحاد المتوتر. كان الوقت يمضي. أعطى الإذن باللقاء هنا من أجل خاطر السيد المحترم. لهذا السبب يجب ألا يمضي الوقت. جلست على الكرسي الذي قدمه لها مظهر. عيناها على الأرض، رفعتهما ببطء شديد، وسألت:

- ماذا يفعل خلدوني؟

التفت مظهر إلى جهة أخرى كي لا يُري عيونه المغرورقة، وقال:

- جيد. لا تقلقي عليه أبداً. إنه جيد جداً.

- ألا يسأل عني؟

كأن قبضة يد جاءت حتى بلعوم مظهر، فجلس. أي جواب يمكن أن يقوله لها؟ هل يقول لها إنه يسأل عنها، أم يقول إنه لا يسأل؟

- أيمكن ألا يسأل؟

- لا تجعلوه يعرف أنني صرت امرأة سيئة، ممكن؟

لم يعد مظهر يستطيع الاحتمال، نهض. ذهب إلى النافذة. نظر إلى

الخارج طويلاً محاولاً الكف عن البكاء. رحماك يا ربي، ما هذا التغيير، وما هذا الانهيار الذي لا يصدق!

استجمع نفسه. كان مضطراً ليكون متماسكاً، أو يبدو هكذا على الأقل. انسحب من النافذة، وجاء إلى جوارها.

- سيأتي صديق محام ويأخذ منك وكالة، ويتابع أمرك. سأترك نقوداً عند السيد المدير، تأخذين منه عندما يلزمك. لا تقلقي أبداً. خلدون يكبر. هو ابنك أيضاً بالتأكيد. تخرجين من هنا، وتأتين إن شاء الله، وترينه. ثم إنك لم تصبحي امرأة سيئة. هذا مكتوب على جبينك!..

كانت أذنا ناظان تطنان. لم تعد تسمع. ابنها الذي لم يغب عن قلبها أبداً يتجلى مرة أخرى بشعره الأشقر المجعد. يلوح لها: "تعالي يا أمي. أما كنت ستأتين؟ سأبكي إذا لم تأتِ."

- لئلا جدته تُبكي صغيري ، أممكن هذا؟

ترنح مظهر مرة أخرى كأنه تلقى لكمة قوية. كيف يحكي لها بأن أمه لم تعد موجودة، وكيف غدا البيت منذ خروجها؟ اختصر:

- لا تقلقي أبداً!

- أقبل يدي أمك. واطلب منها أن تدعو لي!

لحظة خروجها خطر ببالها الخاتم. توقفت، وقالت:

- لم أبع خاتمي. إنه عند السيد المدير، وضعه في الخزنة!

نظر مظهر إلى مدير السجن، فقال المدير:

- نعم. أننا نضع الأشياء القيمة عندنا للحفظ، هذا معلوم؟

مرة أخرى آلم مظهر عرق في قلبه. هذا يعني أنها لم تبعه.

لم تعد ناظان تبكي. كأن عطشها قد هدأ، وهي خلف الحارسة، عبرت الدهاليز المظلمة نفسها من جديد، وانتقلت إلى قسمها. أخذت النساء أمكنتهن حولها وعلى رأسهم الأخت الكبيرة نديمة:

- محامي ماذا يا بنت؟
- من أرسله؟
- هذا يعني أن لك أموراً تخفيها عنا؟
- .... ؟
- .... ؟

عندما شرحت لهم الحارسة المعوجة الساقين باختصار، تبادلت النساء النظرات مندهشات: هذا يعني أنها زوجة محام بجد، وقد أكلت صفعة من الحياة ها؟

منذ اليوم الأول لدخولها السجن، لم تستطع أن تقنع أحداً بهذا. الآن فُهم أنها لم تكن تكذب. الأخت الكبرى نديمة تقف جانباً متوترة. كانت غاضبة لإهمال ناظان لها، ووقوفها إلى جوار الأخريات. فجأة طار صوابها. دخلت إلى المهجع غاضبة، واستمرت بالفرجة وهي متوترة من باب المهجع المفتوح: "... ستنالين ما تنالين! انظروا إلى هذه! وخاصة إلى الحارسة المعوجة الساقين. كيف تتزلف لها بعد فهمها أنها ستأخذ إكرامية!" كانت النسوة الأخريات قد بدأن بدس العبارات مستفيدات من غياب الأخت نديمة عن الوسط:

- طالما أن زوجك ترك نقوداً عند المدير، فلا تبالي للأخت الكبرى نديمة!
- فوق هذا، أنت زوجة محام كبير؟

- لا تهيني نفسك!

- هذا يعني أن محامياً سيأتي ليأخذ منك وكالة؟

- إذا كان الأمر على هذا النحو لا تخافي... بعد أن يكون هناك محام في الأمر...

- ....؟

- ....؟

رغم هذا لم تكن ناظان تنوي إهمال الأخت الكبيرة نديمة. فقد أكلت خبزها وملحها إلى ذلك الحد! ألن يكون هذا خيانة للحليب الذي رضعته؟

تركت النساء، وتوجهت نحو المهجع. دخلت خجولة كما في كل مرة. ارتعدت عندما قابلت وجه الأخت نديمة المقطب. قفزت من مكانها السابق كالسهم، ووقفت قبالتها:

- هل ارتفع أنفك إلى جبل قاف لأن زوجك أتى يا بنت؟

دهشت. نزلت على خدها صفعة كالبرق قبل أن تجد فرصة للإجابة. اصطدمت بالجدار، ثم استجمعت قواها. فجاءتها ركلة.

- أخنقك إذا نبست، إنه....!

انهارت هناك، وبكت بصمت.

أما الأخت الكبرى نديمة فقد انفتحت على الكلام: تطلق الشتائم الرخيصة والإهانات الأبشع التي لا يمكن أن تأتي على اللسان، وتمطر التهديدات.

- لو كنت خراء جيداً لما طلقك ذو القرنين. طالما أنك سقطت هنا، فستتحركين وفق قوانين هذا المكان. ستمضين خمس عشرة سنة على

الأقل يا ساقطة! هل تعرفين الجريمة التي ارتكبتها؟ ماذا يعني طبع النقود؟ تقول إن زوجها سيوكل محامياً، وينقذها. اذهبي، واشرحي هذا لحذائي!

تمتمت ناظان:

- أنا لم أقل إنه سينقذني!

- لا تنقّي. أنهضي الآن والا انتف لك شعرك ها! انهضي، واذهبي لنشر الغسيل!

مسحت ناظان عينيها بثوبها، وخرجت من المهجع إلى الباحة. ذهبت إلى الغسيل. نُشر قسم منه، وبقي أكثر من نصفه. فقدت شمس العصر سطوعها، ولكن يجب نشره.

كانت النساء تتفرج عليها من طرف الباحة، وتتألم لها. قالت فريحة النائمة منذ شهرين بسبب الخيانة الزوجية:

- مخبولة. لا تستطيع الانفصال عن ذيل المرأة البقرة العجوز!

ضحكت ملاحة المحتالة:

- إذا وضعتك في حضنها سترين أنت أيضاً!

- آ... الله لا يرينا. بقي لي هنا شهر.

- ماذا ستفعلين بزوجك؟

- أي زوج ياه؟ لابد أنه وجد زوجاً حتى الآن!

ارتفعت القهقهات. جاءت الأخت الكبيرة نديمة إلى عندهن ضاحكة:

- لماذا تضحكن يا سافلات؟

- لا شيء. رأت فريحة في نومها شيئاً...

كانت ناظان قد نشرت الغسيل، ومرت بجوارهن ببطء، ودخلت إلى

المهجع. نسيت الأخت الكبيرة نديمة، والصفعة والركلة التي تحملتهما، والكلمات المؤلمة التي سمعتها. كانت تفكر بزوجها والمحامي الذي سيكلفه زوجها، وتتخيل أنها ستخرج من هنا بعقوبة بسيطة، وتذهب إلى ابنها. ترى هل يقبل بها زوجها من جديد؟ لعله يقبل. لماذا يبحث عنها إذا لن يقبل؟ ويكلف محامياً؟ ويترك نقوداً لدى المدير؟ لو أنها تكلمت أطول؟ قضت وقتها بالبكاء. ترى هل سمعت حماتها بهذا الأمر؟ إذا كانت قد سمعت، فماذا قالت؟ كيف علموا بالأمر، ومن أين؟ هل علم آل المدعي العام بالأمر؟ وناجية؟ ماذا تفعل ناجية؟ وهل سمعت هي أيضاً؟

- انهضي، وحضري فنجان قهوة. اغليه جيداً!

نهضت صاحية. كانوا يغلون القهوة على الموقد بحرق قطع الورق.

كانت الأخت الكبرى نديمة تنظر إلى ناظان من حيث تضطجع على جانبها، وتفهم تواً أنها متعلقة بهذه المرأة التي تحتضنها ليلاً. ظهور صاحب لها، وخاصة زوجها الذي كان يدخلها في زمن ما يؤجج غيرتها. إذا وقع ذلك الرجل بين يديها، فستعصر رقبته. رجل قذر، لماذا ظهر؟ ما قصده؟ إنقاذها بعقوبة بسيطة؟ بدأت عينهااليسرى ترف بعصبية. عليها أن تحول دون هذا. عليها أن تحول دون هذا مهما كان، ومهما كلف الأمر. يجب أن تجعل المرأة ترتكب ذنوباً جديدة، وتمدد عقوبتها. مثلاً يمكنها أن تجعلهم يقبضون عليها حاملة حشيشاً وأفيوناً!... عندما وضعت لها القهوة أمامها رفعت رأسها، وتقابلت عيونهما.

- اجلبي فنجاناً!

ذهبت ناظان، جلبت فنجاناً، وعادت.

- اجلسي بجانبي!

جلست. وزعت القهوة على الفنجان الآخر:

- خذي، ولنتصالح...

ناظان لوت رقبتها. لم تكن تستطيع الأخت الكبرى نديمة احتمال حالها هذه. لو لم تكن نزيلات المهجع الأخريات قد بدأن بالقدوم فرادى ومثنى وثلاث، ستضمها إلى صدرها، وتداعبها، وتقبلها من عينيها الرطبتين. سألتها:

- هل زوجك وسيم يا بنت؟

تنهدت ناظان:

- وسيم، ولكنني لست لائقة به...

- لماذا؟

لم تجب. في عقلها السيد مظهر -هكذا تفكر به- وكلمات السيد مظهر: "اصمتي يا ناظان، اصمتي. انظري، أنا جئت. لا تقلقي، يمكن أن يقع على رأس الإنسان كل شيء. دققت ملفك. علاقتك بالجريمة هي أنك أداة فقط. لن تنالين عقوبة كبيرة. اصمتي!..."

....

غسل مظهر وجهه من العرق، وقال:

- انتهت، المسكينة انتهت. لا تغيب عن عيني. لم تكن تأمل أنني سأبحث عنها مما جعلها تتجمد دهشة حين رأتني... أكثر ما آلمني هو انهيارها عند أسفل الجدار. ليقل ما يقال، فإن هذه المرأة جرّت إلى هذا العمل القذر خارج إرادتها. دققت ملفها. رغم اتهام شركائها بالجريمة لها، فإن كل شيء واضح، وجلي!

- هل قابلت المحامي؟

- قابلته. إنه أحد زملائنا في الجامعة. نهاد أيضاً يعرفه جيداً. عرضت عليه نقوداً، فرفض. إنه شاب جيد. ووضعه ليس سيئاً.

رفع كأسه، وانتظر. رغم تأخر ناريمان بالحركة، ولكنها رفعته، ونقرا الكأسين، وشربا. كانا في مطعم رومي يقع في أزقة بيه أوغلو. على الطاولات المجاورة ثمة عائلات أجنبية أنيقة جلست للشرب واللهو. بعد أن جال مظهر بعينيه قال:

- أنا أدوخ إعجاباً بهؤلاء الأجانب. ما أجملهم! يجلسون مرتاحين مع زوجاتهم وأخواتهم وأولادهم، ويلهون. هذه الراحة غير ممكنة في مطعم تركي حتى ولو كان في اسطنبول على البوسفور. إنهم ينظرون بغرابة إلى الإنسان. مع أنه...

أسندت ناريمان مرفقيها إلى الطاولة، ووضعت وجهها بين راحتي يديها، ونظرت شاردة، وحتى حزينة. مظهر المدرك أن عقلها في مكان آخر، سألها:

- بماذا تفكرين؟

صحت لنفسها، ونهضت:

- لا شيء، أفكر بأخيالكبير، وأولاده، وزوجته... لا أحد مثل أخي الكبير. كم فرح، أليس كذلك؟

يوم وصلا إلى اسطنبول، ذهبا إلى مخزن أخيها الكبير في السوق المسقوف فور نزولهما من القطار. لم يصدق عينيه عندما رأى أخته بعد سنوات طويلة في لحظة غير متوقعة، وإلى جانبها زوجها. ماذا حدث؟ لماذا جاءت؟ من هذا الذي معها؟ أما زالت تعمل في البارات؟ إذا كانت تعمل في البارات، فبأي جرأة تأتي؟

صفة "زوجة المحامي السيد مظهر" أزالت الجبال الشاهقة المرتفعة بينهما عبر السنين فوراً، ورمى الأخوان بنفسيهما أحدهما على الآخر.

كان الأخ الكبير الطويل القامة، والعريض الكتفين، والوسيم يبكي وهو يحتضن أخته، وينطلق من انفعال إلى انفعال. بعد ذلك ترك أعماله، وانطلق أمامهما، وذهبا إلى البيت. كان عيداً حقيقياً وسط صخب ثلاثة صبيان أحدهم أحلى من الآخر، زوجة الأخ امرأة ناضجة، فلم تقصر باللباقة مع ابنة حميها، وزوج ابنة حميها. عاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل سنوات طويلة...

كانت ناريمان تفكر بكل هذا بشكل ممتع. شربا مشروباتهما، وتناولا أطعمتهما، بعد ذلك ذهبا إلى مسرح دار البدائع. تنزها كثيراً في الأيام الأربعة التي قضياها في اسطنبول، وتناولا طعامهما على الأغلب في الخارج. يوم مغادرتهما، زار مظهر المحامي للمرة الأخيرة. أخذ الوكالة، ودقق الملف، وعلم كما علم مظهر من قبل أن ناظان في وضع "الأداة". ووعد مظهراً بأن يتناول الأمر بجدية، وأن يُعلم مظهر بالتطورات بشكل متلاحق.

لم يعرج مظهر على السجن من جديد. ما الضرورة لهذا؟ قدم كل مساعدة ممكنة. سيكون زائداً عن الحد انتظار حركة "استثنائية" من المدير الذي تصرف بتفهم. الأفضل ألا يذهب.

قضيا ليلتهما الأخيرة عند ابن حميه. أكل وشرب حتى ساعة متأخرة. وحكيت ذكريات عن طفولة ناريمان. ومدح موقف أبيهما المتدين بإرسال ناريمان إلى مدرسة أجنبية أخوية حتى ولو عدة سنوات في وقت عصيب باعتباره تقدمياً فكرياً.

طالت رحلة اسطنبول بما في ذلك الذهاب والإياب ثمانية أيام. كان مظهر قد استعاد معنوياته. شعر بخفة. انسل من الأفكار السوداء تماماً، ومن تأنيب الضمير جزئياً. ولكن خلدوناً، ونظرات خلدون، ورقبته التي تبدو له ملوية تؤلم قلبه. إنه طفل ذكي، يشعر أنه يجب ألا يسأل عن أمه أبداً. وإلا فهو يعرف أنهما ذهبا إلى اسطنبول. وإذا كانا قد ذهبا إلى اسطنبول، فهل رأيا أمه يا ترى؟ إذا كانا قد رأياها، فماذا قالت؟ لماذا لم تأتِ حتى الآن؟ ألن تأتي أبداً؟ ذات يوم، وجد طريقة، واندس بناريمان كقط:

- أمي الظريفة!

- نعم؟

- إذا سألتك شيئاً...

- نعم؟

- ممكن ألا تخبري السيد أبي؟

منحته المرأة الذكية الثقة:

- إذا كنت لا تريدني أن أخبره، فلن أخبره بالتأكيد يا خلدون!

- لا أريد.

- ما هو؟

بعد تردد طويل سألها:

- لن تأتي أمي بعد هذا أبداً، أليس كذلك؟

ناريمان المدركة كل شيء، كانت مقتنعة بأن إمهاله لا معنى له. قالت:

- لن تأتي يا صغيري. لا تريد أن تأتي!

- أنا أعرف لماذا لا تريد أن تأتي!

- لماذا؟

- وجدت أولاداً آخرين هناك، وهذا هو السبب!

بعد ذلك اليوم لم يسأل سؤالاً واحداً عن أمه. ولم يدفنه في أعماقه كبقية الأولاد. ولكنه كان يشعر في أعماقه، وفي أعماق أعماقه بألم أحياناً. ويحدث هذا عندما يسمع لفظة "أمي" أو عندما يراها في حلمه. واستمر هذا حتى تلقى خبر موت أبيه.

خبر موت أبيه!

ظاهريا كان هذا الموت قد لخبط المدينة، وعلى رأسها حزبه، وفتح طريق الشائعات أياماً وأسابيع، وحتى أشهر لا يتجاوز كونه حادثاً عادياً. أثناء عودته بالسيارة من كشف حقل يتعلق بدعوى الصناعي وورثة شاكر باشا، انهار الجسر الخشبي، وسقطت السيارة إلى النهر من علو مئة وخمسين متراً، ومات المحامي مظهر والقاضي وكاتب الضبط والسائق. وأي موت! موت بتحطيم الرؤوس والرقاب، والتقطيع!

بحسب التحقيقات الجارية يُشم في الأمر رائحة اغتيال. كان ثمة أثر منشار على القوائم المسكة بالجسر موجودة، ولكن الفاعل؟ من هو، أو من هم الفاعلون؟ بحسب الشائعات فإن الأمر لا يخرج من تحت رأس الصناعي. لأن المحامي الشريف، والقاضي الشريف الذي لا يمكن شراؤه، والمصادفة العجيبة أن الكاتب الشريف أيضاً في السيارة نفسها، ولم تقع الحادثة في طريق الذهاب، بل الإياب! إنها عملية اغتيال مدبرة لمن أراد إبعاد الثلاثة معاً بضربة واحدة!

مهما أرهجت البلد بالشائعات، وتعمق البحث والتدقيق، فإنه لا

يمكن الموت مع الميت! أدركت ناريمان التي لم تنقطع دموعها حتى الصباح من زيارة رب عملها السابق صاحب البار بأنها يجب أن تجد حلاً لمشكلتها. احتال عليها الرجل بألف طريقة وطريقة راغباً بعودتها إلى البار، وعرض عليها حقيقة أجراً كبيراً.

رفضت ناريمان بشدة، وحددت وضعها في تلك الليلة. ستعود في أقرب فرصة ممكنة إلى اسطنبول إلى عند أخيها الأكبر! كانت على تواصل أساساً. والأخ الكبير ينتظر أخته أرملة المحامي نافد الصبر. يجب أن تأتي. لا يمكن الموت مع الميت. إذا كان الله قد أغلق باباً، فإنه سيفتح آخر.

صحيح بالتأكيد. ستذهب. ولكن من جهة أخرى هناك أم زوجها الباقية فجأة من دون صاحب. ترتمي على يديها، وتبكي مصوتة، وتسأل كنتها عما يجب أن تعمله. لأن كنتها يمكن أن تضع يدها على مال ابنها وأملاكه بصفتها زوجته المعقود قرانها عليه، وتذهب. هل سترفع عليها دعوى؟ بأي حق؟ ابنها ليس موظفاً لتطالب براتب من الدولة. وطالما زوجته وابنه موجودان فماذا يمكن أن تكون صفتها لتدعي؟ وإذا ادعت، وتصرفت بسوء فعلى ماذا ستحصل؟ إذا قالت الكنة: "هاهي المحكمة! اذهبي وطالبي بحقك!"، وخرجت من الموضوع، فماذا ستفعل؟ لهذا تتوسل إليها.

لم تكن ناريمان تنوي التصرف بلا ضمير. نهضت ذات يوم، وذهبت إلى السيدة هاجر. انهارت فعلاً تلك المرأة التي كانت في منتهى الحيوية. كان رضا وزوجته هناك يسليانها (احتال رضا على زوجته، وجعلها تقبل بفكرة انتزاع نقود خمارة منها). عندما رأت أن كنتها

التي كانت تقذفها بمختلف الكلام ذات يوم قد جاءت إلى عند قدميها، فرحت كثيراً. أشارت لها بالجلوس. دبجت لها كلمات المديح المختلفة. قالت:

- يا رضا أفندي! هل تتركنا وحدنا لطفاً.

إذا كان الاثنان قد غضبا بشدة في داخليهما، فقد نهضا.

ومن دون لف ودوران دخلت ناريمان إلى مقصدها الأساسي فوراً:

- أتوقع الحال الذي غدوتم بها بعد موت ابنكم. الرجل الميت هو زوجي، ولكنه ابنك. لنتكلم بصراحة أكبر، إنه سندكم الوحيد في الحياة. لم يعد لكم بعد الآن من يرعاكم. أنا قررت الذهاب إلى أخي الكبير في أقرب فرصة ممكنة. أما أنتم فليس لكم مكان تذهبون إليه، أو ملجأ تلجأون إليه، أعرف هذا. لهذا...

كانت السيدة هاجر تنظر بعينيها اللتين تحولتا إلى دم من شدة البكاء، وتستمع بدقة. ماذا لو قالت: "لا علاقة لكم بمال ابنكم!"؟

- ... إنني قبل كل شيء يجب علي أن أفكر فيك كإنسانة. تعلمون بأن الدار الكبيرة التي نسكن فيها مستأجرة. ليس لدى ابنكم مال غير منقول. أما بالنسبة إلى المنقول فهو عبارة عن أغراض البيت. المهم والأساسي هو المال النقدي. سأبيع كل أغراضه، وأحولها إلى نقود. وأضيفها إلى النقود التي معنا...

كان انفعال السيدة هاجر في أعلى درجة.

- .... وأعطيك جزءاً منها!

قفزت من مكانها كالسهم. عانقت كنتها، وقبلتها من خديها. لم تكن تصدق أذنيها. ناريمان التي تقول عنها فتاة البار، ولم تترك عبارة لم تقلها عنها في غيابها...

- الله يعزك دنيا وآخرة يا ابنتي. الله يحول الحجر الذي تمسكينه إلى ذهب!

خطر ببال السيدة هاجر النادل رضا: لم يبق أقرب منه إليها أساساً. الأفضل أن تعطيه النقود، ويفتح الخمارة التي يرغب بها. يعمل، ويكسب، ويؤمن لها نفقاتها.

بدأ في داخلها فرح، وخفة ريشة، ونشوة عيد جديد جداً. ستتخلص من ضيقها السابق. لن تكون محتاجة لأحد. ثم إنها لن تحتاج للعودة إلى عمل الغسيل والخدمة.

- أما بالنسبة إلى خلدون...

أصغت السيدة هاجر من جديد. حقاً، وهذا أيضاً موجود. ماذا سيحصل له؟ لا يمكن للمرأة أن تجر ابن زوجها معها في أثناء ذهابها إلى أخيها الكبير. بعد ذلك يمكن أن تتزوج أو تعود إلى البار. ألن يكون خلدون عثرة في طريقها؟ يجب أن يبقى عندها على كل حال. يجب، ولكن... سيكون عثرة في طريقها أيضاً. الأسوأ في هذا الأمر هو دخوله المدرسة قريباً، وسيكون مصروفه كبيراً.

أسعفتها ناريمان بالمدد مرة أخرى، وأنزلت عن كاهلها جبلاً آخر:

- إنه ابن زوجي الوحيد. والذكرى الوحيدة المتبقية لي منه. ليبق عندي إذا سمحتم. لا تقلقوا عليه أبداً. سأرعاه أكثر مما لو كان ابني الحقيقي، ولن أشعره بفقدان أبيه أو أمه!

رغم أن السيدة هاجر أخذت نفساً عميقاً، قالت:

- والله يا ابنتي أنت طيبة إلى حد أن لساني لا يستطيع إلا أن يذكرك بالخير. ولكنه كما تعرفين الذكرى الوحيدة لابني!

- أنتم على حق، ولاشك أنكم أقرب مني لخلدون. أنا أشفق عليه. إذا لم تسمحوا لي فليبق!

- أرجوك يا ابنتي، أي كلام هذا؟ وهل أستطيع الاهتمام به بعد هذا العمر؟ سيبدأ غداً المدرسة. مع بدء الدوام ستكون له نفقات، كما ستتنوع متطلباته. المكان الذي ستذهبون إليه هو اسطنبول. المدارس كثيرة، وكل شيء كثير. لهذا السبب...

- يعني أنتم موافقون على بقائه معي؟

- بشرط أن تبلغيني بوضعه الصحي أحياناً!

- آ... بالتأكيد يا سيدة.

بعد نهوض ناريمان، وذهابها، عاد رضا وزوجته. ازداد تزلفهما حين علما بأن مبلغاً كبيراً من المال سيصل إلى يد المرأة العجوز. لم يتسع داخلهما لهما من الفرح. حتى إن ناجية قالت:

- لا بد أن لديها خبث ما.

سألت السيدة هاجر بفضول:

- مثل ماذا؟

- مثل ماذا سيكون؟ ألم تشتبهي بمجيئها هكذا مثل النعجة، ومحاولتها أن ترضيك؟

- لا!...

- لا تتضايقي مني أيتها السيدة الكبيرة، ولكنك ساذجة جداً! حصلت على كل هذا القدر من مال زوجها وملكه، وتضعك موضع الأجير بخرقة صغيرة. لو أنك طرقت باب المحكمة لكسبت أكثر. فوق هذا فهي تأخذ خلدوناً أيضاً!

قال رضا:

- لا تتكلمي هراء. لعل هذا لا يصل إلى يدها إذا راجعت المحكمة.

كانت السيدة هاجر بالقناعة نفسها:

- لا يصل يا ناجية. ثم من يعلم كم يلزم من المتابعة من أجل أن يصل؟ أما بالنسبة إلى خلدون، فليبق عندها. غداً سيذهب إلى المدرسة. كيف أنشغل به؟ المرأة مفتحة العينين. ليس لديها ولد. تجعله يدرس في مكان مثل اسطنبول، وتجعل منه رجلاً. لنهتم نحن بعملنا.

قال رضا وهو يفرك بيديه:

- صحيح. لنفتتح خمارتنا، ونضع رأس أحدنا برأس الآخر. أوف!

عينا ناجية تبرقان:

- أنا أحضر المقبلات، وما شابه، أليس كذلك يا رضا؟

- إن شاء الله!

- ولكنني لا أجلي المواعين!

- نجد من يجلي المواعين... أنزل إلى السوق من الصباح الباكر، وأشتري كل شيء من السوق الأسبوعي رخيصاً، وأجلبه. مهمتي تأمين الحاجيات من الخارج. وفي المساء أقف خلف البسطة، وأقدم المقبلات والخمر للنادلين، وأقبض الحساب. بشرفي سنكسب نقوداً بقد الدنيا!

قالت السيدة هاجر:

- إن شاء الله، أرجوكم إن شاء الله. انظروا أنا ليس لي أحد غيركما. أنتما تأميني الوحيد. الرأسمال مني، والعمل، والكسب عليكما. أمنا لي أجرة بيتي، ونفقات حياتي...

قال رضا منفعلاً:

- لا تخافي. لا تخافي أبداً. لن نتحدث عن أجرة بيتك، ونفقاتك؟ النادل سيأتي بطعامك ظهراً ومساء بالسفرطاس طازجاً، وكل وجبة بوجبتها. ولن تمدي يدك على جلي الصحون. كلي، وردي السفرطاس للنادل، ليُجلى في الخمارة. هذه خمارة، وهل هي أنبوب؟ بعد مدة ليست طويلة، ستة أشهر فقط نوسع الدكان إلى الضعف. هنالك ألاعيب كثيرة في عمل الخمارة. تشترين الخمر بهذا القدر، وتضيفين عليه بحجمه ماء، فتبيعينه بالمبلغ الفلاني. سأجلبه ببلاش بإذن الله!

- كيف؟

- هو أمر الرفاعيين. هذا سر المهنة الخاص بي!

سحب المنقل الصفيحي البخس الذي أمامه إلى ما بين رجليه أكثر، وفتل شواربه بمتعة.

- املأ الماء، والق به حفنة من الكلس، أو الأفيون، وإذا لم يتوفر الأفيون نضع نبتة البيقة. كل شيء على ما يرام. وسيقلب المخبولون الخمر كؤوساً قائلين ما أثقله!

- ألن تتمزق أكبادهم؟

- من يهتم لهذا يا سيدة هاجر؟ إذا لم تتمزق أكبادهم، فإن دفة سفينة بطنك وبطني لن تذهب بشكل صحيح. هذه مهنة، تجارة. إذا فكرت بدموع الناس، أو دقائق الأمور فهذا يعني أنك احترقت. القضية كلها هي مضاعفة رأس المال الذي وضعته...

رغم عدم فهم ناجية أي شيء، تمتمت قائلة:

- صحيح.

خلال أسبوع تحقق كل شيء كما خططت له ناريمان. أعطت للسيدة هاجر النقود التي وعدتها بها. وأودعت في المصرف الجزء العائد لها،

وركبت القطار مع خلدون ذات ليلة تشيعها دموع المحامي نهاد وزوجته، وأمنياتهما بحظ سعيد. استطاعت السيدة هاجر والنادل رضا وزوجته الوصول قبل قرع الجرس الأخير بقليل. احتضنت السيدة هاجر حفيدها للمرة الأخيرة، وقبلته قبلاً متلاحقة. بكت. بعد ذلك قرع الجرس، ثم صفارة القطار، بعد ذلك تحرك القطار ببطء.

جلس خلدون بجانب نافذة المقطورة حيث جلس أبوه في وقت ما، ونظر إلى الظلام الدامس الذي خلف الزجاج ذي الهلال والنجمة. أبوه ذهب أيضاً، ولم يعد. لماذا لم يعد؟ إلى أين يذهبون، ولا يعودون؟ وهل هو أيضاً وجد أولاداً أجمل منه، وأظرف كما وجدت أمه؟ لابد أن هذا ما حصل.. لماذا لا يأتي لولا أنه وجدهم؟

ناريمان تنظر بطرف عينها إلى الولد، ولكنها لا تظهر ذلك. بماذا يفكر يا ترى؟ إنه في حال حزينة. فقدانه أبوه بعد فقدانه أمه... لو أنه بقي إلى جانب جدته، لابد أنه سيربى في الأزقة، مع أولاد الأزقة، ومن يعلم أي ولد متسكع سيكون، ولعله لن يدرس. ولكنها ستدرسه. ستجعل منه طبيباً كما كان يرغب مظهر في زمن ما. تعقل الولد وذكائه يشيران إلى أنه سيدرس. وإذا جاءها نصيب جيد، وتزوجت يوماً ما فلن تهمله. "إذا رفض الرجل الذي سأتزوجه الولد، فأرجو من أخي الكبير أن يضعه عنده. لن يكسر أخي الكبير بخاطري. حسنٌ، ولكن من أين سأتزوج؟ أيمكنني أن أتزوج أيضاً. لم أعد فتاة بار. أنا صبية أرملة المحامي السيد مظهر. من يعلم، لعل..."

انتبهت إلى خلدون: يغفو. يمكن أن يسقط. أخذته إلى حضنها. دفن خلدون رأسه الكروي ذا الشعر الأشقر المجعد في صدر أمه الظريفة ذي الثديين الكبيرين، وغط في النوم.

٢٠

غدا ذلك الصدر ذو الثديين الكبيرين الملجأ الوحيد ليكفكف خلدون دموعه لفترة طويلة.

كان كلما هاجمه ابن "الخال الظريف" الأكبر بين أولاده الثلاثة، وأولاد الحرام في الحي قائلين: "ابن ..."، تغدو عيناه نبعين، ويرمي بنفسه في حضن أمه الظريفة، ويدس رأسه ذا الشعر الأشقر بين ثدييها الكبيرين، وينشج باكياً مدة طويلة. لماذا، لماذا يقولون له "ابن ..."؟ هل أمه ...؟ ماذا تعني ...؟ ذات يوم سأل ابن خاله الظريف الذي يكبره بثلاث سنوات:

- ماذا تعني ....؟

- قال الولد المشاكس الذي تقدح عيناه الخضراوان برقاً خاصة عندما يريد أن يسخر:

انظروا إلى الولد المخبول! لا يعرف معنى ....ية؟

- لا أعرف ماذا تعني؟

في الحقيقة إنه هو الآخر لم يكن يعرف، إلا أنه نشر الأمر بين أولاد الحارة:

- يا أولاد، تعرفون خلدوناً هذا؟

- إيه؟
- لا يعرف ماذا تعني ...ية!
- حقاً؟
- والله، إنه بليد... أيمكن للإنسان ألا يعرف ماذا تعني ...ية؟
- لا، لا يعرف ياه!..
- عيب، عيب...
- مازالت رائحة الحليب تفوح من فمه!

لم يكن يعرف، ولم يستطع أن يعرف. بعد ذلك ثمة مشكلة أخرى: إذا كانت الش... تعني ترك الولد وإيجاد أولاد آخرين، فإن أباه فعل الأمر نفسه، لماذا لا يقولون عنه "ابن ...ط" وليس "ابن ...طة"؟

كان يقف ساعات كسؤال حي أمام الباب الخارجي لبيت خاله الظريف المؤلف من ثلاثة طوابق، والواقع خلف قوس "بوظ ضوغان" في حي الفاتح، ويفكر بهذه القضية كثيراً: لماذا يقولون عنه "ابن ...طة" وليس "ابن ...ط"؟

شاع في الحارة أنه "ابن ...طة" ولم يتغير شيء أبداً رغم تنبيهات الأم الظريفة الكثيرة، وضرب الخال الظريف. ورغم عدم مشاركته بألعاب الأولاد، وانزوائه في زاوية بعيدة يتفرج عليهم، ولكن المشكلة تبدأ عندما يُكتشف وجوده:

- ما أخبارك يا ابن ...طة؟
- آ.... انظروا إلى هذه النظرة!
- ماذا يشبه هذا الولد يا أولاد، أتعرفون؟
- ماذا؟

- الفروج. أكون عديم الشرف إذا كان لا يشبه الفروج؟

تتعالى القهقهات، وهو يبتعد هارباً ملوي الرقبة.

بدأ هذا يُفقد البيت استقراره، كما كان يوتر "زوجة الخال"، المرأة التي كانت تضبط نفسها في البداية، وتحترم الضيف، فباتت تهمهم في ما بعد. قالت ذات يوم:

- يا سيدة ناريمان، لا أريد لأولادي أن يُضربوا من أجل لقيط غريب.

- صعقت ناريمان. لم تكن تتوقع رداً كهذا من زوجة أخيها.

- كيف طاوعك لسانك يا أختي...

- أليس كذلك؟السكين وصل إلى العظم. ليعتمد على عدم وجود أب له أو أم. لماذا ترعينه طالما أن له جدة؟ أرسلوه إليها، ليذهب!

لم تكن تستطيع إرساله. علمت من الرسائل التي تتلقاها من زوجة المحامي السيد نهاد بأن جدته تدير خمارة مع النادل رضا. كيف يمكن لها أن تؤمّن خلدوناً وهو الذكرى الوحيدة الباقية من زوجها لجدة سقطت فجأة على هذا النحو، وأكثر من هذا، هي لم تكن تحب خلدوناً لأنه ذكرى زوجها الوحيد فقط، بل لأن دمها يغلي عليه أيضاً، وكانت تشفق عليه حقيقة، وتشعر نحوه بالحنو مثلما يحقق لها السعادة بكل ما هو عليه. قالت:

- لا أستطيع إرساله.

- إذا كنت لا تستطيعين إرساله، فيجب تحمل كل شيء.

- إي إيذاء أولادك له، أليس كذلك؟

- ماذا أفعل يا أختي؟ هل أطلق عليهم النار وأقتلهم؟

- لا تطلقوا عليهم النار، لكن ربوهم! إنه ابن أخي، هل هو غريب عني؟ ثم إن أمر ابن أخي لا بد أن يهمني...

لم تجب زوجة الأخ. لم تجب، ولكن "لا حاجة للأولاد بتربية امرأة سيئة عملت سنوات طويلة في البارات."

غضبت ناريمان المستشعرة هذا من نظرات زوجة أخيها. لم تنظر إلى وجه المرأة أياماً. كانت تغلق على نفسها باب غرفتها مع خلدون، وتضم ذلك الرأس المكور ذي الشعر الأشقر المجعد إلى صدرها، وتفكر متشائمة. ماذا سيحدث بعد؟ إلى متى سيتعكر صفوها بسبب هذا الولد اليتيم؟ كانت ستجد طريقة للانفصال عنه، والتخلص منه بسرعة لولا أنها تحبه. كان لديه نظرة ماكرة، وقد دخل إلى قلبها. لهذا السبب كانت تشعر بالحنق على أولاد أخيها، وتريد أن تخنق من يقول له: "ابن ...طة"، وليكن من يكون!

كان ذلك في الشهر الثالث لمجيئها إلى اسطنبول. كانت تهدئ خلدوناً القادم باكياً على صدرها، فوقعت عيناها على شرفة البناء المقابل. ثمة رجل مسرّح الشعر حيوي، وقف ينظر منتبهاً! توجست فجأة. بعد ذلك، نظرت من جديد. لا يغير الرجل وقفته، ولا يغير الإلحاح الذي في عينيه. حسن، ولكن لماذا ينظر؟ هل جاء حديثاً إلى ذلك البناء؟ من هو؟

تمر الأيام، ولا يكتفي الرجل الوسيم المسرّح الشعر بالنظر، بل كان يمر من أمام البيت عندما تسنح له الفرصة أيضاً، وتبدر منه الإشارات. زوجة الأخ انتبهت لهذا الأمر أيضاً، وأعلمت زوجها بالوضع. كان الرجل يقول: "حسن. امرأة شابة أرملة. لو يتفاهمان!"

حل يوم انتبه فيه خلدون أيضاً. كان "العم الوسيم" يريه الشوكولا من بعيد، ويناديه بيده. ذات يوم قال:

- يا أمي الظريفة. هنالك العم المقابل لنا!

- نعم؟

- يناديني!

- تظاهرت ناريمان بعدم الفهم.

- لماذا يا ترى؟

- لا أعرف لا بد أنه سيعطيني شوكولا.

- حسن، اذهب، وخذها!

- ألن يكون عيباً؟

- لماذا؟

- وهل تؤخذ شوكولا من الغرباء؟

- ضحكت ناريمان.

- إذا سمحت الأم الظريفة فلن يكون عيباً!

ذهب خلدون، وعاد بالشوكولا ورسالة مطوية ثمان طيات. قدم الرسالة لأمه الظريفة، وقال:

- يريد الرد عليها.

قرأتها ناريمان على نَفَسٍ واحد: يريد أن يتعرف عليها. وسينتظرها غداً في حديقة الفاتح إذا كان ممكناً!

كان خلدون يتململ نافد الصبر، يريد أن يأخذ رد أمه الظريفة.

- هيا يا أمي الظريفة لماذا لا تكتبي؟

نظرت إليه باسمة:

- هل أحببت ذلك العم كثيراً؟

- طبعاً.

- ماذا أحببت فيه؟

- يلمع شعره ، بعد ذلك فهو عم ظريف جداً. سألني عن اسمي، فأخبرته. وناداني بـ يا سيد خلدون!

بعد تردد صغير، كتبت الأم الظريفة الرد: قبلت. ستكون غداً في حديقة الفاتح، في الساعة المحددة.

تقابلا في اليوم التالي. وكان خلدون معهما أيضاً. جلس بينهما كما يحدث عادة. حكيت أحاديث عامة، وعن جمال الطقس. مدح ذكاء خلدون. بعد ذلك، تم الدخول إلى الهدف تدريجياً.

- أ لديكم ولد آخر غير خلدون؟

- خلدون ليس ابني الحقيقي...

- ماذا إذن؟

ضحكت!

- زوجة أبيه!

حكت قصتها: تزوجت من محامٍ انفصل عن زوجته تواً. بعد ذلك، اغتيل المحامي بسبب قضية إرث كبيرة. وبقيت أرملة. ومن المؤكد أنها لا تستطيع رمي الولد. بعد ذلك، جاء الدور على "العم المسرِّح الشعر". كان مهندساً يعمل بالتعهدات، تزوج مرتين، ولم يكن سعيداً. في الأولى خضع لمشيئة أمه، فتزوج ابنة أحد الأقارب، وانفصلا بعد ستة أشهر. أما زوجته الثانية فقد كانت ابنة عقيد. ولم ينسجم معها لأنها مغرورة جداً.

كانت ناريمان تفكر قائلة لنفسها: "ماذا سيحدث؟ ما الذي سأفقده

لو كان هذا كذباً؟ لن أستسلم بسهولة. لعل الرجل جدِّي. سأفهم هذا."
استمرت اللقاءات "عديمة الضرر" ثم تمنى منها الرجل ألا تجلب خلدوناً معها في المرات القادمة. إذا جاءت من دونه فسيبتعدان إلى البوسفور، والجزر، ويتحدثان بحرية أكثر، وتشعب أكبر. لم تكن غرَّة إلى الحد الذي يجعلها لا تفهم ما تعنيه عبارة: "حرية أكثر، وتشعب أكبر" ولكنها تظاهرت بعدم الفهم، وأرادت بشكل خاص ألا يشعر أخوها الأكبر بهذه العلاقة.

في النهاية كتبت هذا كله للسيدة حكمت زوجة المحامي السيد نهاد. لم يكن رجلاً سيئاً. إنه ساذج قليلاً، ولكنه غني. يمكن أن يكون زوجاً على ما يرام. ذكر أنه سيرسل بطلب أمه خلال عدة أيام. كانت الأمور تسير في نصابها. قلقها الوحيد هو خلدون. ماذا ستفعل به؟ لا شك أن جدته هي الأنسب.ولكنها ماذا تفعل؟ هل تريده؟

أعطت السيدة حكمت الرسالة لزوجها مساءً، وانتظرته. لو كان الأمر بيدها لطلبت أن تربي الولد، وتشرف على تنشئته. قالت:

- مسكين خلدون. يا صغيري المسكين... سيضيع في الوسط!

بدأ يذرع المكان ببطء واضعاً يديه في جيبيه. يسكنان في دار كبيرة تذكر بالتي سكنها مظهر. أعماله جيدة جداً. ولعدم اهتمامه بالمبادئ كمظهر، فقد دخل ببعض الأمور القذرة، معطياً للنقود الأهمية والاهتمام. عبر البهو من أوله إلى آخره ثم عاد. ووقف أمام زوجته:

- أتعرفين ما يخطر ببالي؟

- ماذا؟

- أقول لو نأخذ هذا الولد تحت رعايتنا...

لم يكن يأمل أن زوجته سترضى فوراً. مع أنها راضيـة منذ زمن. قالت:

- سيكون هذا جيداً جداً. أنا أيضاً كنت سأعرض عليك الأمر نفسه!

انفعل نهاد:

- لنأخذه في هذه الحال. في الأمر ثواب. فضلاً عن اننا بلا ولد. هو سيُدخل البهجة إلى بيتنا!

لا شك أنه سيدخلها، ولكن الولد مهما يكن لا يُعد وحيداً بوجود جدته. لننظر ما إذا كانت سترضى؟ هل ستسمح تلك المرأة التي لا تحب المحامي نهاد منذ عهدها به، وتكره زوجته حكمت لأنها زوجته من جهة، وصديقة "فتاة البار" من جهة أخرى بأن تضع الولد تحت رعايتهما؟ قالت السيدة حكمت:

- قبلها هناك أمه. عندما تذهب هذا الصيف إلى اسطنبول، عرّج على السجن، وخذ منها ورقة!

لم يخطر هذا ببال نهاد، فقال:

- حقاً. إذا أخذنا موافقة أمه ينتهي الأمر!

كتبا عن الأمر كما هو بالضبط لناريمان.

فرحت ناريمان. علاقتها بالمهندس المتعهد تتطور. أحدهما يحب الآخر. إنهما يتفاهمان برغم إنه وجد ناريمان ذكية أكثر من اللازم، بينما هي وجدته ساذجاً جداً. لن تبقى سنوات طويلة في بيت أخيها الأكبر.

أدخل خلدون إلى المدرسة في ذلك الشتاء. وحصل الأمر نفسه في المدرسة أيضاً، فقد نشر ابن خاله الظريف المشاكس الذي يذهب إلى

الصف الثالث "ابن ...طة". انطوى على نفسه. كان يهرب من الزحام. وفي الفرص يتجول في الدهاليز شبه المظلمة التي يعبر منها المعلمون، ويحذر من الأولاد. وضعه مقلق البيت في كذلك، فلم تعد أمه الظريفة تهتم به كما في السابق، ولا تداعب رأسه المكور ذي الشعر الأشقر على صدرها ذي الثديين الكبيرين. كانت مشغولة بنفسها. تمضي أوقات فراغها أمام المرآة، وتمشط شعرها مدة طويلة، وتتزين. خلدون الذي شعر بأن هذا كله يحدث من أجل "العم المسرَّح الشعر" لم يعد يحبه، حتى إنه لم يعد يريد أن يراه. ولماذا يريد بعد أن أخذ أمه الظريفة من يده؟

مر أحد شتاءات اسطنبول القاسية، ولعله الأطول. استمر الثلج إلى نهاية نيسان، وحتى إلى بداية أيار. لم يتبقَ أثر للشتاء في أواسط أيار.

انتقل خلدون في ذلك العام إلى الصف الثاني. فوق هذا فإن علاماته كلها كانت "عشرة". ضغط الحرُّ في مطلع حزيران. تلقت رسالة من زوجة المحامي نهاد: إنهما قادمان إلى اسطنبول للبقاء ثلاثة أشهر! جرفت ناريمان فكرة سوداوية: ترى هل سينزلان عندها؟ إذا فعلا أمراً كهذا فيمكن أن يكون سيئاً حقيقةً. علاقتها مع زوجة أخيها لا تسير جيداً أبداً. تبدي المرأة غضباً شديداً، وتسمعها كلاماً سيئاً. لم يكن لديها بيت مستقل لتدعوهما إليه..ولكنها لم تتعرض لما خشيت منه. وصلا، و نزلا في أحد فنادق سيركجي. المهم هو الأحداث غير المعقولة التي وقعت للجدة، إذ ظهر بأن علاقة عميقة توجد بين النادل رضا والسيدة هاجر. ذات يوم، ضبطت زوجةُ رضا "الحيزبونَ" في حضنه.

لم تكن ناريمان تستطيع التصديق.

- بعد ذلك؟

قالت السيدة حكمت:

- بعد ذلك. وضع الزوج والزوجة أيديهما على الخمارة!

- ونقود السيدة هاجر؟

- راحت طبعاً.

- كيف يحدث هذا؟ ألا يوجد بينهم عقد أو ما شابه ذلك؟

- بحسب ما يحكى فإن المرأة تمارس الجنس مع رضا منذ فترة طويلة. وبهذه الوسيلة كان يسحب من يديها نقود الخمارة. والآن...

قلب ناريمان يومض بالألم، فهي تشفق عليها مهما حصل.

- حسن ماذا ستفعل الآن؟

- والله لا أعرف. هي لا تحبنا كما تعرفين. لم تأتِ، أو تعرج علينا لتفضي بهمها. والحقيقة أننا لم نسأل عنها...

لم يكن خلدون قد نسي "الخالة الظريفة".. جلس في حضن السيدة حكمت، واحتضنها بقوة، وأسند رأسه إلى صدرها. ولإدراكه أنه لم يعد ثمة خير من أمه الظريفة غدت خالته الظريفة رفيقة روحه.

بعد تجوال ونزهات على مدى ثلاثة أيام، وجدوا بيتاً بخمس غرف في قانلجا، مدفون بخضرتها، وسكنوا فيه. كان الأهم عندهم الغرفة التي تقع في أعلى البيت، وهي الأجمل مطلة على البوسفور.

اضطجع خلدون في تلك الليلة في حضن السيدة حكمت. داعبت المرأة رأس الولد بعد انتباهها أنه أصيب بالأرق، إذ مر وقت طويل على منتصف الليل، وسألته:

- لماذا لا تنام يا خلدون؟

- لست نعساناً!

- لماذا؟

- لا أعرف.

ناقشته بالأمر. بدأ يجهش بالبكاء في النهاية. يجب أن تكون أموراً طفولية. هل كانوا يتدخلون بشؤونه؟ هل كانوا يضربونه؟

لم تبق ثمة حاجة لسؤاله. بعد أن مسح دموعه بذراعه، ناداها قائلاً:

- يا خالتي الظريفة!

- نعم يا صغيري؟

- ماذا تعني ....طة؟

جلست المرأة الشابة على السرير. وفتحت المصباح الذي بجوارها.

- ممن سمعت هذا الكلام الخبيث يا خلدون؟

- خبيث؟

- طبعاً خبيث يا صغيري. احذر من قوله مرة أخرى، حسنٌ؟

لم يجب الولد. كان يقف بشعره الأشقر ورأسه المدور كإشارة استفهام.

- هل أمي ....طة؟

دهشت:

- لا يا بني، من قال لك هذا؟

- ابن خالي الظريف، وأولاد الحارة، وزملائي في المدرسة. ينادونني ابن ....طة، ويبكونني. أنا لا أريد أن أذهب إلى هناك مرة أخرى. ولا أحب ذلك الرجل، ولا أمي الظريفة أيضاً. أنا أحبك أنت يا خالتي الظريفة. إذا جاؤوا لأخذي قولي لهم إن خلدوناً صار ابني. وأنا أحبك أنت، والسيد عمي أيضاً. أريد أن أكون ابنكم.

كان يبكي. سمع نهاد المضطجع إلى جوار زوجته هذا كله أيضاً. نهض، وجلس على السرير. وضعا الولد بينهما، وبدأا يداعبانه على نحو افتقده منذ زمن طويل. نسي أمه الظريفة. راح يركض، ويلعب بين الأشجار طوال اليوم، تغيّر له خالته الظريفة ألبسته الداخلية عندما يتعرق، ولكنه لا يغضب أبداً. صادق أولاد الجيران. كم كان هؤلاء أصدقاء طيبين! لم يقولوا له: "ابن ...طة". يخرجون إلى الحقول، ويدبكون بأقدامهم على العشب. لم يبالِ حتى بأمه الظريفة عندما جاءت بعد ثلاثة أيام مع "الرجل المسرح الشعر". مع أنهما جلبا له علبة كبيرة من الشوكولا، وكرة قدم صفراء حتى أنه لم ينظر إليها، كأنه لم يكن يعرفهما. قالت ناريمان:

- غريب. ماذا فعلتما لتربطاه بكما إلى هذا الحد؟

كانت السيدة حكمت تضحك:

- لا شيء. ألا تعرفين أن نجمه متوافق مع نجمي منذ زمن طويل؟

- أعرف، ولكن...

لن يتوقفا عند هذا. كان هذا الأفضل للجميع. أثناء نزول السيد نهاد وعشيق ناريمان الجديد سليم إلى شاطئ البحر، تهامست المرأتان وقوفاً:

- أنتِ محظوظة من ناحية الرجال يا كافرة!

- ماذا أفعل؟ هل هذا ذنبي؟

- ذنب؟ ذنب ماذا يا بنت؟

- من أين أعرف أنا؟

- من يعلم كيف صدت الرجل؟

- والله لم يكن لي علم حتى. كنت أتخبط بهذا الولد. في أحد الأيام رأيته يقف على الشرفة ينظر وينتظر. بعد ذلك...

- حسن، هل ينادون خلدون ابن ...طة؟

تعاظمت هموم ناريمان:

- لا تسألي!

حكت. حكت كل شيء. السيدة حكمت استمعت بانتباه، وأعطت المرأة الحق. عملت ما بوسعها لكي ترعى الولد، ولا يمكن لها أن تعمل أكثر من ذلك. وزوجة أخيها لا ترضى بهذا، ولم تكن تريد أن يُضرب الأولاد، ومن المحتمل أن تكون على حق أيضاً.

قالت السيدة حكمت:

- صحيح. وهل تريد أي أم أن يضرب أولادها؟

- لا تريد

- الأفضل أن نلتقي بأمه، وبعد أن نأخذ موافقتها...

- بأمه؟ وهل ستأخذون معكم الولد؟

- لا. سيذهب نهاد وحده ويلتقي بها...

- احذروا من أخذ خلدون. إذا رأى أمه هناك خلف القضبان الحديدية، فلن ينسى ذلك المنظر طوال حياته. إنه ولد ذكي، أليس كذلك؟

- جداً.

ذهب المحامي نهاد، والتقى مدير السجن. المعلومات التي أخذها عن المرأة ليست مفرحة أبداً. إنها تدخن الحشيش. ولا تكتفي بتدخينها، بل تبيعها. حتى إن المرأة المدعوة نديمة، والمسجونة معها بهذه الجريمة قد تعقلت، وهي التي أبلغت عن ناظان ومخبأها الخاص للحشيش. قال:

- الوضع على هذا النحو، رغم هذا التقوا بها، طالما أن الأمر يتعلق بابنها...

كان نهاد ينتظر منفعلاً. جاءت بعد ثلث ساعة: رحماك يا رب، وهل هذه هي بنت الجيران المتوجسة التي رآها قبل سنوات طويلة، وشعرها يصل إلى قدميها! ألبسة مهلهلة، عينان غائرتان، وجه مجعد، وشعر أشيب... سألها المدير:

- هل عرفت السيد المحترم؟

نظرت ناظان طويلاً، ثم التفتت إلى المدير، وهزت رأسها إلى الطرفين:

- لا!

ذهب نهاد إلى جانبها:

- أما عرفتني يا سيدة ناظان؟

نظرت إليه وكأنها تريد أن تقول: "سيدة؟ وأي سيدة؟ مضت سنوات على فقدانها هذه الصفة. أنا صرت الآن المزورة!"

- لا لم أستطع المعرفة.

-إنني نهاد صديق مظهر، الذي كان يذهب معه إلى الجامعة، وكنا نسكن في إحدى غرف الإيجار إلى جانب بيتكم...

دبت الحيوية بصور معكرة في مكان خلف عقلها، بعيد، وبعيد جداً. بعد ذلك صفت الصور ببطء، ثم صفت تماماً. نعم، إنها تتذكر واحداً كهذا غالباً!

- أمازلت لا تتذكرين؟

- قلتم مظهر؟

- نعم، مظهر...

- ألم يمت السيد مظهر؟

- ....!

- ماذا جرى لخلدوني؟

- أنا جئت إلى هنا من أجله أساساً. خلدون عندنا. لا تقلقي عليه أبداً. إنه يدرس. سيكون طبيباً. سنربيه وكأنه ابننا. قالت أمه الظريفة...

- الأم الظريفة؟ من هي الأم الظريفة؟

فهم نهاد الأمر. لم يكن لدى المرأة علم "بفتاة البار".

-السيد مظهر تزوج من بعدي؟

لم يجب نهاد. تنظر ناظان بعينين تشبهان الزجاج الرطب، وتبتسم بألم.

- هذا يعني أنه تزوج من بعدي؟ حسن، كيف رضيت أمي، أي السيدة هاجر؟ عندما أرسلاني إلى خالتي، قالت إنني في الربيع سأكون هناك.

تنهد. التفت إلى المدير. كان المدير يدرك أن معنى هذه النظرة: المرأة "ماستور" أي "مسطولة من الحشيش". فُهم الأمر. اقترب منها كي يختصر القضية:

- دعي الآن هذا وذاك. جاء السيد المحترم إلى هنا من أجل ابنك. يقول انه سيأخذ ابنك إلى عنده، ويربيه إذا سمحت لي السيدة ناظان. سيجعل منه طبيباً. هل هذا سيئ؟ بعد خروجك من هنا تذهبين إلى جانبه، وتعيشين براحة!

كأن ناظان قد صُدمت:

- لا ، لا أريد. لا أريد أن يعرف خلدون عني شيئاً، ليعرف أنني مت. أنا ميتة أصلاً، لا أستطيع النظر إلى وجهه. تعرفون هذا. خذوه، علموه، ولكن لا أريد أن يعرف بوجود أم له مثلي. أتوسل إليكم. قولوا إنني مت، أليس هذا ممكناً؟

ساءت حال المدير وحال نهاد أيضاً. وهي تتوسل باستمرار.

- يا سيدي المحترم، ليعرف أنني مت، أليس هذا ممكناً؟ أتوسل إليكم، ليعرف أنني ميتة. تعدونني، أليس كذلك؟ سيعرف أنني ميتة، أليس كذلك؟

انتقل المدير إلى طاولته. كان قلبه ينفطر، ولكنه مضطر للتظاهر بالقوة، قال:

- حسن، حسن. سيكون كما تريدين، لا تقلقي.

نظما سنداً وفق الأصول، وجعلا ناظان توقعه.

أثناء خروج المحامي نهاد من السجن حاملاً "وثيقة موافقة" ناظان، كانت أعصابه في غاية السوء. لو لم يأتِ، ما رأى بنت الجيران الشبيهة بالغصن، والذي كان شعرها يصل إلى كعبيها في هذه الحال.كان يفكر بناظان طوال الطريق: كيف هي خجولة يا ربي! هذا يعني أن الفتاة الغشيمة التي تفوح منها رائحة الحليب براءة، الذي يحمر وجهها حتى شحمتي أذنيها عندما ينظر أحد إلى وجهها، يمكن أن تغدو بهذه الحال عندما تقع بيد الحياة الظالمة: من المذنب؟ هل هو مظهر؟ لا. بحسب ما حكاه فقد كان هو أيضاً على حق. بات بارداً من ناحيتها عندما لم يجد فيها ما أراد إيجاده في زوجته. البرودة أو عدم البرودة أمر ليس باليد.

قـابلت السيـدة حكمت زوجـهـا عند البـاب. كـان يبـدو غـائصـاً في أفكاره. شـحب لونـه. لم تره غـارقـاً في أفـكاره على هذا النحـو منذ أن تزوجا. صعـدا إلى الأعلى. خلع نهـاد ثيـابه، وارتدى منامتـه. تمدد على مقـعـد على الشـرفـة المطلة على البـحر مرتـخيـاً. اندست السيـدة حكمت بجانبه كظل:

- ما بك؟

نظر شارداً. لم يجب فوراً. بعد ذلك بدأ يشرح ببطء. كانت السيدة حكمت تستمع من دون أن تنبس بكلمة واحدة.

- إذا كان قدراً، أو تقديراً، إذا كان رباً أو ذا جلالة....

- اسكت، ستصير كافراً؟

- حياة الناس على هذا النحو لا يليق بالجلالة!

- قل التوبة.

- افـترضي أنني تبت، واستـغـفـرت، وفـتـحت يـدي إلى السـمـاوات، وتوسلت الغـفـران... مـاذا ينتـج من هذا؟ ها هي عـائلة كـبـيـرة تبـددت. غداً، وإزاء أي مصادفة يمكنك القول إنه تقدير الله، وإذا وقعت لي واقعة ما، فهل هذا ما ستؤولين إليه، أليس كذلك؟

ارتعدت السيدة حكمت:

- ماذا؟

- نوعاً آخر لناظان!

عُصر قلب المرأة الشابة. بدا لهـا أن الشبه بناظان لا يخصـهـا أبداً. ليس ممكناً حدوث شيء كهذا لها. يمكن أن تذهب إلى أخيها الكبير قائد الكتيبة في الشرق، وهي تعرف أخلاق أختيـها الكبيرتين أيضاً. كثير ما

شاكستاها قبل زواجها من المحامي نهاد. أما أخوها الكبير، فقد كان طبيباً، ولكنها هل تحب زوجة أخيها، وحماته؟ وأخواتها اللواتي يأتين كل صيف لرؤية أختهم؟ تنهدت. حتى إنه لم يشعر بها. كان يفكر بالسبب الذي جعل عشها ينهار بأخف ضربة. أمور مثل الزواج والصداقة والحب ميؤوس منها في أثناء الفاجعة، أو بُعَيد الفاجعة. مع أن مظهراً كان من أقرب أصدقائه، وأقربهم إلى روحه، وأعزهم عليه. ماذا استطاع أن يفعل لكي لا يتشتت عش مظهر بعد موته؟ لاشيء! إذا كانت الروح خالدة، وروح مظهر تتفرج على هذا كله من العرش الأعلى، فلا بد أنه حزين كثيراً. ارتعد، بدا له أنه موضع فرجة. بعد خمسة أعوام أو عشرة أو عشرين، أو ثلاثين على الأكثر هذا غير معروف، سيموت أيضاً. وستلتقي روحه بروح مظهر. ألن يسأله صديقه حينئذٍ: "أين صداقتنا؟" ألن يقول له: "أين كوننا أحباباً؟

تلفت حوله. سألت السيدة حكمت:

- إلى ماذا تنظر؟
- أين خلدون؟
- يلعب مع أصدقائه، هل أناديه؟
- لا.

ليذهب، ويلعب. يمكنه غداً في "العرش الأعلى" في أثناء حديثه مع أبيه أن يقول له: "أمسكت بيد ابنك، وربيته!"

قرب نهاية الصيف ذهبت ناريمان مع زوجها الجديد إلى إزمير. أخذ الرجل مقاولات جديدة هناك. أما أسرة المحامي نهاد فقد عادت إلى مدينتها.

لم يستغرب خلدون حياته الجديدة أبداً. لعله لن يدفأ بسهولة بعد أن رأى معاملة باردة من أمه الظريفة من أجل "ذلك الرجل".

سُجِّل في الصف الثاني في المدرسة الجديدة، وما زالت في عقله خضرة قانلجا الغنية، وزرقتها، وإوزها اللامع، ومياه البوسفور الكحلية، وخاصة أصدقاؤه بأصواتهم التي ما زالت تصدح في أذنيه. ألبسة جديدة، وحذاء جديد، وحقيبة جديدة، ودفاتر جديدة، وأقلام جديدة، وفي النهاية زملاء جدد... كان قد نسي عبارة "ابن ...طة" منذ كان في قانلجا. يذهب إلى المدرسة في الصباح الباكر. ويركض حتى موعد قرع جرس الدرس الأول، ويلعب بطفولة حتى يتصبب عرقاً. وإذا ما رأى أمه في أحلامه أحياناً، فهو ينساها صباحاً. أصدقاء جدد، وألعاب جدد، ومشاكل الألعاب الجديدة التي لا تترك له مجالاً للتفكير بأمور أخرى. لهذا السبب لم يسمع حتى بأن جدته في ذلك الشتاء اشتغلت طباخة في دار عائلة غنية، وأنها ذهبت مع تلك العائلة إلى مكان أبعد من اسطنبول.

في العام التالي تغير لون الحياة عندما ولدت خالته الظريفة بنتاً (شخاخة خراءة) كثيرة الصراخ. من أين خرجت تلك التي بقد الكف؟ من جلبها؟ كانت الخالة الظريفة تقول:

- جلبها اللقلق. أرسلها ربنا الله لتكوي ألبسة أخيها الكبير خلدون، وتغسل ملابسه.

الله؟ من هو؟ أين هو؟ لماذا أرسل تلك البنت القذرة؟ هل ثمة من طلب هذا منه؟ كيف يستطيع الحاج لقلق الطويل الساقين، والبرتقالي

المِنقار أن يجلب الطفلة؟ من أين أمسك بها؟ متى جاء بها؟ في الليل؟ في أي مكان من البيت وضعها؟ أفي أثناء أنين الخالة الظريفة وصراخها طوال الليل؟ هو أيضاً لم ينم تقريباً طوال الليل. لو عرف أن اللقلق سيجلبها، لانتظره حتى الصباح. من يعلم كم سيكون جميلاً متابعة نمو الطفلة الصغيرة؟

مهما يكن، فقد أقلقت راحته. قبل مجيء الطفلة، كان يُهتم به فقط، وتُمسح يداه ووجهه بعد الطعام، ويُؤخذ بالحضن إلى السرير، ويُداعب شعره بشكل رقيق حتى يغط في النوم. تغير الأمر الآن. صار عليه أن يذهب إلى الصنبور، ويغسل يديه ووجهه ثم رجليه، ويجففها بنفسه، ويذهب إلى سريره وحده، حتى إن السيد العم لم يعد يهتم به. ويجتمعون حول "البنت الخراءة" مع الداية التي تعرج كل يوم، وينهمكون بها لساعات. ماذا يوجد عند تلك البنت القبيحة؟ إنها زرقاء، ومجعدة...

ذات ليلة رأى في حلمه الخالة الظريفة. قالت له: "أنا لم أعد أحبك! أنا أم هذه البنت. أنت لا أم لك، وليس لك أب أيضاً. إذا تدللت أكثر من اللازم، سأمسكك من ذراعك، وأرميك إلى الشارع!"

استيقظ منفعلاً كأنه رُمي إلى الزقاق. كان ضوء المصباح الأصفر يرتعش على الجدران.

قفز من سريره بمنامته الطويلة البيضاء. ذهب إلى النافذة. نظر خلسة إلى البهو. كان ثمة ضوء ينبعث من نافذة غرفة الخالة الظريفة. هذا يعني أنهم مازالوا يجلسون؟ ماذا يفعلون يا ترى؟ خرج من غرفته وهو يمشي على رؤوس أصابع قدميه. عَبَرَ البهو. حاول رؤية من في

الداخل من النافذة المضاءة. لم يستطع أن يرى. كان لديه فضول شديد لمعرفة ما يفعلون. الخالة الظريفة ترضع ابنتها. والسيد نهاد يضطجع على جانبه فوق المقعد العريض، ويدخن سيجارة. لم يرد أن تأتيه بنت، بل أراد صبياً. لو أتاه صبي، لسماه باسم أبيه. لم يكن أبوه شخصاً مهماً جداً، ولكنه يحبه كثيراً. كان رجلاً ضئيلاً. يأتي إلى البيت كل يوم مالئاً منديله بالموالح، يضع نهاداً على ركبته، ويداعبه ساعات، ويبدي له محبته. سنة إنهاء نهاد الثانوية، ودخوله إلى كلية الحقوق، أغمض والده عينيه وفارق الحياة، ولم ير "شطارة" ابنه. جدد سيجارته.

في السنة التي سينهي فيها كلية الحقوق فقد أمه أيضاً. لولا مساعدة صديقه الأقرب مظهر الصادقة لذاق الأمرين في سبيل إنهاء كليته. هذا يعني أن مظهراً ولي نعمته على نحو ما. خطر خلدون بباله. التفت إلى زوجته فجأة:

- هل تعرفين أننا أهملنا خلدوناً منذ أن جاءت هذه البنت؟

سحبت السيدة حكمت حلمة ثديها من فم ابنتها، ونيمتها بجانبها بهدوء. وقالت:

- نعم، وأنا كنت أفكر بهذا.

- إنه ولد يكبت، ويمكن أن يمرض لكثرة ما يلقى في داخله!

- تجمدت حركته أساساً في الأيام الأخيرة.

- كثيراً. في ذلك اليوم دس رأسه في قماش لفة نرمين، وكان ينظر شارداً.

- أما سأل من أتى بهذه الطفلة؟

- أممكن ألا يسأل؟ قلت له إن الله أرسلها، وعندما تكبر ستغسل ألبسة أخيها خلدون الأكبر، وتكويها.

- هل صدق؟

- لا أدري، لم يتحدث.

- إنه ولد ذكي يشبه أباه، ولكنه أخذ من أمه قليلاً. أتعرفين بماذا أفكر؟ علينا أن نجعل منه رجلاً بكل معنى الكلمة. مثلاً أن يغدو طبيباً حقاً، بعد ذلك...

ضحكت السيدة حكمت:

- عليه أن يتزوج من نرمين هه؟

- كم سيكون هذا جيداً، أليس كذلك؟

تنهدت السيدة حكمت، وتمتمت قائلة:

- نصيب. لا يستطيع الإنسان أن يصيب الطائر الذي يرميه بالحجر.

- صحيح.

أطفأ سيجارته في المنفضة، ونهض. تأثر كثيراً من إهمال الولد طوال هذا الزمن. نزل عن المقعد.

- إلى أين؟

- سأنظر إلى خلدون، يمكن أن يكون قد انكشف غطاؤه، فيبرد...

عندما فتح الباب رأى خيالاً أبيض صغيراً عَبَرَ البهو. توقف. هل كان هذا خلدوناً؟ عماذا كان يبحث في البهو في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ سألت السيدة حكمت: ماذا يوجد يا نهاد؟

- إنه خلدون، هرب إلى غرفته عندما فتحتُ الباب. عماذا كان يبحث في البهو يا ترى؟

- أمر غريب.

- أم أنه كان يراقبنا يا ترى؟

أغلق الباب خلفه، وعبر البهو. ذهب إلى غرفة خلدون. كان الولد قد تمدد على السرير. خجل بشكل فظيع. أخافه جداً فتح الباب في وقت غير متوقع، أو الأصح أخجله. توقع أن مراقبة غرفة الآخرين يمكن أن تكون عيباً كبيراً، ويكاد يغور في الأرض لأنه قبض عليه متلبساً.

- اقترب نهاد من حافة سريره. بداية داعب شعره. بعد ذلك، سأله:

- هل كنت تريد شيئاً يا صغيري؟

- ....؟

- أم أنك خفت؟

اقتنع بهذا، فقال:

- خفت.

- من ماذا؟

- رمتني خالتي الظريفة إلى الشارع...

ازداد فضول السيد نهاد: لعله رأى هذا في الحلم.

- هل رأيت حلماً؟

- نعم.

- كيف رأيت؟

- وضعت الخالة الظريفة نرمين في حضنها. قالت أنا أم نرمين، وليس لك أم ولا أب. اذهب إلى حيث تريد!

وضع الولد في حضنه. كان يبكي وهو ينشق. جاءا معاً إلى السيدة حكمت، وقال نهاد:

- آه منك، آه. تطردين خلدوناً أليس كذلك؟

بداية لم تفهم السيدة حكمت:

- من؟ أنا؟

- أنت ياه!

- متى طردت خلدوناً؟

- في حلمه! وضعت تلك البنت (الخراءة) في حضنك، وطردت خلدوناً!

فهمت القضية. خلدون يغار من نرمين! قالت:

- يا صغيري تعال إلي.

أخذته من نهاد، واحتضنته بقوة، وقبلته من شعره.

- وهل أطردك من أجل هذه البنت القذرة؟ ما هذه البنت؟ لاشيء. إذا لم تردها نرميها إلى الشارع لتأكلها القطط!

نظر خلدون بعينيه الدامعتين إلى البنت، البنت الصغيرة جداً النائمة بعمق. أشفق عليها. وخاصة إذا ما أكلتها القطط. فقال:

- لا يا خالتي الظريفة. لن نرمها. حرام!

- مكانتك مختلفة عن مكانتها يا ابني. عندما ستكبر ستكون خادمتك. ستقول لها: اعطني ماء يا نرمين! ستركض قائلة: حاضر يا أخي الكبير العزيز. وستعمل كل ما تطلبه منها. وستضربها كما تريد وفي الوقت الذي تريد.

- أنا لن أضربها أبداً!

- أحسنت. إذا أحببتها، ولم تضربها، سنحبك نحن أيضاً أكثر من قبل.

وكما أنه لم يعد يغار من نرمين بعد تلك الليلة، لم يرَ أحلاماً

مزعجةً أيضاً. وبدأ بالركض واللعب، وإطلاق القهقهات كما كان في السابق.

في المدرسة الإعدادية تعلم "كيف يأتي المولود الجديد، ومن أين". لم يكن ربنا الله ولا الحاج لقلق. ولم يعرف هذا فقط، بل عرف شيئاً عن مغامرة حياته الخاصة. عن أبيه وأمه وجدته ومصائرهم. ما توقف عنده أساساً هي أمه. لم يكن يعرف الكثير عنها. الآخرون أيضاً لا يعرفون. كان صمت الخالة الظريفة، وصمت السيد العم المحمل بالمعنى يمرر القضية. هذا يعني أن أمه صارت "امرأة سيئة" ويجب ألا يؤتى على ذكرها.

لم يكن يسأل، ولكن حسرة "الأم" تنمو مع توالي الأيام، ويتحرق على إيجادها، ومعانقتها، والقول لها: "أمي العزيزة!" مهما كانت.

سنة نجاحه إلى المدرسة الثانوية دخل امتحان "المدرسة الداخلية المجانية" من دون سؤال أحد. مهما يكن فإنه غريب عن هذا البيت حتى وهو يدارى فيه إلى أبعد الحدود. كان يرعاه صديق جيد جداً لأبيه. الرجل غني جداً. اشترى الدار التي كان يسكنها أبوه في زمن ما. كان يحب تلك الدار التي قضا فيها طفولته، ولكن مهما يكن... فقد حل الزمن الذي يجب أن يرعى نفسه به.

نجح في الامتحان. بعد فترة طويلة، غضب جداً المحامي نهاد الذي تلقى الخبر في الدقيقة الأخيرة. قال:

- لماذا فعلت هذا يا ابني؟ هل كنت مضطراً؟

أجاب خلدون بنضج يفوق عمره بكثير جداً:

- نعم يا عم.

- لماذا؟

- لأن... إحساسي دفعني إلى هذا!

- هل كنا نعاملك بشكل مختلف عن ابنتنا الحقيقية نرمين؟ هل كنا نتدخل بشؤونك؟ هل قصرنا بشراء ما هو ضروري؟

- لا يا عم، ليس لي شكوى منكم أبداً. ولكن النهاية أليمة. لن ترعوني إلى نهاية عمري!

تحدثوا مطولاً في الليل، وحتى ساعة متأخرة: حول والده، وجدته، والنادل رضا وزوجته المحتالين على جدته. كان لديه المعلومات الحقيقية حول مشرب "البدر" الذي يمر من أمامه أثناء ذهابه إلى المدرسة الإعدادية، وعودته منها. وعلم بأن الرجل المسن النحيل الذي يراه يتشمس أمام الخمارة في أغلب الأيام هو النادل رضا. ما أفظع ضعفه يا رب! عظما الخدين برزا إلى الأمام، وعيناه ضاعتا في محجريهما. يقال إن زوجته تدير الخمارة. كان ابن صاحب البار الذي شغل "أمه الظريفة" في زمن ما زميله في الصف. ولأن الشاب قليل الاهتمام بالدروس يعرف الأمكنة من هذا النوع جيداً، فهو يعرف المكان هناك جيداً: الاسم الحقيقي لمشرب البدر هو "خمارة المرأة". كانت امرأة سليطة اللسان وغير مؤدبة. ليس ثمة ليلة لا تتشاجر فيها مع الزبائن وتشتم كالرجال، وكثيراً ما توقفها السلطات في المخفر. علم خلدون بهذا كله، ولكن ماذا سيحدث؟ هل سينتقم لجدته؟

سنة إنهائه الثانوية في المدرسة الداخلية المجانية بدرجة جيد جداً، كان المحامي نهاد طريح الفراش في بيته بمرض الأنفلونزا. كانت ابنته نرمين بجانبه تداعب شعره، وتقبل جبينه المتعرق. دخلت الخالة الظريفة إلى عند زوجها مع الشاب، وقالت:

- ها هو.. كنت تسأل عنه باستمرار.

قبل خلدون يد عمه، وسحب كرسياً قدمته له نرمين إلى جانب السرير، وجلس.

بعد الحديث العام، والمجاملات، سأل السيد نهاد:

- انتهت الثانوية. ما هي أفكارك حول المرحلة القادمة؟

كان خلدون قد جهز الجواب عن سؤال كهذا منذ زمن. الأصح أن سؤالاً كهذا لم يكن يهمه. كان قد حدد الطريق الذي سيسلكه في الحياة: سيكون طبيباً. سيكون، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى نقود، إذ لا يمكن تحصيل الطب في مدينة كبيرة كاسطنبول بالكلام. هذه ست سنوات، ست سنوات طويلة!

- سأدخل كلية الطب يا عم.

- تريد أن تكون طبيباً. جميل. هذه كانت رغبة أبيك. (ضحك). حسن، كيف ستنجح بهذا الأمر؟ هل ستداوم في كلية الطب بالداخلي المجاني؟

خلدون فهم قصده، أدار عينيه نحو نرمين. من دون إرادته انتبه إلى أن الفتاة جميلة حقاً. بعد ذلك توجس وكأن الأمر عيب كبير، فهرب بعينيه.

- لا يوجد داخلي مجاني في كلية الطب!

- حسن؟

- سأدخل كلية الطب العسكرية!

اتخذ المحامي نهاد وضع الجد. لم يحسب هذا. الشاب على حق. هذا يعني أنه خطط للدراسة على نفقة الدولة ليكون طبيباً عسكرياً. لم يعلق.

المائدة التي حضرتها الخالة الظريفة على شرف إنهاء خلدون الثانوية بتفوق فتحت شهية المحامي نهاد. نهض من دون مبالاة لمرضه، وجلس إلى رأس الطاولة، وتناول زجاجة نبيذ فاخرة. كان يضحك ويتحدث، ولكن عقله وتفكيره عند الشاب. لماذا سيدخل الطب العسكري؟ لا شك أن هذا نتيجة أرقه "ألا يكون حملاً على أحد"... (وقعت عيناه على نرمين)... بعد ست سنوات ستكون في الخامسة عشر من عمرها. إذا أضاف التدريب المتصل، والاختصاص، وحتى العسكرية، أي بعد تسع سنوات أو عشر سيكونان متناسبين تماماً.

ملأ كأسه بالنبيذ، وارتشفه بجرعة واحدة. إنه بعيد جداً بالنسبة لنرمين، ولكنه نصيب جيد. حتى ذلك الوقت تكون الفتاة قد أنهت الثانوية. وهل سيجد أفضل من خلدون لابنته؟ نظر إلى نرمين نظرة تقييم، كانت تجلس إلى جانب خلدون، وتناديه "أخي الكبير خلدون، أخي الكبير خلدون" من دون أن تعرف كيف تتصرف، كانت في التاسعة من عمرها، لكنها تبدو أكبر من عمرها أبداً. كانت ضخمة جداً. تحدث مع زوجته بهذا الموضوع ليلاً. كانت السيدة حكمت راضية بهذا سلفاً، فقالت:

- آه يا نهاد، أنا فكرت بهذا دائماً.

قال نهاد:

- احذري من هذا. ألا تعرفين للولد حسن بالكرامة ويعرف مكانته؟ سيكرهنا قائلاً لنفسه إنهم سيدرسونني الطب من أجل أن يزوجوني ابنتهم. لنحاول بهدوء إقناعه بدراسة الطب المدني بدل الطب العسكري؟

- افعل ما تفعله.

سأحاول. إنه لا يخالف كلامي بأي حال، ولكن برغم هذا لست متأكداً. تعرفين كيف كان أبوه مبدئياً، وبسبب ذلك قتل. القضية كلها هي ألا نمس بمكانة الولد...

وبالفعل فقد قلّب الأمر معه بألف أسلوب وأسلوب، وجعله يوافق على دراسة الطب المدني.

قبل خلدون، ولكنه كان قلقاً. لماذا ألح إلى هذا الحد؟ إنه غريب في النهاية رغم كونه ابن صديقه. ما هي مصلحته بأن يصرف عليه لكي يدرس؟

ذهبوا في ذلك الصيف جميعاً إلى اسطنبول. هذه المرة استأجر قصراً في منتهى الجمال محاطاً بالخضرة في إرانكوي. كانوا يقصدون الشاطئ في الصباح الباكر، ويسبحون، في حين يظل الشبان على الشاطئ.

كانت نرمين تفرح أكثر في الأوقات التي يذهب فيها أبوها وأمها للراحة. وفي الحقيقة إن أحداً منهما لم يكن يتحدث عن مزاحها: "الأخ الكبير خلدون". خلدون من جهته كان يفضل البقاء معاً وحيدين. كانت البنت تبدو أكبر من عمرها، بشعر أشقر مجعد. كان يستمتع بالجلوس إلى جانبها في الظل، ويقص حكايات أندرسن عليها، وأحياناً يضع يدها الصغيرة بين راحتي يديه. في الصيف جاؤوا إلى اسطنبول مرة أخرى، و بالمصادفة استأجروا القصر نفسه. الاثنا عشر شهراً جعلت نرمين أكثر نضجاً، وقد طالت قامتها أكثر، ونظراتها باتت محملة بمعاني أكثر.

- هذا يعني أنكم وجدتموني كبرت؟

- نعم، وكثيراً.

- سررت لهذا، ولكن...

نظرت إلى أبيـهـا بداية، ثم إلى أمـهـا، أرادت أن تقـول لـه: "لديّ الكثير مما يجب أن أحكيه لك يا أخي الكبير خلدون، ولكنني لا أستطيع أن أقوله أمام هذين!" فهم الرجل الشاب. لم يلح عليها. انتظر الليل. خرجا إلى الحديقة قرب منتصف الليل. ثمة قمر لامع في سماء صافية. ليس جيداً أبداً أن يكون الليل مضيئاً إلى هذا الحد.

تحت ظلال أشجار كثيفة لا يدخلها ضوء القمر. سألت نرمين:

- هل وجدتني كبرت؟

قال الشاب:

- ليس الكبر فقط.

- وماذا؟

- نميت، و...

- نعم؟

أمسك يد الفتاة الشابة.

- ماذا تتوقعين؟

- لا أستطيع أن أتوقع...

بعد أن تلفت حوله، قال:

- صرت أجمل!

وأخذ يدها إلى شفتيه، وقبلها. بعد ذلك سحبها إليه، ولفها من خصرها بقوة.

تمتمت الفتاة الشابة:

- (مرسي!)
- لماذا؟
- لأنكم وجدتموني أجمل...

إنها المرة الأولى التي يقبلها فيها من شفتيها. لم تعد "أخته الصغيرة" و"لا الصغيرة التي جلبها اللقلق." احتضنها. أخذها إلى مكان تتكاثف فيه أشجار الحديقة أكثر، وحالكة الظلام. جلسا متجاورين ومسندين ظهرهما إلى جذع شجرة ضخم، واحدهما ممسك بيد الآخر. كانا يرتجفان. قال خلدون:

- فكرت بك طيلة الشتاء.
- حقاً؟
- لماذا لا تصدقين؟
- لا أدري؟

انحنى، وحاول أن يرى وجهها. لم ير غير بياض جامد، فالجو مظلم إلى حد كبير.

- أليس ممكناً ألا أفكر إلا بك؟
- ممكن، ولكن...
- نعم؟

تمردت:

- لا أدري!

جلسا على هذا النحو فترة. في عقل نرمين شتاء طويل مر "من دونه"، وخاصة لياليه الهادرة العاصفة، والممطرة، وصوت البحر المشاغب! أقليل ما انتظرتْ منه رسالة؟ وهل هي قليلة مسودات الرسائل

التي كتبتها عندما لم تصل منه الرسالة المنتظرة، ثم التردد الذي عاشته لئلا تذهب إلى مركز البريد وتبعث الرسالة.

سألها الشاب مرة أخرى:

- لماذا لا تؤمنين بأني لا أفكر إلا بك؟

في النهاية نفد صبرها:

- لو كان الأمر هكذا أما كنت تكتب لي؟

ضحك، وقال:

- كتبت، وعدة رسائل!

- لماذا لم ترسلها؟

- لم يكن ممكناً لي أن أرسلها.

- لماذا؟

- خفت أن يكون معيباً جداً.

- ها... السبب؟

- السبب بسيط جداً، يمكن أن تقع بيد أمك!

- لتقع، ماذا بالأمر؟

- إذا لم يحدث شيء أبداً، فقد كنت صغيرة يا نرمين!

- والآن؟

- الآن صرت فتاة كبيرة.

قالت نرمين منزعجة:

- أنا كنت كبيرة في السنة الماضية أيضاً.

وضعت نفسها في حضن الشاب. بعد فترة طويلة، تباعدا. قال خلدون:

- ماذا لو بحثت عنك أمك، ولم تجدك في سريرك؟

هزت نرمين كتفها:

- إذا لم تجدني، فلا تجدني.

- ألا تخافين؟

لم تكن خائفة. سمعت محادثة أبيها وأمها مصادفة. ولكن كبريائها جعلها لا تستطيع القول: "إن أبي وأمي يتلهفان لتزويجي منك!"

انتهى ذلك الصيف من دون تماد، وبمحرمات لذيذة. طيلة الشتاء تبادلا رسائل ملتهبة. شدا الصيف بحبل. ولأن نرمين لم تخبئ الرسائل الواردة من حبيبها، ولم تجد ضرورة لتخبئتها، فقد كانت السيدة حكمت تجدها، وتقرؤها، كانت مندهشة من مفهوم ابنتها الواسع إلى هذا الحد في هذه الأمور، رغم أنها ما زالت تذهب إلى المدرسة الإعدادية.

ترك السيد نهاد أمر البيت الذي سيستؤجر في الصيف لخلدون. تجول خلدون على المصايف كلها، ونتيجة توصية من أحد أصدقائه وجد بيتاً بإيجار مرتفع في بورغاظ. وأبلغ بالوضع. في الرد الذي تلقاه طُلب منه مقابلة خالته الظريفة ونرمين في محطة حيدر باشا للقطارات.

وصلا بالقطار إلى محطة حيدر باشا بعد ثلاثة أيام، نرمين بدت أجمل وأكبر. سأل عن عدم مجيء عمه. قيل له إن أعماله كثيرة بعد أن تسلم دعاوى كبيرة جداً. كان هذا الأمر بالنسبة إليه أفضل.

أحبت السيدة حكمت بيت بورغاظ أكثر من ذاك الذي في إرانكوي.كتبت لزوجها بأنها مسرورة جداً. أما ابنتها فيمكن القول إنها لم تمض ساعة واحدة من دون خلدون.

كان نهاد يقرأ الرسالة التي تلقاها من زوجته مستغرقاً وهو يجلس وراء مكتبه، صوت صديقه المحامي الذي دخل مكتبه جعله يصحو: "ما هذا الشرود ؟".

- تفضل، تفضل يا هذا!

- تفضلنا، ولكنك مقصر في مراعاة الترحيب!

ترك الرسالة على طاولته. كانت عيناه تضحكان من الداخل.

- معك حق يا عزيزي، معك حق... شاي، قهوة؟

- فنجان قهوة إذا كان ممكناً...

طلب من بائع القهوة المجاور فنجاني قهوة. بعد الحديث، والترحيب، جاء الدور على السؤال عن سبب عدم ذهابه إلى اسطنبول. قال نهاد:

- يغدو الأمر مكلفاً يا أخي.

- ما هذا؟ عندك ما شاء الله. أنت أكثر من يكسب بيننا. بيتك ملكك، وأعمالك كثيرة...

كان هذا صحيحاً. فبيته ملكه، وأعماله على ما يرام. لديه من النقود ما يكفيه حتى إذا لم يعمل على مدى عشر سنوات. السبب الحقيقي لعدم ذهابه إلى اسطنبول، لا يقال، وهو: "أريد أن أبقي البنت مع صهري المستقبلي براحة أكبر"؟

صديقه المحامي هذا القادم إلى المدينة بعد زمن طويل من موت مظهر كان من المؤمنين بأن: "الأعزب سلطان". يصرف ما يكسبه في البارات والخمارات، وعندما يسكر، يعلق بالحجر ويراه امرأة!... تمطى متكاسلاً، ثم نظر إلى ساعة يده، وقال:

- انهض، سآخذك إلى مكان.

- إلى أين؟

- أينما قسم الله لنا النصيب. خطر ببالي مكان جيد. يوجد مشرب يسمى خمارة المرأة... كان نهاد على علم بقصة ذلك المشرب. تلك الخمارة هي خمارة النادل رضا وزوجته التي أسست بنقود أم مظهر، بعد ذلك أدارا لهما ظهريهما.

- قذرة جداً، أليست كذلك؟

- قذرة فقط؟ إنها محط العمال والحمالين بعد منتصف الليل، ولكننا نجلس في زاوية، ونشرب نبيذاً من زجاجة مختومة. إنها مسلية جداً. كما أننا كلانا حزبيان كما هو معلوم؟ مع الشعب، من أجل الشعب، وإلى جانب الشعب... انهض، انهض، هيا انهض!

منذ أن ذهبت البنت إلى اسطنبول راح يطرق عدداً من البارات، والخمارات، فلماذا لا يذهب إلى "خمارة المرأة"؟

نهضا. توارت الشمس خلف جبال زرقاء شبيهة بالغربول عند الطرف الآخر للبحر. كان الجو حاراً. عبرا الشارع الرئيس متجاورين. كانت ترتفع أبنية جديدة على شكل عمارات سكنية. توقف نهاد، وقال:

- كأنه البارحة. مضت خمسة عشر عاماً على مجيئي إلى هذه المدينة. كان هذا المكان لا يختلف عن بلدة كبيرة آنذاك. انظر الآن ماذا أصبح!

- من يعلم بأي حال ستكون بعد خمسة عشر عاماً!

- الحياة ماء يتدفق...

- ونحن قطع حطب وسط ذلك الماء مجبرون على الذهاب إلى حيث يشاء!

ضحك نهاد:

- سنديان، أم جرجان.

- اعتبرنا ما تريد...

عندما وصلا إلى "خمارة المرأة" كانت قد أنيرت مصابيح الشارع. دخلا. كانت ناجية زوجة النادل رضا وراء البسطة. توزع المقبلات على أطباق صغيرة. عندما رأت زبائن راقين يدخلون، تركت عملها وهرعت إليهم.

- تفضلوا يا سادة، تفضلوا، أهلاً بكم!

- نظرت إلى القادم بانتباه؟ لقد رأته في مكان ما، لكن أين؟

لم تتوقف عند هذا الأمر، وأصدرت أمرها للنادل:

- يا أحمد! اسحب طاولة السيدين إلى طرف، بسرعة!

نظر النادل الشاب الذي يبدو أشبه بمدفعيٍ ضخم بذراعيه الطويلتين وكفيه الطويلتين، ثم تحرك متأخراً قليلاً. رفع الطاولة وكأنها ريشة، وسحبها جانباً ووضع عليها ورقاً أبيض. أثناء ذلك كانت ناجية ترحب:

- تفضلا يا سيدي، لا تؤاخذانا. معلوم، ثمة قصور في العقل. والعمل لا يتحسن بأي شكل. لو تحسن لهذبت هذا المكان. غير ممكن. كم كنت مرتاحة عندما كان زوجي حياً. الآن مضطرة لإدخال قدمي الاثنتين في فردة حذاء...

هزلت تماماً، وتجعد وجهها. بدت كأن قامتها قد طالت. كانت نحيفة حين رآها أول مرة، ولكنها ليست كذلك. انهارت الآن تماماً، وبدت عاجزة. سألها نهاد:

- متى مات زوجك؟

نظرت المرأة بانتباه أكبر. صوته أيضاً لم يكن غريباً، ولكن من هو؟ من أين تعرفه؟ قالت:

- السنة قبل الماضية. بمرض عضال... كأنني أعرفكم يا سيدي المحترم. من أين يا ترى؟

ضحك نهاد:

- أنا أعرفك جيداً جداً!

- حقاً؟ من أين؟

- من قبل خمس عشرة سنة.

عبرت وجه المرأة المجعد ابتسامة نستها قبل سنين. بعد ذلك عبرت تقاسيمها أنها تضغط على ذاكرتها. ولكنها لم تحسم الأمر. نظرت من جديد بعينيها الخامدتين:

- من قبل خمس عشرة سنة ياه؟

- أما استطعت التذكر؟

تنهدت:

- لم يبقَ العقل عقلاً...

- أما كان هنالك السيد مظهر، المحامي...

اهتزت:

- نعم؟ انهار فيه الجسر أثناء عودته من الكشف، وطارت سيارته من الجبل....

- تمام.

- أم أنكم...

- صديقه المحامي نهاد يا روحي.

سحبت المرأة التي تذكرت كرسياً منفعلة، وجلست بجوارهما. اغرورقت عيناها بالدموع.

- هذا يعني أنكم المحامي السيد نهاد؟ أول ما وقعت عيني عليكم شعرت بأنني رأيتكم من قبل. قلت لنفسي بأنني سأعرف هذا السيد... آه من الأيام، آه! كيف حالكم يا سيدي المحترم؟ هل السيدة المحترمة جيدة؟

- جيدة.

تنهدت، ركزت عينيها على نقطة، وشردت. خمس عشرة سنة! كانت ثمة ذكريات جيدة جداً، وحيوية تتفاعل. هل يمكن لها أن تنسى تلك الأيام؟ وماذا عن أيام السيدة ناظان التي سبقت؟

- أنتم تعرفون زوجة السيد مظهر طبعاً؟

- ناظان؟ نعم.

- وتعرفون ما جرى لها؟

- سمعت.

- كتبت الجرائد أنه قبض عليها بتهمة التزوير. بعد ذلك ماذا حدث؟ لم يصدر أي صوت أو حس؟

وجد نهاد أن من المناسب ألا يجيب. مهما يكن فهي أم صهر المستقبل، وحماة ابنته. حسن، لا يعرف أين هي الآن. عرج عليها في السجن عندما ذهب إلى الاصطياف في اسطنبول في السنة الأولى، وعلم أنها استفادت من العفو في الذكرى العاشرة للجمهورية، وخرجت. ولم يكن يعرف بعد هذا شيئاً. ومن أجل تغيير الحديث سأل صديقه قائلاً:

- أي نبيذ سنشرب؟

قال صديقه:

- هي تعرف.

ذهبت ناجية تمشي على ساقين رفيعتين كخيطين. ما زالت الأعوام القديمة، وأناس تلك الأعوام، وخاصة السيدة ناظان في عقلها. من يعلم، لعلها ماتت. حسن، ماذا حدث "لفتاة البار" التي حلت محلها؟ خلدون، ماذا جرى لخلدون؟

عادت إليهما بزجاجة نبيذ أسود إنتاج مؤسسة المواد التي تحتكرها الدولة.

- ماذا جرى "لفتاة البار" التي حلت محل ناظان؟

- تزوجت.

- تزوجت؟ لا يوجد وفاء.

غضب نهاد:

- ماذا تفعل؟ لا يمكن الموت مع الميت!

- خلدون، ماذا جرى لخلدون؟

- يدرس، سيغدو طبيباً!

حملقت عينا المرأة الخامدتين:

- طبيب؟ ما شاء الله!

بدأ نهاد يشعر بالضيق من هذه الأحاديث. جال بعينيه داخل الخمارة. ما زال المكان يحافظ على نفسه كما كان أيام استؤجر بنقود السيدة هاجر أيام زمان. رسوم طباعة الحفر الحجري المعلقة على الجدران ثبتها رضا بنفسه قبل سنين طويلة. فقدت ألوانها وشحبت. الطاولات، والكراسي، والبسطة، والرفوف الخشبية المدهونة بالبني خلف البسطة،

وكل شيء مـرت عليـه السنين، ولم ير الدكـان أقل صـيـانة. الحـالة "البـوهيـميـة" لهـذا المشـرب الخرب في زاوية من زوايا المدينة المتغيرة، والمتجددة، تذكر بالأيام الماضية، وتجذب المسنين خاصة إليه، وتحقق لهم إمكانيـة تذكر أيامهم الخوالي بعد أن يسكروا. وإلا فإن أمكنة المشروب الجديدة غير مفتقدة. كانت كثيرة. وهي كثيرة جداً بالنسبة إلى المدينة.

ارتشفا نبيذهما من دون كلام. عندما شربا ثلثي الزجاجة ملأ زبائن المشـرب المداومون طرف البسطة: معلمو بناء غطوا بالكلس والاسمنت حتى ألبستهم الداخلية، وعمال، ورجال مصانع ببزات زرقاء، موظفون صغار يتحدثون بصخب، ورجال متصنعو الأناقة ببنطلوناتهم العريضة. عندما بدأا في الزجاجة الثانية كان المشرب الصغير يهدر كخلية نحل. انفصلت المجموعة إلى مجموعتين تقريباً: المسنون والشباب. النقاش أخذ حالة صاخبة. انفعل المسن الضخم والعريض الكتفين والكث الشاربين بسرعة وصرخ قائلاً:

- نحن الذين رمينا اليونانيين بشكل سحري إلى صقاريا، وإلى البحر في إزمير!

شاب عشريني ينتصب له كأنه يتحداه:

- إذا كنتم قد رميتموهم، فقد رميتموهم. نحن أيضاً نفعل ما فعلتموه إن لزم الأمر!

واستمرت المناقشة بأقصى سرعتها:

- نحن التربة القديمة، نحن في حلوقنا....

- خبز عبد الحميد أفندي، أليس كذلك؟

- طبعاً، ماذا تعتقد؟

أشار الشاب إلى إحدى الرسوم المعلقة على الجدار. هذا الرسم يرينا وحيد الدين وهو يركب سفينة حربية إنكليزية...

- ولكن هذا أيضاً خرج من جيلكم!...

فار المسن، وأشار إلى "حضرة القائد العام المنقذ مصطفى كمال باشا" المتسلم سيف قائد القوات اليونانية:

- وهذا؟

قال الشاب:

- لا تدخل هذا بالأمر. هذا أبونا نحن!

- حسن، ولكنه من جيلنا...

- لحمه من جيلكم، أما روحه فلنا!

تصاعدت القهقهات، ورفعت الأنخاب، وقرعت الكؤوس، وشُربت. تم الوصول إلى اتفاق. ولكن المسن يريد أن يتحدث. فبعد أن مسح شاربيه الضخمين بقفا يده، قال:

- الله لا يرينا تلك الأيام مرة أخرى. أنا لا أعرف ماذا كنتم ستفعلون. لعلكم تصمدون أيضاً إذا حل بكم ما حل بنا، ولكننا عشنا أياماً مخيفة. عشنا أياماً بحثنا فيها عن الموت وكأنه منقذ! (لكز المسن الجالس بجانبه) كيف يا حمزة؟ احك لهم كيف كنا نتناهب زبل البغال في القوقاز، وليستمعوا.

هز حمزة النحيف جداً رأسه ببطء. سأل الشاب الذي كان يناقش صاحب الشاربين الضخمين:

- ماذا كنتم تتناهبون؟

بدا حمزة الضعيف غاضباً.

- اسودت الدنيا، ولم يبقَ حتى الزرنيخ لنأكله. انهار الجيش وكدنا نموت من الجوع. ماذا سنفعل؟ كنا ننتظر خلف الحيوانات لتتبرز. ثم نهجم عليها لاختطاف برازها قطعة قطعة!

- بعد ذلك؟

- بعد ذلك نفصل حبات الشعير منها، ونغسلها في النهر جيداً، ونأكلها!

- هذا أيضاً انتهى. فكنا نذبح الخيول والبغال ونأكلها...

- وهذه أيضاً انتهت. جاء الدور على الألبسة. جلود السروج، والأحذية...

- أكلنا النعال، حتى النعال!

فجأة صدر صوت ناعم ولكنه حاد:

- حسن أن أكلتم الخراء يا سفلة!

استدارت الرؤوس: كانت الأخت الكبرى ناجية!

- يومياً هذا، يومياً، أما سئمتم! ولا تخجلون من السادة. أتيا إلى هنا مرة في الدهر...

قال نهاد:

- دعيهم يا سيدة ناجية، ليتكلموا. نحن لسنا منزعجين!

جاءت إلى جانبهما:

- هذا يتكرر يومياً يا سيدي المحترم. فور شربهم النبيذ تخطر ببالهم بطولاتهم. تزقموا، واذهبوا...

سحبت كرسياً من جديد، وجلست قبالتهما.

- هذا يعني أنكم لا تعلمون شيئاً عن ناظان؟

قال نهاد:

- لا. عندما جئنا إلى هنا كانت قد طلقت، وذهبت.

- أعرف ولكنها امرأة مسكينة جداً. حماتها، أتعرف حماتها تلك. المرأة المدعوة هاجر... كل شيء حدث من تحت رأسها. طُردت المسكينة... لا أنسى أبداً! طلبت مني سحراً، فلم أبالِ. لهذا السبب دب شقاق بيننا. لم تكن تحبني أبداً. ولكن الله لم يدعها بما فعلته!

لم يسألها نهاد عن شيء. وعندما رأت أنها غير مرحب بها انكفأت على نفسها.

خرجا من المشرب في وقت متأخر. كان الجو قد صار بارداً كثيراً، ولكنهما رغم هذا يتصببان عرقاً. قال نهاد:

- لنذهب إلى ذلك البار الواقع على شاطئ البحر!

وافقه صديقه قبل أن يتكلم.

- حسن...

صعدا إلى سيارة أجرة صغيرة حلت محل حنتورات زمن مضى.

٢١

تدفقت السنين، وذهبت.

أنهى خلدون الكلية، وصار طبيباً. بعد ذلك أنهى خدمته العسكرية، ثم اختص. وكانت هذه سنوات تضاف واحدة واحدة. نرمين حزينة أكثر من خلدون، فقد نفد صبرها. تريد أن يتجاوز خطيبها العوائق التي تعترضه في أسرع وقت ممكن، وأن يأتي إلى المدينة، وأن يفتح العيادة العتيدة التي تخيلتها منذ سنوات طويلة، ويتزوجها بعد ذلك.

لم يحدث بينهما أي تجاوز للحدود رغم اقتراب أحدهما من الآخر أكثر من اللازم، تبادل قبل، عناق، مداعبة... وقد انتبه خلدون بوجه خاص إلى ذلك ، إذ ضغط على نفسه كثيراً لكي لا يتجاوز الحدود. لو كان الأمر عائداً لها فلا مانع، إذ لم تكن فتاة ريفية ترعرعت في حضن أمها مضطرة لانتظار "تلك الليلة" أو الالتزام بقوانينها.

حدث كل شيء كما أراد خلدون: بعد عودته من الاختصاص مباشرة، دفع حما المستقبل حفنة كبيرة من النقود لشراء مخزن واسع في السوق، كما جعله ينفق عليه حفنة من النقود أيضاً ليجعل منه العيادة التي تصورها في عقله. لم تفارقه حبيبته ذات الشعر الأشقر والعينان الخضراوان في أثناء قيامه بكل هذا. وتصرف الحبيبان وهما على رأس

العمال والمعلمين، حتى أدق من أي وكيل عمل، فقد استخدما أفضل المواد وأفضل الاستخدامات.كانا مسرورين. يحبان بعضهما البعض، ولديهما خيالات وتوقعات مشتركة من الحياة.

قالت له مرة:

- طنّت أذني اليمنى، وهذا سيكون جيداً جداً بالنسبة لي...

قال خلدون:

- هل أنت جدة؟

-أنت عديم العقيدة كثيراً. طنين أذني اليمنى يعني أنني سأتلقى خبراً جيداً بالتأكيد.

لم يجب خلدون. كان طبيباً جديداً. يستمتع بالبحث بكل شيء على ضوء العلم، وربط النتائج بالأسباب. كل حادثة هي نتيجة لعدة عوامل أولية. وطنين الأذن، ورفرفة العين، والأحلام أمور ترتبط بالأمر نفسه دائماً. والفتاة الشابة لا تجهل هذا. درست الثانوية، ولكنها تستمتع بإلقاء نفسها إلى ما وراء الطبيعة.

ألقت الشابة خصلة شعر شقراء نزلت إلى وجهها بحركة من رأسها نحو الخلف، وقالت: أنا غاضبة منك.

- لماذا؟

- قلت لي جدة!

ضحك: ألست كذلك؟

- لست كذلك طبعاً...

- اثبتي أنك لست كذلك!

نظرت بعينيها الخضراوين بحدة، بعد ذلك عانقته بذراعيها دقيقي

المعصمين. تعانقا بقوة أمام المغسلة، وتقابلت الشفاه. محيت الدنيا. كان ثمة لهب أحمر يتطاير خلف الجفون المغمضة... فجأة صوت حاد:

- بريد!

تباعدا. هرع الطبيب خلدون.

- من أين؟ من أنقرة؟

نظر ساعي البريد إلى خاتم الظرف الذي بيده، ومده نحوه:

- نعم.

التقط الظرف، وقرأه على نفس واحد. كان من حميه. الاتصالات التي أجراها مع من يلزم ليكون طبيباً حكومياً أعطت نتيجة أكيدة، وأخذ وعداً. إنه قادم قريباً...

قالت نرمين التي تقرأ هذا كله من خلف كتف خطيبها:

- أحسنت يا أبي، أحسنت!

- هل أنت جاهزة لنملأ رأسنا في مقصف المحطة على شرف هذا الأمر؟

- جاهزة، ولكن...

- إيه؟

- لنخبر أمي أيضاً!

- حسن.

لم يكن عنده زبائن كثيرون بعد. أغلقا باب العيادة، وخرجا. أشارت نرمين للعجوز المتسولة الجالسة على حجر رصيف الشارع، وهمست بأذنه:

- أعط هذه بضعة قروش.

ألقى خلدون نظرة، وأخرج عشرة قروش من جيب بنطلونه من دون رغبة. بعد أن ابتعد كثيراً، قال:

- أكره المتسولين كثيراً. المتسولون أقل الناس في العالم احتراماً. اللصوص والمجرمون الدمويون مقبولون بالنسبة لي أكثر من المتسولين الذين يظهرون مطأطئي الرؤوس كالمساكين، أو على الأصح يمثلون من أجل أن يظهروا بهذا المظهر!

- ياه!

- دعي الجدل. هم هكذا بالنسبة لي.. هذه المرأة القذرة افترشت المكان هنا حديثاً!

انعطفا من الزاوية.كان قد غاب عن عينيه أن المتسولة كانت أقرب إلى امرأة "معذبة محروقة الفؤاد" منها إلى متسولة. كانت ضئيلة ترتدي معطفاً أسود مرقعاً من أمكنة عدة، وقذراً. وجهها مجعد. ولأنها تعاطت الحشيش والأفيون والهيروئين، وأدمنت على الكحول الملون، أخذ لونها سواداً مائلاً إلى الصفرة. وجهها الذي يحمل أثر طعنة سكين عميقة تمتد من طرف عينها اليسرى إلى ذقنها مقطباً بتعبير المعاناة العميقة. لم تكن تنظر على الأغلب. وقليل ما كانت تميز بوضوح إن نظرت، يجب أن تكون قد أخذت حفنتي أفيون، أو سحبت سيجارة حشيش غليظة.

لم تبلغ الخمسين من عمرها بعد، ولكنها تظهر الستين براحة، وحتى أكثر من الستين.

استندت إلى حجر الرصيف، ونهضت على قدميها. لو شربت سيجارة مزدوجة الورق ستفقد عيناها خمودهما، وتبدأان باللمعان كأن

لهيباً يتأجج داخلها، وتدب الحيوية في كل طرف من أطرافها، ولكنها لن تشرب. لم تكن تريد. أساساً كانت تخاف أيضاً. تنقطع مرارتها رعباً من السقوط بأيدي الشرطة، ثم المحكمة، ومن ثم الذهاب إلى السجن. ذهبت إلى حيث جُرت طيلة حياتها، وعملت كل ما طلب منها، وفي النهاية كان الذنب ذنبها. السبب الرئيس لمصيبتها هو وقوعها بتهمة التزوير، بعد ذلك عدم استطاعتها الإفلات من إمرأة غجرية حشاشة. ولولا العفو في ذكرى الجمهورية العاشرة لكانت حتى الآن في السجن. خرجت من السجن مع المرأة الغجرية بعفو في هذه الذكرى. كانت ستنفصل عنها. لم يحدث. جعلتها المرأة مطواعة مثل عجينة. دستها في بيت خرب في نواحي حي طوبهانة. أخذت منها هويتها، لذلك لم تستطع الذهاب، والابتعاد. والسبب الآخر لعدم هروبها، وابتعادها هو الحشيش الذي اعتادت عليه في السجن. إلى أين ستذهب أساساً؟ لم يكن لها أحد. لعل هذا ليس دقيقاً تماماً، إذا يوجد لها أحد، ولكنها لا ترغب بأن يراها. فهل من الممكن أن تنسى ولو لحظة ابنها الصغير الأشقر الشعر؟ هو وحده الذي يربطها بالحياة. لكان من الممكن أن تقتل نفسها. ولكن هذا أيضاً عمل يتطلب جرأة كبيرة. لم يكن سهلاً. وهل من السهولة ترك هذه الدنيا وفي القلب هذه المحبة المتوهجة، والحسرة المتأججة؟

عملت بائعة حشيش سنوات طويلة. وأعطت النقود التي كسبتها لصاحبتها. لم تملأ بطنها، لكن تستطيع أن تشرب كثيراً من الشاي، وبقدر ما تستطيع من الحشيش، وتبقى وحدها مع خيال ابنها الأشقر الشعر، المكور الرأس!

ليلاحقها رجال الشرطة بقدر ما يشاؤون، وليكمنوا لها، وهي تجد في كل مرة طريقة للتخلص منهم. حتى إذا قبض عليها تقدم إفادتها قائلة: "أنا أشرب"، فتنام ثلاثة أشهر، وتخرج، بعد ذلك تعود إلى مهنتها من جديد. ولكنها في الأشهر الأخيرة شعرت بأن وضعها قد تغير بشكل كبير، وأنها ستقع بتهمة البيع. لم تكن عقوبة البيع بسيطة كعقوبة التعاطي. تعرف أنها ستسجن سنوات طويلة إذا ألقي القبض عليها، وتتوقع أنها لا يمكن أن تخرج حية. لا يمكن أن تترك ابنها الذي يجب أن يكون قد كبر كثيراً الآن، وصار كالسبع، وتموت في زوايا السجون. لعلها المرة الأولى في حياتها تقاوم قائلة: "لن أعمل بالبيع بعد الآن!"، وصفعت المرأة الغجرية وابنها "بالبضاعة". اعتبر ابنها الشاب الطالع إلى الدنيا تواً أن هذه إهانة، فسحب سكينه. لولا تدخل أمه بينهما لغرز السكين في قلبها، وانتهى أمرها. دخلت أمه -الله يبارك فيها- بينهما، بعد أن أحدثت السكين جرحاً عميقاً من طرف عينها إلى ذقنها. ضمدوه، ولفوه. عندما بدأ يندمل مدوا إليها الحشيش مرة أخرى. كان الواجب في ذلك اليوم هو العبور إلى (قاضي كوي)، لتعطي الحشيش لشخص في (طاحونة الهواء). ذهبت وأخذت الثمن نقداً. مشى المستفيد قليلاً حتى سمعت أصوات الصفارات. هربت. كانت مرتبكة. لم تكن تريد أن يُقبض عليها، وأن تدخل السجن. يمكن أن تموت في السجن. لا للدخول إلى السجن، ولا للموت. كان لديها صغير، ولعله الآن صار كبيراً.

خرجت إلى الشارع مرتبكة. رأت حافلة تقف أمامها فجأة. عندما فتح الباب، صعدت لا شعورياً. تحركت الحافلة. كانت في حيدر باشا:

محطة، وصافرات، وقطارات... ذكرها هذا بسنوات طويلة. الليلة التي أبعدت فيها عن زوجها بلعبة. ماذا لو تقفز إلى القطار، وتذهب إلى هناك! كانت تعرف أن زوجها قد مات، ولكن ما الضرر؟ لعلها تجد ابنها. أما أخذ صديق زوجها ورقة منها من أجل ابنها؟ إنه صديق حميمٌ جداً لزوجها. محامي. قال إنه سيرعى ابنها، ويربيه. من يعلم، لعله فعل. حتى لو فعل ما قاله وربى ابنها، فلن تذهب لتحل بلاءً على رؤوسهم. لا أبداً. ستراه، وتراه فقط من بعيد. من دون أن تشعره بأنها تعرفه. وهل هي مجنونة لكي تؤذي ابنها؟

اشترت تذكرة، وركبت القطار الموشك على الانطلاق.

صارت مرتاحة. لا المرأة الغجرية، ولا أبناؤها حاملي السكاكين الخطرين، ولا الشرطة... كانت هاربة. هاربة من الضرب، والسكين، والسجن، والموت. هاربة من الحشيش والأفيون أيضاً. ستستمر في هذا الطريق حتى لو جن جنونها، وتنقذ نفسها. لم تكن مبالية لما يمكن أن ينتظرها في المكان الذي تذهب إليه. لعلها لن تجد ابنها، ولكن لا ضرر من هذا. لعلها ترى الدار التي عاشت بين جدرانها "سعيدة" ذات يوم، "وحديقة الأمة" التي كانت تذهب إليها مع زوجها وابنها أحياناً، وتمرغ وجهها على عتبة عشها القديم.

وجدت المدينة قد تغيرت كثيراً. بداية شكت إن كانت هذه هي المدينة التي عاشت فيها يوماً ما. ولكنها لم تكن مخطئة، إنها تلك المدينة: المدينة التي قضت فيها أياماً سعيدة. شُقت شوارع جديدة، واصطفت أبنية ضخمة. البحر فقط. البحر فقط. كان ذلك البحر هو نفسه: ينفجر على صخور الساحل مصدراً صخباً مخيفاً تحت سماء داكنة الزرقة.

كان معها بعض النقود. وجدت غرفة متصدعة في أحد الأحياء المتطرفة. استأجرتها بليرتين ونصف شهرياً. دفعت أجرة ستة أشهر سلفاً. كان المكان يشبه إسطبلاً أكثر مما يشبه غرفة. إنه إسطبل. مازال القراد يطن في المكان، وتفوح منه رائحة النفايات. عندما دبرت لحافاً ممزقاً تفوح منه رائحة كريهة من جيرانها الفقراء اكتملت حاجاتها. ثم خطر ببالها مصباح كاز صغيرا، فلا يمكن الجلوس في الظلام، إنها تتضايق. أمنت هذه أيضاً. والآن جاء الدور على البحث عن الوجوه المعروفة إليها. أين النادل رضا وزوجته ناجية يا ترى؟ إذا كان هنالك من يعرف ابنها فليس هنالك غيرهما من يعرفه. ولكن لا، هذا الأمر خطير. لم تنس كم هي ناجية ثرثارة. ستنشر في المدينة أن "السيدة ناظان جاءت"، وتوسخ "ذكرى السيدة ناظان النظيفة". لم تكن تريد. لا تريد، لا تريد! ليس ثمة إمكانية لمعرفتها، وكشف أمرها على هذه الحال. وطالما أنها لن تُظهر معرفتها بأحد تعرفه...

بحثت عن الدار التي "قضت فيها أيام سعادتها" أياماً طويلة. وجدتها في النهاية. الدار هي تلك نفسها، ولكن صيانة أجريت لها، وصبغت. ومكان بيت ناجية بدأت تتكاثر فيه أبنية جديدة كفراخ العمارات. انزوت في زاوية، وانتظرت طويلاً. ذهبت في ذلك اليوم باكراً. كانت تهب باردة تهب. كادت تتجمد، لكنها ضغطت على نفسها. بعد قليل فتح الباب. وخرجت فتاة كالغصن ذات شعر أشقر. هل كان مظهر مع الفتاة؟ زوجها؟ ولكن لا، كان شاباً نحيلاً جذاباً. هذا هو، ابنها، خلدون!

فاضت عاطفة، ولم تستطع الإمساك بنفسها. كادت تفقد وعيها.

وخشيت أن تأتي بشيء يلفت نظر الشابين. مهما يكن، فقد وجدت صغيرها وهي على قيد الحياة! لن تحزن.

لم تبتعد عن جوار الدار على مدى أيام. كانت تلاحقهما عندما يذهبان صباحاً وهما يتحادثان متضاحكين إلى العيادة. علمت أن ابنها صار طبيباً.

تذهب كل صباح إلى هناك بجوار العيادة، وتجلس في مكان لا تهب عليه الريح مباشرة، بجوار ابنها، وتحت جناحه، وتمضي الوقت حتى المساء. ولأن الصدقة التي يعطيها إياها العابرون تتجمع معها، فلا تفكر بإيجاد عمل آخر. ولكن خوفها الوحيد هو أن تبحث عنها الشرطة، وتكتشفها، وتلقيها في السجن بذنب الله أعلم ما هو، وهذا يضغط على قلبها بتشاؤم مثل طبقة سميكة من القطران. لم تشفَ بعد من نوبة الحشيش الصعبة. تحاول التعويض عنه بالنبيذ، وبالزجاجة التي تملؤها من الخمارة الواقعة على طريق بيتها. تشرب حتى منتصف الليل في غرفتها تحت ضوء مصباح الكاز الأصفر.

هكذا ولجت إلى "خمارة المرأة". ولأن الوقت مبكراً، فلم يأتِ الزبائن بعد. كان النادل الضخم كالمدفعي واقفاً خلف البسطة، مشغولاً بأمر ما. رفع رأسه، ونظر بخبل إلى "المتسولة".

– هل تريدين زجاجتك؟

كان قد ملأها قبل قليل، تناولها من تحت البسطة، ومدها لها.

– خذي!

تركت المرأة ما يجب أن تدفعه على البسطة، وأخذت الزجاجة. كان النادل الضخم قد ترك عمله، وهو ينظر إليها:

- لمن تأخذين هذا النبيذ كل مساء؟

لم تجب المرأة. أصلاً لم تفهم. هزت كتفها. في هذه الأثناء خرج صوت امرأة من الغرفة التي خلف البسطة:

- مع من تتكلم ولاه أحمد؟

قال:

- جاءت المتسولة لتأخذ نبيذها...

دخل إلى الغرفة الخلفية. كانت ناجية مريضة، وطريحة فراش هو عبارة عن صندوق خشبي. ولأنها تقدمت كثيراً بالسن، فقد تركت الأعمال كلها تقريباً للنادل المخبول. في الأمسيات التي تشعر أنها جيدة، كانت أكثر ما تفعله هو الوقوف خلف البسطة، وقبض النقود، ولا تهتم للزبائن.

- دفعت ثمنها، أليس كذلك؟

- دفعت يا أختي الكبيرة.

- لتأخذها لمن تأخذها، ما علاقتك أنت؟

ضحك المخبول:

- لا شيء، سألتها لمجرد سؤال.

كانت المتسولة قد خرجت، تمشي ببطء في الطريق، ممتلئة إحساساً بابنها. اعتقدت بأن الفتاة التي بجانبه زوجته أو خطيبته. لا بد أنها ليست زوجته. لو كانت زوجته لبدا هذا. ابنة من يا ترى؟ كانت تعتقد أن ابنها يسكن في الدار نفسها. في الدار التي "قضت فيها سنوات سعادتها" مع زوجها وابنها. كانت سعيدة برغم وجود حماتها. لولا قضية ذلك السحر كان من الممكن أن يكونا معاً حتى الآن. حزنت عندما

ذكرت زوجها. فقد تزوج عليها. هذا يعني أنه لم يكن يحبها. وأرسلت إلى عند خالتها بلعبة...

وصلت إلى غرفتها مروراً بعدة أزقة. فتحت الباب، وأشعلت مصباح الكاز. خلعت معطفها القديم، ورمته جانباً. نزعت غطاء رأسها المرقع الأسود. كان شعرها قد اشتعل بالشيب. غار خداها، وتهدل لحمها. جلبت الجبن والزيتون والبصل المتبقي من الأمس، وحضّرت مائدتها، وبدأت تشرب ببطء كما في كل المساء.

عندما وصلت الزجاجة إلى النصف خطر ببالها الخاتم ذو الحجر الماسي. خبأته طيلة هذا الزمن. إنه الذكرى الوحيدة المتبقية من زوجها، أو على الأصح من ابنها! عندما تسكر في الليل، تخرجه من حيث تخبئه، وتلبسه بإصبعها، ثم تخبؤه مجدداً عندما تذهب إلى النوم. نهضت. أخرجت الخاتم من حيث تدفنه تحت التراب في زاوية الغرفة، ووضعته بإصبعها. مسحت فوق اسم مظهر من الأسماء الثلاثة التي نقشتها على حلقة الخاتم من الداخل. كان من الممكن لها أن تبيعه لولا ابنها، أو على الأصح لولا أنه أخرجه من تحت السرير عندما ضاع، وأنقذ أمه من مشكلة كبيرة، فلذلك له علاقة قوية بابنها. لا يمكن أن تبيعه. بدا لها أنه جزء من ابنها. قبّلت الخاتم.

استمر هذا لأيام طويلة.

في ذلك المساء عرجت لشراء نبيذها مرة أخرى. تركت ثمنه على البسطة. لم تنتبه حتى لوجود شخصين خلف البسطة، وأحدهما امرأة. أخذت زجاجتها، وخرجت ببطء مطرقة رأسها. كانت ناجية تنظر إليها بدقة. أي متسولة غريبة هذه التي ذكّرتها بواحدة تعرفها. وهذه مثلها

متعقلة، منطوية على نفسها. ترى من تكون؟ لم تستطع منع نفسها من التفكير بوجه الشبه بين هذه المرأة وتلك حتى بعد خروج المتسولة. ما أغرب هذا. علق برأسها بشكل غريب. هذه المتسولة تشبه واحدة تعرفها جيداً، ولكن من هي؟

دخلت إلى غرفتها، وتمددت على سريرها. مع تقدم المساء، وهبوطه، شعرت بأن الزبائن يملؤون الخمارة. الصخب يتصاعد تدريجياً، وتتكاثر الأصوات. أشعلت سيجارة.لم تعد تعرف مقدار النقود التي تذهب إلى هذه الخمارة! ولكن إلى أين تذهب؟ ما كانت في السابق تضبط الحسابات جيداً فكيف الآن.

قالت للنادل الداخل من أجل عمل ما:

- أنا تقدمت كثيراً بالسن، أليس كذلك يا أحمد؟

ل- هه.

- زقوم! أقول إنني تقدمت كثيراً بالسن؟

ابتسم أحمد بفظاظة مكشراً: أنت؟

- أمك... يا مخبول.

لم يبال أحمد. خرج. نسيته ناجية فوراً. تناولت مرآة يد من جانب رأسها، ونظرت إلى وجهها: وجه مجعد، وعينان غائرتان... وضعت المرآة مكانها. حمداً على هذا أيضاً. ماذا لو كانت كالآخرين، مثل تلك المتسولة التي تشتري النبيذ؟

تلك المتسولة! أمر غريب، لماذا لا تستطيع إخراجها من عقلها؟ ولماذا لا تستطيع نسيانها؟ تشبه هذه المرأة واحدة تعرفها جيداً، ولكنها لا تستطيع تحديدها... انقلبت إلى الجانب الآخر قائلة لنفسها: "الله

يبعث لها البلاء". هذا غير ممكن، رغم أنها أغمضت عينيها، وضغطت على نفسها من أجل أن تستدعي أشياء أخرى إلى عقلها... كل شيء إلا هي. جلست في السرير، ونادت:

- أحمد!

أجاب النادل الساذج متأخراً قليلاً: أمرك يا أختي الكبيرة!

ظهر بالباب.

- عندما تأتي تلك المتسولة غداً، اشغلها بالكلام، واخبرني!

- لماذا يا أختي الكبيرة، ماذا يوجد؟

- أشبِّهها بإحداهن.

- بمن؟

- ولكنني لا أعرف. لواحدة أعرفها جيداً. نظرتها، ووقفتها... آه يا ربي، إنها على رأس لساني. صوتها أيضاً ليس غريباً. قم بما أوصيتك به غداً.

بعد عودة النادل إلى البسطة تمددت ناجية على السرير من جديد. كان خصرها، وظهرها، وساقاها، وعظامها تؤلمها. هذه الآلام تزداد بقوة في الشتاء. كانت تعرف أنها آلام الروماتيزم. وتعرف أن الدكان الذي تنام فيه وتقعد، وتقضي فيه أيامها كلها تقريباً رطب. لو وقعت بيدها نقود كثيرة لرممت الدكان فلا تبقى فيه رطوبة.

في اليوم التالي جاءت المتسولة مرة أخرى. لم يبق ضرورة لأن يخبرها النادل. كانت خلف البسطة. في أثناء تقديم الزجاجة المليئة لها، وأخذ النقود انتبهت إليها: نعم لم تكن مخطئة. إنها واحدة تعرفها جيداً جداً، وعن قرب، سألتها:

- ما اسمك؟

نظرت المرأة بحدة بوجهها ذي الجرح المندمل:

- ماذا تريدين؟

رحماك يا رب، المعرفة يمكن أن تكون إلى هذا الحد!

- أشبهك بواحدة...

فجأة عرفت المتسولة تلك الواقفة خلف البسطة. ارتعدت. حتى إنها ارتبكت بداية. بعد ذلك استجمعت نفسها. إنها هي. كيف صارت عجوزاً، وكيف انهارت! ولكنها يجب ألا تعرف من هي. اشترت زجاجة النبيذ، وخرجت من الدكان كأنها هاربة. دب الشك بناجية جيداً، وإلى حد كبير. والواضح من حالها أنها عرفتها أيضاً.

قالت للنادل: اذهب خلف تلك المرأة، ولكن من دون إشعارها. إعرف بيتها!

- أف... يوجد عمل يا أختي الكبيرة!

- افعل ما أقوله لك!

خرج النادل الساذج من الدكان وهو ينخر. كانت المتسولة تمشي ببطء على رصيف الشارع الذي تنيره المصابيح الكهربائية. كانت مسرورة لعدم تركها فرصة لناجية كي تعرفها. إنها امرأة ثرثارة. ستنشر في المحيط أن "السيدة ناظان صارت متسولة"، لن تؤثر عليها هي شخصياً بل بابنها. وابنها لا يعرف عنها شيئاً. لعله يعتقد أن أمه ماتت! من الأفضل أن يعتقد هذا. ما الفرق بين أم "سيئة" وأم "ميتة"؟ وإذا عرف ابنها بأن أمه الميتة على قيد الحياة، لا بد أن يدفعه الفضول لمعرفة سيرة حياتها، والسؤال عنها. طالما أنها لن تستطيع شرح ما وقع

لهـا، فكيف سـتوضـح له الأمر؟ هذا هو الأفضل، التـخـفي! ثم إنهـا لن تشتري النبيذ بعد الآن من هنا، بل من مكان آخر. كيف لم تنتبه لناجية! وزوجـهـا؟ مـاذا جـرى لزوجـهـا؟ مـاذا يكون لهـا ذلك النادل ذي النظرة المخبولة؟

مازال ذلك النادل متـوتراً، وجن جنونه لأنه اضطر لملاحقة متسولة لا تساوي قرشين. لا يمكن أن تسكن في عـمـارة. لعلها غـجرية. إذا كـانت غـجرية فـقـد اصطدم بالبلاء تماماً. عليـه أن يمشي سـاعـة، أو سـاعـتين إلى حيث ينـزل الغـجر خـارج المدينة، وبعـيـداً عنهـا كـثـيراً في خـيـام الشـعـر، وينـزلون إلى المدينة لبيع شبكات الشواء والملاقط، ويفتحون الفأل.

ولكن الواضح تماماً أن المرأة ليست غـجرية، فـقد انعطفت إلى زقاق طيني لحي مهدم في طرف المدينة مباشرة. زاد النادل الساذج من سرعته. تخـفـى خلف زاوية أحـد بيـوت البلوك، وتتـبـع المرأة لمعـرفـة البـيـت الذي سـتـدخله. دخلت إلى بيت من البلوك يشـبـه الإسطبل، وأغلقت البـاب. ولكي يعـرف البيت جيـداً عَبَرَ إلى الطرف الآخر من الزقـاق. ركـز عـينيـه بقوة إلى الأبواب المغلقة بقـوة. بعد قليل، ظهر ضوء أصفر من بين شقوق خشب البـاب. هذا يعـني أنهـا أشعلت مـصباحـهـا. ألقى نـظرة على الحي الخـالي من الأضواء، المدفـون بظلمة خـفـيـفـة. مـيـز أناسـاً وجـوههم غـيـر واضـحـة. ثمة أضـواء مـتـفـرقـة في النوافـذ... مـخط. مـسح يده بالجدار المجاور، وبخطوات سريعة عبر الزقاق الضيق نحو الجهة التي جاء منها. انطلق في طريق الخمارة.

كـانت الأخت الكبـيـرة تقـوم على الخدمة كـمـا في الماضـي. تعـرَّقت. نسـيت آلام ظهرها، وخصرها، وتحـاول تلبيـة الطلبـات للأطراف الأربعـة. انتشت عندما ظهر النادل بباب المشرب.

- ماذا حدث؟

هز النادل كتفه:

- لا شيء. دخلت إلى إسطبل في حي متطرف!

- إسطبل

ا؟

- إنه إسطبل بكل ما يعنيه. حيث تربط الحيوانات...

- ابدأ عملك أنت الآن، وغداً تريني إياه، هل ممكن هذا؟

- ممكن، ولكن...

- لا تحكي كثيراً!

ذهب النادل الساذج إلى عمله. استيقظت باكراً صباح اليوم التالي. لكزت النادل النائم على فراش رقيق برجله، وأيقظته. هيا البس ثيابك، وخذ السلة، ولنذهب.

إنهما ينزلان إلى السوق يومياً لكن ليس مبكراً إلى هذا الحد، ويشتريان لوازم طعام الغداء، ومقبلات المساء. خرجا اليوم أبكر بساعة ونصف عن كل يوم. وصلا إلى الحي الذي تسكن فيه المرأة المتسولة. شعرت ناجية بشيء ما منذ المساء. ولكنها لم تعتقد بأن "ناظان ستسقط إلى هذا الحد"، ولم تضع احتمالاً كهذا. بعد ذلك، إذا كانت ناظان، لماذا تلقي عليها غطاء يشبه غطاء اللحاف، وتتسول؟ من يعلم، ثمة سر في الأمر.

حين تعرفت على إسطبل البلوك الذي تسكن فيه المتسولة، أعطت النادل نقوداً:

- اشترِ لحماً من عند القصاب الذي نشتري من عنده يومياً، ومن

عند البقال فاصولياء يابسة، وحمص، واشترِ كبداً أيضاً. واذهب إلى الدكان، وقشر البطاطا، أنا قادمة، هيا!

ذهب النادل والسلة في ذراعه.

اقتربت ناجية من الباب. تراجعت لحظة همت بطرقه. لنر ما إن كانت هي؟ إذا لم تكن هي... ماذا سنخسر؟ تقول لها: "شبهتك بواحدة، عذراً منك..." وتمرر الأمر. لحظة جهزت نفسها لطرق الباب، خرج من طرف الزقاق السفلي رجل مسن وهو يكح بشكل فظ. تراجعت ناجية. الأفضل هو انتظار المرأة غالباً.

لم تجعلها المتسولة تنتظر كثيراً. عبرت ببطء من دون أن تنتبه لناجية، وذهبت.

لحقت بها ناجية. كانت تسير خلفها من مسافة طويلة. عبرتا عدة أزقة، ونزلتا إلى وسط المدينة. وقفت حيث لا تظهر للمرأة التي جاءت إلى عند زاوية عيادة الطبيب في أكثر أماكن السوق الكبيرة ازدحاماً، وجلست. دخلت إلى زقاق هناك. كانت تستطيع أن ترى المرأة وعيادة الطبيب بآن واحد، ولكنها لا تُرى. كم تشبه ناظان يا ربي! استسلمت إلى أحلامها في الليل، فظهرت لها المرأة قائلة: "نعم، أنا ناظان. نعم، أنا ناظان ولكنني لا أريد أن أُعرف. أرجوك تظاهري بأنك لا تعرفينني!"

كانت تؤمن بالأحلام. لهذا السبب فهي ناظان بالتأكيد. وإذا كانت ناظان، ستعرف ما ستفعله. لا ضرورة للخبل. إنها أم طبيب حكومي كبير. إذا كانت تخجل من الظهور أمام ابنها بهذه الحال، فستذهب إليه وتبشره... حسن، ولكن من يعلم، لعل الولد صار أحد المتعالين المترفعين. لعله لا يريد معرفة أمه. حتى لو كان يخجل من أمه فإن الأمر

بالنسبة إليها لا يتغير. إما أن يدفع لها مقداراً كبيراً من النقود ليسد لها فمها، أو تفضحه في المدينة. إنها الفرصة المناسبة. إنها بحاجة للنقود. سترمم الدكان بالنقود الكثيرة التي سيدفعونها لها من أجل إغلاق فمها.

عرفت خلدوناً القادم إلى عيادته مع خطيبته شبيهة الغصن بعد نصف ساعة. كانت تعرفه، وتعرف أن الفتاة التي بجانبه هي ابنة المحامي نهاد. حتى إن المحامي نهاد جاء إلى مشربها مع أحد زبائنها قبل سنوات، ولكنها لم تُظهر كثيراً أنها تعرفه، ووجدت مكتبه، وذهبت إليه. ولكن الرجل قابلها ببرود. طبعاً فإن أمطاراً هطلت، وشقوقاً انسدت. فقد نسي أنه جاء إلى المدينة مفلساً، واستطاع أن يقف على قدميه بفضل السيد مظهر. والآن يهربون من معارفهم القدامى. ليهربوا. إذا كانت تلك المرأة هي ناظان، فهي تعرف ما ستفعله!

شدت انتباهها كله. رأت خلدوناً يخرج إلى أمام باب عيادته، ويتحدث بأمور ما مع المتسولة. بعد ذلك نهضت المتسولة متثاقلة، ودخلت إلى العيادة. قال خلدون:

- التسول عيب كبير. موت الإنسان أفضل من تسوله! خذي هذه المكنسة، واكنسي هذه الأرض!

تناولت ناظان المكنسة الموضوعة جانباً من دون تعليق.

- من دون أن أرش الماء؟

- أممكن من دون رش الماء؟ انظري هناك يوجد إبريق، خذيه!

ذهبت، وجلبته. رشت الأرض، وبدأت تكنسها.

كان الدكتور خلدون ونرمين قد خرجا إلى أمام الباب، ويتحدثان عن عرسهما المرتقب:

- لا أريد صالة أفراح البيت الشعبي أبداً...

- وأنا أيضاً، ولكن أبي وضع هذا في عقله!

- أما كانت أمك ستمنع هذا؟

- كانت ولكنها... ألا تعرف أبي؟ يتحرك على الأغلب بحسب أقوال الناس الغرباء. لعل الحزب طلب هذا...

- لا تحزني، ليس باعثاً على السرور أن يكون أبوك غير مبدئي.

- معك حق.

- متزلف كثيراً!

- كثيراً.

- ....

- ....

انتظر حتى كُنست الأرض. بعد ذلك، وقبل ذهابه إلى الدائرة، أخرج من جيبه مقداراً صغيراً من النقود، ومده نحو "المتسولة":

- خذي!

أخذتها المتسولة:

- الله يرضى عليك، الله يجعل كل ما تمسكه ذهباً، الله...

- دعي هذا الكلام أيضاً، لا أحبه أبداً. عرجي كل صباح، واكنسي، وخذي نقودك، ولكن بلا أعية! مفهوم؟

تمتمت:

- مفهوم...

انزوت جانباً، وانتظرت ذهابهما. ابتعد وهو إلى جانب خطيبته. نظرت من خلفهما مطولاً. لم تكن تبكي. لماذا تبكي؟ ألا ترى ابنها بعين الدنيا!

- الله يسلمه، ليؤنبني!

فجأة انبعث صوت من جانبها:

- ألست السيدة ناظان؟

ترنحت وكأنها نالت لكمة. نظرت خائفة، وقالت:

- لا، لست هي؟

ابتعدت بخطوات سريعة غير متوقعة منها. إذا كانت ناجية قد ذهبت وراءها، فإنها لم تستطع اللحاق بها. كانت رجلاها تؤلمانها أصلاً. لم يبق لديها أدنى شك بأنها ناظان. الأفضل مداهمة بيتها ليلاً، والتفاهم بشكل مفصل. كم سيكون جميلاً إذا تفاهمت، ورضيت بإعطائها قسماً من النقود التي ستنتزعها من ابنها، وإذا لم تقبل فهي تعرف كيف تقطع سرتها بيدها.

جاءت إلى المشرب، وألقت بجسمها المتعب على السرير.

٢٢

أغلقت الباب عليها طوال اليوم بيأس طائر ضخم خائف، وشربت النبيذ. هبط الظلام منذ فترة على الحي خلف النافذة والباب الخشبيين المغلقين بإحكام، وأنير المصباح الكهربائي عند الزاوية. نهضت، فلم تستطع الوقوف على قدميها بداية، وكادت تتدحرج. الغرفة التي تلونت بلون ضوء مصباح الكاز الأصفر الذي أشعلته باللمس تدور فوق رأسها. انهارت. كانت خائفة. إذا كانت الخمارة ناجية قد أخبرت عنها فماذا سيحدث؟ لتدع أمر عدم استطاعتها النظر إلى وجه ابنها جانباً، فهي تخاف أساساً من انكشاف هويتها، وتقديمها إلى المحكمة، وبعد ذلك إلقائها في السجن. إنها راضية بأن يقتلوها على أن يزجوها في السجن. وخاصة إنها لا تقوى أبداً على النظر إلى وجه نديمة الغجرية وأولادها.

فجأة بدت وكأنها تنفست الصعداء: لا بد أن ناجية لم تخبر عنها، لأن أحداً حتى الآن لم يأتِ أو يذهب! التمعت عيناها بحيوية.

لو فعلت لكانوا قد جاؤوا حتى الآن، واعتقلوها. هذا يعني إنها لم تخبر عنها؟ وطالما أنها لم تخبر، فلن تفعل. وحتى إذا أخبرت... فستغادر هذا المكان. إلى أين؟ إلى أي مكان. يجب ألا تبقى هنا مخافة أن تقع عين ابنها عليها. ليس لها الحق أن تجعله يخجل أمام الناس!

جرت نفسها إلى سفرتها المؤلفة من قطعة خبز، وبصل، وزيتون

أسود، وجبن، وبسطرمة. ملأت كأسها. خطر ببالها أمر آخر لحظة همت بالشرب: من أين تعلم أن ناجية لم تخبر عنها؟ لعلها أخبرت، وهم يبحثون عنها. لعلهم لم يستطيعوا إيجادها فوراً! ارتبكت. تراجعت عن شرب كأس النبيذ، ووضعته على المائدة. الأفضل هو الانطلاق والابتعاد، فهي لا تريد أن تقع بأيدي الشرطة، كما تريد أن تسيء لابنها أمام الناس. تناولت الكأس المليء، وشربته بجرعة واحدة.

عليها أن تذهب بعد أن يخلو الشارع من الناس. يجب أن تهرب بهدوء!

ثمة تلاطم أمواج بحر خلف جفنيها المغمضين. ليل، وظلام حالك... تخرج من البيت بهدوء. وتغوص في الظلام من دون أن ترى ضرورة إغلاق الباب خلفها. انطلقت ساقيها للريح بكل ما تمتلك من قوة. تجد عربة خيل واحدة في إحدى المنعطفات. يأخذها الحوذي إلى بلدة مجاورة مقابل أجرة معينة. وهناك تركب واسطة أخرى، ولتكن شاحنة مثلاً، وتذهب بعيداً، إلى مكان لن تُكتشف فيه أبداً، ومن غير الممكن أن يعثر عليها أحد فيه!

فتحت عينيها، وصبت النبيذ المتبقي في الزجاجة، وشربته.كانت أذناها تطنان. الوقت متأخر جداً غالباً. ترى هل تذهب؟ نهضت. ذهبت إلى الباب مترنحة، وفتحته. تفقدت في الخارج. هبت ريح قوية، راحت تصفر.

إنه الوقت المناسب غالباً. فجأة تذكرت خاتمها المدفون. أغلقت الباب، وذهبت، وأخرجته من حيث تدفنه، ولبسته بإصبعها. توهج الحجر الثمين بقوة تحت ضوء المصباح الخافت. جاءت إلى جانب المائدة. تناولت الكأس الفارغة... هل ستذهب؟ تترك ابنها الذي خطط أباه على ألا تراه في أي وقت، وألا تحتضنه بين ذراعيها.

كانت تشعر بأن هذا الذهاب لا عودة فيه. عليها أن تذهب. عليها أن تذهب من أجل سعادة ابنها. عليها أن تذهب، ولكن ماذا عن ناجية؟ ماذا ستفعل؟ كشفت الخنزيرة أمرها. سألتها: "ألست السيدة ناظان؟". ماذا لو ذهبت إلى ابنها، و... لتذهب، لن يصدقها. سيسألها أين هي، ولعله يرسل من يبحث عنها، ولن يجدوها. سيقول لها: "شبهتِها" ويمر الأمر.

أو أن الأفضل... دبت الحيوية بصورة ناجية في رأسها. رقبة ناجية. كأنها تعصر تلك الرقبة الرفيعة بأصابعها، وتعصرها... أم أنها تذهب إلى خمارتها... مستحيل. كانت تريد ألا تُسمع القضية، وألا تصل إلى أذن ابنها.

قُرع الباب.

ارتعدت. بدأ قلبها يخفق بسرعة. من يا ترى؟ هل الشرطة؟ لماذا لم تسرع، وتهرب؟

قُرع من جديد.

نهضت. ذهبت مترنحة. بحثت عن مزلاج الباب الحديدي. كانت يداها ترتجفان. وجدته. رفعته. فتحت. الضوء الأصفر المنبعث من الداخل أنار وجه ناجية الجاف.

دست ناجية نفسها في فتحة الباب، ودخلت:

- أنت!

- أنا لا أعرفك.

- أنا أعرفك جيداً. انظري، جلبت لك نبيذاً! أفسحي لي لكي أدخل. لدي ما أقوله لك! دخلت أمام نظر ناظان المندهش.

مصراع الباب المفتوح صفعته الريح بقوة وراح يضرب الجدار.

- أغلقي الباب، وتعالي!

نفذت الأمر. أغلقت الباب، وذهبت إليها.

تأملتها ناجية، فجذب الخاتم الذي بإصبعها عينها. تذكرت السنوات الطويلة الماضية: إنه الخاتم الذي وضعت عينها عليه الحماة، وجعلت المسكينة تضرب!

أمسكتها من ذراعها.

- لم تعودي تستطيعين إخفاء نفسك يا ناظان!

أدركت ناظان أنها قامت بتصرف من دون حيطة، فأشاحت بوجهها.

- لا تهتمي. يقع على رأس الإنسان كل شيء. الله فقط هو من لا يقوم ولا يقعد!

لم تكن تستطيع رفع عينيها عن الخاتم الماسي. لو كان هذا الخاتم بيدها الآن، وباعته، من يعلم كم ليرة يدفعون به؟

- هذا يعني أنك لم تبيعينه حتى الآن؟

لم تتلق جواباً.

لو تجعلها تسكر، بعد ذلك تسحب الخاتم من إصبعها، وتأخذه!

ملأت الكأس غير المغسول بالنبيذ الذي جلبته هي، وأرادت أن تقدمه لها.

قالت ناظان بحدة:

- لا أريد.

- لماذا؟ أنا جلبت لك هذا كله!

- لا أريد. (رفعت رأسها) لا تخبري أحداً بأنك رأيتني، ممكن؟

- لماذا؟ لو كنت مكانك لما عانيت من هذا البؤس طالما عندي ولد كالسبع!

توحشت عينا ناظان كعيني طائر جارح، وقالت:

- لا. لا أريد. لا أريد لابني أن يعرف بي. لا حق لي بهذا!

- أنت لا تريدين، ولكن...

ارتبكت:

- إيه؟

- أنا أريد.

نظرت إحداهما إلى الأخرى وكأنها متعطشة لدمها.

- ماذا تريدين؟

بدت أنها لانت:

- لنتفاهم يا سيدة ناظان. ابنك طبيب، ووالد الفتاة التي سيزوجها غني جداً. أما نحن ففقراء. أعمالي تسير بشكل سيئ. النقود معهم كالرمل في البحر...

- لا، لا. لا أريد. لا أريد التفاهم، ولا أريد أن يعلم ابني بي. إنه يعلم بأنني ميتة، ليستمر بهذا. أنا لا أعيش أساساً. فلماذا أوسخ اسمه وشرفه؟

- ولكن الأمر ليس هكذا بالنسبة إلي!

- كيف؟

- أنا بحاجة إلى النقود!

- ما علاقتنا نحن؟ ما علاقة ابني؟

- والله يا ناظان أنت أعلم. أنا وضعت هذا الأمر بعقلي. سأذهب وأتعلق برقبتهم شئت أم أبيت. لا يريد ابنك أن يسمع الناس والعالم بأن أماً مثلك هي أمه. سيتزوج قريباً. هو وحموه سيخافان من الفضيحة. وضعت هذا في رأسي! انظري أطرافي كلها مصابة بالروماتيزم. لماذا؟

من الدكان. الله لا يرمي نقوداً للإنسان من السماء. يجب على العبد أن يستفيد من الفرص!

ترنحت ناظان.فكرت، وقالت:

- لا. لن تستطيعين اللعب بكرامة ابني!

- هل تهددينني؟

- لن أدعك تلعبين بكرامة ابني!

ارتعدت ناجية. زاغت عينا المرأة. لم تذكر أنها على هذا النحو أبداً. أرادت أن تنهض. لم تدعها ناظان. تقربت منها جداً. فمها يفوح منه رائحةكريهة جداً، وركزت عينيها التي تحوّل بياضهما إلى حمرة:

- لن أدعك تلعبين! لن أدعك تسيئين لابني!

- إذا أعطاني ما أريد فلن أفضح شيئاً!

- ولن تحصلي على ما تريدين أيضاً!

التقت عيناهما. ما زالت ناجية تقاوم وبرغم خوفها الشديد. أرادت أن تنهض للحظة متضايقة من أنفاس المرأة، فلم تستطع، إذ أمسكتها ناظان من ذراعها بقوة، ومنعتها من النهوض. أرادت تخليص يدها. فلم تتمكن، فدفعتها من صدرها للتخلص من ثقلها على أنفاسها وخطر ببالها أن تصرخ طالبة النجدة. إلا أن ناظان كممتها براحة يدها، وجلست عليها:

- لن أدعك تؤذين ابني، لن أدعك!

أرخت نفسها فوقها. وكانت ناجية تتلوى في الأسفل. أرختنفسها عليها بشكل لا يجعلها حتى تستطيع التنفس. ذات لحظة، كانت أصابع ناظان تطبق على رقبتها، وبدأت بالعصر، انتفضت هذه بقوة محاولة التخلص من ناظان، لكن جسد الأخيرة كان ضخماً، وعادت للضغط دون أن تدع لها مجالاً لاستجماع أنفاسها!

- لن تستطيعين الذهاب لرؤيته، لن تستطيعين رؤيته!

وبدأت تضغط بيدها على رقبتها بقوة. كانت عينا ناجية تتسعان تحت ضوء مصباح الكاز الأصفر. وسيطرت على ناظان فكرة واحدة: لن تذهبي إلى ابني!

بعد أن تلوت ناجية يميناً ويساراً كسمكة كبيرة، وملأت وجه ناظان بالخدوش بيديها المنفلتين، ارتخت ببطء. سقطت يداها إلى الطرفين، وامتقعت بالزرقة.

أدركت ناظان التي لم تصح إلا في تلك اللحظة، أن المرأة قد ماتت، فخافت. فكرت: ماذا سيحدث الآن؟ ماذا لو جاءت الشرطة، وقبضت عليها وساقتها إلى المحكمة وزجت بها في السجن؟ الأسوأ من هذا أن يعلم ابنها. يجب أن تنهض وتهرب. من سيعلم بهذا؟ اختلطت بالظلام الذي أسرعت فيه العاصفة وفي إصبعها الخاتم ذو الحجر الماسي تاركة كل شيء. كانت تركض مرتبكة وهي تسقط وتنهض كأن أحداً يلاحقها. غُطّت بالعرق. لم تكن منتبهة إلى أنها ذاهبة إلى البحر الذي تثير العاصفة أمواجه خابطة بها على الشاطئ. فجأة سمعت أصوات كلاب، فازداد ارتباكها. كانت تخاف الكلاب كثيراً. أسرعت الخطى أكثر. اقتربت منها أصوات الكلاب وشعرت بهذا. فجأة ظهرت أمامها صخور الشاطئ. تسلقت الصخور معتقدة بأن الكلاب لن تستطيع تسلقها. قلبها يخفق كأنه سينخلع من صدرها. لم تفكر بشيء غير الكلاب المقتربة. قفزت من صخرة إلى أخرى حتى وصلت إلى حافتها. المياه التي لطمت الصخور الحادة بدت سوداء تحت القمر الذي يتوهج وينطفئ. تنفجر الموجات أحياناً كالمدفع. فجأة تقذف هبة قوية المرأة

الواقفة على أعلى صخرة حادة إلى المياه الهائجة كما لو أنها خرقة سوداء. صوت العاصفة المشاكس ابتلع صرخة المرأة السكرانة.

سرعة الريح تصاعدت. أصوات الكلاب اقتربت. استمرت العاصفة حتى الصباح من دون أن تهدأ. صباحاً بدت كأنها خفت قليلاً. خرج صيادو السمك إلى صيدهم. ولكن النهار كان مخيفاً أكثر من سابقه.

....

سأل الشاب الذي وجّه المصباح اليدوي:

- هل أخرج الخاتم الذي بيدها أيها المفتش؟

قال المفتش الحنون:

- احذر هذا. ابتعد جانباً!

انزوى صياد السمك جانباً. خمد بريق حجر الخاتم حين ابتعد المصباح اليدوي.

- لماذا لم يدعني أنزعه؟

قال ريّس الصيادين الذي يشبه جسمه الضخم رغيف خبز خرج من المخبز تواً:

- سيأتي النائب العام والطبيب وهما من يقرران.

- لن أنزعه وألقيه بجيبي!

- ليكن، هذه هي الأصول.

ما زالت العاصفة المستمرة من الأمس محافظة على سرعتها، وتلطم مياه البحر الداكنة المجنونة بالصخور كأنها طلقات مدفع.

بعد قليل ظهرت أضواء السيارة التي تجلب النائب العام والطبيب ممشطة الظلام. تقترب السيارة ببطء على الطريق الخرب. نزل مفتش الشرطة إلى الطريق، وانتظر. هرع عندما توقفت السيارة أمامه. حيا

مدير الأمن والنائب العام والطبيب بحسب الأصول. سأل النائب العام:

- ماذا هناك؟

- شرحت لكم على الهاتف، توجد جثة. في إصبعها خاتم ثمين. وضعناها ضمن حاجز.

بدؤوا يسيرون متجاورين.

- هل هي شابة أم عجوز؟

- لا تعد عجوزاً، ولكنها منهكة كثيراً. وجهها مليء بالخدوش. يوجد في وجهها من طرف عينها حتى طرف فمها أثر جرح مندمل!

فجأة انتبه الطبيب خلدون:

- هل الجرح في الخد الأيسر؟

- نعم يا سيدي.

- يبدو على وجهها أنها رأت ما رأته في الماضي غالباً!

خطرت ببال خلدون المتسولة التي أعطاها صدقة. انتبه إليها بوجه خاص يوم جعلها تكنس العيادة. تبدو عليها الأصالة برغم إنهاكها الشديد.

أثناء تسلقهم الصخور اشتدت الريح. كانوا يمشون بصعوبة. وصلوا إلى جانب الجثة. هرع صياد السمك ووجه المصباح اليدوي إلى الجثة.

سار الطبيب خلدون من الأمام بفضول، عندما رأى وجه الجثة قال:

- آخ إنها هي!

سأل النائب العام:

- هل تعرفها؟

أعرفها. إنها تتسول بجوار عيادتي كانت امرأة بحالها، حتى إنني جعلتها تكنس العيادة. يا للأسف. (انحنى) وجه المصباح هكذا لأرى!

إنها هي. الخدوش التي على وجهها يمكن أن تكون دليل شجار. احتمال الجريمة أكبر من احتمال الانتحار. آ... انظروا إلى الخاتم!

النائب العام أيضاً رآه. جلس القرفصاء بجوار الطبيب:

- خاتم بحجر ماسي في إصبع متسولة!

التفت إلى الشرطة:

- انزعوه. ولنسجله بمحضر ضبط، وليوضع أمانة.

نهض الطبيب والنائب العام. أشعل خلدون سيجارة.

انحنى النائب العام، وحاول رؤية وجهه:

- ماذا حدث؟

قال خلدون:

- لا شيء.

- ما بكم حباً لله؟

- أعرف المرأة، وهذا ما جعل حالتي تسوء...

- أنت على حق. موت من نعرفهم عن قرب يهزنا أكثر!

لم يجبه خلدون. كانوا يحاولون نزع الخاتم من الإصبع الذي انتفخ كثيراً تحت ضوء المصباح الأصفر. يلزم عمل الكثير. كان الأفضل هو قطع الإصبع، ولكن...

- كيف سيكون الأمر إذا قطعنا الإصبع؟

غضب خلدون:

- لا، هذا غير ممكن. طلبوا منكم نزع الخاتم، وليس قطع الإصبع.

- صحيح، ولكن يا سيدي...

فجأة شعر بقرب غريب من الميتة. ورغبته بإنهاء عمله بسرعة ليعود إلى جانب خطيبته... تملكه شعورٌ مختلف، ومختلف جداً عن شعور

الشفقة الذي شعر به إزاء موت هذه المرأة التي يعرفها. لن يرضى بقطع إصبعها. ثم إن هذا الخاتم... هل كان هذا الخاتم مألوفاً له؟ من يعلم؟ ولكن من أين؟ لم يكن يعرف. خيال خاتم في الماضي، والماضي البعيد يظهر في عقله، ويغيب كقطعة خشب تغط في الماء وتطفو. ولكنه كان يتخيل هذا الخاتم في علبة مخملية ظريفة. وجده تحت السرير في أثناء لعبه. لا يمكن أن يكون هذا الخاتم هو ذاك. ما العلاقة؟ كان ذاك لأمه. أما أمه فقد ماتت، وراحت منذ زمن بعيد.

أخرج رجال الشرطة الخاتم بمساعدة الصيادين، وقدموه للنائب العام. اندس خلدون به أثناء تفحصه تحت الضوء الأصفر. رأوا الكتابة في داخله. قرؤوا إليجانب اسم أريد محوه اسمين: ناظان - خلدون.

تمسك خلدون بالنائب العام كي لا يسقط.

التفت النائب العام مندهشاً:

- ماذا حدث يا خلدون؟

- لا شيء.

- ساءت حالك غالباً.

- يوجد تقلب خفيف في معدتي. لنذهب. لترفع الجثة إلى المشرحة، بعد ذلك...

في أثناء إصدار النائب العام الأوامر، انطلق خلدون نحو السيارة. تهدل كتفاه، وانهار. هذا يعني أن التي اعتقد أنها متسولة... ما الضرورة لتخفيها؟ لماذا لم تعرف بنفسها؟ إذا لم ترغب بالتعريف بنفسها، فلماذا تقرر الانتحار؟.. ولكن لا. لم يكن انتحاراً. آثار الخدوش في وجهها تظهر أنها قاومت من أجل ألا تموت.

شرد حتى جاء النائب العام، ودخل إلى السيارة.

- انظر إلى الاسم المراد شطبه، إنه يُقرأ بوضوح. أليس مظهراً؟

ألقى نظرة: حسن، إنه مظهر.

سارت السيارة مهتزة على الطريق الخرب.

ترك النائب العام كل شيء، وبدأ ينشغل بخلدون.

- ماذا بك حباً لله؟ لونك صار كالرماد.

- أنا؟

- أنت؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف يا أخي، ترنحت لحظة رؤية الجثة. وها أنت تبدو شارداً!

فاضت مشاعر خلدون فجأة. وضع يديه على وجهه، وبدأ يجهش بالبكاء.

النائب العام المدرك أن شيئاً ما في الأمر، ألح، وألح عليه مطولاً. وإذا كان خلدون قد جرب إخفاء الأمر فإلى متى سيخفيه؟ سيظهر التحقيق كل شيء. رفع رأسه، ونظر دامع العينين، وقال:

- إنها أمي!

كأنه ينزلق إلى ظلام يتكثف تدريجياً في رأسه. قال النائب العام:

- قف أيها السائق، أغمي عليه.

توقفت السيارة. قفز السائق من خلف المقود، وهرع للمساعدة. مددوا الطبيب الشاب على ظهره في المقعد الخلفي. انتقل النائب العام إلى جانب السائق:

- إلى المستشفى بسرعة!

غابت السيارة بسرعة في ظلام الليل الدامس العاصف.

٢٣

عندما فتح عينيه بدا كأنه مستيقظ من نوم عميق، رأى الشمس البراقة الساطعة من نافذة مهجع المستشفى. كانت بجانبه خطيبته ووالدها، وطبيب، وممرضات، وغيرهم. بعد أن تلفت حوله مندهشاً، تذكر: كانت أمه هه؟ تلك المتسولة بجانب عيادته، تلك التي نظرت إليه بعذوبة أكثر من نظرة المتسولة... الآن يدرك أن تلك النظرة عذبة. هذا يعني أن الأم تنظر على هذا النحو.

اغرورقت عيناه.

- كيف حالك يا صغيري؟

تنهد:

- جيد يا سيدي، ولكن...

تلفت فيما حوله ببراءة طفل. استعرض الذين هناك. كأنه سيسأل عن أمر، ويخجل منه. ابتلع ريقه. بعد ذلك... ما المخجل؟ مهما يكن فهي أمه. نعم، أمه! ترى هل كانت أمه؟ سأل حماه:

- إنها هي، أليس كذلك؟

احمر وجه المحامي نهاد حتى شحمتي أذنيه، وقال:

- نعم.

لم يكن يريد أن يفتح هذا الموضوع. فهو عرفها من النظرة الأولى في المشرحة. شاخت كثيراً منذ رآها في سجن اسطنبول حتى الآن، وانهارت، ولكنها هي. لم يكن عنده أدنى شك. بعد ذلك، الخاتم الذي بإصبعها. كان مظهر قد حكى له قصة الخاتم منذ تلك الأيام.

وضع خلدون رأسه بين راحتي يده، وخطيبته بجانبه تداعب شعره. وهي أيضاً مثل الرجل الشاب تذكرت ذلك اليوم. كيف أنب المرأة المسكينة! قال لها موت المتسول أفضل له.

- هل مؤكد أن الأمر ليس انتحاراً؟

قال نهاد:

- لم يعرف بعد. الخدوش على وجهها هي أبرز دليل على الشجار، ولكن من يعلم؟

- ماذا يقول النائب العام؟

- طلبوا النائب العام على عجل. اختنقت امرأة الخمارة أو ما شابه ذلك...

- اختنقت؟ أين؟ في البحر؟

- لا، لا. في بيت، في أحد الأحياء المتطرفة. قتلت بالضغط على رقبتها!

كانت جثة ناجية الخمارة متمددة على ظهرها وسط الإسطبل المحول إلى غرفة. عيناها الجاحظتان من محجريهما تظهران من بين أخشاب النافذة المغلقة جيداً، والساقطة منها أشعة الشمس الحارة. وقف رجال الشرطة بالباب. في هذه الأثناء فتح الباب. دخل الطبيب الشرعي والنائب العام. كل شيء كان يُرى بوضوح تحت أشعة الشمس المنتشرة. يبدو بوضوح أنها تخبطت كثيراً وضغطت على نفسها أكثر كي لا تموت.

انحنى الطبيب، وجس نبضها، ثم نهض على قدميه.

قال النائب العام:

- هذه الغرفة هي غرفة المتسولة المختنقة في البحر. ماذا كانت تعمل هذه هنا إذن؟

- وقد قتلت خنقاً. السبب؟

- يخطر ببالي أمر آخر...

- ماذا؟

- ألا يمكن وجود شخص ثالث له علاقة بموت الامرأتين؟

- ممكن، ممكن...

- ستقول ما مصلحته المحتملة من موت الامرأتين... صحيح. سنفهم هذا. لنحقق مع الجيران، ونسألهم.

خرجا إلى الباب. تحلق حولهم فوراً جمع من الفضوليين. كان صاحب الغرفة المحولة من إسطبل يقف متضايقاً. كان يدرك أن رجال الحكومة سيستدعونه، ويحققون معه. ولكن لا علم له بسبب مجيء المرأة الخمارة! غير هذا، لم يكن هو بالذات من أجر الغرفة للمتسولة، بل زوجته. يوم تأجير البيت كان قد ذهب إلى القرية لجلب البرغل. عندما عاد مساءً علم بالأمر، وفار غضباً. إذا لم يصدقوا هذا فليسألوا الأخت الكبرى جنة التي كانت ضيفة في بيتهم تلك الليلة، فقد صرخ بزوجته مؤنباً!

رفع قبعته الكسكيت، ثم وضعها من جديد.

ماذا يحدث إذا أجرها؟ وهل المستأجرون بطيخاً أصفر يمكن تمييزه بالشم؟ إذا كانت قد خنقت، فلتخنق، وإذا ماتت فلتمت. لن يقلق نفسه لهذا السبب ياه!

- يا حسن! انظر، السيد النائب العام يناديك، تعال!

وضع الكسكيت بيده: قلبه يخفق:

- أمرك يا سيدي!

ركز عينيه على عيني النائب العام، وانتظر.

- هل أنت صاحب هذا البيت؟

تلفت فيما حوله، بعد ذلك عاد ينظر إلى عيني النائب العام:

- نعم يا سيدي!

- لمن أجرته؟

ارتبك:

- لمن؟ أنا؟ أنا لم أؤجره يا سيدي. بنت الأعمى التي لي أجرته، أنا كنت قد ذهبت إلى القرية لجلب البرغل، وجئت ليلاً، وعندما علمت بالأمر، وصحت بها. إذا لم تصدقوني اسألوا الأخت الكبرى جنة! هناك الأخت الكبرى جنة!

- دعك من الأخت الكبرى جنة الآن... أجرتم البيت للمرأة المتسولة أنت أو زوجتك..

- أنا لم أؤجره يا سيدي..

- فهمنا أنك لم تؤجره. زوجتك أجرته. مهما كانت الحال... هل كانت المرأة، أي المرأة الخمارة المتمددة في الداخل، تأتي كثيراً؟ هل رأيتها من قبل؟

- الشهادة لله أنني لم أرها يا سيدي. لماذا؟ أنا نصحني أبي، فلا أريد رؤية المدمن. لهذا السبب أنبت زوجتي!

ابتسم النائب العام، ثم اتخذ موقفاً جاداً:

- هذا يعني أنك لم ترها تدخل أو تخرج من هذا البيت أبداً؟

لم أرها يا سيدي. لو كنت قد رأيتها فسأقول لكم هذا بكل صدق. المسلمون لا يكذبون. وأنا بهذا العمر البالغ خمسين...

تدخل شخص يسعل بشدة في الحديث من الخلف:

- أنا رأيت المرأة الخمارة!

التفتت العيون كلها نحوه. إنه الخال سليمان السبعيني الكحاح. كان أحد المبكرين في الحي. يأتي قبل الجميع إلى مقهى الحي، ويدخن نارجيلة كل صباح منذ ثلاثين عاماً ليتخلص من البلغم، ولكن بلغمه لم ينقطع، كما أن سعاله لم يهدأ. يناديه أهل الحي: "سليمان الكحاح". شخص ضخم البنية، عريض الكتفين.

اقترب من النائب العام شاقاً الزحام. حياه برأسه. كأنه يضحك بشاربيه الكثين، وعينيه الشبيهتين بعيني القط. سأله النائب العام:

- احك لنا، ماذا رأيت؟

- خرجت منذ فترة من البيت. كنت أنوي النزول إلى مقهى شعبان لشرب فنجان قهوة، وملء رأس نارجيلة. شعبان، الله لا يحرمنا إياه، يعمل قهوة جيدة لأنه لا يخلطها بالحمص. أنا كل صباح...

- اختصر! بعد ذلك؟

- بعد ذلك يا سيدي. ذهبتإلى مقهى شعبان. أثناء مروري من هنا نظرت، وإذ بالمرأة الخمارة! لم ترني بداية. كانت مختبئة وراء جدار هذا البيت. دفعني الفضول. الله موجود، فقد خطرت ببالي أمور سيئة!

- ماذا خطر ببالك مثلاً؟

- قلت بحسب عقلي، هل جاءت من أجل السرقة؟ عندما كنت

أفكر بهذا رأتني وغيرت من وضعها. إيه، لم أكن أستطيع أن أسألها شيئاً، لا حق لي. ماذا يمكنها أن تقول لك؟ لم أسألها، ولكنني ذهبت إلى مقهى شعبان، وانتظرت (حسن)!...

- من هو حسن؟

مشط سليمان الكحاح ما حوله:

- صاحب بيت المتسولة.

قفز حسن صاحب البيت:

- لستُ من أجر البيت يا سليمان، لا تحرقني!

- أعرف ولكن البيت لك!

- البيت لي، لا أنكر، صحيح... ولكن...

قال النائب العام:

- بعد ذلك، انتظرت (حسن). وجاء حسن. ماذا قلت له؟

- لم يأت حسن يا سيدي. لا أدري إلى أين ذهب في ذلك الصباح، لم يأت إلى المقهى!

- أي صباح يا سليمان؟

- قبل فترة يا حسن، لم تأتِ إلى المقهى، ولعبنا "ست أذرع" من دونك.

- تمام. ذلك الصباح! (التفت إلى النائب العام) كما تسمعون يا سيدي، لا يوجد في كلامنا تناقض!

- نعم؟

- جاء حسن في اليوم التالي. سحبته جانباً. قلت له، تعرف يا حسن كم أحبك... ولكنك لو لم تؤجر بيتك للمتسولة!

- أنا ماذا قلت لك يا سليمان؟

- قال لي: لم أؤجره، زوجتي أجرته. غضبتُ كثيراً، ولكن الأمر حدث. حكيت له عن المرأة الخمارة. كانت تراقب البيت في الصباح الباكر. خفت من حدوث بلاء في نهاية الأمر!

قفز صاحب البيت:

- لم يقل هذا يا سيدي، لم يقل: خفت أن يحدث بلاء. هذه هي الحقيقة!

- قلت هذا في داخلي يا حسن، كيف تعرف أنت ما في داخلي؟

قهقه النائب العام والطبيب. كان سليمان الكحاح يتلفت فيما حوله مندهشاً. لم يستطع فهم سبب الضحك.

- هل يوجد تقصير يا سيدي؟ لو كان عندي بيت كهذا لما أجرته للمتسولين، لماذا؟ لأنني لا أؤجره.

- أنا لم أؤجره يا سليمان، لماذا لا تفهم الكلام؟

- أنت لم تؤجره لكن زوجتك أجرته! هذا يعني أنك لم تربي زوجتك جيداً!

- لملم لسانك يا سليمان!

- هذه هي الحقيقة يا حسن!

- تربية زوجتي لاتسأل عنها أنت! أنت انظر إلى تربية زوجتك!

فار سليمان الكحاح غضباً:

- ما الذي سأنظر إليه في زوجتي؟

- ....

- ....؟

تركهما من يدير التحقيق. قال مفتش قسم الجنايات:

- يبدو لي وجود شخص ثالث في القضية!

- وهذا ما يبدو لي أيضاً.

- لنذهب إلى الخمارة ونجري تحقيقاً إن أردتم؟

- سنجريه طبعاً...

قال أحد رجال الشرطة:

- لنجد نادل المرأة!

- هل كان عندها نادل؟

- كان عندها نادل ساذج يا سيدي، إنه مخبول...

- حسن...

قصدا الخمارة. لم يكن الباب مقفلاً، بل رد ليس إلا. أغلق فقط. فتحوه كما يجب، ودخلوا. لم يكن ثمة أحد. بعد أن ذهب زبائن الخمارة ليلاً، بقيت كما هي. طاولات وكراسي مبعثرة، وأطباق قذرة، وكؤوس نبيذ للجلي، وزجاجات نبيذ فارغة...

أثناء تدقيق رجال الشرطة بكل جزء، رأوا الباب خلف البسطة. فتحوه، ودخلوا. كان في الداخل غرفة بكل ما تعنيه الكلمة. كل شيء كما هو. كان الفراش على سرير أصفر حديده صدئ باق على ما هو. يفهم من ترتيبه أن لا أحد نام عليه خلال الليل.

وفي زاوية يوجد فراش مفروش على الأرض لم يفتح.

قال المفتش:

- لم تنم المرأة الخمارة، ولا النادل هنا هذه الليلة.

- هذا ما يبدو.

أثناء ما كانت عيونهم تتجول في المكان، انتبهوا إلى سترة رجالية

معلقة على الجدار. كانت قديمة، مرقعة، مبقعة وقذرة. بحثوا في جيوبها ووجدوا هوية قديمة ممزقة. من الكتابات الممحوة قرئت هذه الكلامات بصعوبة: تشنق قلعة، ٣٣٢ . اسم الأم: عائشة، الأب: علي، الاسم أحمد، الكنية: غونش.

قال النائب العام:

- هذا يعني أن اسمه أحمد. ومن بقاء السرير على هذا النحو يُفهم أنه قضى الليل في الخارج. وبما أن معلمته قد قضت ليلتها في الخارج بالشكل نفسه، فهذا يعني أنهما كانا معاً أليس كذلك؟

كان المفتش بالقناعة ذاتها:

- نعم، صحيح...

- مهما كان قصدهما، فقد ذهبا معاً لتحقيقه، بعد ذلك ماتت المرأة...

ألا يمكن أن يكون النادل قد قتل الامرأتين؟

- لِمَ لا يكون؟ يمكن أن نطرح فكرة كهذه: وضعت المرأة الخمارة والنادل عينيهما على الخاتم الذي بإصبع المتسولة، وقررا الحصول عليه. وبعد أن وضعا خطة بأدق التفاصيل من أجل تنفيذها ذهبا إلى غرفة المرأة.

- جميل، ولكن وفق هذا التقييم...

- عن إذنك، أعرف. موت المتسولة.

- كان يجب أن يكون الخاتم قد سرق أيضاً!

- صحيح هذا هو الجانب الذي يدفعني إلى التردد أساساً. مهما يكن...

- يجب أن يلقى القبض على الرجل الثالث، أي النادل أحمد!

- نعم، وبسرعة!

صدرت الأوامر اللازمة بإلقاء القبض على النادل أحمد، وبحسب الأصول. واتُّخذت الإجراءات اللازمة إزاء احتمال تعريجه إلى الخمارة. قد تخطر بباله سترته، أو هويته التي في جيب السترة، فيريد أن يأخذها.

....

كان النائب العام ومفتش قسم الجنايات على حق. ثمة حاجة، بل حاجة ماسة للشخص الثالث، أي النادل أحمد من أجل رفع الستارة التي تخفي سر هاتين الميتتين على الأقل إن لم يكن له علاقة بموت الامرأتين! كان يبحث عنه، وطيّر خبر إلى حدود المحافظة، وبدؤوا عملية بحث وتمشيط دقيقين داخل المدينة. كان يبحث دائماً بعيداً، وأبعد، وأكثر بعداً، ولكن أحداً لم يخطر بباله دورة مياه البلدية الواقعة خلف مديرية الأمن.

كان هناك، في غرفة حارس دورة المياه ابن بلده "خالو عمي" منكباً على المنقل الموضوع بين ساقيه، وتصطك أسنانه من الخوف ويفكر بمن سيخبط على الباب. ورغم عدم وجود أي علاقة مباشرة له بالجريمة، فقد كان خائفاً وكأن له علاقة، فلا يخرج من عقله منظر معلمته المتمددة على الأرض مزرقّة، وقد جحظت عيناها.

قالت له معلمته في تلك الليلة: "أنا سأذهب لأكلم المتسولة. إنها أم الطبيب. أنا أعرفها قبل سنوات طويلة. إذا وضعنا ها في القفص، وابتززنا نقوداً من حمي ابنها، وتقاسمناها، سنرمم هذا الدكان، وأدفع ديوني. إذا تأخرت فابحث عني هناك!"

ذهبت. بقي أحمد وحده في الخمارة. ضغط عليه الزبائن اللئام إلى حد أنه وجد نفسه مربوطاً، ولم يعد يستطيع عمل شيء. يملأ النبيذ،

ويجلبه، ويقدمه، ويعد المقبلات ويحاسب... تصبب عرقاً كالدم. وكادت تنقطع مرارته رعباً لكي لا يفوت محاسبة أحد. ولا يدري ما إن كانت الساعة الثانية عشر أو الواحدة، أو الثانية عشر والنصف عندما جاء الحارس. وطلب منه إغلاق المحل.

أغلق المحل، وما إن أخذ نفساً براحة حتى خطرت بباله ربة عمله. لماذا لم تعد برغم مرور الوقت بعد منتصف الليل؟ تذكر تنبيهها أن يسأل عنها هناك إذا تأخرت. لم يأخذ سترته، وحتى انه لم يقفل الخمارة، بل سحب الباب خلفه، وانطلق في الطريق. فكر في النقود التي ستنزعها ربة عمله من المتسولة. وتصور إي إصلاح سيخضع له الدكان. لابد أن تُطلى بالدهان كخمارة "القنطرة" التي في السوق. وطاولات جديدة، وورق لعب، وسكاكين وشوكات، وأغطية، وأرضية جديدة... لعله يريد أن تكون الأرضية إسمنتية، فقد كان كنسُ الأرض وتنظيفها إثر ذهاب الزبائن بعد منتصف الليل صعباً جداً. كان قد عمل دقيقتين فقد لو كانت الأرضية من الإسمنت.

غاص بحديث مع نفسه. حتى إنه لم ينتبه للعاصفة التي بدأت منذ المساء، فاترة ولكنها بردت مع تقدم الليل. عندما بات خارج المدينة، انتبه لبرودة الجو الشديدة، ولم يكن باستطاعته العودة، وأخذ سترته. سيعود الآن مع معلمته بعد هذا.

عندما وصل إلى بيت المتسولة، ورأى عبر مصراع الباب المفتوح معلمته ممددة على الأرض توقف، ولكنه لم يقدر أنها يمكن أن تكون ميتة، حتى إن هذا لم يخطر بباله. كان يعتقد أن معلمته أفرطت في الشرب كثيراً، وفقدت وعيها، ومرت ساعات طويلة لكي تصحو، حتى إنها لن تصحو في اليوم التالي، ولا الذي بعده.

ولج إلى الداخل، وأراد أن يهز المرأة لكي تنهض، فجأة قابل عينيها الجاحظتين. تراجع وكأنه طار عقله خوفاً. خرج من الغرفة ماشياً إلى الوراء. وبصعوبة ألقى نفسه إلى ليل بارد عاصف خال من النجوم.

بعد ذلك هو لا يعرف ما جرى له. بدأ يركض كأن أحداً يركض خلفه مطارداً.

إلى أين كان يهرب؟ ما الضرورة لهربه؟ هل ثمة شيء يتعلق به؟ لا يفكر، ولا يستطيع التفكير، بل هرب بكل ما تمكنه ساقاه من قوة. ركض حتى انقطع نفسه. شحب لونه. العاصفة تزداد لحظة بعد لحظة، وبرد الجو. عندما التفت إلى الخلف، رأى أضواء المدينة المتراقصة بعيدة. لن يكون سيئاً إذا ما عاد إلى هناك من جديد، أو ذهب إلى الخمارة على الأقل لأخذ سترته، ولكنه كان خائفاً. كأن عودته إلى المدينة غير ممكنة.

ولمعرفته هذه الأماكن أدرك أنه سيصل إلى القرية في نهاية هذا الطريق. اعتقد أنه إذا أمضى الليل في القرية، في إسطبل فارغ مثلاً، وانطلق في الطريق قرب الصباح فسينقذ نفسه. بعد ذلك، خطرت بباله الهوية. فكر بعدم إمكانية الهرب إلى أي مكان إذا وقعت الهوية بأيدي الشرطة.

عاد. لم يكن يركض. لكنه لازال يلهث. كان عليه أن يفعل ما يفعله ليأخذ سترته. إذا لم يضع أي وقت، ويذهب إلى الخمارة، ويأخذ السترة من المكان المعلقة فيه، فلا مشكلة.

في أثناء دخوله المدينة خطر بباله "خالو عمي". كان يحب خالو عمي. ابن قريته. لم يكونا قريبين، ولكنه يعرف أباه وجده. كلما سنحت له فرصة فراغ في الخمارة يذهب إلى خالو عمي، ويأكلان معاً حلاوة طحينية، وزيتوناً أسود، وخبزاً، ويتحدثان أحاديث عامة.

كاد يمسح من عقله كل شيء تقريباً: إلقاء القبض عليه، وبقاء هويته في سترته، ووقوع دورة مياه البلدية التي يعمل فيها خالو عمي خلف مديرية الأمن.

وجد دورة المياه مغلقة. ولأن الوقت بعد منتصف الليل بكثير فإن خالو عمي كان يغط في النوم. دق الباب عليه براحة يده بشكل خفيف موقظاً إياه. عندما فتح المسن الصغير اليدين والقدمين والمجعد الشعر الباب وهو يفرك عينيه، ووجد أمامه أحمد علي، دهش، وسأله عما يبحث عنه هنا في ذلك الوقت. في تلك اللحظة كان قد صحا إلى نفسه، فأخفى السبب الرئيس، وألقى كذبة: "طُردت من عملي".

في اليوم التالي، عندما انفجرت قصة الجثة المستخرجة من البحر كقنبلة في المدينة، طارت طمأنينة النادل أحمد تماماً: هذا يعني أنهم قتلوا المتسولة أيضاً، ورموها في البحر؟

حسن، ولكن من فعل هذا؟ من سيقتل ربة عمله، والمتسولة ويلقيها في البحر.

بداية أصغى لحديث خالو عمي، وأحاديث القادمين إلى دورة المياه للتبول، وازداد خوفه إلى أبعد الحدود. ولعدم معرفة مَنْ خنق المرأة وألقاها في البحر طرحت التوقعات، خاصة الخاتم الثمين الذي بإصبع المرأة!

هذا يعني أن معلمته لم تستطع انتزاع النقود؟ الشخص الذي قتل المرأة، ورماها في البحر، لماذا لم يأخذ الخاتم الذي بإصبعها؟

قال خالوعمي:

- من المؤكد أنهم يشنقون من قام بهذا الأمر!

الشنق! جسد أزرق يتدلى من المشنقة وسط البياض!

في يوم ما رأى امرأة مشنوقة في "أوروزديباك" المحترق في أضنة، وقد تقلبت معدته من منظر لسانها المتدلي. تقلبت معدته من جديد.

هذا يعني أن المذنب سيشنق مثل تلك المرأة، ويتدلى لسانه المزرق من فمه؟ حسن، ولكنهم إذا وجدوا جثة معلمته فماذا سيحدث؟ عندما يجدون جثة معلمته في بيت المتسولة، وسترته في الخمارة، ألن يعتقدوا بأنه قاتل الامرأتين؟ ارتبك. كان خالو عمي في الخارج. نهض عن السرير، واتجه إلى الباب. دار به، ونظر بهدوء: كان خالو عمي يصب ماءً في المبولة. أغلق الباب.

كيفما كان سيجدون جثة معلمته. وعندما يجدونها، سيهرعون إلى الخمارة، ومن بطاقة الهوية التي في جيب سترته المعلقة على الجدار...

هبت موجة خوف عميق داعبت قلبه.

حسن، ولكنه لم يقتلهما!

إنه مدرك صعوبة إثبات هذا الأمر. إذا لم يجدوا القاتل الحقيقي، ولم يجدوه كما يُفهم، فإن غيابه عن الأنظار يمكن أن يجلب الشبهة نحوه. هذا ممكن، ولعله جلب الشبهة أصلاً. ولكن لا، الأصح أنه لو كانت قد وجدت جثة معلمته فهذا ما سيدور على ألسنة الناس. طالما أنه لم يقع بعد، فهذا يعني أن الخبر لم يخرج، وجثة معلمته لم تكتشف.

نظر إلى الشارع من النافذة الضيقة، وغمز لنفسه. طالما لم توجد، فلن توجد أبداً... عندما لا توجد أبداً، تبقى الخمارة له! وعندما تبقى الخمارة له... دب فرح، ونشوة براقة في قلبه.

...إذا باعها بعد فترة، وذهب إلى قريته بالنقود... تصاعد الفرح، وازدادت النشوة.

...إذا اشترى مزرعة بسرعة مثل أسعد آغا... من سيعلم؟ أشعل سيجارة.

أم أنه لا يذهب إلى قريته، بل إلى قرية أخرى بعيدة... إلى قرية غريبة لا يعرفها أبداً. إذا دخل إلى مقهى القرية قائلاً: السلام عليكم. وإذا قابله من في المقهى قائلين: "تفضل يا آغا!". إذا قالوا له: تفضل، وضيفوه، وأعزوه... مثل أسعد آغا. وإذا خاط لنفسه سروالاً عريضاً بنفسجياً مثل أسعد آغا، وصار عنده حذاء مدبب الرأس لامعاً، واشترى بيتاً مثل أسعد آغا. إذا اشترى فداناً وحقلاً... ووقف عند بابه رجلان يحلان محل آخرين. بعد ذلك، إذا تزوج، وأقام عرساً يدور على الألسن...

فكر بأمه: "أجلب أمي أيضاً. من سيعلم، وماذا؟ تنزع عنها خرقها القديمة، وأشتري لها قماشاً فخماً من المدينة مثل أم أسعد آغا. ستفرح أمي الفقيرة ها! لتفرح، لتفرح ما باستطاعتها. هل ستبكي من فرحها؟"

تبددت خيالاته عندما دخل خالو عمي إلى الغرفة. بعد ذلك، شرد من جديد. كان يقيس، ويشبر بيده. سأله خالو المنتبه إلى هذا:

- ما هذا ولاه؟

ارتعد كأنه قُبض عليه متلبساً:

- ماذا؟

- لماذا تتحرك يدك هكذا؟

نظر إلى يده مندهشاً:

- يدي هذه؟ لا أعرف؟

- بماذا تفكر؟ بطردك من العمل؟

هز رأسه:

- كيف لا أفكر؟ هل هنالك أسوأ من البطالة؟ مشروخة العرض إنها أسوأ من الكفر... كيف لا أفكر فيها؟

- إن الله غفور رحيم يا ابني، لا تفكر. إذا أغلق باب يفتح آخر. لن يسود اليوم، ويستمر كما هو.

- ....؟

- لا يستمر، أستغفر الله، لا يستمر!

لم يكن يسمع. كان عليه هذه الليلة أن يذهب إلى غرفة المتسولة بعد أن يظلم الجو، وأن يدفن جثة معلمته. عليه أن يدفنها كي لا تظهر الجثة. وعندما لا توجد الجثة، يذهب إلى الخمارة. إنهم لا يجدون سترته المعلقة على جدار الخمارة، والهوية التي في جيبها. ماذا، هل هذا عمل صعب؟ لماذا سيكون صعباً؟ يلف الجثة بقطعة قماش، أو يضعها في كيس، ويسحب الباب خلفه، ويغوص في الظلام. الأفضل أن يأخذ الجثة إلى مكان بعيد، بعيد جداً، ويدفنها. يمكن إلقاؤها في البحر أيضا، ولكن الأمواج تدفعها إلى الشاطئ كجثة المتسولة، ويمكن العثور عليها. يجب ألا توجد. لا يمكن له أن يضع يده على الخمارة إذا وجدت. الأفضل دفنها. تتفسخ تحت التراب، وتذوب. من سيعلم، وماذا؟ كيفما يكون فهو لم يقتلها.. لم يكن فيها خير وهي حية، لتفد بشيء وهي جثة على الأقل.

قال له خالو عمي:

- لن يكون سيئاً إذا ذهبت، وجلبت سترتك يا أحمد!

قال شارداً:

- هه؟

- أقول سترتك، لو تذهب، وتأخذها. غير هذا تلتقي بالحرمة مرة

أخرى، وتكلمها. المرأة العجوز لا يمكنها إدارة أمور الخمارة الكبيرة وحدها. اسمع مني! التفت إلى النافذة، ونظر إلى الجو:

- ليأت المساء، ويظلم الجو، و...

- حسن.

خرج الرجل المسن إلى الخارج من جديد.

تدفقت الخيالات في عقله كصنبور مفتوح. يدخل إلى مقهى في قرية بعيدة جداً، ويُستقبل مثل أسعد آغا. بعد ذلك، يشتري حقلاً وفداناً بسرعة، ويجلب أمه، ويتزوج، ويصير عنده أولاد... كل شيء يكون عنده كما عند أسعد آغا. حتى الأولاد: بنتان وصبيان. الصبيان أيضاً مثل ابني أسعد آغا يركبان الخيل ويتجولان في القرية، فتقول العجائز: "ما شاء الله!" وترتمي العرائس عليهما، والبنات... والفتيات سيتحرقن عليه أيضا! إذا أشار بيده ستأتي خمسون منهن، وإذا هز برأسه فأكثر، سيأتين راكضات. يمكنه أن يأخذ حتى ابنة أسعد آغا الصغيرة!

يحرك يده كأنه طرد فكرة من رأسه. عاد وجلس مكانه.

لا بد أن يكون هنالك آغا مثل أسعد آغا، وبنات مثل بنات أسعد آغا، ويمكن أن يكنّ أجمل في القرية التي سيحصل فيها على فدان. سيطلب أجمل تلك الفتيات. سيعطونه إياها وهم فرحون. لماذا لا يعطونه إياها ؟ من يتهرب من إعطاء بنت لصاحب فدان وعدة؟

ثمة تململ في داخله... نهض من جديد، وتوجه إلى الباب، ونظر إلى الخارج. خالو عمي جالس على كرسيه، ويأخذ نقوداً من الذين ينقضون وضوءهم بالكبيرة، ويصب كولونيا على أيديهم.

أغلق مصراع الباب، وتوجه إلى جانب النافذة.

أليس ممكناً أن تغيب هذه الشمس، ويحل الظلام في أسرع وقت؟ إذا ما وجدت جثة معلمته قبل حلول الظلام ستخرب مخططاته، وتنقلب رأساً على عقب. أيذهب قبل حلول الظلام؟ إذا بدا أنه قد اتخذ قراراً، فقد تراجع عنه. عليه أن ينتظر الليل!

في قلبه ثقل حجر مطحنة كبير. عندما بدأ يهبط الظلام خرج:

- أنا ذاهب يا عمي!

نظر المسن الضئيل من الكرسي الواطئ إلى ابن قريته شبيه الجبل:

- إلى أين؟

ألقى ذريعة:

- لآخذ سترتي.

- لعل الحرمة تكون قد ندمت. لا تدفع الأمور على طريق اللاحل، ولا تغدو فظاً يا أحمد. انظر، الشتاء آت. هل تأمن جانبه؟

- صحيح يا عمي.

- تعال في ما بعد، واعطني خبراً، لا تدعني قلقاً!

- آه.

هدأت العاصفة. قطعتها الريح الشمالية الغربية الحادة. في داخله ثقل حجر المطحنة ذاك. كأن الشرطة يقطعون طريقه، ويمسكون برقبته. يتهيأ له أنهم سيقولون له: "أنت قتلت المتسولة. امشِ إلى المخفر!". لم يقتلها، وطالما أنه لم يقتلها، فإنه لا يهتم حتى لو أمسكت الشرطة به.

فكّر أن يعرج على الخمارة لأخذ سترته أولاً. تراجع عن هذا بداية. الأفضل هو الذهاب إلى بيت المتسولة بسرعة، وأخذ الجثة، والطيران من هناك.

عندما دخل إلى الزقاق الذي يقع فيه بيت المتسولة، كان قد حل

الظلام تماماً. لم يكن ثمة أحد في الزقاق. الباب مغلق. سمع وقع أقدام شخص يكح بشكل غليظ أسفل الزقاق لحظة أراد الاقتراب، فانزوى. عندما ابتعد، وقع أقدام الرجل البادي كظل، خرج من مكمنه. جاء إلى الباب وهو يمشي على رؤوس أصابعه، كان مغلقاً، دفعه بيده، فلم يُفتح. ضغط عليه، فأصدر صريراً. ضغط عليه من جديد، ثم مرة أخرى. انخلعت إحدى مفاصل الباب الصدئة. فقد الباب تماسكه.. زاغت عيناه. كان يعتقد بأن الجثة في الداخل. عندما حاول معالجته انخلعت المفاصل الأخرى، ولكن السفلى ما زالت تقاوم. ولم يكن ثمة ضرورة لنزعها أساساً. غاص في الغرفة من الشق المنفتح. وصل إلى وسطها حيث رأى الجثة أول مرة. لم تكن هناك. ترنح كأن خشبة كبيرة نزلت على رأسه، قفز إلى الخلف. هذا يعني أن موت معلمته قد عُرف... ترى هل وجدت السترة المعلقة على جدار الخمارة؟ إذا كانت قد وجدت فهذا يعني أن بطاقة هويته قد وجدت!

خطرت بباله الجثة المزرقة التي رآها في زمن ما تتدلى في ساحة "أوروزديبك" في أضنة. تقلبت معدته، كاد يتقيأ.

حسن، ولكن ما به؟ إنه لم يقتلها! طالما أنه لم يقتلها، فليذهب، ويأخذ سترته!

انطلق في طريق الخمارة. كان الباب مغلقاً، والنافذة مظلمة وكل شيء كما تركه. فتح الباب ودخل، سقط ضوء مصباح الكهرباء الأصفر المنار على بعد خمسين متراً إلى الداخل، فخفف ظلمة الخمارة الدامسة.

ظهرت الطاولات، والكراسي الموزعة عشوائياً في الظلمة الخفيفة. ذهب إلى الجدار بسرعة، مد يده إلى المكان الذي عُلقت فيه السترة:

كانت السترة هناك، أخذها، ولحظة امتدت يده إلى الجيب الداخلي، انفجر صوت كالقنبلة:

- لا تتحرك. ارفع يديك إلى الأعلى.

راح قلبه يخفق بسرعة، وأطرافه ترتجف كلها. رأى ظلين يقتربان، وفي لحظة لمعان الضوء الأصفر، أدرك بأن مسدساً صغيراً موجهاً نحوه.

إنه ليس مذنباً. هو لم يخنق الامرأتين! تراجع إلى خلف إحدى الطاولات.

- أنا لم أخنقهما!

صوت آمر: سنعلم هذا فيما بعد!

- إلى أين ستأخذونني؟

- إلى المخفر!

- هل ستلقونني في السجن؟ أنا لا ذنب لي! أنا لم أخنق المتسولة، ولا الأخت الكبرى ناجية!

أثناء تراجعه، وصل إلى الجدار، واستند إليه. سيضعون القيد بيديه، ويضربونه، ويتهمونه بقتلهما؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

أمسك طاولة أمامه بيديه الضخمتين بقوة، ورفعها كالبرق، وأنزلها على رأسي الشرطيين المقتربين على بُعد خطوتين منه. انطلق الرصاص فجأة، ولكنه لم يصبه. أثناء انهيار الظلين في الظلام الخفيف، قفز النادل شبه المجنون الذي لم يفكر بشيء غير الهرب، وإنقاذ نفسه، نحو الباب قالباً الطاولات والكراسي بطيش. كانت الإجراءات كاملة. أثناء محاولة تطويقه، استفاد من تردد حارس ضئيل، فأسقطه برفسة، وانعطف من زاوية، وبدأ يركض بكل ما تقوى عليه ساقاه على طول

الشارع. بدأت مطاردة مخيفة. قلب ازدحام الحراس والشرطة الليل الساكن رأساً على عقب. تدفقت المدينة إلى نوافذها.

- ماذا حدث؟ ماذا يحدث يا ناس؟

- يا سيد حارس، يا حارس أفندي!

- انظر يا باشا، ماذا حدث؟ لماذا يهرب ذلك الرجل؟

لا جواب، انصب الناس إلى الأزقة، وسيقت الاحتمالات، ولا حقيقة واحدة.

استمر إطلاق الرصاص من خلفه مبتعداً.

في أثناء انعطافه إلى زقاق طيني في حي متطرف صدمته شاحنة قادمة بسرعة، بعد ذلك تدحرج واقعاً على ظهره، وبرغم محاولة السائق، فقد مر عجل الشاحنة الأمامي من فوق رأسه، فهمشه. وقفت الشاحنة بضربة فرامل قوية، وقفز السائق إلى الأرض... ركض هلعاً، ورآه. أدرك أنه تعرض لمصيبة كبيرة، فبدأ يهرب من دون وعي.

....

انتشر الخبر في المدينة. واعتُقد بأن النادل المذنب بجريمة قتل امرأتين خنقاً قد لقي جزاءه "بتقدير إلهي". أمطر الجميع الرجل المسكين باللعنات، ولكن وجود شيء ما في القضية لم يغب عن أعين أولي الأمر. لماذا يقتل النادل الساذج ناظان؟ أمن أجل الخاتم الذي بإصبعها؟ لنقبل بهذا. لماذا لم ينزعه من إصبعها، ويأخذه. وألقى الجثة مع الخاتم إلى البحر؟

وماذا عن معلمته؟

تدريجياً توصل الناس إلى الاعتقاد "بجنون" النادل، وافترض بأن

الرجل غير المتوازن يمكن أن يكون قد فعل ما فعله من دون أن يشعر، وأنه قتل لمجرد القتل.

كان خلدون لا يستطيع التفكير بأي شيء. في البداية، صب دموع على سيرة حياة أمه المؤلمة، ولم يخرج من البيت. تجمدت عيناه لساعات على نقطة ثابتة بخيال أمه القادمة إليه، والراحلة عنه على ألا يلتقيان أبداً، ويبقى هكذا.

لماذا لم تعرف بنفسها؟ أما كانت تعرفه؟ أم لأنها تخجل من الحال الذي سقطت فيه؟

قال له السيد نهاد:

- نعم، من المؤكد انها لم تحتمل فقدان ولدها، فجاءت إليه. ولكن هذا كل شيء. لا يمكنها أن تظهر أمامه بتلك الهوية!

- كأنني سأشاكسها لو ظهرت؟

- صحيح، ما كنت لتشاكس... ولكن، تعال واسألها هي!

- أمي المسكينة... في ذلك اليوم، يوم جعلتها تكنس العيادة... كيف طاوعني لساني... ماذا قلت يا نرمين؟ قولي ماذا قلت؟

بقي الخاتم لوريثها خلدون. وخلدون وضعه في إصبع ناريمان بوصفه هدية من حماتها. وقد تم التخلي عن العرس. أنفقت نقود العرس على قبر مرمري للسيدة ناظان.

هرع السيد نهاد مرة أخرى إلى أنقرة، وأمنً نقل صهره إلى مكان آخر.

تزوجا بصمت.

اسطنبول ١٩٥٥

الكاتب في سطور

اسمه الحقيقي محمد رشيد أويوتشو. ولد في أضنة عام ١٩١٤. هو ابن عبد القادر كمالي الذي كان عضواً في مجلس الأمة التركي الكبير في الدورة الأولى. اضطر لترك المدرسة في الصف الثالث الإعدادي بسبب هجرة أسرته إلى سورية. حكم بالسجن مدة خمس سنوات عام ١٩٣٩ في أثناء خدمته العسكرية لأسباب سياسية. في هذه الفترة تعرف إلى ناظم حكمت، وأثرت علاقته بناظم حكمت بمفهومه الاجتماعي. توفي في صوفيا عام ١٩٧٠حيث ذهب إليها للمعالجة.

تناول في أعماله الناس الصغار الذين يعانون من صعوبات الحياة، وجسد مصاعب حياتهم. اتبع نهجاً تحذيرياً وتوجيهياً وواقعياً اعتقاداً منه بأن هذا يساعد الشعب على حياة أفضل. تناول في أعماله الأولى مشاكل عمال الزراعة والصناعة في منطقة تشكوروفا في إطار يعتمد على حياته الشخصية. في ما بعد عكس حياة أناس اسطنبول في الأحياء المتطرفة، وعالم العمال هناك.

كانت مشاهداته في السجن مادة هامة لأعماله. من هذه الأعمال: "المهجع ٧٢"، وهيمسرحية مثلت عام ١٩٦٧، وحازت في ذلك العام جائزة أفضل نص.

أعماله: مرتضى، الكنة، دنيا غريبة، ابن الأزقة، مفتش المفتشين، المحتال، صراع الخبز، المهجع ٧٢، دكان الأغراض المستعملة، جميلة، ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت، فوق أراض خصبة، بنت من الأزقة، ثمة جريمة، مزرعة الست، المذنب، بيت الدنيا (الزواج)، طريق السوء، غيوم محملة بالمطر، قرطان أحمران، الممثلة، إضراب، المليونير المتسكع- دمعتان، طيور الغربة، أحد البيوت، الهارب، أراض مدماة، صفير صديق، طائر الدولة (الحظ الطيب)، كان ثمة فلز، سنوات البؤس، السكارى، بيت الأب، بنت الغسالة، الخبز أولاً، الدنيا المقلوبة، خطوط من اسطنبول، الكتابة بأقصى سرعة (يوميات وشعر)، الأعمال المسرحية الكاملة (في جزأين)، تقنية السيناريو، وسيناريوهات.



يرصد أورهان كمال تحولات المجتمع التركي بتنويعاته وتقاليده الغريبة، في الريف والمدينة، وصراع الأجيال والمشكلات العائلية، التي لا تجد حلاً إلا حينما تتحول إلى مشكلات من نوع آخر.

علي مولا

ISBN:2-84305-914-X
9 782843 059148